

BOBST LIBRARY

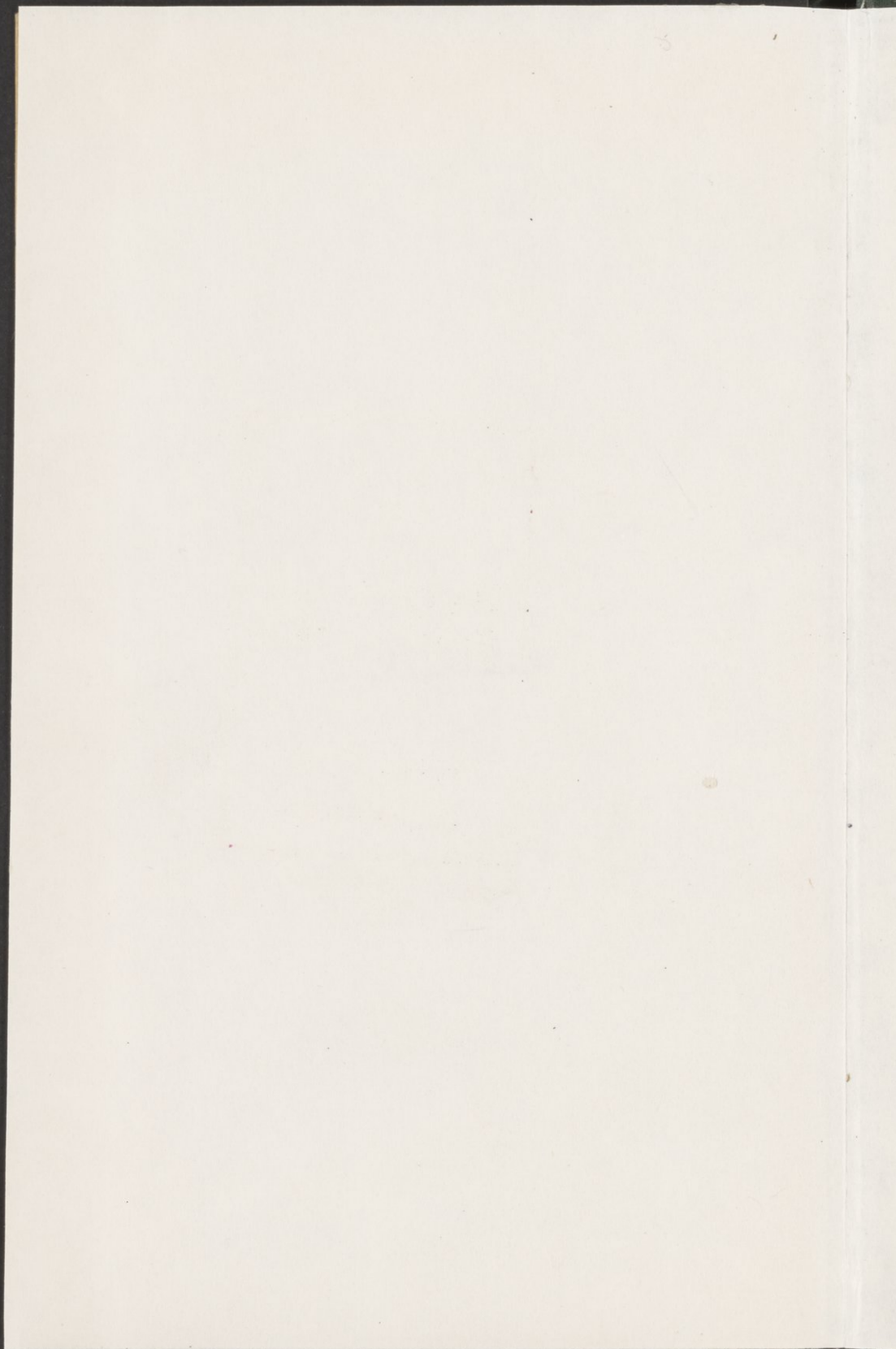


3 1142 02889 0484



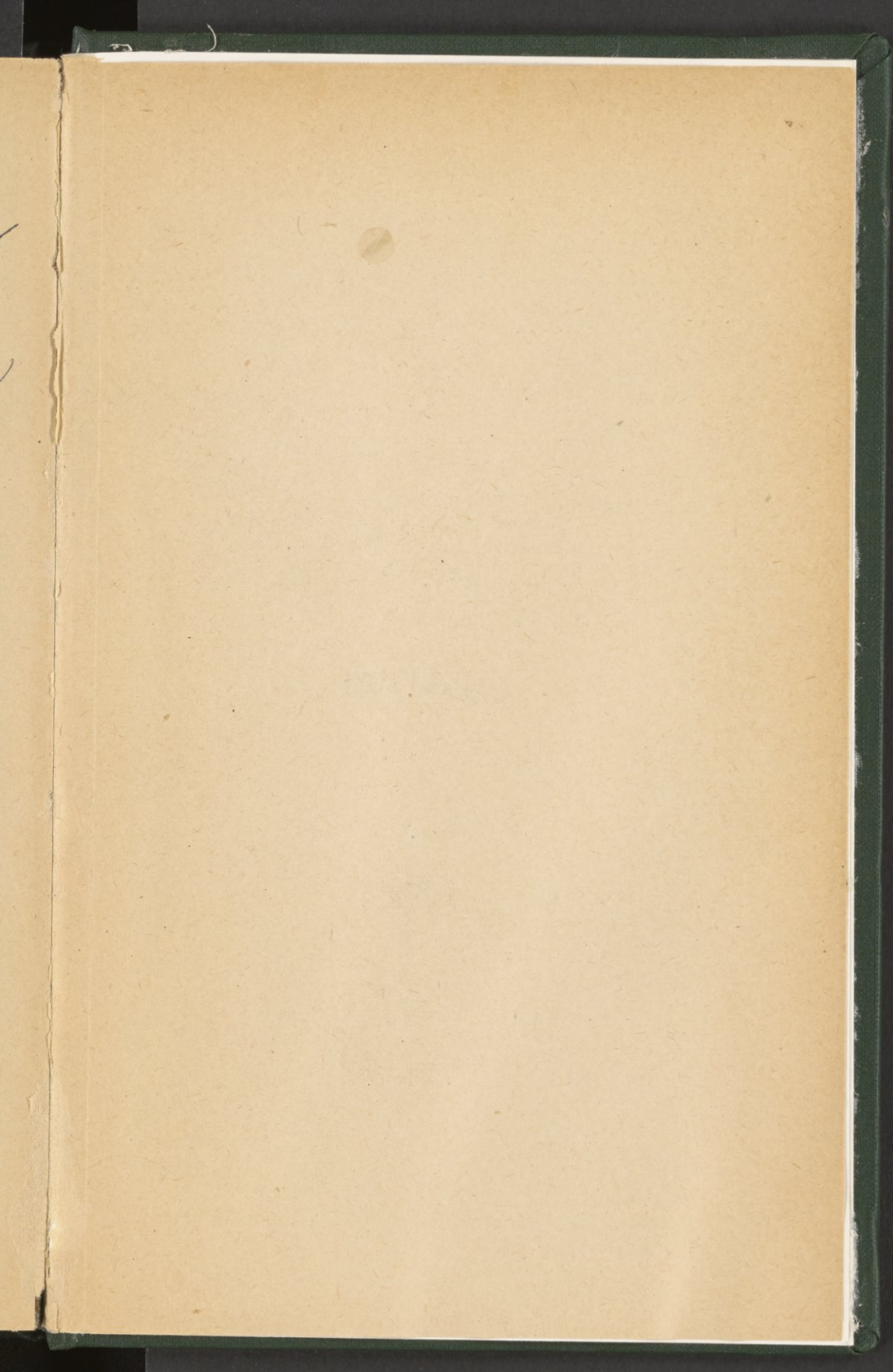
**Elmer Holmes  
Bobst Library**

**New York  
University**





انتقام الخيزران



6624

$\frac{1}{3}$   
55

Karam, Karam Milhim.

كريم ملحم كرام

*Intiqām al-khayzurān*

# انتقام الخيزران

قصة وقائع



مكتبة صادر  
بيروت

PJ  
7842  
.A68  
I5  
1954  
C.1

الحقوق محفوظة للمؤلف

١٩٥٤/١٤٥

MAY 02 1985



## الفصل الاول

قاتل ابيه

١

في الفلوات العبر الشواسع، المترامية كاجنحة الصقور عن بغداد القشبية،  
المهيبية، ذات المآذن والقباب - ولم يكذب ابو جعفر المنصور يطلقها من خدرها  
كاعباً غيداء - ثلة من الفرسان تنطلق خبيباً، وسهام اقواسها مشدودة  
بالاوتار، كأنها تندفع الى معركة. وهي تثب الى معركة. الا انها ليست  
منازلة اقوام لاقوام، بل اغارة على اليعافير والآرام

وعرض للركب سرب من الغزلان والشوادر، فتبعوه، ونباهم تطاير  
برنين. وجيادهم تعدو بحممة وصهيل. وتفرقوا عفواً، وكلهم يهيم بالفوز  
بطريدته. واوغلت الطباء في ادغال الفرات، وعزّت على الجياد ان تقتفيها،  
فوثب عنها الفرسان يبقونها حيث نباها الوعر، ويمعنون في العداء، وبغيتهم  
الرمايا. وما صحوا من حمى المصاولة، بعد طويل جهاد، وقد ظفر بعضهم  
بالطرائد، والتوى عنها الآخر، حتى بحث صاحب عن صاحبه، فاذا بهم  
اشتات، ابايد

٥

وما هالهم الانتثار ، وقد تعودوه . ولجّ باحدهم الجوع فكادت قواه  
تخونه . واختلجت عينه بمرأى كدرة سوداء ، في منبطح الرمل ، فزحف  
اليها على ريث تعلقة ، وهو يحسبها خيمة يقع فيها على طعام وشراب . ونهكه  
الجهد . الا انه انتعش وقد صدق تخمينه . اجل ، هي خيمة نابتة في الاغبر  
الييس . واستنزف فضالة الوسع . ودنا على متلاشي الرمق من الجباء . وما  
تفتحت ، الا بعد لأي ، شفتاه لليبان . فاستفهم مكدوداً : اين اهل الحمى ؟

فبرز له اعرايي جلف ، بادي الاطمار ، مسترسل الشعر . يكاد وجهه يغيب  
في غداثره ، وحاجبيه ، وشاربيه ، ولحيته . ولاح له المستقيث في لائه ،  
وهزيل نامته ، فجدجه بعينين تغرزان فيه حتى صممه . وقال بصوت لا  
يتنكر للرحمة : إيه ، يا ابن اخي . ما دهاك من محنة فلجأت الينا ؟

فقال المستجير ، و اشاراته تسبق في الايضاح لسانه المرتخي : طلبت  
وصحي الصيد ، فتقاذفتنا المجاهل في معامبها ، فغاب بعضنا عن بعض . هل  
لك بشرية ، وبكسرة ، فأبلّ ريتي ، واقهر جوعي ؟

فنظر اليه الاعرايي وراعه منه حسن المنظر . ليس في المضرب الحاوي  
ما ينصر المستنجد النبيل الجهارة . على ان فرض الضيافة لا ينكس له في  
وسعة العرب جبين . فقال الاعرايي معتذراً : اراك سيداً اثيراً ، وليس في  
هذا البيت من الوبر ما يجمل بي ان ادعو اليه نظيرك . على انك اذا احتملت  
قربنا فلك ما يحضرنا !

فهتف عجلان : هات ما عندك . فان ما بي ليجد في قطرة الماء بجرّاً طامياً !  
فاخرج له الاعرايي مقداراً من النبيذ في ركوة ، وهو يدعوه الى استظلال  
الجبء . وصبّ له كأساً ، ولنفسه كأساً . فهفا الضيف الى الكأس بمهزة من

مستفعل الشوق . وجرع الحمرة بشراهة الهيوف . نجا من كابس العياء .  
وحدق الى الاعرابي يقول ببسمة الراضي ، المطمئن الى حسن الصنيع :  
شكراً . انك لرحيب المنة !

• فقال الاعرابي ، وقد شاقته في ضيفه اناقة الملبس ، وفيخامة المنطق :  
ولكن من انت ؟ ... فدتك نفسي !

فابتسم المستمع بالعصير المحيي ، وقال يداعب الاعرابي ، الناظر اليه  
بلبكة من يحاول النفاذ الى السر ، وتقعده به عن طلبته لعثمة من خجل :  
هل لك ان تدري من انا ؟

فرانت على الاعرابي بسمة غارت في لفائف شاربيه ولحيته . وقال بحيرة  
الجاهل العايب بلبه الفضول : لا ، والله !

فقال الضيف : انا من خدم الخاصة في حاشية امير المؤمنين !  
فهتف الاعرابي متحمساً : ألا مرحباً ، مرحباً . كلنا فدى ابي عبد الله ،  
سيدنا وحامينا . اليك بكأس ثانية ترطب بها حلقك ، يا ابن اخي !

وعكف على الركوة يصبّ لنفسه كأساً وخدام امير المؤمنين كأساً .  
فان للقباض على الامر في دنيا العرب حق الاكرام . وما الخادم سوى ظل  
السيد ، وفيه من مولاه متألق الاثر . وشرب الخادم ، وتلمظ ، كأنه يضمن  
بقطرة ان تذهب سدى . واستلذ المضي في احراج الاعرابي ، فاستطلعه  
متخابئاً : لا اراك تدري من اكون ، يا وسيع الفناء !

فالتفت اليه الاعرابي ببعض الدهش ، واعلن : ولكنك ذكرت أنك  
من خدم الخاصة في حاشية امير المؤمنين . فهل تكون تبدلت عما أذعت ؟  
فتناهت الابتسامة إغراقاً في المباسطة ، وقال الغريب المجهول : لست

من حدثك عنه !

فاستوضح الاعرابي بقلق : إذن من تكون ؟ ... نصرتك القدرة !

— انا احد القادة في جيش امير المؤمنين !

فسرّي عن الاعرابي . وتعاضم فيه الترحيب بضيفه : ألا نعم الفتي .

انت رب المكان . هل لك في كأس اخرى ؟

ودفع اليه الثالثة . فشربها الضيف وقد اتسعت فيه البهجة ، واستعاد

قواه ، فسأل : يا اعرابي ، أتدري من انا ؟

فكاد الاعرابي يقسم بالله ثلاثاً انه حيال سكران . واجاب بنفرة : نعم ،

انت احد قادة امير المؤمنين !

وتأجج فيه حينئذ الى الجدل . فما هذا المتكلم بالسليم النبهة ، وكأس

من الحمر تلوي فيه الرشد . فقال الضيف ينفي باستكبار مبطن بندي

الممازحة ما اعلن : لا ، لست من اوضحت !

فصاح به الاعرابي ناقماً : اذن من انت ؟ ... لا ابا لايك . أفلا يحتمل

صوابك نزفة من خمر ؟

فاجاب بدلال المستعز ، الراغب في الانفجار ضحكاً ، والممسك عنه

مغالة في المعابثة : انا امير المؤمنين نفسه ، ابو عبد الله محمد المهدي !

ففتح الاعرابي فاه ، واستدارت عيناه . لم يبق لديه شك في ان جليسه

نشان . فالحمرة اضاعت لبه ، وجنحت به الى الهذيان . وابي عليه المزيد ،

فأمسك بالركوة فوكاها . فتعجب من امره ضيفه ، بل شاقته في الاعرابي

بادرة الغيظ ، وقال مستبشهاً : ولكن ما بك تمتع عنا قراك ؟ ... إسقنا !

فهدر الاعرابي غاضباً : لا والله ، لن ترشف منها حسوة !

— ولِمَ؟ ... ضللت الهدية !

— سقيتك الاولى ، فزعت انك من خدم الخاصة . فاحتملتها لك .  
وسقيتك الثانية ، فادعيت انك من قادة امير المؤمنين . فقلت : « لا عليه ! » .  
وسقيتك الثالثة ، فراقك ان تسمو الى منصب الخلافة . واخاف ان اسقيك  
الرابعة ، فتدعي النبوة . ولا شك ، اذا رشفت الخامسة ، ان تسمعي انك  
الله ، جلّ جلاله . لا ، يا ابن اخي ، لنبتق من ابناء التراب !

فضحك الضيف حتى لم يكن يتاسك لفرط الطرب . وما هي الا هنيهات  
حتى اطلت الخيل ، وقد اهتدى الركب الى التائه . وانحدر اليه القوم ينحنون  
بين يديه اجلالاً هاتفين : « الحمد لله ، وقد وفقنا للقائك ، يا امير المؤمنين .  
اقلقنا البوادي ونحن نستبحثها عنك ، وكدنا نكون من امرك على هلع ! » .  
فطار قلب الاعرابي ، وافلتت منه الهمة ، وقد ايقن ان ضيفه لم يكن هازلاً  
في دعوى الخلافة . وشاء المنكود الهرب مخافة نقمة امير المؤمنين ، فقعدت به  
ركبته . ونظر اليه في بحرانه المهدي ، فقال ببسمة حفيّة ، يزيل بها عن الحشيان  
الجزع : أفرخ روعك . ضيافتك الميمونة غفرت لك كفرانك المقيت بنا !  
وامر له بصلة وبكسوة . فقال الاعرابي ، وقد ملك جأشه ، واستأنس  
بطول أناة الخليفة : اشهد انك صادق في الثالثة . اما في الرابعة والخامسة ،  
فلو شربتهما لعدوت الحلم !

فأوشك المهدي ان يهوي عن متن جواده لفرط القهقهة . وجهر ، وقد  
استعذب المفاكهة : انت بعد اليوم من خدمي ، فاتبعني . فيك من وضاءة  
الظرف ما تعذب به لدي !

واردفه بالركب . فران الدهول على الاعرابي ، واتسعت في صدره البهجة .

انه ليومٌ أغرّ محجّل . والاعرابي سمع بهذا الخليفة الشاب . فالرواة تناقلوا  
مخامده . والحدادة تغنوا بمدائحہ . فالعهد الرابع انجابت غمائمہ بموت ابي جعفر  
المنصور . وصفت اكدارہ ، وقد اطلّ الابن ، محمد المهدي ، على الدولة العباسية  
الناشئة يتولى امرها ، ويسدد خطاها . فالعبوس الطاغبي على الاساري ،  
والذعر الممسك بالدم في العزوق ، حتى لم يكن للانفاس ان تبلغ مداها ،  
طويًا بساطهما ، واشرقت الوجوه بعد هول وكمدة . فالابن لم يكن من  
طينة الاب الجبّير ، المتحكم في مصير الامة العربية اثنتين وعشرين سنة ،  
لم تقوَ فيها الشفاه على همسة تطعن بها على الرابع بدست الحكم عنيداً ، قهاراً  
ولم يكن الدرهم منفذ من قبضة ابي جعفر ، وقد لقي ، حتى الدائق ،  
في بيت مال الخليفة مدفنه . فانتهت اموال الدولة سيولاً دوافق الى صناديق  
السيد العاقي ، مما لم يكن به لبيت المال العربي سابق عهد . فلا المغني نعم  
بالعطاء ، ولا المزدلف هنيء بالرفد . على ان المهدي ، الابن ، اقام هذا المؤؤود  
من رسمه ، وسخا به على الناس حتى كاد يغرقهم في المناعم . فانطلقت  
افواه الشعراء في طيب القول وخبثه . وما كانت لتهدأ لولا ان يستعين  
عليها ابو عبد الله بجيلة تحفت الصرخة في صدر المتجاسر ، الموتور . فاتهم خصومه  
والمتوقّحين عليه بالزندقة . واطاح منهم العدد الجمّ ، حتى كاد يعادل في  
التنكيل بالارواح اباه الرهيب

على ان تهمة الزندقة ، مع هولها ، لم تطبع العهد الناشئ بطابع الوهلة ،  
شأن الحشونة الماثورة عن الاب . فالجود المبسوط في المهدي ، ورحابة الفناء  
البادية في مجالسه ، اناما الهواجس والحفاظ ، وقد هرع القوم الى المعين  
الغمر ينهلون منه الافاويق

وتوفر على شؤون الدولة رجل داهية في خطب المودات، وتدبير الامور .  
فاستشاره المهدي في الاحاجي الطارئة ، والمصاعب العارضة، ولقي فيه رأياً  
ناضحاً ، وعقلاً حكيماً . هذا يحيى بن خالد البرمكي . استوزر اياه ابو  
العباس السفاح ، الخليفة العباسي الاول ، وادناه منه المنصور . ولن ينقض  
الابن ما أقرّ العم والاب . فأنزل منه يحيى منزلة ابيه خالد من أبي العباس ،  
وأبي جعفر . واكبر فيه ادبه وعلمه ، فعهد اليه في ابنه هارون يتقّف  
عوده ، ويرهف بصره

ولهارون في صدر المهدي عطفٌ راسخ . وما برحت الخيزران ، زوجة  
الخليفة ، تستدرج ابا عبد الله الى الشغف بهذا الابن الهنيء الطبع ، المتأجج  
الذكاء . فكانت تحمله اليه في ابهى الحلل ، وتميل بالغلام على ابيه يحذثه  
باشهى منطق . فيناغيه المهدي بارقّ كلام ، ويعجب منه بالصباحة المشرقة ،  
وبدمائة النغشة . فلا جفاء ، ولا عنف ، بل خضوع أمثل ، وأصالة رأي  
واعدة . وحادت الخيزران مراراً هذا الاب العطوف في ايثار هارون ،  
في ولاية العهد ، على اخيه موسى . فتصامّ المهدي ، كأنه لا يرتضي منها ان  
تجاوز في دالتها عليه الحد . قالت : الاثنان من اولادي . ولكن هذا طوع  
ايدينا ، وذاك جموح ، جهم . ففي موسى المشاكسة ، وفي هارون الاذعان  
السمح . واني لآخشي ، اذا ما اطعت هواك ، في انالة موسى ولاية العهد ،  
ان تصاب الدولة العباسية باعمى يخبط فيها ، ويهدم ما بنى الآباء والجدود  
من منيع الركن . أيتراءى لك منه انه يقوى ، بما يشور فيه من جهالة ،  
على امتلاك أعتة الموقف ، وكبح جماح المناوئين الراغبين في تقويضنا ،  
من علويين ، وطالبيين ، وأذئاب الامويين ؟

فزوى المهدي ما بين عينيه . ليس يريد ان تثنيه هذه المرأة ، العزيزة عليه ، عن بغية يجبو اليها . ولاية العهد لموسى الهادي ، ثم هارون الرشيد . فالأكبر سنأ يملك ، ثم يتلوه اخوه . ولماذا التفريق بين شقيقين يلمس فيهما معاً ابوهما مضاء العزيمة ، والقدرة على الحكم السويّ ؟ ... فما كانت المشاكسة النطاحة في موسى لتعيبه في عرف المهدي ، وهي الدليل على صلابه الرأي ، والاعتداد بالنفس . فان في الفتى روح جده المنصور ، على حين ان هارون ، شقيقه ، يشبه اياه في رقة الطبع ، وصفاء الضمير

وتعجب المهدي من أم جادت على ولديها معاً بالنور ، وغذتها بلبانها ، وانبتقا فيها من صلب واحد ، كيف تنظر اليهما بعينين متباينتين . فتزوجو لهذا ما تودّ لو اقام منه الآخر على خذلان . فهل تكون المودة في الام على اعتلال ، فيسودها الاجفاف ، وتكيل بكيلين ؟

والمهدي لقي في الخيزران اشهى متعة . فأغارت على كبده ترسو فيها ، وتمنع عنه الالتفات الى سواها ، من متعدد نسائه وجواريه . وما كانت في بدء عهدا سوى احدى اولئك الجواري . فاستقرت بالقصر أمة ، يزيناها جلباب الحسن ، المخلوع عليها بزخرف فضفاض . غير أنها لم تلبث أن اوضحت السيدة المختارة ، وقد عرفت كيف تنسلّ الى الحنايا ، وتستولي من المهدي على مكمن الصبوة . فأعتقها ابو عبد الله وتزوجها . وباتت سيدة نسائه . بل هي مانعت في البقاء في البلاط . فانشأت لها صرحاً شبيهاً بصرح الخليفة . وفتحت ابواب هذا الصرح لوزراء الدولة ، وارباب الامر فيها ، يؤمونه كما يؤمون بلاط المهدي . فهي وبعلمها على مساواة في النقض والابرام . والخليفة لم يكن ينأى طويلاً عن هذا القصر ، وفيه يلقي الغبطة . فما ان يرحل عنه



حتى يرجع اليه . وادركت الخيزران ما تستمتع به من حظوة ، فقامت  
تفاخر نساء الخليفة بكونها الرأس فيهن ، قائلة ببعيد الزهو ومورق الدلال :  
انا الاصل ، وانتن الفروع !

وذهبت الكلمة مضرب الامثال . فبات الناس يقولون : « الخيزران  
فاتنة المهدي ! » . وحمل صرحها اسم « اساس » ، وقد بات دعاومة ، لا مسرة  
المهدي وحسب ، بل لسياسة المهدي في الدولة . فالامر ما تنهد اليه الخيزران .  
ووهب ابو عبد الله لهذه المستأسدة ، الريا المباحج ، كل ما تملك يده ، وتزخر  
به خزائنه . فلها الحلي ، واكداس النضار ، والمزارع ، والضياع ، والعبيد ،  
والاماء . فاذا ما خرجت الى ضفاف دجلة ، تستنشق صافي الهواء ، وتجيل  
العين في روائع القدرة ، جرت في موكب اشبه بجيش يعز على الخليفة ان  
يبدو في ابهى منه . وتقف بغداد عن جانبي الطريق لتتهافت لامرأة الخليفة ،  
وتحيبها باغصان النخيل ، وتجمجم الافواه : هذه هي سيدة دنيا العرب .  
فالامر والنهي ملء يديها ، والخليفة يؤيدها في كل صبوة !

على ان الخليفة المطواع ظل يعاند في ولاية العهد . فلن يتقدم فيها  
هارون اخاه موسى ، بل تتسلسل من الاكبر الى الاصغر ، وتطوق عنق  
الشقيقين . فألحت الخيزران في التفضيل . فتجهم المهدي ، واءلن بنبرة  
غضوب : ألا يكفيك ان ارفع ولدك الى المقام الاعلى دون سواهما من  
ابنائى ؟ ... حسبت الخلافة عن الجميع وقفاً عليهما . فما بك تدفعيني  
الى التفريق بينهما ؟ ... موسى ، ثم هارون . ولا جدال . أريدك على  
القناعة بما أفضت به عليك من نعمتي . حسبك ما ترتعين فيه مني !  
فتهتف حانقة : وماذا لقيت منك كي تمن علي بالمعروف ؟ ... ألقيت

اليك كل ما عندي . وانك لتأبى عليّ حتى زهيد الرجاءة . فهل يضيرك ان  
تكمل الامر في الدولة الى من هو بها جدير ؟ ... أقودك في المهبع الآمن ،  
فتردني عنك بازورار . أيشوقك ان تنتهي الخلافة الى من تهون به ، ويقوّضها  
على نفسه ، فتندثر ، وهلك ؟

فقهه ضاحكاً وهو الصافي الدخلة ، وقال : أما أصابك طلّ من  
معروفي ، يا خيزران ؟ ... إنك لتكرهيني على القهقهة في ما تعالنيني به .  
الآ كم وهبت لك في هذا الصباح من الحشم ؟ ... كانوا يزيدون على الالفين  
ببائك ، وقد سقتهم اليك صاغرين ، يلتمسون ان تزودهم مشيتك . ولكنك  
تزدرين حسن الصنيع ، كأنك من الطمع بما يجعل الخلافة ، على سؤدها ،  
عطيةً زريةً لو طرحتها بين يديك . ذخر الدولة يصبّ في خزائنك ، ثم  
تجدين الجميل . ألا غالبت في الكنود ، يا صفيّتي !

وأطبق فمها بقبلة سمحة يرصع بها شفتيّ هذه المغناج العنود . فأفلتت  
منه تشهر عليه الجفوة ، وهي تعلم مبلغ اثرها فيه . فانه لبيدل في تبديد  
نفرتها اغلى الغالي . بيد ان المداورة لم تنجح الساعة . فولى المهدي مدبراً  
وهو يجهر بغيظ : ان يكن نصيبي منك الاعراض ، بعد ذلك التناهي في  
الارضاء ، فدعيني ابحث عن فجوة اتنفس منها . ضيّقت عليّ مسالك الراحة  
حتى كدت اختنق . انا السيد في دولتي ، لا انت . هذا التشمخ على  
الخليفة طال مداه . فلست ربة الحل والعقد . أمة رفعتها من الحضيض اليّ ،  
فجهلت مقامها ، واستهانت بي !

وتطير فيه السخط . ان الخيزران لتذهب بعيداً في فرض مشيتها .  
وهو مما لا يسايرها فيه بعد كل ما اسبغ عليها من الألاء . فالطمع مدعاة

الى الفتور في المخالصة . وتألمت الخيزران وهي لا توفق للبغية . ولم يكن هذا الاصطخاب بينها وبين المهدي حديث العهد . فمئذ زمن طويل والمغاضبة تفصل الزوجين بعضهما عن بعض ، وتثير بينهما الاحن . فان حكاية ولاية العهد لتقلق فيهما هناة المواءمة ، والمهدي يقدم ابنه موسى الهادي على هارون الرشيد ، ناهجاً نهج الاستطراد ، الاكبر ثم الاصغر . والخيزران تميل الى المعكوس . بل هي تمنع في ركوب ابنها البكر مقعد الخلافة . كأنها تروم محوه من دنيا المجد . فليس في عرفها خليقاً بالمعالي ليتبوأ المنصب الارفع . ولكن المهدي ، مع مبعته ازاءها في الجليل ، وفي الحقير ، تصلب في اقرار ولاية العهد في هارون بمعزل عن موسى ، يناهض فيها رغبة هذه المستأثرة منه بكل عزيمة ولب . فلا يحيد عن ركوب موسى مسند السلطان في الدولة العباسية ، ولو حالت دون الطلبة الدواهي الشداد

ونأى المهدي عن الخيزران الى جاريته حسنة . وكان يستعذب الجلوس اليها وقضاء اويقات من اللهو بجانبها . وحسنة ناقمة على الخيزران ، ودلاها طفى على المهدي ، حتى سدّت عليه الى سواها كل سيل . ولولا هذه النزوات المستحكمة من الخليفة وزوجته الاثيرة ، في صدد ولاية العهد ، للقيت حسنة نفسها ازراء المهدي بها . ولا قدر لذات طلالة بعد الخيزران . ولاحظت حسنة على الخليفة الكمدة والسهوم ، وما كان ليتماسك . ففزعت الى لقائه بجفيل الانس ، هاتفة : ألا مرحباً بامير المؤمنين ، سيدنا وموئل العز فينا . ارواحنا رهن يمينه ، وانفاسنا تجري في رضاه !

وصفقت عالياً تدعو كبيرة الحدم في قصرها ، وتصيح بها : ألا اسرعي في اعداد خوان الشراب ، يا سعدة . ولتقبل المغنيات بالمزاهر والدفوف .

امير المؤمنين انعم علينا بالمثل فينا . فلنجتهد في بعث البهجة في نفسه الخزينة !  
والتفتت اليه وهي تشدد في اطلاق الكلمة الاخيرة ، كأنها تميل الى  
ابلاغه أن ليس من قينة تجود عليه مثلها بالمتعة ، وتنعش فيه مهجته الذابلة .  
بل رغبت في معالنته ان الخيزران تنفث في روحه الالم . اما هي ، حسنة ،  
فتذهب عنه بكل شجن . وتجلو نفسه حتى يسمي من دنياه في أنس . ولماذا ،  
وهذه حالها منه ، يفضل عليها من توجع ضميره ، وترميه باللبال والنكد؟ ...  
أيهم بالخيزران ، حتى مع قسوتها على كبده ، وطماحها المقيت ؟

وبما كان يحزّ في قلب حسنة ، ان المهدي ، حين ينسى بين يديها همومه  
وأتراحه ، ينطلق فوراً الى الخيزران يسترضيها . كأن للخيزران وحدها في  
حوانيه المقام الاسنى . وكأنها اذا ظلت غاضبة فلا يهنأ للخليفة عيش ، ولا  
يستسيع شراباً . مع ان حسنة لا ترى الخيزران تظاهيها وسامة . وان هي  
ضاهتها ، فليست ترجع عليها في وهج الروعة . الا انه الحظ . وليس في الحظ  
بجال الى تبديل المقدور . وتأوهت حسنة حتى وهي تدعو اليها المغنيات من  
جواربها ، وضاربات الدفّ والعود ، والراقصات . أفلا يدرك امير المؤمنين  
مبلغ تهالكها على اشباع ملذاته ، كي يرفع الخيزران الى حيث يغيب وجه  
حسنة ، فلا يبدو له اثر؟ ... لا ، ليس المهدي بالاعمى ، ولا الاغلف القلب ،  
الا انه ينسى حيال فاتنته سواها . فكأن القدرة جذبته الى ذات الجد  
الغلاب ، وليس لحسن آخر ان يستهويه . فما ان يبغي الترفيه ، والانسراح ،  
حتى يزحف الى الخيزران يستعديها على المتعة

. ومن هي الخيزران؟ ... ليست تريد على حسنة في كونها أمة . على ان  
هذه الامة ، بلغت من مسنون الدهاء ، ما فرض على امير المؤمنين الارتقاء

بها الى مستواه ، ووقف ولاية العهد على ولديها دون سائر بنيه . ومع  
وثوبها الى القمة لم تكن بالراضية ، وما تزال تطمع في ما هو ابعد ، كأنها  
تطاول السماء . عرفت من معين الخليفة قلبه ، وماله ، وسلطانه ، ولا  
تبرح على لجانة في الالتماس . امتلكت الضياع ، والخدم ، وما انفكت  
على جوع . فأطلقت حسنة الزفرات حسداً وغيره . لقد اذنت الجارية  
للعوب نفسها في التأثير في المهدي ، وما كانت لتدرك وطرها . فما ان  
يخيل اليها ان النهزة سنحت لها ، وانها فازت بالارب ، حتى توقن انها تدرج  
من مرماها في ارض جدوب

ولم يرغب عنها ان الخيزران ترصدها ، وتنسف لها كل ما تحاول بناؤه  
من آمال . فحققت على الخيزران . ونهدت الى تعكير الجو عليها . بيد  
انها لم تفلح . أم موسى وهارون لا تفتأ السيدة المطلقة في نية امير المؤمنين .  
فما ضاق بها استدراجه اليها في سوى منهج الخلافة . واي حائل وقف دون  
رجاوتها ؟ ... حصة رأتها أم موسى صخرة شاهقة ، مع كونها حجراً ضئيلاً .  
فالخلاقة لن تخرج عن ولدي الخيزران . ولكن هذه المطماع تأبى الا ان  
يتفوق الصغير على الكبير في رحبة العز والسؤدد . وهو بما يقهر ابا عبد الله  
في مقدور الحق ، وحرمة الانصاف

واندفعت حسنة في إكرام أمير المؤمنين بما يفرض قدر الخليفة المعطاء  
من موفور الاجلال . وتناهت في درء الجهامة عنه بما ابدت من مرح ،  
وحضرها من مفاكحة . فلم يتمالك المهدي ان قال فيما بينه وبين نفسه : ليت  
شابهت تلك هذه في وضاءة السريرة . فتتودد اليّ بلطف مهزة ، بدل ان  
تتسامخ عليّ برعونة . على انها كانت مثلها قبل ان اعتقها واتزوجها . فبدت في

اكمل ذوق ، واهناً مظهر . غير انها ما جلست بجاني ، على سرير الملك ،  
حتى تنكرت لماضيها ، وبطرت فطعت . اننا لنلتقطهن من السابله ، ونخلع  
عليهن مطارف التيه ، فيطمعن في استعبادنا !

وكان قد نوى اعتاق حسنة ليرفعها الى مقام نسائه . بيد ان صلف  
الخيزران ضعف به عن اعادة الكرة . فلن يحشد في موكب زوجاته كل  
جارية مغموزة النسب ، مخافة ان يتمرّد اللئيم ، وقد رتع في بحبوحة الايناس .  
واطلت الجوارى يرفلن في اروع الحلل ، وقد اشرق في قسامتهن الاستهواء .  
وانشذن فور وقوفهن بين يدي امير المؤمنين نشيد الدعاء بدوام النصر  
والاقبال . فزالت عن المهدي الغمة حيال الرواء الممدود . وما استطاع الا  
ان يتسم بفيض ، وان يميل على حسنة فيمتدح فيها وافر الكياسة ، وسرعة  
المبادرة . فما ان ظهر في مقصورتها حتى هبت الى الاحتفاء به ، بما يجمل  
بالاعوان والاصفياء حيال ارباب السلطان . فقال مرتاحاً الى الحفاوة : اراك  
ابدأ على أهبة ، يا حسنة . فكأنك تذكريني في كل حين !

فأعلنت بجزيل الغبطة : نفسي فدى مولاي . ان نحن لم نفكر فيه ففي  
من نطلق الفكر ؟ ... هل لنا سواه من ذخر وسند ؟ ... لا كان من  
يزعج امير المؤمنين في روحه ، وينكّد صفوه !

وسددت النبلة الى الخيزران ، فتعاضم في المهدي الجدل . وافاضت  
المنشدرات بالاغاريد . وتقرت انامل الغواني النضرات المزهار والدفوف .  
وتمايلت القامات الصباح ، في صدر القاعة ، على رقصات مواع ، مستكملة  
ضروب الفن . وانبسط الحوان ازاء الخليفة يضيق بالافاويه ، وبزجاجات  
الحجر البواسم . فشرب امير المؤمنين ، واكل ، وطرب . وغابت عنه ،

خيال هذا الحفل الباهر ، مواهة الخيزران على مشرق طلعتها . بلى ، كان  
يتخيلها حيناً بعد حين ، فيتململ . الا انه لا يجرع الكأس حتى يغور في  
بوادي النسيان

وما تجلي خيال الخيزران بقوة لعينه الا وهو يقبض على معصم حسنة ،  
الجالسة بلصقه بفواتنها الخضلة ، وقد فاحت منها رائحة الطيب . وتدلت في  
جيدها عقود اللؤلؤ . واضاءت في يديها الاساور والحواتم المرصعة بنقيّ  
الماس . فلم يقوَ ، فيما يمسك بحسنة ويجذبها اليه ، الا ان يتمثل تلك .  
فاضطرب . كأن طيفها يؤلمه في صميم هنائه ، بعد امعانها في المخاشنة ،  
والسعي للاكراه . ونفثت شفتاه قوله : وددت ، يا حسنة ، لو حققتُ امرأ .  
الا اني لعاجز عنه ، يا أخت الهلال الطيرير . اي والله ، اني لعاجز ، يا ابنة  
امي . واحسبك تدرकिन اي سيد ضخم ينادي بعجزه عن بلوغ ما يريد !  
وكان قد غلب على نهيته الشراب . وكان حسنة درت من نبرته اللهفي  
ما يروم بيانه ، فساقته ببليغ حنكمتها الى الجلاء . قالت بمخمر صوتها ،  
وقد اطلقت في الخليفة الطروب ، الحزين ، فوانك لحاظها المتأججة في عينها  
السوداوين ، المستطيلتين : وعمّ يعجز امير المؤمنين ، وفي طاعته تنحني  
الدنيا على بكرة ابيها؟ ... لا اري الشمس تعانده في الانحباس عن الغروب  
اذا ما صاح بها : « قفي ! » . والبر والبحر في خدمته ، حتى الفلك يطأطىء  
الرأس خشوعاً للسيد الوقور !

فابتسم ابتسامة صفراء ، دل بها على انه لا يزال مالكماً رشده ، وعلى  
ان البخور مهما تصاعد الى انفه ، فلن يتخدر اعصابه ، ويميل به الى الايمان  
بالمحال . قال بوضوح انه مع هيامه بالتدليس لن يؤخذ به : بالغت في التقدير ،

يا حسنة . امير المؤمنين، محمد المهدي، لا يجهل مدى سلطانه . فلا القمر ولا الشمس يجريان على امره . حتى ولا الخيزران . عمرك الله، ان امير المؤمنين، مخاطبك، ليقوى على ضرب اعناق مئات الالوف من الناس، ولا يججم عن افتتاح البلدان، وتوسيع آماذ دولته، ولكنه كليل عن امرأة . فالخيزران، يا حسنة، تتيه على من تحسبن الفلك يطأطء له الرأس !

وتنهد من صدر مكلوم يطفح بالاشجان . فأطلقت حسنة صيحة الجزع تبالغ في تجسيم هفوة خصيمتها . وازجت القولة اللينة على ما تطفح به من تحريض : أيبالي امير المؤمنين جموح قينة ؟ ... لست اجد من تخضع له الارواح، في المشرق والمغرب، قاصراً عن امرأة، مهما تفاقمت فيها الصولة . فالخيزران، وغير الخيزران، لا تثبتان على نظرة من نظرات رب العرش، المالك سيداً في القلوب . ولكن الطمع في الحلم الواسع يهيب بذوي الدالة الى الاستنسار . الا انه استنسار الزرايزر، يا امير المؤمنين . رفة هذب منك تبيد شعباً، فهل تضعف عن أمة ؟ ... من كانت الخيزران، لولا المهدي ؟

فهتف، وقد ضاع صوته بين الاناشيد، ورنات المزاهر، وخشخشات الدفوف : صدقيني اني دون الخيزران بأساً، يا حسنة . هذه الامة، الواثبة الى الذروة، تكاد تحجب المهدي . فهي ذات مشيئة شمس . فلا تقف دون رغبة . ولا تحفل بسطان . فتخاطبني بجلافة وغطرسة . وتصيح بي : « أريد ! » ، كأني لديها العبد المطيع . ولا اراني املك العزم على اخفات صوتها، ودفع إلحاحها . إن من تبصرينه يقبض على ناصية الدنيا، ليصغر حتى يكاد يكون هباءة، حيال تلك الضاربة كبد الدهر بالزئير والوعيد .



فليس الشهواتها حد. ولا لنزواتها سكون. فلو ابتلعت البحار، على متنهاي بسطتها، لظلت تشكو العطش. آه منها!... إنها لحاجز دون مني نفسي. وكلما هممت بالعدول عنها اراني ارجع اليها. لست اعلم ما يكرهني فيها على الرجعة. فكأني اخاف منها وانا اجنح الى سواها. وكم من مرة سئلت ان تكوني من نسائي، يا حسنة، وشعرت بعين الخيزران تحدجني كالنبلة المسنونة، فانشيت على متأجج الغصص!

ونطق بما كانت موقنة انه سينطق به. بل بما رامت ان تستلّه من مطاوي صدره. واضاءت سحتها وهو يعالنها تفكيره في ان يعقد له عليها. فيعتقها، ويتزوجها، شأنه في الخيزران. وودت لو بلغت هذه الرجاوة، واليها يتقد في حسنة الحنين الجيَّاش. قالت، وقد غفلا معاً عن مجلس الانس المنشور الراية: ما يزال يدهشني من امير المؤمنين اكترائه لامرأة حياتها وموتها بين يديه. فهل كان لها ان ترفع الصوت، في حضرة الخليفة، لولا يقينها ان لها من رب العرش هبة من سماح؟... ليس من مشيئة تنافس مشيئة امير المؤمنين في الابرام والنفاذ. الا انها المكرمة الراجحة الندى. ليشأ المهدي، وليتجرأ كل ذي نأمة على اطلاق النفس، لا على الكلام!

وليس له ان يدحض ما تلقي اليه. اجل، هو السيد المباح الرأي، لا الخيزران. فما استفحلت في الخيزران الاستطالة الا بعدما تكشف عنه ازاءها من انقياد ولين. ولم يكن منه الا ان جمجم: صدقت، يا حسنة. انا رب هذا المطمئن من الارض. ولكني حيال الخيزران عي. أما صارحتك بهزيمتي تجاه رغباتها؟... والله، لست ادري كيف استخذي في مغالبتها.

فلو طلبت مني ان تقبض على زمام الامر ، في دولتي ، لالقيت بين يديها  
الاعنة . واني لمبيحها لها ، وما تكتفي !

وألقى رأسه الى يده جازعاً . وجعل أنه في مجلس طرب ، فاطلق الزفرات  
الحرار ، وهدر : أتدرين ما يطيب لها ان تتدخل فيه من اموري بعدما لم  
تدع امرأ الا تدخلت فيه ؟ ... انها لتصرّ على عزل ابنها موسى الهادي عن  
ولاية العهد ، ليخلو الجو لهارون الرشيد . وما هي الحكمة من نقض ما  
جزمت ، وموسى ابنها كهارون ؟ ... هل تجلي لك السر ؟ ... انها لتخاف  
من صلابة موسى ، فيمنعها من مد اصبعها الى شؤون الدولة ، على حين تجد  
في هارون الفتى المطواع ، الرضيّ !

فأعلنت حسنة تطمع في اذكاء النار ، وكل ما تتوق اليه ان تحل في  
قلب امير المؤمنين ونعمته محل الخيزران : يدهشي من امرأة ذكية ، حاذقة  
التدبير كالخيزران ، افتئاتها بحق ليس لها . فما يحفزها الى التظلم ، وقد ملكت  
من السعد ما لم يكن لها ان تجو ؟ ... هل دار في خلدتها ، وهي تلك  
الأمة المنسية ، انها ستسلك يوماً شامخ الرفعة ، فتبيت في رحبة العرب  
سيدة الجميع ؟ ... لقد وهب لها امير المؤمنين من سخائه ، وبرّه ، ما ليس  
يدرك بعضه غير من صلت لهم امهاتهم في ليالي القدر . ولا اراها ، وقد  
رتعت في هذه الكرائم ، إلا تبالغ في الابتزاز والطلاب ، كأنها تأتي الا  
الاستيلاء ، في تمتد الوسعة العربية ، على ينابيع العظمة والرغد جميعاً . فلا تبقي  
لمن دونها فطرة يبلّ بها اللسان . وادركت ما تروم ، وقد باتت الزوجة  
الفضلى في نساء الخليفة . ورسّ في قبضة ولديها ولاية العهد . وهل  
من امنية حسنت اليها الا نالتها ، واستمتعت بها ؟ ... ولكنها ما تزال تتشهى ،

وتبدي من ضروب الدلال ما لا ارى الخليفة مجبراً على مسايرتها فيه . واني  
لا تعجب من أم تؤثر ولداً على ولد ، وهما من لحمها ودمها . فكما ولدت  
هذا ، ولدت ذلك . وكما ارضعت الاول ، جادت على الآخر بلبنها . الا  
انه الافراط في الطماح ، والامعان في مناكدة امير المؤمنين !

فهتف الخليفة مؤيداً : والله ، أصبت ، يا حسنة . ان هي الا المناكدة .  
والخيزران تجيدها . فليس يطيب لها الا الايلام والسع ، كأنها تعيش في  
جحر الثعابين . وهل كان لها ان تحلم بالسؤدد الرويّ تغوص فيه ، ورجال  
الدولة يقفون بباب صرحها ، كما يقفون بيابي ؟ ... لقد استأثرت بكل  
نعمة ، حتى كادت تكون الخليفة ، وما تفتأ تهيم بالزيد . فماذا تستطيع ؟ ...  
أيشوقها ان أتعرضي من كل سلطان ، وان انزل عن عرشي لتتولى الامر  
دوني ؟ ... والله ، كدت افعل ، يا حسنة ، وما هي بالراضية . بل انا  
فعلت ، كما عالنتك ، وما تبرح مبرومة . وكل ما عانيتها فيه الا اعتدي في ولديها  
على شرعة الحق . فأثبتت في مسند الخلافة ابنها الاكبر ، ثم شقيقه . فأرغت ،  
وازبدت ، تشدد في افعال موسى ، كأنه لم يكن ، وفي اقرار هارون  
دون الجميع . ولكن لا . لن اعرض عن موسى ، وانا ارى فيه زينة دولتي .  
ففي ملاحظته وجلاله ما يثب منه لعيني مثال جده المنصور . وهو في طباع  
جده ، يا حسنة : فالحزم والعزم يتقدان فيه . وطول القامة ، وعرض  
الكتفين ، ووقار السيادة ، كلها تتلأأ في هيكله الانيق . مع انه ما يزال  
فتى ، ولم يجاوز العشرين . ان فيه من جده صلابة المكسر ، ومن ابيه  
نداوة الراحة . فلا يمسك يده عن ذي مسألة ، ولا يعرض عن هليف . وان  
تكن الخيزران ترى فيه قناة لا تدين ، وليست تقوى على تسخيره لمآربها ،

فاني لا طرب وانا ألس فيه نحوته السبوح ، واوقن انه سيصون الامر من  
عبث العابثين . ركبت الخيزران متن الشطط وهي تنطلق في هذا  
المهمة اليبس !

وجرع كأساً ، ادنتها حسنة يمينها من شفتيه . ومضغ لقمة من اللحم  
المقدد ، دفعتها الى فمه يسار الجارية البارعة في الممالأة ، بل الواثبة الى  
التعليق بباعث غيرتها اللهمي من الخيزران ، مزاحمتها العنود على قلب الخليفة .  
فاذا ما تم لها ان تبعدها عنه ، فالامر ينتهي حتماً اليها . ولن تجد من يقف  
حائلاً دون المنشود . وسعت لانتهاز الفرصة الموفورة ، والخلاف بين الزوجين  
على اشده في صدد ولاية العهد . ورأت حسنة ان تلنصر لموسى الهادي ، فتقهر  
به مقاصد الخيزران ، وتكسف اشعتها المائلة فسحة العباسيين . قالت  
والمهدي يزدرد لقمة اللحم المقدد ، ويتلمظ بنهمة احياها فيه الشراب :  
وهل لهذه الدولة غير من اتسموا بطابع المنصور ، يا امير المؤمنين ؟ ...  
ان النار لتتقد تحت الرماد . ولن يطفئها غير من ملكوا جراتك ، وقسوة  
ايبك . فتظل الرؤوس على انحاء ، ويعتبر المتحفز بما كان من المتجرىء ،  
فيصفو الاديم . هارون شعلة من ذكاء . الا ان موسى جمع القاهرين ،  
الذكاء والمضاء . فهو اقسى عوداً ، واصدق مخبراً . لا تركن الى ملتس  
الخيزران ، وفي ملتسها مصلحتها ، وبها تطمس الحق . وما كان لامرأة ان  
تقبض على الدفة في الدولة ، وتوطد دعائم الحكم !

فراقته فيها حدة الذهن ، وصاح : عوفيت ، يا حسنة ، عوفيت !  
وانترع من بنصره خاتمه ، ورصع به بنصرها . ونادى حاجبه الواقف  
بباب المقصورة يصيح به : غداً تجمل الى حسنة من بيت المال عشرين الف

درهم ، عدا الحلل والمؤن !

وألقى الى كتفها يده يتلذذ ببضاعة جسمها . واخيزران شعرت بعباءة حسنة لها ، وبسعيها للحاق بها في خاطر الخليفة . الا انها ضحكت من هذه الخنفساء المهدة بالتنافس ، وليست تقوى على لكزرة تجهبها بها أم موسى وهارون . بيد ان الخيزران ، وهي العالمة ان البعوضة تدمي مقلة الاسد ، لم تتم عن الجارية اللعابة بالنار . فاقامت عليها العيون ، وأحصت فيها حتى الانفاس . فانسلت الى مقصورة حسنة عشرات من الجواري ، هن جواسيس الخيزران على الحظية المرموقة . بيد ان حسنة ما زالت تؤمن بسامق قدرتها . فلن تهبي دون مناهضة زوجة الخليفة المختارة ، وسلاحها عدوبة حديثها ، ومجاهدتها في تضמיד كلوم امير المؤمنين ، وقد اثخنت بها قلبه الخيزران الصخوب وسعت الخيزران للامساك بالمهدي عن ولوج مقصورة حسنة ، ومناها ان تضرب على الحظية نطاقاً من عزلة تحتق فيه . فيمثل ابو عبد الله للرجبة المعلنة ، فيما يقيم واخيزران على صافي المودة . ولا يكاد النفار يتلظى ، حتى يثب المهدي الى الجارية الوسيمة الطلعة والروح ، لينهل من مبسمها السلوان النجيع والنفار بين الزوجين بات مزمناً . مما تعدد به الدخول على حسنة . وارتجت الجارية ، الزاخرة الصدر بدفاق العلالات ، ان تملك من الخليفة الوطر المأمول ، فخببتهما المقادير . فما ان يتراءى لها ان امير المؤمنين اضحى مرهوناً بسلطانها ، حتى يهدم فيها الواقع كل زخرف من امل . فليس للخيزران الا ان تتأيل ، ازاء ابي عبد الله ، كي تبدد في ذهنه ما علق فيه من اثر حسنة واخواتها الجواري ، على ما يتلظى فيهن من رونق وولوع واطالت حسنة النظر الى من تطمع في قربه حتى تكسف مودته لها كل

من تحفل به يمينه من النساء . وتنهت كأن صدرها ينوء بغمرة الاكدار .  
فرق لها المهدي ، وهو يسيل عطفاً حين يمتزج بروحه عصير الارواح . ومال  
على هذه المتوجة ، مع جلوس امير المؤمنين ، ركن الدنيا ، اليها . وسأها  
بصوت جريح ، مدهوش : ألا ما يشجيك ، يا حسنة ؟ ... سلمت مهجتك !  
فنفثت عيناها الدمع الشاكي . فالتاع المهدي وهتف : أتبكين ، والحليفة  
يحبك ، ومانح الخير والسعد يلتمس لديك صفاء البال ؟  
فجادت بالانين المكروب ، وغمغت : روحي فدى امير المؤمنين .  
لست ابكي النعمة الهاطلة التسكاب . بل ابكي ذهابها عني . فلا تكاد تخلع  
عليّ المنى ، حتى تنساني لدن تجاور الخيزران !

فابتسم واطمان . حسنة ترجو ابدأ التفاته اليها . فهي اشبه بجميع نسائه ،  
تشهى ان تكون في طليعة المحبيات اليه ، ظافرة منه بحصة الاسد . وانحنى  
عليها حتى التصق رأسها بصدره ، وقال : ألا يكفيك اني جعلت منك عديلة  
الخيزران ، واني انفض بقربك كل ما تحشو به تلك صدري من غم ؟ ...  
بل انت ارجح منها عندي قدراً ، ولست أمس فيها غير العناد والجوع .  
فتأكل زادي ، ولا تشبع . واخاطبها بالكلام الهادي ، فلا تستنيم الى حلم .  
وماذا ترتجبن بعد كل ما لقيت من نعمتي ؟ ... هل من وثبة لا تزالين منها  
على حثيث اشواق ؟

وضحك لها . واستطاب تقميلها وقد هزته اليها فتنها الساطعة . فاعلنت ،  
وقد ايقنت ان مجال الطلب يتسع لها : ولماذا لا اكون من امير المؤمنين  
كالخيزران نفسها ، فيعتقني ثم يتزوجني ؟ ... انه ليحزنني ويحجلني ان ابقي  
ابداً في مصاف الجواري ، فلا اتبوا في رحبة مولاي مرتبة الخطر !

فتناهى في القهقهة . حسنة تتوثب الى الذروة . وضما اليه فرحاً ببرطمتها ،  
وبثتها قوله : ساتحين السوانح لتحقيق اربك ، يا حسنة . فصبراً ، صبراً  
ريثاً تنتهي من دلال الخيزران !

وعاد يتذكر موقف الخيزران منه ، وهي تلك الجارية المغمورة . لقد خاطبته  
بما تخاطبه به حسنة الآن . على انه ندم وقد اجابها الى المشود . أفلا يندم  
وهو يرفع هذه الى حيث يبليت من الصعب ترويضها وارضائها ؟ ... وفزع  
الى مطول الوعد يذيعه في مسمع الجارية الوثبي : نعمى عينك ، يا حسنة !  
فالايام وسيعة ، فلماذا يضيقها على جارية يغلي فيها الطماح ؟ ...  
وتماوجت الغبطة في معارف حسنة . عوارف امير المؤمنين لا ينقطع لها  
غيث . وانقضت الليلة على خضل المتعة . فطرب امير المؤمنين ، وتنعم  
بمستفيض اللذة ، فيما يقف خادمه منارة البربري بالباب ، يرقب ساعة فساعة ،  
وهو على مصّ التهويم ، ان ينسلخ امير المؤمنين من مجلس الانس المعطر  
الاردان ، الفضفاض الذبول

صرح « اساس » في حنق ووجوم . فالخيزران على غيظ ، ومثلها كل من حوى قصرها من الانصار والخدم . ونادت اليها جاريتها عتبة بصوت أبحّ تقول : عليّ الساعة بيحيى بن خالد البومكي ، يا عتبة . اريده على المجيء فوراً ، وانا في اشد الحاجة اليه . فلا يتأخر عني لحظة !

فامتثلت عتبة ، الجارية النضرة ، الراضعة في صرح « اساس » في اعلى مقام ، وقد جادت عليها الخيزران برافتها ورعايتها ، واثقة بيقظتها وولايتها . على انها كانت تجتاز برهبة طرق بغداد الى دار الوزير البومكي الداهية ، كأنها تخشى مفاجأة مقلقة . فلقد وقعت ، من ابي العتاهية الشاعر ، موقع ايثار ، أقام الوهان في خطاها ، كأنه ابدأ بباب صرح « اساس » ، يرصد الجارية في مهزتها

وما كانت عتبة تحنّ اليه ، وليست تريد ان يهاها بائع جزار ، مع كل ما ذهب له في دولة الشعر من باذخ المكانة . فاتقت مرآه ، وحاذرت ان تلقى في جولاتها شبحة البغيض . غير ان ابا العتاهية لم يكثر فيها للجفوة الكابسة . فتغزل بها ، وتعرض لها ، ينشدها ما اوحى به اليه من سنيّ النظم . فتتأفف عتبة وتبكي . وتندفع الى سيدتها الخيزران تشكو لها بليتها بالشاعر الفائر الوجد . فتضحك الخيزران حيناً ، وتغضب احياناً . وتنادي الشاعر اليها فتونجه ، وتنهاه عن اخراج القينة الحفرة . ولكن ابا العتاهية ، وقد ركب هواه ، لم يكن يقوى على انامة قلبه الجموح . فما ان تبدو له عتبة ، حتى يجري في اثرها مستعطفاً متبماً



والآن ، فيما تندفع الجارية الى دار يحيى بن خالد البرمكي ، وكانت بعيدة عن صرح اساس ، كرهت ان يصددها الشاعر الهائم بقريضه السيال الحنين . فوثبت وثبات الظبي النفور الى وكر الوزير البرمكي ، متعامية عن كل خيال يعرض لها . بلى ، كانت تقف لمحة لدى كل منعطف ، وتطلق العين فيما حولها ، حتى اذا ما أمنت المباغمة ، درجت الى هدفها برجلين تتسابقان في انتهاب السبيل

وبلغت دار يحيى البرمكي باطمئنان . فكأن أبا العتاهية شغل في ذلك النهار عنها . فما رصدها يتملى قسامتها ، ويتلذذ بمطاردتها . وقرعت الباب بعنف ، واصلت نفسها : عتبة ، جارية الخيزران !

ولم تكن بحاجة الى الجهر باسمها ، وكل من في صرح البرمكي يعرفها . ودعيت فوراً الى المثلول بين يدي الوزير الازيب ، البادي البشاشة ، الدمث القولة . وهتف يحيى وقد ابصرها : ألا مرحباً بك ، يا عتبة . ماذا تحملين الينا ؟ ... أتكون سيدتك على حفيّ الانس ؟

فاجابت وقد شعرت بالامان يكسوها : نفسي فدى سيدي . مولاتي حفزتني اليه كي استعجله في ارتياد صرحها . أراها اليه في امسّ حاجة ! وتكلمت بجد . وادرك يحيى بن خالد البرمكي من جفاف قسامتها ان الامر جلال . فقال يستبحت : وماذا هناك ، يا عتبة ؟

فدنت منه حتى بات لا يفصلها عنه خطوة ، وهمست في أذنه : لا نبرح حيث تعلم . مولاتي على خلاف وامير المؤمنين في صدد ولاية العهد . ووقعت بينهما في هذا النهار واقعة جياشة بالشحناء ، انصرف على اثرها ابو عبد الله مغضباً ، ينتهي دار حسنة . ومولاتي تقيم على جزع ، وتسألك المشورة .

فلا تمسك عن الاجابة !

فقلب شفتيه يستكبر الحُطْب ، واستطلع : وهل بدا من امير المؤمنين  
انه على نقمة ؟

فاوضحت الجارية : ما كنا نقوى فيه على اقناع . فتناظى حنقاً ،  
واقسم انه لن يدخل صرح اساس ، ما دامت الخيزران تلجّ به في الخروج  
عما ابرم . وانطلق الى جاريته حسنة ، يبحث لديها عما يعيد اليه راحة  
الحاظر المروض . ولا احسبك تجهل كم يؤلم مولاتي ، ان يتحوّل عنها  
امير المؤمنين ، الى حسنة الجارية المتطلعة الى شامخ السدرة !

فاطرق يحبى يفكر في الجارية المتشوّفة الى معادلة الخيزران في بسطة  
المجد ، وتجلّى له فيها الخطر . فاذا حالها موسى الهادي ، فقد تكون حربة  
قاتلة في صدر الخيزران ، وليس لها الا ان تميل بامير المؤمنين الى الرسوخ  
في ما اقرّ في ولاية العهد. ويحبى نفسه دفع الخيزران الى اتقاء صولة حسنة ،  
الجارية المليحة الوسامة ، النازلة من المهدي في جانب عزيز . وهو من اوصى  
بايفاد رهط من الجوّاري الى مقصورتها للتجسس والاستنباء . وهاله ان  
يشخص المهدي الى حسنة كلما صدّ عن الخيزران . فقد يزيد اعراض امير  
المؤمنين عن امراته الاثيرة بجنوحه الى ايلامها . فيعزل هارون عن ولاية  
العهد ، بعد موسى ، ويقمها في فتى آخر من بنيّه ، امعاناً في قهر  
الخيزران الناشزة

وتفتحت شفتا البرمكي بقوله : لست بمتروّد ثانية في اجابة مولاتنا ،  
يا عتبة . فاني لمنطلق توّاً الى صرح اساس !  
وسار في رهط من رجاله الى الصرح . وطاب لعتبة ان تسير على

خطوات من الموكب ، فنتقي مبالغتات ابي العتاهية . وانسل يحيى الى  
مجدع الخيزران ينحني ، ويسلم على امرأة الخليفة ، ويقول : ها انذا في  
حضرة سيدتي الجليلة . فعلى م يقوى في خدمتها يحيى البرمكي ، المتهاك  
على كسب رضاها ؟

فالتفتت اليه التفاتتها الى من تؤمن بثاقب رأيه ، ومكين اخلاصه .  
وقالت بصوت غضبان : تروّعني تلك الصلابة الغاشمة في امير المؤمنين ،  
يا يحيى . فكلمنا حدثه عن ولاية العهد ، جبهني بالمخاشنة . فليس يطبق ان  
يشيح عن موسى . وانت ادري الناس بما بيني وبين ابني موسى من مكايده .  
تزوج علي رغمي ابنة عمه لبابة بنت جعفر ، الساخرة بي ، وما بوحث  
تعيّرني كوني أمة . وشاطرها امتهانها اياي ، بل هو منعها من ان تحبيني ،  
وان تحضر مجالسي . ولست في معتقده أليق بان اكون امرأة خليفة ، ولا  
أم خليفة . ألا ماذا يعرف عن أم جده المنصور ؟... فهل كانت سلامة البوربية ،  
أم ابي جعفر ، ركن العباسيين ، غير أمة مغمورة ؟

وكادت السيدة الباسطة جناحيها ، على المطئن العربي العريض ، تذيب  
الدمع . فقال يحيى يناهض فيها صارخ الاسبى : ألا رويد سيدتي في لوعتها .  
فما موسى سوى ابنها ، بل شطر من روحها ؟... وان للابناء طمحات تقرض  
على الآباء ان يحتملوها . هذا هوس الشباب ، يا مولاتي ، وعلينا ان نصبر  
في اولادنا على رعونة الجهالة . لست أكابر في ما يباعد بين موسى وهارون  
في متناقض الطبع . ولكن هذه يدي ، وهذه يدي . ومن المحال ايثار يد علي  
أختها . واذا جاز ابداء الرأي ، فلست اؤيد احراج المهدي في مطلب سوف تمبل  
الايام الى اقناعه بالحكمة في اقراره . لنصبر ، يا ذات القدرة . فالغد قريب .

وسيحمل الينا الفرخ والفرج !

فأعلنت بمرارة : والى متى اكره نفسي على الصبر ، يا يحيى ؟ ...  
فالحليفة ماضٍ في ما اعلن ، لا يلتوي له عود . وان تكن تريد لي الويل ،  
فليربع موسى بسدة الخلافة وليسحقني باحتقاره ، وليحبسني في قفص . لا ،  
يا يحيى . فالموت اهون عندي من ركوب موسى المنصب الاول في الدولة  
العباسية . فارشدني الى مهيع اتقي فيه العثرة . فلماذا لا يكون هارون ،  
ذلك الكيس اللبيب ، رب المقعد المنيف ؟

فجار يحيى في استنباط الحيل . ولم تكن الخيزران تعتم بالسكون .  
فهي في حديثها ، وصلابتها ، اشبه بالحليفة زوجها . قال البرمكي يداوي فيها  
الفورة : علينا ان نجهز هارون للغد البهي ، يا ذات الجلالة ، وهو يفرض  
نفسه على المنصب . فعلى من ترين ان نعقد له من بنات اعمامه ، وقد بات  
في عمر الزواج ؟ ... وما ان يمسي في حلقة الرجال حتى ندفعه الى الفتوح ،  
على رأس الغزاة المغاوير . فيعلو شأنه لدى ابيه ، ويجد امير المؤمنين نفسه  
حيال سيد رهيب الصولة ، مفتول الساعدين ، يفاخر به بنو قومه ، وكلهم  
يريده للغد الازهر !

فلمست الهدى في مقال البرمكي . ليس يحيى على ضلال في السعي لتزويج  
هارون . ومن تصطفي له الخيزران ؟ ... انها لتجد في زبيدة ، بنت ابي  
جعفر ، ضالتها . وما زبيدة سوى اخت لبابة ، زوجة موسى . ولكنها  
اختها من ابيها ، لا من امها . وأم زبيدة أمة ، وهي سلسبيل . فلا خوف  
إذاً على الخيزران من استعلاء زبيدة عليها ، واستهانتها بها ، اذا ما زفتها الى  
هارون . والاثنتان تنبعان من بطن غريب عن المحمد العريق . قالت

الخيزران توافق على رغبة يحيى : صدقت ، يا ابا الفضل . ساعدك لهارون على من ينأ بقربها . ولقد ظهر لي منه انه يحنّ الى زبيدة ، ابنة عمه . وزبيدة اخت المتغرسه لبابة . ولكن بين الاثنتين سحيق البون . لبابة تمايل على غليظ عجرفة ، كموسى نفسه . وزبيدة تجبو على رسيل طبع . لبابة تعرّ اذا ابصرتني ، ولا تجلّ في شخصي رفعة عمها الخليفة . وزبيدة لا تتعد عني ، وتتوفر على اكرامي ، وتتودد اليّ . ثم هي لا تطلق في اصلي داعر القول ، شأن لبابة الحديدية اللسان ، المتقوّلة عني ما ليس لذي مسكة من رشد ان يؤمن به . فكأنها ، وقد زفت الى موسى ، وافقته في خشونة الخلق ، وجفاء الدم !

وتأوهت الخيزران . وما تراءى لها ، وقد بلغت هذا المقام المنيع ، ان الالم سينتجراً عليها . ولقد تجرأ الانكد ، وادمى فيها المهجة الناعمة المثوى . فما تنفك ، منذ طويل الليالي ، تصارع فيها كيد القدر . أتشقى في الامنية السامقة ، وهي اغلى ما ترجو من زمنها ؟ ... اذن ليست من تتحدث بفيض ، عن قدرتها وجلالها ، افواه العرب والعجم ، ومن تشخص اليها الابصار ، كأنها قبلة الدنيا . قيل فيها انها المهدي نفسه ، وان امور الدولة لا تجري بسوى ايماءة منها ، فإين العز المديد وهي دون تحقيق رغبة ؟ ... رامت اقرار مصير ولديها ، فسقط في همتها

وتجلت حسراتها ليحيى البرمكي . وبدت له تشتعل في كآبتها . فاشفق عليها . الا انها تشتعل على حقد ، ككل قوي مقهور . فما ذلت ، وقد نزلت بها الغاشية ، بل جاهدت في درئها والتغلب على اللوعة . ستظل بالمهدي حتى تملك منه مطلق المشيئة . فلا يعارضها في مطمع . ولكن اين السبيل

الى هذا المرام الصلود ، وخصومها يفسدون عليها كل وثبة ؟ ... فهناك موسى ولبابة ، لبابة المقيمة بباب المهدي كأنها احدى نسائه ، والمتزلفة اليه حتى تكاد تشغله عن حوله من الرجال والحظايا . وهناك حسنة ، الجارية الزنخة الدخلة ، المتصايبة الى الحلول في الطبيعة ، والمشتعة على الخيزران مقاصدها . بيد ان الخيزران لن تستسلم الى الهزيمة ، وفي صدرها عزم ، وفي رأسها ادراك . ستقاوم حتى تفوز ، او تتحطم ، فتتناثر اشلاء . قال يحيى ، يستصوب فيها الميل الى زفاف زبيدة الى هارون : اعتمدت مولاتي على الطريق الحق في اختيار زبيدة لابنها هارون الرشيد . ففي زبيدة من شهى المؤانسة ما لا تنعم ببعضه لبابة ، على نضيد روعتها . وعندى ان لا يطول يوم الزواج . فنحى ، في صدر امير المؤمنين ، الجبور ، وندنيه منك . فلا تستحكم بينكما نواشر القطيعة . بل نسير ، ونحن على اطيب الصلات بالخليفة ، خطوة فخطوة الى المرتجى . ارى التأي خيراً من العجلة ، يا مولاتي . فلماذا نخرق انفسنا حيث نقوى بالتؤدة على بلوغ الارب ؟ ... سوف توقنين ان يحيى البرمكي صادق النبوءة حين يعالئك بان الغد لنا ! فاستطابت فيه مواعع الرأي ، واستطلعت : أندعو الى العقد لهارون على زبيدة ؟

— بلا ابطاء ، يا مولاتي . فالافراح تزيل الحوائل دون المواهمة . علينا ان ننتفع بوضى امير المؤمنين عنا !

فقال ، وهي الحريصة على الامسك بعطف المهدي ، مخافة ان تكبو في صعيد السؤدد ، وينفض عنها الملتقون عليها : اذن عليك بان تذيع الساعة ، في طول الدولة وعرضها ، ان هارون سيتزوج ابنة عمه زبيدة ،

وان المباهج ستشمل وسعة العرب ، حتى مترامي اطرافها !  
فاوضح ببصيرته الوقادة : بل علينا ان نستأذن امير المؤمنين في  
المشهى . فاذا ما اجاز لنا نشر النبأ ، نفخنا في الابواق البشرى ، وزفناها  
الى كل مسمع !

فراقتها فيه فطانتة ، واطمأنت الى سداد بيانه ، معلنة : لا عجب اذا  
حللت من هذه الدولة في المقام المأنوس ، يا يحيى . فان لك ، من راجح  
نهيتك ، ما يقودك في مهيع تأمين فيه العثرة . أصبت . سنطلب الى امير  
المؤمنين ابداء رغبته في العقد لابنه هارون على ابنة اخيه زبيدة . ومن  
الراهن انه لن يشيح عما نعرض عليه من خمير الرأي !

ونادت اليها جاريتها الصفيّة عتبة . فاطلّت الجارية ، البليلة الطلالة ،  
تقبل الارض بين يدي مولاتها ، وتفتح اذنيها لالتقاط الامر المطاع .  
فاستفهمت الخيزران : أيكون امير المؤمنين في قصره ، يا عتبة ؟ ...  
اوفدي من يسأل لنا عن ابي عبد الله !

فانتفض في الجارية الشجو النعّار ، وقالت باكتئاب : امير المؤمنين لا  
يبرح في مقصورة جاريته حسنة . ولقد اسرعت اليّ احدى جاسوساتنا على  
الجارية ، المعنة في اغتيابنا ، تذيع في مسمعي ما لقي هناك سيدنا من فائق  
الاجلال . احيا لدى حسنة ليلة من أمتع الليالي وأسناها . فنقرت بين  
يديه الجوارى المزاهر والدفوف . وجلس الى حسنة يصغي فيها الى الشهوة ،  
ويجاملها برضى القول . وبما صارحتني به ناقلة النبأ ان حسنة همست في اذن  
امير المؤمنين اشياء . وما اكنفت من الافاضة بالالتماس الا وقد عاهدها  
امير المؤمنين على انالته الصبوة . وبلغ من تناهيها في ارضائه ما حملة على

ان يقضي لديها يومه . نحن في منتصف النهار، وما يزال أمير المؤمنين يتوسد  
المبرك البغيض !

فارتجفت الخيزران وبلعت ريقها . اي مكيدة تجلجل وتوشك ان  
تجرفها ؟ ... حسنة مزاحمة تخيف . والتفتت امرأة المهدي الى يحيى البرمكي  
تستجير به من الكارثة ، هاتفة وهي تلهث : هل سمعت ، يا يحيى ؟ ...  
هل سمعت اي غدر يعربد ويهددنا ؟

وما كان يحيى ليهرب الكوارث على فحولتها ، فاطلق المقال الديمث :  
ليس لنا ان نبالي امر جارية . امير المؤمنين لن يصدف عن أم ولديه ، وولاية  
العهد معقودة لهما . لتنطق حسنة بما شاءت . فان نظرة من السيدة الاثيرة  
في حرم المهدي تهدم كل ما يتعب اعداؤها في تشييده من مكاييد زريّة .  
حسنة طلبت ، والمهدي وعد ، ولكن اين الانجاز ؟

فاطلقت عتبة واخز القول : وبما اقلقت به الجارية خاطري ، اعلانها  
انها سمعت اسم مولاتي ، الخيزران ، ينتفض مراراً في شفاه امير المؤمنين  
والخطية حسنة !

فهدرت الخيزران ، وقد ضاق وسعها عن الجلد : أتدعوني الى الانتاد ،  
يا يحيى ، والدسائس تحاك للقضاء عليّ ؟ ... لا ، يا ابن امي ، عليّ ان  
اقوض الليلة بهذه المنكودة حسنة مأواها . لن تطأ لها قدم شبراً من  
الارض . في هذا الليل سادف انصاري الى هدم سطح مقصورتها عليها ،  
والى دفنها في بؤرة اعمق من الحد . بماذا تتناولني المشؤومة الوجه واللسان ؟  
فابتسم يحيى ، وقال يهدوء دل فيه على سعة الصدر ، ومناعة الجأش :  
عفوآ عن إلحاحي في الاعتصام بالتأني، يا مولاتي . فالموقف لا يبيح الغضبة .



ليس الظافر من يذعن لفلان كبده ، بل من يطفء في نفسه الجمر ،  
ويسعى لمطلبه بالحنكة والدهاء . فمن هي حسنة كي نقيم لها ذرة من شأن ؟ ...  
كل ما علينا ان نستدرج ابا عبد الله الى جانبنا باحياء الافراح في فسيح  
دنياه ، وباستنكار كل ما عداه ، فتجاهل حسنة ولفيفها ، كأننا ازاء  
بعوض في صحراء !

فصاحت والنقمة تسدل على وجهها غشاوة كثيفة ، تسدّ عليها منفذ  
النور : ولكنك ترهقني بما تدعوني اليه من احتمال ، ايها البرمكي . حسنة  
حشرة موبوءة علينا بسحقها بنعل طحون ، لا تبقي منها على خلجة ، حتى ولا  
على اثر !

فابتسم وقال : ليس لنا ان نذكر انها تعيش . وجلّ ما علينا ان نمثل  
في حضرة امير المؤمنين ونسأله ان يعقد لابنه هارون على ابنة اخيه زبيدة !  
وزعزع بطول أناته الصخب الزاعق في الخيزران ، فجهرت بقولتها  
المتأففة مع جنوحها الى التأييد : انك لتغلبني على امري ببرودتك ، يا يحيى .  
فما تندلع من حناياي النار حتى اراك تعمد الى اخمادها . أتريدني على  
السكوت عن الحبيثة ؟ ... ساسكت عنها كرمي عينك ، وساشغل عنها  
نفسي بزواج ابني هارون . الليلة سابدو بين يدي امير المؤمنين واحيي فيه  
مأنوس الرضى ، وابدد وحشة الجفاء !

فاعلن بمألقى البشر : وهو خير ما تفعلين . سيعود اليك امير المؤمنين  
بقلبه وبروحه وانت تحدينه عن مجالس الصفاء ، وتهين له متعتها . ففي طبعه  
من الميل الى المفاتن ما يذهب عنه بكل اضطغان . لا تحجمني عن المسير  
اليه الليلة ، كأن ليس بينكما قطعة ، ولا مسكة من نفار . ولا بأس

ان يصحبك هارون وزبيدة ، وأن يقيمنا عن جانبك جناحين خفاقين . فلا بد ان يغتبط بهما امير المؤمنين ، وان يزيل عنه مرآهما كل مضض . وليس في قلبه مضض الا وانت تلجّين في ابرام مصير ولاية العهد على هوانا . لنُدع الآن ولاية العهد في اقمطتها ، ولنعتكف على العقد لهارون على زبيدة ، ابنة عمه . وفي الغد سوف نملك من سيدنا وحليفنا ما يعجز عنه كل مطماع !

فما وقعت على رأي اوفي . وتجهزت للمثول بين يدي الخليفة . ودعت عتبة الى مصارحته بالرغبة . قالت : اندفعي اليه ساعة يبدو لك في ابوانه ، وعالنيه باني سأكون الليلة في حضرته يصحبني ابنه هارون ، وابنة اخيه زبيدة ! وهي لا تجهل ما يكون من وقع النبأ في نفس امير المؤمنين . فالمهدي ، مع غليانه في النعمة عليها ، لا يلبث ان يهدأ ساعة تحتلج باسمه في نظريه . فالبسمة فيها تبدد منه كل حرد وجهامة . ولم تكن الجارية حسنة على شطط في المعتقد ، وهي ترى في الخيزران ماحية كل غانية سواها من مودة ابي عبد الله ، عندما يستويان على رطيب الالفة . وانسابت عتبة الى بلاط الخليفة تستوضح : هل اقبل امير المؤمنين ؟

وكان قد قعد للمظالم ينظر فيها ، وينصف الشاكي الهضم . واطاعت نفسه بوسامة الليلة المنقضية في مييت الجارية حسنة . اذاب ساعات ترخر بفتيق الصبابات . على انه لا يكاد يذكر الجفوة القائمة بينه وبين الخيزران ، حتى تساوره كمدة لا يطيق لها دفعاً . فكان كل ما ذاق من هناة ، في كنّ حسنة ، لا يتاسك حبال التفكير في الخيزران . وكان الخيزران اذا رضيت ، فلا شأن لغضبة الدنيا ومن فيها ، ولا لازدلاف خير من في الدنيا

الى امير المؤمنين

وظهر منه في مخاطبة الواقفين بين يديه انه لا يوشك ان يطمئن حتى  
يعتكر باله . فما ان يذكر الخيزران الجافية حتى يعلو وجهه القطوب .  
ولما نحن بين يديه خادمه منارة البربري ، رفيق الرحلات والمؤمن على  
الامرار ، اعاره اذنأ صاغية . كأنه يرقب منه ان يحدثه عن الخيزران ،  
وان يرفع عن عاتقيه عبئاً كالبسأ يرضيه . وابتدره بشوق الى الاستطلاع :  
ماذا ، يا منارة ؟

وحشه على البيان الوشيك . قال الخادم ، وما كان يخفى عليه حين  
سيده الى نظيرة نسائه : عتبة بالباب ، تستأذن في تقبيل الارض بين يدي  
امير المؤمنين !

فاتسعت عيناه ابتهاجاً ، وتولاه حفي الاطمئنان ، وقد احس بالخلاص  
من مرهق الغمة . قال وكل ما فيه على مرح : وماذا تريد عتبة في مثل هذه  
الساعة المحرجة ، يا منارة ؟

فاجاب العبد ، وهو لا يزال على انحناءه ، وليس يجرؤ على النظر الى  
سيده : جاءت تذييع ، في مسمع امير المؤمنين ، ان مولاتي الخيزران تلجأ  
الى سماح الخليفة في موعد يضربه لها . ستحبو اليه في موكب يزدان بهارون  
وبزيدة . فمتى يرى سيدي ان تقبل اليه ؟

فذهبت عنه وساوسه ، والبشرى تتوالب الى وعبه . وقال كمن  
يلتمس توكيد النبأ : أترجو الخيزران المجيء اليّ ، يا منارة ؟ ... ألا كرم  
مثواها ، لتكن في العشية في البلاط . فما ان ينفصّ عني المستنصفون حتى  
اكون لها !

فتراجع منارة الى عتبة يفضي اليها بمشيئة رب الدولة العباسية، ويداعبها  
بقوله : ألا كيف نحن من معاينات ابي العتاهية ، يا عتبة ؟  
فابتسمت الجارية اللعوب . وركنت الى الهرب كأن الحديث عن  
ابي العتاهية لا يلفتها اليه . وهتفت وقد بلغت مقر سيدتها الخيزران في  
قصر اساس : مولاتي ، مولاتي ، امير المؤمنين يرحب بمقدمك . فانت  
من خاطره على سعة !

فاستأنست الخيزران بمستبشر الحفاوة . وشعرت بان مكانتها لدى المهدي  
لا تزال راجحة الكفة . وقالت بجذل : ألا كيف وقع منه الالتماس ،  
يا عتبة ، هل لقي فيه لينا وعطفاً ؟

فاوضحت الجارية : بلغت البلاط وامير المؤمنين مجلس للعظام . فما  
أوتيت حظوة الوقوف في ناديه . على ان منارة البربري حمل اليه ما تطلب  
مولاتي مجاهرته به . وعاد منه بالجواب الرضي . في العشية يفسح امير  
المؤمنين لمولاتي اليه !

فضاقت الخيزران بالجبور . ونهضت الى خدمها وحشمها تأمر فيهم وتنهى :  
أعدوا لي الكسوة ، والعطر ، والكحل ، والحضاب . واحذروا ان تغفلوا  
عن الظهور في بلاط امير المؤمنين في اكمل زينة . ونادوا لي هارون  
وزبيدة ، وليرفلا في ابهى الحلل . علينا ان نجتاز طريقنا الى مشوى الخليفة  
في افخم موكب . ملوك يتهادون الى اكرم الاقيال !

وماج صرح اساس بالعوالي . فتفتحت الخزائن عن حلل الحرير  
والبرفير المزركشة . وفاحت الطيوب ، فتوتحت بنشوتها الانوف . ولعت  
الدمالج والاقراط والخلاخل تزيد في وضاعة الصرح الوهاج . وشخصت

العيون الى هارون وزبيدة تبين فيهما الجلوة والقسامة . فكأنهما زهرتان  
خميلتان في مرج حفيل بالازاهير العطرة ، وقد كسفا كل ما حولهما من  
جلالة ولألاء

والتفتت اليهما الخيزران تقول بفرحة صياحة : لست ارى في بسطة  
الرواء من يضاھيكما وسامة وانسجاماً . فكأنكما ، وقد فقتا الانس  
ازدهاراً ، جمعتهما الملاحه والمواھة من اطرافهما . وليس لهذه الفتنة المتوهجة  
فيكما الا ان تتجاذب وتتهاوى . ولكأني بكما على وجد وهيام ، بعد كل  
ما اختلج في عيني من تقاربكما وتمازجكما ، وقد تعادلتا ميلاً وهوى .  
وسنبدو الليلة في بلاط امير المؤمنين ، لنزف الى الخليفة نبأ تألفكما ،  
ونستأذنه في زواجكما . فكونا منه على اخضال مظهر ، وفتون منظر .  
فالخليفة يستعذب روائح الشباب !

فضحكا . ولمعت في اعينهما ومضة الكلف . ان الخيزران من امرها  
لعلی جليّ بيّنة . فالحب يمور في حناياها عاصفاً هادراً . وما كان ليلقى  
الصدمة ، وقد وقع في ارض لينه، بمراع . واضاءت في وجناتها النضرة ،  
المتوردة ، العافية النصوص ، وقد اقتعدا بهرة الفتوة . وما كان الناظر  
اليهما ليrotوي من التحديق الى صباحتهما، وكل ما فيها يروشح بالرونق والسمو .  
قالت الخيزران في نفسها ، وهي ترنو اليهما ، معجبة بالبرعيتين المتوقدين حياة  
وجهارة : هذان سلاحي في كل من يزاحمني على امير المؤمنين . فهل  
لعين ان تبصر الكوكبين النيّرين وان تتواني في الاستنشاء باشتتهما  
الساطعة ؟ ... انهما ليساويان في طالتهما دولة ريتا . فكأن امير المؤمنين ،  
وهو يضمهما اليه ، يبسط جناحيه على دولتين أيّدين ، دولة القوة

## ودولة الجمال !

والنحت عليهما تقتطف من معارفهما النديّة القبلة المشبعة ، وتقول بمنديل  
الارتياح : عشتا ، يا حبيبي ، قرّة لعين الخيزران !

فهي تعقد عليهما بعيد المأمول . فاذا ركبا مقعد الخلافة فالامر في  
الفسحة العباسية امرها ، وليس لنأمة ان ترتفع بالمناوة ، ولا لمهزة ان  
تتنكب عن جادة تشقها الخيزران ، اليمين الهادية ، والمشيئة الطاغية .  
وان هي اخفقت ، فيا ويلها ، وابنها موسى الهادي ، وامراته لبابة ،  
سيقصابانها حتى عن المثول في حلقة السعداء المرموقين . فتعود الى ما كانت  
فيه من خمول شأن . جارية منسية . ويبيت صرح اساس طللا في قفر .  
ولكنها لن ترتضي هذا الهبوط الصاعق ، ويدها ستظل قابضة على الدفة .  
فلا ترخيها الا وقد تراخت عزمته ، واضحت غنيمه الفناء . واذا خطر  
لموسى الهادي ، وللبابة ، ان يقهراها ، فستشير عليهما حرباً اכולاً لا ينطفىء  
ضرمها ، الا وقد ذهبها وقوداً . فليست الخيزران بمن ينام على ذلة .  
واذا اتفق لها ان تحترق في المناضلة ، فلن تأكلها النار الا بعد اجهازها على  
الخصوم الساعين لتقويضها . ومشت تقول في لفيها : هلموا الى بلاط  
امير المؤمنين !

وزحف قصر اساس الى مشوى الخليفة . وكان الشفق يلون الافق  
بجضاب من حمرة قائمة ، تدل على انطفاء الشمس في الدكنة . وسكنت  
بغداد واستنامت الى الراحة ، وكل من فيها تعب من كفاح النهار . بيد  
ان هذه الابواق النافخة ، والطبول الهدّارة ، دفعت القوم الى الاستباحت .  
فمن يروّع هدوء المساء بالضجة السارّة ؟

ووقف من هاجهم الفضول في الشرفات ، والسطوح ، والارصفة ،  
يتساءلون عن الباعث على التزمير والتطيل . فاي فرحة تهز الدولة العباسية ،  
فتشجئها ؟ ... على ان موكب الخيزران نمّ على نفسه . فدرى الجميع ان  
السيدة الاثيرة تشخص الى بلاط المهدي . وابتسم من يروقههم تعليل المواقف ،  
وقالوا مباسطين : عقد الصلح بين البلاطين !

وافاضت العيون بالنظرات المشرقة الحبيثة ، كأن بغداد مطلعة على  
خفايا السادة . فلا ينتفض مقر الخليفة بنبضة حتى يذهب لها في المسامع  
الصدى المرنان . وسار حملة المشاعل في طليعة الموكب يتلوهم حملة البنود .  
وبدت الخيزران على بغلة مزدانة بالطنافس . وجارتها زبيدة فاعتلت بغلة  
اخرى . وامتطى هارون فرساً . ودرج في اثرهم الجند والخدم يلاؤون  
السبل والشعاب

وثقبت زعقات الابواق وقرعات الطبول اذن الجارية حسنة . فافودت  
من يستجلي لها النبأ . وما علمت ان الموكب موكب الخيزران الى المهدي ،  
حتى استدارت عينها هلعاً . وتصاعدت زفراتها . كل ما اجتهدت في توطيده  
تداعى ، كأنها تبني على الرمل . واحست باللكمة في قلبها . انها لعاجزة عن  
كسر شوكة الخيزران . وادركت فوراً ان امير المؤمنين سيجري في مشيئة  
السيدة المدللة ، الملجاج . وشعرت بالبود يلسع كل جارحة من جوارحها .  
فالغلبة اقلت منها بعد كل ما رفعت لها من دعائم وابرار

وسمع المهدي الصخب والطنين ، فشاقه وقعهما ، وتلفتت اليهما نفسه .  
فالحيزران تتايل اليه في طبل وزمر . ولمس مبلغ شغفها بالفخفخة . فتأبى  
الا ان تضارعه في أبهة الملك . على انه لم يغضب ، ومجىء الخيزران اليه

اعاد الى نفسه منشور السكينة . فما يساوره التعب والقلق الا وهذه الرابعة  
بصميمه تقيم منه على خصام

ونفض لها وقد امست بباب البلاط . بل هو مشى اليها ، وقد توسطت  
ايوانه ، يعينها على الجلوس بجانبه ، في صدر المكان . قال يرحب بها  
بمختار الالفاظ : ألا نعم البادية لعيني بدلّ وروعة . والله ، ما ان تلوحى  
لابي عبد الله حتى تغور وساوسه ، وتمحي اشجاناه . فكأن العيش لا يصفو  
الا وقد نعمتُ منك بلدونة الوثام !

فراقها عدوية المصالحة ، واعلنت بغبطة واجلال : مكاننا من الخليفة  
مكان الجسد من الهواء والماء . فاذا انجسنا عنا عدمنا الحياة . اندفعت الى  
امير المؤمنين في أبرّ تحية ، واندى بشرى . ونحن ، كما يعرف عنا ، لا  
نبغي سوى اعلان الطاعة ، وبذل الاكرام !

فارهف لها اذنيه فيما يستطلع بشوق : ألا ماذا تحملين الى المهدي من  
قشيب طريف ، يا منية النفس ، وبهجة العين ؟ ... أفيضي بشوادي النجوى !  
فالتفتت الى هارون وزبيدة التفاتة الاكبار ، واعلنت ببسمة مشرقة :  
ليس لي الا ان اميل بامير المؤمنين الى الاستمتاع بمرأى هذين الشادين  
البليين . اعتقد ان في طلعتهما ما يجلو الشجن عن الحسير المفؤود . فماذا  
يتراءى لامير المؤمنين ونحن نعد لابنه ، على ابنة اخيه ؟

فتأملهما المهدي بفائق المسرة . انه ليستنشق فيهما عطر النعيم . وجلسا  
قبالته لا ينبان بكلمة ، مكتفين بخضيب البسمات . وراق امير المؤمنين  
فيهما التآلف والاتساق ، فاعلن : هما درتان في خاتم ، يا خيزران . فالقاسمة  
في كل منهما تنمة للآخر . فكأن لا غنية لبعضهما عن بعض . كالعينين ،



والشفتين ، والحدين ، واليدين . اصبت في الاختيار والجمع ، والله . ان  
زبيدة لهارون اشبه بالزهرة في الصدر . ألا اقتربا مني . حيا كما الله !

فقاما اليه يلويان في حضرته العنق . فامسك بمعصم زبيدة ، ابنة اخيه  
جعفر ، وجذبها اليه ، وهو يقول : في قامتك شمم ، وفي باصرتيك موئل  
للنعمة ، يا ابنة اخي . ارى هارون هنيء الموئل وانت في حوزته ، تهين له  
الجدل والنصرة . جعل ربي ايامكما مرتع خير وصلاح ، وافاض عليكما  
باليمن والبركة !

وقبلها في جبينها . واهدى اليها من بيت الممال عشرين الف دينار ،  
مهرأ لها عن ابنه هارون . وقبض على ساعد هارون قائلاً بمستفيض البشاشة :  
أأنت من لقبك جدك ابو جعفر بالرشيد ؟ ... والله ، ان للرشد في جنانك  
ونهيته مقرأ . ما لاح لي منك غير الخضوع والهدى . فلا حرد ، ولا غنج .  
وهو ما يجنح بي الى الايمان بتوفيقك في كل خطوة . ارجو ان يجلفك  
السعد في العقد لك على ابنة عمك الفضلى !

واختمرت اساريره بالبهجة . فما اسمى المشهد تغلي فيه الفتوة على كرائمها .  
والتفت الى الخيزران يقول : ان في الرشيد لطالع اقبال ، يا خيزران .  
سوف يتسع الرغد في عهده ، ويعمم الجبور . أني لائمته في حظوة العز سيداً  
وازناً ، خطيراً !

وضمه اليه يعانقه ، ويتبين في ألواح كتفيه مكان المنعة . فودت  
الخيزران لو خلع عليه ولاية العهد ، واستلها من ابنه الاكبر ، والريح  
مؤاتية . وكادت تذيع شهوتها . الا انها خشيت العودة الى المناكرة .  
وذكرت وصية يحيى البرمكي . فانشئت عن اضرام النار بعد خمودها .

واكتفت بالقول الرفيق : دام لنا امير المؤمنين سنداً نتكىء عليه في ما  
يرفع من شأننا ، ويجود علينا بالقوة . هذان غصنان رطيبان في دوحتك  
الملاء ، فتدبر امرهما بما ترى فيه صونهما من الشدة . ما كان لهما ان يخافا  
جور الدهر ، وانت ترعاهما بسديد الحكمة ، وجزيل الحنان !

فنادى خادمه المفضل منارة البربري ، هاتفاً به : منارة ، عليك في  
صباح غد ان تنادي اليّ وزيري ابا عبد الله الاشعري، كي ينشر على الناس ،  
في وسعة دنيانا ، نبأ العقد لهارون الرشيد على ابنة عمه زبيدة ، ابنة اخي  
جعفر . فالافراح ستدوم في بغداد شهراً كاملاً !  
وصاح بالفتى والفتاة: هنيئاً لكما ما تحميان من يوم أغرّ، وما يوقبكما  
من غد ازهر !

واستوضح الخيزران: أراضية أنت، يا ذات الأمانى الرحاب، عما أبرمنا؟  
وضحك ملياً . فما لقيت غنى عن الموافقة . حسبها الآن ان تنعم برضى  
المهدي وعطفه لتسد عليه المجال الى خصومها . وبعد ذلك سوف تنفذ منه  
الى المطعم الانور . قالت : اني لراضية كلما منحني امير المؤمنين منه  
الرفق والسماح !

فادهشه فيها اللين في النبوة ، والاحتشام في النظرة ، وقال مفاكهاً :  
لكأني اراك تبدلت ، يا خيزران !

فتنهدت واطلقت لاشجانها جهير البيان ، معلنة : ان الزمن ليفرض  
علينا التبديل ، يا امير المؤمنين ، ما دامت يدنا قاصرة عن المرتجى . والحمد  
لله على كونها قاصرة في عهدك ، وانت ذو شحّ بنا ، لا في عهد سواك ،  
فتعرونا الشماتة الذابحة !

وحوت لهجتها وكلماتها من مَوِّ الالم ، وسخىّ التنديد ، ما زعزع كل  
قسوة في كبد امير المؤمنين ، فهتف : وحقك ، يا خيزران ، لست بمن  
يريد لك في جلالك المنقصة . فانت ابدأ في متآلق الرفعة ، سواء عاش المهدي  
او هلك . فلن أبقى تحتك سرير العز مصدوعاً ، ولا متقلقلاً ، بل يظل الامر  
امرك في كنفى ، وبعده محو ظلي . ليشهد الله ان ليس للخيزران في  
نفسى عديل !

فاذرت الدمع . أيجهل ما كان منه في ابنها موسى ؟ ... فهفا اليها يهوي  
على عنقها بذراعيه ، ويطفىء بصدرة لهبة جزعها ، معلناً بتأثر هيف :  
أتبكين ؟ ... ما كنت احسبك تبذلين عبراتك ، وقد اعطيتك منى كل ما  
استطيع . أتميلين بي الى مغالبة الانصاف في ولديك ؟ ... ولكن هي لي  
بعض ما يصون في ضميري مناعة الحق ، ورجاحة العدل !

فلم يكن لها ان تكابر في ما يدعوها اليه ، والشمرة لم تظفر حتى الساعة  
بجلاوة النضج : ورأت ان تسكت ، فلا تؤيد ولا تعارض ، وان تسكن ، فلا  
تتألم ولا تنوح . يكفيها ان تخطو الخطوة الاولى الى قهر موسى ولبابة ، فتزفّ  
زبيدة الى هارون . والايام طويلة لبلوغ الامنية على رحبها . فلن يخيب ، من  
يعتمد على الحنكة والتأني ، في اجتياز الطريق

بغداد تدرج على مستفيض اللذوى ، والبشر يموج في معارفها ويتوسد  
حوانيها . فالخليفة المعطاء ، المباسم ، يعقد لابنه هارون الرشيد على ابنة  
اخيه زبيدة . وعلا التكبير ، كأن في النبأ ما يبهج القلوب ، وتترنح به  
الاعطاف ، وكان فرحة الخليفة غبطة الدنيا

وجاوزت المسرة بغداد الى بهرة الاقطار المتراامية ، المستظلة العلم  
العباسي الاسفع . فان نجائب البيت السائد لتنزل جوارح الرعية بلسماً وسلوى .  
وشخصت الابصار الى البلاط ، والجدل يطفو عليها ، ويمتد الى اعماقها ،  
فيلهب فيها النشاط ، كأن الخليفة الطروب نفخ عدواه في كل نفس من  
نفوس الامة المنحنية في عطفه ورضاه

وهفت الوفود الى القصر ، والى صرح «اساس» ، تؤدي فروض التهنتة .  
عاش الاميران الفتيان في ظل امير المؤمنين . ولهارون الرشيد ، البليل  
العين واليد والمبسم ، مودة في الافئدة صدف عن اخيه موسى الهادي .  
فاندفع القوم الى مجاملة الخيزران ، محور العقد ، متهاكين على ابداء الجبور  
والتبريك . هذا يوم صفا فيه العيش ، وطاب المرح . وليس في بغداد من  
يجهل سلطان الخيزران الباذخ ، واثرها الركين في نفس المهدي . بل ليس  
في الرحبة العربية ، على مديد وسعتها ، من لم يلم بالخزانات المستفحلة في  
البلاط . فلا موسى على مذهب اخيه هارون ، ولا الخيزران على هوى ابنها  
البكر . وهمس ذوو الرأي والنظر ، وفيهم الحفئات من المتخابئين : ما  
اقدم على عقد هذه الصفقة غير الخيزران . ومنها ان تصدم لبابة باختها

زبيدة ، كما صدمت موسى بشقيقه هارون . فهي تحاول ترسيخ ولاية العهد في الرشيد ، وسلخها من الهادي . فالأوتار في البلاط على فوران . والمهدي تتجاذبه قوتان حيّاشتان لا تلتفتان الى مهادنة ، وقد نبا عنهما كل لين !

ومال الظن بالكثرة الى ترجيح كفة الخيزران ، وما كانت لتشيل في نزال . فالسيدة المتغلغلة ، في خاطر امير المؤمنين ، تملك النصر في المنافرة . فان يكن ابنها الهادي صلب المكسر ، فستحاربه بهذه الصلابة الناتئة فيه . وتعرضه على عين ابيه غضوباً ، ارعن ، فظير الرأي ، مقوضاً ، لا بانياً . وندّ عن هؤلاء المغالين في التخمين ان ثمة لبابة وحسنة ، وان للثنتين بعض الدالة على امير المؤمنين . فاذا رام ارضاء الخيزران ، فلن يتجاهلها . ولللبابة من الفطنة ، وقوة البادرة ، ما يرضى عنه المهدي . ولحسنة من سوؤد الفتون ، ما يذكره ابو عبد الله بمستشفّ الحنين

وللبابة وحسنة نهدتا الى المؤانسة . فهال امرأة موسى الهادي ان تجمع الخيزران ، بين هارون وزبيدة ، لتناهضا وتكايدها . ففزعت الى الجارية حسنة ، السيف المسلول ، تصاول بها الخيزران . وما غاب عنها اي مكانة للجارية المغنّاج ، الجليلة الصباحة ، من امير المؤمنين ، وهي تتلو الخيزران في أسر اللب ، واجتذاب الشهوة . وحسنة ، وقد اغضبها ان يتناساها محمد المهدي ، بعد تلك الليلة العابقة بجميل المخالصة ، لم تمسك عن الاغاثة . فاستطابت التحالف ، ليقينها انها لن تقهر الخيزران ، وتخزيها ، بسوى مناكحتها في اكرم بغية عليها

وعالنت لبابة ، وقد ضمها مجلس تمهدت اليه السبل ، بقولها الناضح بالضعف : لا ارى هذه الجشعة على اكتفاء ، وقاك الله الطمع . فكل ما في

هذه الدولة السامقة، من عز، وجاه، وخير، لها. وقد حجبت امير المؤمنين،  
تأبى الا الاستئثار بكل تليد وطريف. وليس لسواها الا ان يعضّ التراب،  
كأنها وحدها تعيش !

وهذا الرأي في الخيزران، تبديه حسنة، لم يكن يشطّ عن نظر لبابة  
الى امرأة عمها المهدي، وأم زوجها الهادي. بل لم يكن يخرج عن آراء جميع  
من ازدهت بهم دولة العباسيين من ارباب الحصافة. كلهم قال في الخيزران  
انها تتوئب الى احتكار كل جليل. وافصح زوجة موسى الهادي، وهي  
تكابد واخذ الغيرة من اختها زبيدة، المقبلة الى مشاطرتها سنى البلاط، عن  
هذا المعتقد، معلنة بنقمة: ليس بيننا من نخفى عليه مطامع الخيزران،  
يا حسنة. فان هذه المنبثقة من الرغام تتوقد حينئذ الى المعالي. ولقد  
ادركتها. على انها ما تزال تغص منها بهباءة يمضها ان يستمسك بها الهادي،  
وهو ابنها. هذا ابنها البكر، يا حسنة. غير انها تكرهه. ولست ادري  
ما يحملها على كرهه وقد حبلت به، وارضعته، وناغته، ولقيت فيه متعة  
ازدلاف الخليفة اليها. انها لتشتهي له العدم. فهل سمعت بوالدة تريد فلذة  
كبدتها على الهلكة؟... موسى لا يركن اليها، وهو يمقت فيها سيطرتها على  
ابيه، وتدخلها في ما يعدو طورها. على ان سعيه لردعها عن طغيانها لا  
يجيز لها خلق عاطفة الامومة فيها. أتكون اشبه بالهرر، فتأكل اولادها؟  
فاوضحت حسنة بجفوة دلت على شديد كرهها لربة الامر الكشود:

هذه امرأة تشدّ عن طباع النساء، ايتها الاميرة الحصيصة. فنشأت لتكون  
رجلاً. بيد انها رجل يتكالب على الاثرة. وتجمع به اهواؤه الى الابتلاع،  
دون ان يصاب بتخمة. فالحسن والقبیح، والصلب واللدن، والحلو والمر،

تهضمه المعدة الطحون ، كأنها حجر الرحي . فعلى امير المؤمنين ان يسكب عليها مننه جمعاء . وليس لسواها ان يبلّ ريقه بنضاضة . ويدهشني في ابي عبد الله هذا الاستسلام الاخرق الى امرأة تدفعها شهواتها الى الاستعلاء ، وفرض المشيئة . هل عمي سيدنا عن استباحتها المدى ؟

وتناثرت الاحقاد نبألاً جائحة . ولن تتلاشى الا يوم تتلاشى الخيزران ، وتبيت جيفة في رمس . قالت لبابة : ولكنني سمعت عنك ، يا حسنة ، انك تتكئين على وسادة الدلال في رضى الخليفة ، وان امير المؤمنين يجد بجانبك وثير الرفاهة . فما بك تتململين من البرودة...؟ هل استطاعت الخيزران ان تسلبك ما يتلظى في ابي عبد الله اليك من لاجع الحنين...؟ هل وفقت الغربية عن نبعة النبل ، لحبس دفقة الشغف ، الناهرة من سويداء الخليفة ، على الوقوف ببابها لا تعدوه ؟

فتأوهت حسنة ، وقد اذاب فيها الاسى متعالي الزهو . واطلقت الالفاظ مخضبة باللهفة ، فقالت : يتراءى لي ، يا ابنة الخير ، كلما ضمني المهدي بين يديه ، اني نعمت منه بالقلب ، والنظرة ، والنهية . غير انه لا يكاد يرحل عني حتى ينسى . بسمة من الخيزران تودي بكل ما يحيل اليّ اني بلغت من نفس هذا الوديد المضطرب الشوق . فلا يذكر حسنة الا وهو يدفأ بلهفة انفاسها . ومتى يذكرها...؟ عندما يجانب تلك ، ويشيح عنها ملذوعاً بغطرسها . ولكن الاشاحة لن تطول ، وللخيزران اساليب في الجذب والعتبي لا تملكها انثى . فما ان يبرح هذا المثوى حتى تتلقاه ببشاشة واستهواء تمحو بهما من ذاكرته كل ما عرف عندي من لذة . فتخلق له جواً من المرح يذهل به حتى عن نفسه . ويبيت لا يرى في قلبه وعينه غير تلك الجائحة الى استعباد

الدولة العباسية وخصخصتها بما تنفث من إحن بين الاخ واخيه . أيشخص لك ان بسطة هذا الملك ، المتناهية القرار ، ستبقى في عصمة بني العباس ، والخيزران تثير الواقعة بين موسى وهارون ؟ ... لا ، يا ابنة الاكرمين ، هذه الدوحة الغضيرة لن تجبه ما سوف يهب عليها من عواصف ، ما دامت الخيزران تضرم العداوة في القابضين على النواصي . والهفي على السدة الوثيرة تتقوِّض دعائمها ، وعلى التاج يتدحرج عن المفرق العريق في النبل والمكرمة . امرأة التقطها البلاط ، من قارعة الطريق ، توشك ان تثلم وتلوي ما تعب العباسيون تسعين سنة في استعادته من غاصبيه . امس كان المهدي في مقصوري ، تغني له القيان ، وترقص له ذوات الطلالة ، فعاهدني على البقاء على كلفه بي . الا انه ما بصر بالخيزران تمس في عينيه حتى شغل بها عني . أتخفظ له الخيزران ومضة من شعلة اخلاصي ؟

واغرورقت عينا حسنة . ولمعت فيهما حبات من الدمع ذهب لها بصيص تبينت منه لبابة شقاء الجارية في حب امير المؤمنين ، ونفرتها المستعرة من الخيزران ، الكارعة في ضمير المهدي حتى لا تبقي منه مثالة . وتألّت زوجة موسى الهادي لبؤس هذه الجارية الريتا ، المغبوطة على نعمتها ، وهي الشقية في ما يجلع عليها امير المؤمنين من عطف ورخاء . واجلّت فيها حرقه الاسى ، فامسكت عن ان تهزّ سكوتها الحزين بنامة . غير ان حسنة لم تطق الصمت ، وهي المكلومة خاطر ، فافاضت بالقول الجازع ، المتظلم : حدثه عن موسى الهادي ، يا ابنة جعفر . قلت : « ليس لامير المؤمنين ، لاسترضاء امرأة ، ان يرجع عما اقرّ . والا استهان به ذوو اللب ، ورأوا فيه سيداً لا يملك امره ! » . فعالتني ان كلمة جهر بها لن يعدل عنها ، وللخيزران ان



تتحامى محاولته في ولاية العهد اذا شاءت ان تهناً بنعمتها . ولست ادري ما يكون منه ازاءها بعد التفرير بالعقد لهارون على زبيدة . فما هذا الزواج ، تتوفر الخيزران على إحكام عروته، في مصلحة هارون ، يا ابنة الهداة . بل في مصلحة الخيزران نفسها . فهي من تتزوج ، لا هارون ولا زبيدة . جمعت بينهما كي ترقى بهما الى طلبتها . فان هارون خاتم في خنصرها . وزبيدة ابنة أمة نظيرها . فلا تلقى منهما ما تعاني فيك وفي زوجك من ازوار . على ان هذه الوثبة ستتخطم بها رجلاها . بنفسي ساحول دون الطماح الوقيح . فليست الخيزران الدولة العربية باسرها كي تسود على هواها . فالموبوءة عدت طورها بمراحل شاشعات ، وما زالت تلجّ في التماس الارحوب . فما تعقد لهارون على زبيدة الا لتطاولكما في ولاية العهد ، وتعزلكما عنها . فاحذرا لسعة العقرب . انها لمنتفخة بنقمع السم !

فاوجع لبابة ما تزجي اليها الجارية المنيفة . على انها لم تكن تجهل ان حسنة تفضي بالواقع اليقين . فالصدق ما تبدي . لم تقدم الخيزران على العقد لهارون على زبيدة لارضاء القلبين المستهامين ، بل لتضم موسى ولبابة . فاذا عالنها المهدي ان ابنه موسى تزوج لبابة ، ابنة اخيه جعفر ، قالت : « ولكن هارون تزوج زبيدة اختها ، فلماذا اثار ذلك عليه ؟ » . وايقنت لبابة ان المناوأة خرجت من الظلمة الى النور ، وكشفت عن جبينها العريض تنضض جهاراً . قالت : لسنا غافلين عن اللؤم الفاشي ، يا حسنة . واننا لنمدّ اليك يدنا لنستجد بك على الخيزران ، وما نخفى علينا منزلتك من امير المؤمنين . وانت تعلمين ان في فوز الخيزران قهرك ، وافول عزتك ، وفي اذلالها سعدك ورفعتك . فكوني عوناً لنا عليها ، والغنيمة قسمٌ بيننا !

فأفاضت حسنة بصوت اجتهدت في دفع البجة عنه، فما اوتيت القدرة:  
لن اتردد في ذرة الغاشية . فلا بد ان يقبل اليّ امير المؤمنين فتكون بيننا  
وقفه لن نخرج منها الخيزران سالمة . ساحطها حتى لا تبقى منها جارحة في  
عافية . فلست عاجزة عن دهائها ومكرها أسيطر بهما على نهبه المهدي !

وفوجئنا بموسى الهادي . درى بخلوتهما فاقبل ينضو عن احقاده الستر .  
وجلس ازاءهما وكل ما فيه على جفوة وانتفاض . هذا العيش لا يبيح له  
الهناة . ما يزال في العشرين ، والاشجان توائبه بعنف وسخط . كأن  
المقادير ناقمة عليه، وليس يعرف لها عنده ثأراً . فالقطيعة ساحطة الامد بينه  
وبين أمه، وما ترتضيه الخيزران ولياً للعهد، وقد فضلت عليه اخاه هارون .  
مع انه اكبر من هارون ، وهو ابنها البكر . فهل من أم تستنكر ابنها  
كأنها لم تلده ، ولم تخلع عليه من حنوها فضلة ؟

وتأجج الغيظ في الهادي، الفتى السامق القامة ، المنيف القسامة ، المطلّ  
على الدنيا بآمال عذاب . دعته القدرة الى ركوب ولاية العهد في دولة تكاد  
تنشر جناحها على الكون المستطيل، فعاندت امه الخطوة، تأبى اقرار الامور  
في مظانها . فهل من أم تقسو على ابنها حتى تحرمه السعادة والرفعة ؟

وشعر موسى بانه اساء الى هذه الام في طماحها . بيد ان الاساءة لم تبدر  
منه الا وقد سعت الخيزران لتقوده في مهب شهواتها . فرغبت في ان يكون  
بين يديها آلة صماء ، لا يبديء ولا يعيد . وهو بما تتمرد عليه نفس الفتى  
الحرّة ، وقد رام اعلان مشيئته غير مبذول المقادة . فان تكن امه ولدته  
عبداً في حشمها ، فلقد طاش معتقدها . ففي هذا الابن من صلابة الرأي ،  
والاستقلال بالمهزة ، ما لا يطيق فيه مكابرة . واستعر النزاع بينه وبين

امه . وخافت امه على نفسها من وثبته الفيحاء ، فاعتزمت اقصاه عن ولاية العهد لتكتبها لشقيقه هارون ، المستنيم اليها في كل طلبه . ستخلع العاصي لتقيم المستكين . بيد ان المهدي صاول هذا الشوق الملح في الام العاتية . اما الآن ، فهل يمضي في المصاولة ؟ ... الآن ، وقد جمعت الخيزران بين هارون وزبيدة زوجين وديدين ، هل ترسخ قدم امير المؤمنين في رد لجاجة امراته الظلوم ؟

ما يقن الهادي أن اباه يملك مضاء الايمان في المكافحة . فلا بد من الزلق في حفرة الخيزران . وهذه الحشية اقلقت في موسى رباطة الجأش ، فتطارت فيه النزوات الحمر . وطاف في بغداد بوجه عبوس ، وعينين عمشاورين ، كأنه لا يبصر احداً من هؤلاء المستبشرين خيراً بالعقد لهارون على زبيدة . بل كأنه يبصرهم فيمضه ان يشاهدهم في حفيّ الجدل . ونأى عن بغداد يلتمس العزلة في الفيافي ، فلا يبدو له خيال . على ان الوحشة نفسها لم تكن ترضيه ، كأنه لا يجد في دنياه ما يبعث فيه الانتعاش والتؤدة

ونظرت اليه امراته لبابة نظرة تنضح بالاسى . على انها خافت عليه من خشونة الالم ، فقالت ترفته عنه : وعدتنا حسنة بالنصرة . فهي معنا على الخيزران . وعاهدتها على تأييدها لدى امير المؤمنين . فنكون واياها يداً واحدة في درء الطغيان !

فجلجل من فم يعربرد فيه الضغن : هل من نكبة غشوم تعادل هذه النكبة ، فاجد في أمي عدوي ؟ ... لقد استشرى جشع الخيزران . فاذا سكتنا عنها طحنتنا بانباها المواضي . ومن الجبن ان نسكت . فان لم نكن على قدر المعالبة ، فلسنا على جدارة بالحياة . بات النزال بيننا وبين الخيزران

على ضوء وعلن . واذا لقينا في حسنة النجدة، فلقد استندنا الى دعامة مكينة .  
ومن الخير حسنة ان تقف في جانبنا ، وليس لها سوانا من اعوان امناء .  
فالمصيبة جمعت بيننا . غير انها ستجري بنا في التآلف حتى المنتهى . نحن في  
كفة ، والخيزران وهارون وزبيدة في كفة . وسنرى ايها ارجح !

واطلق زفرة التهم ، وجهر بامتعاض : أتريد الخيزران ان تحصر ولاية  
العهد بذلك المخضت ، الاشل ؟ ... ألا من هو هارون ، هذا الرعيد  
الشبيه بالنساء ؟ ... انه ليليق بالحدور لا بالعروش ، بالاختباء في اذيال أمه ،  
لا بجحوض ساحات الطعان . شفرة السيف تذهب عنه بالرشد . فيميع حيالها  
كانكد جبان . هذا خنثى ينبو عن فحولة الكمامة !

ونض يمسك بقبضة حسامه ويهدر زاعقاً : والله ، لولا حرمة الامومة  
والاخوة ، لانقضضت الساعة على الخيزران وهارون اذري منهما الانفاس !  
فنهضت اليه حسنة ، وقد راعها فيه بهاؤه ورجولته ، وقالت وهي تنشر  
في منخره فوح طيوبها : لا تغضب . لن نكرهك على امتشاق الحسام ،  
وسنكفيك اذى شائتيك . فلا الخيزران ولا هارون يقويان فيك على احراج .  
ان يكن امير المؤمنين يجارهما في عقد الزواج ، فلن يوافقهما على ما يرومان  
من ايلام . ولاية العهد لك على رغم الكارهين !

فنبه ، وما زال على احتدام : الزواج المعقود يبيت لنا الدواهي .  
فالخيزران تضي فيه الى بغيتها الفاجرة . هي تريد ، وقد زفت زبيدة الى  
هارون ، ان تعدله بي . والمهدي قد يلين . أتجهلين المهدي ، يا حسنة ؟ ...  
متى كان يتاسك حيال المرأة الجياشة الجبروت ؟ ... اسمعه يقسم بالمحرجات  
على الثبات في ما افضى به . وما ان ينعش في لحظة خيال الخيزران حتى يلتوي

عما أبرم . واخشى ان يقف في ولاية العهد وقفته من كل ما تنهد أُمي  
الى التدخل فيه . فيعزلي بعدما اقرني . وعندذاك ، يا حسنة ، لست تدرين  
ما يكون . وانا نفسي لا اريد التفكير في ما سوف يكون . على اني ،  
والله ، سادث في الخلافة سابقة خطيرة لا ارى الوجه العربي الصحيح يطمئن  
اليها . والدافع الى الاضلولة امرأة رعناء ، ورجل ضعيف . امرأة تنزع  
الى الخروج عن حدها كامرأة . ورجل يغلبه هواه . فلا يستمسك ، حبال  
عاتية هوجاء ، بالرأي الاصيل !

فجلجلت حسنة : تباً للمرأة المستسلمة الى الطماح الاغلف . فما كان  
اجل الخيزران لو عقلت وعدلت . الا ان نظرتها الى الدنيا تعدو كل امد .  
هي ، ثم العدم . فليس بعدها لروح حساب . ولست ادري كيف يبيع  
امير المؤمنين امره لهذه الطامعة في حجب الجميع عن برّه ، وحنانه . على اننا  
سنتعاون على بتر العود الاعوج . انت ولي العهد ، لا هارون . لا كانت  
حسنة ان لم تدلل لموسى الهادي كل حائل عنود !

وقالت لبابة والغيرة تلسعها ، فتبدد فيها طول الاناة : علينا بان نسرع  
في التبديد . فنظهر للمهدي أن الخيزران تريد بالدولة شراً ، وهي تجهز هارون  
لمنصب الخلافة . ومن الضرورة ان يسقط ، في ظن أمير المؤمنين ، أن تديبر  
زوجته الاثيرة بمهد للفرس في دنيا العرب ، وأن يحمي البرمكي هو الموحي  
والمنظم ، انتصاراً لدم ابي مسلم الخراساني ، المندثر بجسام جدي المنصور !  
فصاح الهادي ، وقد شاقه الرأي المعلن : أصبت ، يا لبابة . سنبلغ أمير  
المؤمنين أن الدعوة الفارسية تجول في البلاط جولتها الفتاكة ، وان يحمي  
البرمكي ، الموكل اليه امر هارون الرشيد ، احد اركانها الابرار ، وهو من

المقنع الحراساني ، الثائر في الانتقام لابي مسلم ، على مكين صلة . ليكون المهدي على حذر . ولنا من حسنة اليد الصاعدة في البث والاعلان . فتذيع في سمع ابي عبد الله ما يبث في ليل أليل ، الكارهون للعرب . دم أبي مسلم الحراساني يصرخ مطالباً بالثأر . وما العقد لآخي هارون ، على ابنة عمي زبيدة ، غير المقدمة للتقويض والنسف !

ورسا في طلعه البشر . هذا كلامٌ يبقي في نفس المهدي الاثر الوجيع . بل يهز هذه النفس حتى يذهب عنها بكل أصالة وحلم . ونبر الهادي بطربه الميَّاد : ما رأيك ، يا حسنة ؟ ... أما اجادت لبابة إحكام النصلة ؟ ... انها لتخرق بها اكباد الحائقين وتصميمهم . فالمهدي لن يرتضي التنكيد ، وهو الغيور على سلطانه ، غيرته على دينه وحرمه . فما ان يلقي اليه ان الخيزران تنتصر للدعوة الفارسية ، حتى يخلعها عنه ، ويحبسها في صرحها ، ويقم عليها نطاقاً متمسكاً من الارصاد . فهل لك ان تتولي ايغار صدره عليها بما تروين له من مشاينها ، ومن دسائس يحيى البرمكي ؟

ووقعت أعين الهادي ولبابة على شفتي الجارية اليانعة الطلالة . أتوافق ولي العهد وامراته على الطلبة الوعرة النهج ؟ ... أتملك الجراة ، وثمة الخيزران الداهية ، المترامية السيطرة على مهجة امير المؤمنين ، والواقفة بمن حولها على احتراس ، كأنها موقنة ان لها من خصومها وحاسديها قوة تسعى بها ، وتعكر عليها نقاوة الجو ؟ ... وبلعت حسنة ريقها . أتحاول ، وفي المحاولة خطر يتوائب مزجراً ، ولا بد فيه من التحطيم اذا زلت القدم ، وطاشت النبلة ؟ ولكن الاعين الاربع ، الراسية النظرات في مبسم الجارية الندي ، تلح في الاستطلاع . وتراءى لحسنة ان المجازفة لا غنية عنها ، والاظلت حيث هي

من الذلة . فتسبقتها ابدآ الخيزران في مودة امير المؤمنين . وهو بما تضيق  
عنه الجارية المستميتة في الفخفة والمجد، شأن الخيزران في السؤدد والطغيان .  
وجنحت حسنة الى التأييد . ستناهض الخيزران حتى تفنيها ، او تقنى . إما هي ،  
وإما السيدة اللوم . فالاسترخاء يطيحها ، ويحط من مكانتها . ولقد اخذت  
تحس بالمهانة تلطمها كما نأى عنها المهدي ، ليرتمي في موالاة أم ولديه ، الهادي  
وهارون

قالت حسنة تستطيب الاقدام على التهشم : سأقصّ على امير المؤمنين  
ما تشتهيان من ضروب التحريض . فلا محيد عن الخطوة . بات البلاط لا  
يتسع لي وللهامة . فإما انا ، وإما هي . اراني صبرت طويلاً على القهر المضني .  
في اقرب موعد سيعلم المهدي أن الخيزران صنيعة الفرس ، وأن يحيى البرمكي ،  
نصير المقنع الحراساني الثائر ، يذكي النار ليهدم الدولة العربية ، ويعيد الى  
بني قومه مجد كسرى ، وأبهة الايوان . ما ان يبدو ابو عبد الله ، في مقصورتني ،  
حتى اطلعه على المكيدة المبطنة بالغدر والويل !

فاطربتهما الموافقة . ستنهه عنهما الخيزران الناهدة الى حرمانهما روعة  
السيطرة ، ورحابة العز . كأنهما في خاطرهما حربة ناخعة . وجهر الهادي  
بمديد الابتهاج : عشت ، يا حسنة . ليس يخفى عليّ ما ستعرضين له نفسك من  
ملمة . على ان الفوز يرقبك . فلا تحشي . نحن في جانبك على المدى . اذا  
نالك من أمي الحسف ، فلن نسكت عنها . وليس موسى الهادي بمن يكلّ  
عن مناوأة الخيزران ، والوقوف بها عن سعائتها وبذخها . فسيعلم جميع من  
تضمهم هذه الوسعة أن الظلم وخيم المرتع ، وأن من لا يشحّ بوجهه على  
اللطمة ، لطمته يد قاسية . لا ، وحقك ، ما الهادي بالقصير الباع ، ولا

الابله ، كي يطأطأء الرأس لامرأة يقودها الزهو الاهوج . ليس موقفي من  
أُمي بمختلف عن موقفك منها ، يا ذات القسامة . واني لاردد قولك فيها :  
« إماما ، وإماما هي ! » . فاني خليفك في الوثبة . لن يصيبك خدش الا  
وقد هدمت الدنيا على جميع من فيها . كوني على ثقة أيّدة بموسى الهادي ،  
الهازيء بالبعث والزراير !

ورشح مقول لبابة بالبيان المطمئن : حسنة ، سنجيئك بالادلة على كون  
الخيزران تنصر الفرس على العرب . فما دام اذئاب ابي مسلم الخراساني يصبون  
الزيت على النار ، لزعة الدولة الناشئة ، فالفتن تتحفز للاتقاد في خراسان .  
والقوم ، هناك ، يرون في ابي مسلم صاحب الفضل الغلاب على اقالة العباسيين  
العثرة ، وإبادة الامويين ، اصحاب الامر في العهد المطويء الكتاب . فالاعتداء  
عليه ، وضرب عنقه ، بتحريض جدي ، ابي جعفر المنصور ، عددهما الفرس  
تطاولاً عليهم . فغضبوا وانتصبا منا على حقد فيتاح ، سنعاني وشيكاً مضضه .  
فان هم رهبا الشعب في عهد المنصور البطاش ، الطاغية ، فانهم ليتجرأون  
عليه في زمن المهدي الخليم ، الرفيق . وليس من المستبعد ان يكون يحيى  
البرمكي على تواطؤ وهؤلاء السود الضماير . فيحوك للسultan العربي احولة  
يخنقه بها . ويعتمد الخيزران آلة مسيرة في بلوغ المأرب الوجود . وهل لنا  
ان ننفي عنهما الدس والنكال ؟ ... انا اعرف الخيزران ، يا حسنة . انها  
لتببع المهدي ، وما يرتع فيه من صولة ، لادراك مقصد من مقاصدها الباغية .  
فإن تبسط يدها للفرس في قهرنا ، فليس في البادرة ما يبعث على الدهش .  
اطلعي على سريرتها الدنيئة امير المؤمنين ، ولا يقلقك الخوف من الكذب .  
فما انت بالكاذبة ، والله . وما نحن بمن ينجح عنك وقد شددنا ساعدك .



فستقاسم جميعا السراء والضراء. إن اخفقت ، فلن نتنكر لك ، وسنجاهر باننا نؤيدك في كل ما أذن به منك ابو عبد الله . وإن تغلحي ، فالظفر لنا معاً ، وستنعين منه بالحصة الراجحة . حسبك أن تذلي نخوة الخيزران !

وبايهاها على المساندة . لن يحجما في سبيلها عن جهد . ورأت حسنة ان لا تتردد، فوضحت: ساندفع ملياً في ما تدعواني اليه . فالحاجز دون استقرارنا يعطف امير المؤمنين لا معدى فيه عن الانهيار . فاجدث المهدي بما يقلقل اعداءنا ، ويديجهم لفتكة حسامه . فالخيزران تستند الى الفرس في مناكدة الهادي الضليع . وقد زخرف لها يحيى البرمكي محالقتهم، كي تقوِّض الدولة العربية ، وفيها كُتبت ولاية العهد لموسى . ونجاهد في انشاء دولة فارسية يقبض على زمامها هارون الركيك. هذا كله سيسقط الى امير المؤمنين . ولا احسبه ، وقد ذاع في سمعه النبأ ، الا سيهوي بشفرة مهنده على هامة الخيزران فيفرعها . ويحسم عنق يحيى بن برمك، وهو من الزنادقة الكفرة . وإن ابى أن يصدقني، دلته على اللهبة المتصاعدة من احشاء خراسان ، تهد بانفجار البركان . والا اجت له عنقي كي يستأصله . ولن اتململ من حلول نغمته بي ، وقد اصبحت بشوق الى الخلاص مما انا فيه ، إما بالموت ، وإما بالفلاح !

فصاح موسى ولبابة معاً : بل ستفلاحين . فالنجح مكتوب لك . ان الفتنة لتنذر بالشبوب في خراسان . ولا نرى يحيى بن برمك ، ذلك الثعلب الحثيث ، بريء الذمة منها !

ورعد موسى متوعداً : والا ، يا حسنة ، والا ايتها الروعاء ، الجديرة باحتلال قلوب النخبة من ارباب القدرة، كان لموسى الهادي ان يستعين على

اربه بالقوة القاهرة . فاجمع اخواني ، واهجم بهم على امير المؤمنين في كبد بلاطه ، واكرهه على الرسوخ في ما اقرت ، وعلى نفي الخيزران من بغداد، بل من المطمئن العربي . فما للحية الرقشاء ان تخرج بالحق عن نصابه، وتفتي بالظلم في دولة يدك الحيف والعدوان صرحها الاشم !

وارغى وازبد وهو المصاب بكبده ، المروّع في اغلى امانيه . وودّ لو استطاع ان يطاول الخيزران في أيامها ، وان يقف بها عن التشنيع عليه ، والنزول به عن مرتبة رفعه اليها ابوه . ولكنه ما يزال يصون هذه الام السؤوم من نغمته ، حرصاً على رضى المهدي ، المستمسك به في ولاية العهد . وانه ليخشى ، اذا ما نال من الخيزران ، الناعمة بعطف امير المؤمنين ، حتى لتكاد تقصيه عن تنظيم الامر في الدولة ، وتدير الاحكام برأيها الاغلب ، ان يتنكر له ابوه . فيعزله عن الولاية ، ويثبت فيها هارون . وما تمالك ان دمدم بغيظ مستفيض : ألا يكفي الخيزران ، وهي في نشأتها أمة مغمورة ، ان يرتقي الى سدة الخلافة ولداها معاً ، وان يسكت عن هذه الشهوة سائر ابناء المهدي ، وفيهم رهط من كرام النبعين ؟ ... الا انه الجشع . وهو بالوعة لا يملأها خضم . ان الخيزران لتكفر بنعمة اسبغتها عليها السماء ، في ليلة رضى فيها الله عمن لا يجوز لهم ان يظفروا برغبة ، ولا ان يدركوا ذرة مما يتوهج فيهم من لاعج الطماح !

وشعرت حسنة بما يعروه من ألم . واشفقت على نضرته مما تحاول فيه أمه من تنكيد . فهتفت توأسيه : لن ارقب ريثاً يبدو ابوك في مقصورتى ، ايها الامير . بل ساندفع بنفسى الى البلاط استأذن على امير المؤمنين ، واسرد له ما اتفقنا على محادثته فيه . ولا ريب ان المواقف ستبديل وقد اطلع

المهدي على النيات الفاسدة . فنبلع من امرنا ما نشتهي . ونقيم بنجوة من الحظر . اذا استطعت ان افق الساعة ، في حضرة ابي عبد الله ، فاني لانطلق على الفور اليه ، واوضح له الحقي !

فشاقيها هذا الاندفاع الجموح . قد تكون حسنة تمشي الى حتفها في الطفرة المجهولة العقبى . ومع يقينها ان الموت يرصدها ، لم تكن تحفل بالصرعة تجتاحها بعد كل ما عانت من احتقار الخيزران . فانها لتذوق ابدآ الموت ، وتلك القابضة على لب الخليفة تزري بها . فإن لقيت حمامها ، لآخر مرة ، فليس ثمة ما يقلق مهبجتها ، بل تتقي في وثبة واحدة بوؤس الغد الطويل . ومن يدري الى اي مهيع تقودها وثبتها?... ربما انقذتها من النكد ، ودفعها الى حيث تنأ بما تعلق به الروح . على ان لبابة دعيتها الى الاتئاد معلنة : لا تدخلني على امير المؤمنين الا وقد مهدت لك اليه ، يا حسنة . فاذا ما فاجأته بالاستئذان عليه ، تراءى له ان غيرتك من الخيزران حفزتك الى الوشاية بها ، ويبحي البرمكي !

فاوضحت حسنة : بل ان الارتياب بي يسطو على ابي عبد الله وهو يسمعك تستأذنين لي عليه . فيخالج ضميره اننا التقينا وتواضعنا على نفث الابطال . وليس من جميل الرأي ان يدري اني بكما على صلة ، وانا ألقى اليه نبأ المكيدة . ساباغته بمثولي في حضرته كي يؤمن بان لا شريك لي في الرواية ، واني ما كدت اسمع بها حتى حملتها اليه !

فهتف الهادي : والحكمة في ما أعلنت ، يا حسنة . حرصك على هناة امير المؤمنين ، وعلى دوام عزه وسعده ، دفعك الى ارتياد البلاط ، والجر بما سقط اليك . وسنقف بجانبك . ولكن دون ان نتظاهر باننا نلم بما تنبئين

به الخليفة من فاضح السرّ !

واضطرت لبابة الى الموافقة على رأي الجارية الخفيف . عليها ، وعلى زوجها ، ان يتنكبا عن الظهور بمظهر المطلع على ما وقع في مسمع حسنة من القواصم . والا بدت فوراً للعيون الدسيسة الزائفة البواطن والذبول . وانتقمت الخيزران الانتقام الذريع من السعاة المخرقين . فتقبض بملء يديها على النهزة العارضة . وتنزع الهادي من ولاية العهد ، كما تنزع حبة من سمط . وتغري اياه بدمه . وتنهض بهارون الى القمة الشاخنة ، وما تهوب ان يزاومه عليها ذو وكد . فكأن موسى ولبابة وحسنة ، وقد شاوروا نفس الخيزران ، وهبوا لهذه المنتقمة القهّارة رجاوتها بسخاء . قالت حسنة : على كل منا ان يتجاهل الآخر . وليس لذي بيان ان ينبس بانه ابصرنا على خلوة . والا استنشقت الخيزران رائحة الكيد . وذهبت بنا ضحايا بلائمن . وهو جلّ ما تطمع فيه . فانها لتكرهنا جميعاً وتستحل دمنا . وقد تكون ترقب السانحة بنافذ الصبر لتزعزع ، في صدر المهدي ، رأفته بنا . فلنتسّق غدرها ، وليست ترحم فيك آصرة الامومة ، يا موسى . وانت ، يا لبابة ، فلن تصون فيك تسلسلك من رهط الكرام ، ولها عليك حفاظ وسخائم لا ينطفىء لها جمر . وكلما لاحت لك ازديتها . واطلت عليها اللسان في الحاشية . اما انا فانها لتري في سحتي العدوّة الجبيرة . وتميل الى سحقي بنعلها للخلاص من شبحي الدميم ، ولي من مودة المهدي بعض النصيب . انا وحدي ساعرض نفسي لنقمة المقادير ، وأقف في حضرة امير المؤمنين لاجلو له الكارثة المتحفزة للانفجار . فاذا شعر بالتزوير ، دهمني عقابه دون سواي . وكان لي في النجاة من عبء الهوان عزاء . وان جاز فيه النبأ ، تقاسمنا الهبات والمن . وكبئنا

من غلواء الخيزران !

فقلت لبابة تفيض بخشية طارئة : أتريان أن نثقب سمع امير المؤمنين بالرواية الهتّاكة، وهو في خضيب رفاهته، وقد عقد لهارون على زبيدة؟... أليس من الخنكة ان نثريث حتى تنقضي في البلاط الافراح؟

فنتأت عينا الهادي، وجلجل بغضبة العجول، الراغب وشيكاً في انقشاع الكدرة: ولكن روعة الضربة في انقضاضها على القوم وهم يحسبون انفسهم في طمأنينة . فنسقط عليهم وتبددهم في خفضهم وجذلهم . ومن المحال ان يستفيقوا منها على هدى، وستجتاح نهاهم . ليعلم اليوم امير المؤمنين ان اعداءه يستأسدون تحت سقف بلاطه ، وانه يرقد على اجحار العقارب والشعابين المعششة في سريره . وكيف تملك القدرة على البسمة، وخصوصنا يتهادون على بساط الرغد والانس، ونحن نشقى حتى نكاد نلتوي في خطونا وحجانا؟... لن نفوز الا وقد افنينا . والا فسنظل نكابد احوال الضنى . وربما فجعنا باعز الصابات !

وتصاعدت كلماته الاخيرة تتظلم . فهو يئنّ . قالت حسنة وقد ازدادت عليه اشفاقاً : لا تجزع . ساكون الليلة في بلاط امير المؤمنين، وقد جلت عنه الخيزران الى صرح اساس . وسابلق المهدي أن خوفي عليه شدّ بي الى حرزه الركين . وأنثل في وعيه النبأ . ولك ان ترصدني لتلمّ بما اتفق لي في حضرة ابيك . فان لم ابرح البلاط، فقد تكون نزلت بي الطعنة المصور، واني لاستودعكما الله !

وابتسمت ابتسامه حزينة ، مبطنة بالوهلة، وسترحل عن خيرات مواع خضال . على انها رأت نفسها مكرهه على المجازفة، ولن يصفوها لها العيش ما دام

خيال الخيزران يقف بينها وبين امير المؤمنين حاجزاً صفيقاً ، لا ينفذ منه نور ، ولا يأذن في فرجة . وليست تحمل هذه الشدة الناهكة ، المنعصّة عليها متعة الاستقرار بكنف الخليفة المريء الظل . اجل ، بلغت من دنياها ما يجاوز الحلم . على انها ، وقد توقلت الى الهضبة ، واوشكت ان توسخ في الذروة ، فأنها لتلجّ في ادراك الاسنى . ولن تسكت عن تدويخ من صدها عن الملتمس . وما دامت الخيزران تحرض عليها ابا عبدالله ، فستحرض ابا عبدالله على الخيزران . فالمكر يداوى بمثله . وستكشف النهاية عن الكفة الراجعة . قال الهادي ، وقد آلمه ان تنعى اليه حسنة نفسها : ولكنك ستظفرين ، يا حسنة . فليس لمجهدهم انهمزام . ولا تنسي أننا في عونك . فلا نفترق عنك حتى الاجل !

فضحكت في نفسها من هذا البازل لها العون ، وهو لا يملك القوة على مناهضة أمه في جيش ، ولا في عزة . وماذا يستطيع اذا اباح ابوه دمها عقاباً لها على نيمتها ؟ ... أيردّ عنها مكروهاً ؟ ... انه لحسير . بيد انها اعتمدت على وكدها وهزأت بالمقادير . فان اقصى ما سينزل بها هو حكم الموت . وستنحني ازاء قسوته غير متبرمة به اذا عدا عليها الاخفاق . فلن تتلف على شباهها ، ولا على اشراق سعادها ، وقد هصرت فيها الخيزران رفاهة البهجة . وكل ما تحنّ اليه ان تطلق نبلتها دون ان ترقب غوث احد ، وما تتكل على سوى ساعدها . فاذا دانت لها النعمة السامقة فازت من ايامها بما تستطيع ، والا فلا أسف على الدنيا . ونهضت وهي تجمجم : الليلة تسمعان اخباري ! ولوت رأسها خيال الهادي . وصافحت لبابة وبسمتها الوجلة تنتشر في مغارفها . واعلنت : الى اللقاء ... او ... وداعاً !

وما عليها اذا ودعت ، وربما تبصر ، لآخر مرة ، في وقفها الخاشعة ،  
هذين الوجيين البادين لها ، وقد جمعت بينها وبينهما المصلحة . اجل ، لا عروة  
غير المصلحة . وهي في جهادها لاجلها تجاهد لنفسها . فلن يدركا الرفعة  
دونها . وتوارت من باب خفيّ دون ان تكون يرفقتها احدى جوارها .  
فانسابت وحدها الى المجلس المكنون ، وهي موقنة ان الاحتجاب مفروض ،  
وثمة هدر دماء ، وخطف ارواح . وضاعت في ازقة بغداد طائفة الى مثواها .  
وما اعارها شأنًا كل من ابصرها في طريقها الى مبيتها ، وقد خلعت عليها  
اطماراً بالية تنكر بها . فكأن نفسها تحدثها بان الخيزران تقيم عليها العيون ،  
وتحصي عليها كل نغشة تبدر منها ، حتى اطلاقه النفس . ودخلت المقصورة  
تسأل جاريتها سعدة ، الواقفة دون سواها على نيا براح سيدتها الدار : هل  
من اقبل لزيارتي ، يا سعدة ؟ ... هل من خبر عن امير المؤمنين ؟

فاوضحت الجارية ببسمة صافية : ما دقّ احدُ الباب ، يا مولاتي .  
فالسكينة تغمر المقصورة وانت بعيدة عنها !

فادركت الغصة حسنة . ليس من يحفل بها والمهدي يدلل سواها .  
فكانها ليست من الاحياء . قالت بكايي الممض : أعدّي لي زينتني ، يا سعدة .  
عليّ ان اشخص فوراً الى امير المؤمنين !

وانها لتصبو الى مضارعة صرح اساس في عظمته ، وازدحام الوفود ببابه .  
فتعادل الخيزران في وفور الشهرة والجاه . وتحتل من امير المؤمنين النبهة  
والبال . ولماذا تسبقها في الشوط أم موسى ، وهي مثلها أمة في نشأتها ،  
وليست تتفوق عليها في عدوبة ولا في وسامة ؟ ... ان من وهب الحظوظ ،  
لهؤلاء الدارجين في الارض ، قد يكون وهب لها حظاً نضراً ، يحتاج منها

الى بعض السعي لتتمزق عنه الغشاوة ، وتنجلي الطلالة . وهذه الغشاوة  
تجاهد حسنة في شقّ برقعها . فإما تكتب لها الفوز والجلال ، وإما تهوي  
حتى اعماق الخيض  
أمة زريّة نشأت ، وأمة زريّة تموت . ان للاقدار كلمتها الفصل في  
توجيه الخطو ، وابرام المصير !



لا ينفك البلاط يعقب بشذا الجبور. فالعرس تتوالى مواكبه، وتتكاثر حلقاته. ابن الخليفة، وابنة اخيه، في ابيه مظهر من اللدونة والالفة. ولقد وثبت اليهما دنيا العرب قوافل، تلو قوافل، مثقلة المناكب بالهدايا. فمن الهند والسند، حتى الاندلس، تقاطرت الوفود تلقي بباب امير المؤمنين رحالها، وأحمالها. وما نضبت الاندلس، ولا خلا المغرب، من شيع تساند العباسيين، وتقرّ لهم بالسيادة والامامة، مع ازورار ارباب الامر فيهما عن بغداد، مبعث الشأو المديد، والجلال العريض

وأحس، في هذا اليوم، ابو عبد الله محمد المهدي، بالوهن يدب اليه لفرط ما احتشد ببابه من المهنيين والمزدلفين. فوصلوا الليل بالنهار في الدعاء والتبريك، وتقبيل الارض بين يدي الخليفة، الهانئ بالرغد المنشور. ومال المهدي الى الرقاد يستريح به من عناء يومه. فأمر باطفاء الانوار في البلاط، وبركون الجميع الى ساجي الغفوة، يستمرثون نعيمها. فالافراح ستعود الى فورتها بعودة النهار المتحفز للوثوب

وسادت الغبشة، وليس في بلاط امير المؤمنين بصيص نور. فكان قصر الخليفة شبح يتضائل في كبد الظلمة. بل كأنه خيال يتقلص، فيغيب. وتطوى معالمه، فتغور. واقام بالباب الحرس. وطاف العسس بالمكان يردون عنه العيون. وسكنت بغداد على مترامي بساطها، كأنها في غيبوبة. بلى، كان يتصاعد من احشاء خماراتها غناء وعريدة، الا انها لا يجاوزان العتبات. ويوج، في الآذان الواعية، هدير الفرات ودجلة، وما يقنأ

يواصل الآباد . والتمعت ، في منازل بعيدة عن دور السادة ، اضواء  
مترجحة . كأنها على خجل من نفسها . وقد ابت ان يلتهب فيها الزيت ،  
بعدها انظافاً في مثنوى الخليفة السراج . فادر كها تهويم وغصة ، يكرهانها  
على الشحوب ، فالكسوف

وتوائب في الازقة والجادات خيال مجتج ، يبت الهواء فاغم الطيب ،  
كأنه معطرة سيار ، مسرقة في الجود . وحبا الى بلاط الخليفة ، وقد  
جرى على مقربة منه خيال آخر ، بادله الكلام لماماً ، كأن في نفسه ما  
يشغله عن هذا السائر بجانبه . ووقف بباب البلاط مستأذنا على امير المؤمنين .  
فتبرم به رئيس الحرس ، مع كل ما فاح منه من عابق الارج الشفيق .  
واستوضح بلهجة تتنكر للسماح : أستأذن لك على امير المؤمنين ، وفي مثل  
هذه الساعة ، وقد نام ابو عبد الله نومة لا سبيل فيها الى ازعاج ؟ ... ألا  
عودي ، وقاك الله العثرة ، من حيث اقبلت . امير المؤمنين ليس على أهبة  
للاصفاء ، حتى الى الخيزران ، على ما تستمتع به لديه من منيف الخطوة .  
باب البلاط لا يباح الآن لقريب ، ولا لغريب !

وما ندد عن رئيس الحرس أنه إزاء امرأة ذات خطر، وكل ما فيها يدل  
عليها . وما جهل ان هذه المرأة من ذوات السني الباهر ، والعدوبة الممرع .  
ففي كلماتها رنة من استهواء . وفي قامتها بعث صباية . وفي عرفها اغراء .  
ولم يستطع ان يتبين ملاحظها والانوار منطفئة . الا انه ادرك ، بثاقب بصيرته ،  
انه حيال روعة جاذبة ، اقبلت في الليل الفاحم تعرض مواهتها على امير  
المؤمنين . غير ان المهدي لم يتحدث عن طارقة في ليلته الدهماء . فكل ما  
اذاع انه ينبغي المهجوع الهنيء . فكيف يستجيز رئيس الحرس خرق الامر

المعلن؟... أيجمل ما يلقي من ابي عبدالله اذا روعه في يقظته السبوح؟  
على ان المرأة - وما كانت هذه اللاطمة بخطوها وجنة الليل غير امرأة -  
لم ترهب سائك المقال . فاوضحت بثقة جازمة : صارحه بان جاريته حسنة  
تدلف اليه في امر خطير ، لا بد فيه من عاجل الابلاغ . فهناك ما يجاوز  
السمر والمؤانسة . ان في ما احمل اليه حياة دولة ، ومصير عرش !

فارتعد رئيس الحرس . بجم تنفوه صادعة الليل ؟ ... وخشع حيالها  
وقد عرفها . هذه من تتلو الخيزران في مودة امير المؤمنين . ولكن المهدي  
شدد في منع الناس من اطلاقه في عفوته . فليس حتى للمقربين اليه ان  
يدهموه بانتباهة . فكيف يتخطى رئيس الحرس النواهي ، ويفسح للجارية  
الغراء الى الخليفة ، فيوجع روحه ؟ ... ان غضبة ابي عبد الله ، على طيب  
سريوته ، لتعدو الحلم

وارتبك رئيس الحرس . ازاءه حسنة الجارية المختارة . وما تقبل فيه  
من مهمة ينذر بمستفحل الغواشي . فان يكن الاقدام على ايقاظ امير المؤمنين  
بلية ، فالسكوت عن اطلاقه على الفاجعة شرّ البلايا . ولم ير رئيس الحرس  
محمداً عن دق باب الخليفة ، مع كل ما سيناله من نعمة المهدي . فما دامت  
الدولة في خطر ، فكيف يتهاون في نشر النبأ في مسمع القابض على  
ناصيتها ؟ ... ولكن أتنتطق حسنة بالبيان الصادق ، السليم ؟ ... واستفهم :  
أتبدين حقاً ، يا حسنة ؟ ... أقتحم باب ابي عبد الله واصيح بالفاجعة ؟ ...  
ان لم تكوني على بيّنة بما تعلنين ، فلا تلعي بدمي . انا ذو عيلة ، وموردي  
هذه الجعالة يتكرّم بها عليّ امير المؤمنين . أفجأ المهدي بالبلاغ الكاذب  
وانا احده بما تروين ؟

فابانت وهي تتحرق شوقاً الى رؤية ابي عبد الله : لن تنطق بسوى  
الصدق . افعل ، ودمك في عنقي . فالتبعة عليّ في كل ما يصيبك من غضب  
الخليفة . ثمّة ما لا يأذن في رقاد ، يا ابن امي . ان الدولة لعلى فوهة بركان ،  
فليحذر المهدي !

— وهل احده انك ترومين المثل في حضرته لجلاء اليقين ؟

فضحكت من غباوته ، وقد اضاعته الوهلة روعه . وقالت بلهجة تنضح  
بالسخر : ألا ماذا جئت افعل ، في مثل هذه الساعة ، ان لم يكن في نيتي  
الوقوف بين يدي امير المؤمنين ؟ ... حسبك ان تعالته أفي هنا كي يرضى  
عن مثولي بين يديه !

فمشى رئيس الحرس الى باب الخليفة وهو يرتجف ، ورجلاه تعاندانه في  
المسير . امير المؤمنين دعاه الى سد مدخل البلاط دون الجميع ، فكيف  
يستهيّن بالرغبة القاهرة ؟ ... على انه استند الى حسنة ، والى ما ينطوي عليه  
صدرها من نبأ فاجع . فسينسى المهدي حيال ما تلقي اليه كل خروج على  
النهي الغليظ . واقترب رئيس الحرس من الباب على رؤوس اصابع رجليه .  
هنا يرقد ابو عبد الله . وتنصت . هل من حركة ؟ ... وارتفعت يمينه توسك  
ان تدق . فنبت عنه الجرأة . انه ليحاول ما تتلاشى دونه الطاقة . وكاد  
يعود ادراجه . ولكن حفزه الى البقاء والانذار كون الدولة في خطر .  
وغالب نفسه على طرق الباب . وهوت يده على الحشب تدقّ دقات خفيفة  
لا ينساب وقعها الى أذن . فما سمع جواباً . فاعاد الدق بقوة امضى . لن  
يرجع الى حسنة الا وقد نبّه امير المؤمنين الى الرزية . ولهت ، كأنه يتسلق  
قمة . وعلا صوت يستوضح بنفرة : من ؟

فانحلج قلب رئيس الحرس . استيقظ الخليفة المهيب . فيا للويل ! ...  
واجاب بنبرة استخذت فتضاءلت حتى كادت تضمحل : رئيس حرسك ،  
يا امير المؤمنين . جاريتك حسنة تستأذن على مولاي . أجز لها الدخول ؟  
فتعجب المهدي بما يسمع . أتكون حسنة ، نظيرة حظاياها ، بالبواب ترجو  
رؤيته ، في ساعة لا يتشهى فيها الاستماع الى ذي شجن ؟ ... ألا ما للجارية  
اللعوب تبغته في جوف الليل ؟ ... وساورته الحشية . هل من نكبة ؟ ...  
واستطلع : وما يهيب بها الي ؟ ... هل من شر يساورها ؟

فخشي رئيس الحرس الايضاح . قد يحنق امير المؤمنين ، فيتناول رئيس  
الحرس المسكين بما يزيل عنه بسمه النعمة . واكتفى الشقي بان يعلن : هي  
تقول انها تحمل الى مولاي من الانباء ما لا غنية فيه عن ابلاغ !

فارتعش الخليفة . أي أنباء هذه في حلقة الليل ؟ ... أليس في صدر  
حسنة بقيا من صبر ريثما يطلع الصباح ؟ ... وتراعى للمهدي ان الغيرة  
اضطرت في حسنة ، فدفعها اليه شاكية ، عاتبة . وهزأ بضعف النساء ،  
وقد هاجتهن الغيرة . على انه ما لبث ان غفر لمن النزوة ، وهو منها في  
ابعد مجال . فما كان يحتمل سماع عاشق يتحدث عن هواه . بل لم يكن  
يرتضي ان يكشف شاعر عن صباباته في ابيات من الشعر . فالحب والغرام  
وقف عليه وحده ، هو ابو عبد الله المهدي ، الجالس على سدة الخلافة في  
ربوع العرب . فليس لامرئ سواه ان يهيم بانثى ، ولا ان يدركه الى الجمال  
نزر من حنين . فالحسان كافة للمهدي . والمودات باجمعها له . والا نقم ، لفرط  
غيرته ، على الوهان وتوعده . وليس له ان يعشق ذات مواهة ، والمهدي في  
بلاطه سيد الرقاب والقلوب . ومع فجاءة اليقظة رضي عن الخطية الواثبة

اليه في كبد الليل ، تجرّها غيرتها الفائرة . وقال وهو يبتسم : لتدخل حسنة .  
فلن نجيبها بمنع . انها منا لعلی سعة !

وانظرها ، وقد اضاء بنفسه في حجرته المصباح . وانفتل رئيس الحرس  
الى حسنة يقول ، وهو يتنفس بنشوة من ارتياح ، كأنه خاض عباب الاهوال  
وخرج منه ظافراً : اسرعي اليه . اسرعي . ما ايقنت انك ترتعين منه في  
المقام المنيف الا وانا اسمعه يرحب بك في هذه الهدأة . كأن الطارقة احدى  
الاماني السمان . والله ، كنت امسك قلبي بيدي لئلا ينتثر ، وانا أدقّ  
الباب ، وقد ابى علينا امير المؤمنين ايقاظه ، حتى اذا خربت الدنيا .  
ولكنها حسنة ، ساكنة الفؤاد ، فلا يعز عليها مرتقى ، ولا تقفل دونها الجنة  
على ضيق دربها !

فلم تكن تأنس بمديح . وألقت في يمينه صرة من المال وانطلقت الى  
ابي عبد الله تصحبها جاريتها سعدة . فرأت ألا تبدو وحدها في حضرته ،  
وهي تعلم ما يتوهج فيه من ملتهب الغيرة . فقد يعيرها براحها مقصورتها  
في لقاء حرام ، ويزلزل بها الارض هادراً دماً . ودخلت تنحني بين يديه ،  
رتسلم عليه بخشوع رق . فابتسم لدن تلالأت ازاءه فواتنها . وتعطرت  
بطيوبها حجرته الثرية التنضيد ، المتوهجة بخالص الذهب ، في السرير ، والخزائن ،  
وقواعد الشموع ، والمصابيح ، والمقاعد . وبسط لها يده فتبركت بلمتها ،  
وهي ما تبرح على خشوع ، كأنها لا تبدو حيال امير المؤمنين لشؤونها ،  
بل لامر يجاوز الوله ، ويفرض اليقظة والحذر . فاستطلعها ابو عبد الله بصوت  
يغلّفه الدهش ، وقد راعته فيها الرزاة المغالية في الجدد : ألا ما بنا ،  
يا حسنة ؟ ... انك لتقلقين في نفسي هناعتها . هل من نازلة تخدش

بعواها اسماعنا ؟

فالتفتت الى جاريتها تقول : بوسعك ان تحتجبي ، يا سعدة . انتظريني  
ريثما يأذن لي في الانصراف امير المؤمنين !

فاغلق المهدي الباب ، وطوّق خصرها بيمينه ، وهو يقول جانحاً الى  
المزاح : أتومين الانصراف ؟ ... ولكن ستبقين الليلة عندي . والا فما  
جاء بك اليّ ؟

فسعت للافلات منه . وقالت ورزانتها لا تنفك ترسو فيها : ما طرقت  
باب امير المؤمنين حباً لنفسي ، بل حباً لمولاي ، ولدولة يسوسها !

فاطلق فيها عينين جاحظتين . أما تزال جادة في الترويع ؟ ... وصاح  
بها بقسوة اهتز لها قلبه : طرقت بابي حباً لي ولدولة اسوسها ؟ ... ألا ماذا  
تحمّلين اليّ ، ويحك ، من بائس جهم ؟

وكاد يلتهمها بباصرتيه المشتعلتين وهلة وحنقاً . لتفصح عما يسوقها اليه .  
فاجابت وقد رأت ان تصدمه فوراً بنبأ الكارثة : سعيت اليك في ما يقيمك  
على احتراز من اعدائك الطامعين في هدمك . في دارك من ينظم المسكايد  
للنيل منك . فان للخراساني المقنع ، الثائر عليك في خراسان أخذاً بثأر ابي  
مسلم ، شركاء في هذا البلاط ينصرونه عليك ، وانت عنهم في غفلة . وليس  
لمثلي ان تقف على النبأ الهالع ، وان تسكت عنه . فوثبت اليك في الدهمة  
ألحّ عليك في اتقاء الدسيسة الجارفة !

فازدادت فيه مخاوفه . وزجر وقد تشنجت اعصابه ، وتضرم قلبه بالغاشية  
الدامغة : ماذا ؟ ... ماذا تعلنين ، لا ابا لايك ؟ ... أيكون للمقنع  
الخراساني انصار في هذا البلاط ؟ ... والله ، لازعزعن الكون بمن استحل

الجرأة الكفور . ألا من هم الاوغاد ؟ ... هل لك ان تسمي ، بل هلا  
سميت ؟ ... اني لا قدر عليك النطق بكل ما تعلمين . فلست ارضى عن  
كتمان حرف مما تحفل به حوانيك !

وتطير شظايا من سخط . وودّ لو يستطيع الانقضاء ، بتمسح يديه ،  
على هذه الملوحة باسرار المكيدة المتقدمة تحت رقاقات من ساتر الرماد .  
فيقبض على الاحشاء ، ويندروها ، ليلمّ بما تبطن من غامض رهيب . وسرّ  
الجارية حسنة ان تكون هاجت فيه الحقد والبغضاء . قالت ، وقد اعترمت  
ان تجازف بكل عزيز لادراك الاعزّ ، او للانطفاء في حفرة والخلاص مما  
ينهشها من إحن : مولاي امير المؤمنين يعلم مبلغ اخلاصي له ، وكلفي به .  
فما كاد النبأ المصور يتأوج في سمعي ، حتى هفوت الى البلاط لفضح الدسيسة .  
قيل لي ان ليحيى البرمكي اصعباً في الفتنة المحتمدة في خراسان !

فتولاه الجمود فيما تتلفظ باسم يحيى . ليس يعتقد ان لابن خالد البرمكي  
ميلاً الى هدم الدولة القائمة ، وهو يستمد منها القوة . فما لمع في رغبة  
السلطان الا وقد اسرف في موالاة العباسيين . فان تكن نفسه تحدته بالقضاء  
على مكانته ، فلينصر النافخ في بوق الفتنة في خراسان . ثم ان المهدي ،  
بعدهما لقي من نفرة الفرس من العرب ، لدى اجتثاث هامة ابي مسلم  
الخراساني بسيف ابي جعفر المنصور ، فتر في الركون الى سادتهم المواليين .  
وكان قد اعترم ان يكمل الامر الى يحيى بن برمك . فيعهد اليه في شؤون  
الدولة ، كبيرها وصغيرها ، ليقضي في الجليل والحقير . واوشك يحيى ان  
يستوي في المنزلة السامقة ، في كنف المهدي . بل هو استوى فيها لبعض  
الزمن . الا ان سوء الظن - وهو من حسن الفطن - اهاب بالخليفة الى



الاتحاد. فجنح بيحيى الى الاهتمام بامر هارون الرشيد، واستوزر أبا عبد الله الأشعري . وما يخفى على المهدي ان حنين البرمكي الى الوزارة يأكله . بيد ان الزمن ليس بالمؤاتي . ولم يغب وفر الدهاء عن يحيى ، النائم ريثما تدق الساعة ليستولي على الدفة . أما ان يستعجل الوقت، ويعرقل سير الامور، شوقاً الى السؤدد الحثيث ، فمما يرتاب به امير المؤمنين

ولكن الحكمة تدعو الى التحقق مما تذيع الجارية . قال الخليفة وهو لا ينفك يسهو مما يطرق اذنيه : أموقنة انت ان يحيى البرمكي يغدر بي ، يا حسنة?... ولكنه ما فتيء ينال في حضرتي من المقنع الخراساني الارعن . ولقد عاهدني على ان يأتيني برأس المشؤوم . فكيف يكيد لي ويخدعني?... ان في ما تبلغيني اياه لشر ما يصاب به الجميل من ازمة . غير اننا تعودنا من نحسن اليهم نكث العهد ، والحث في اليمين . أما يحيى بن خالد البرمكي ... فلست اراه ... يقدم ... على الحيانة ... والنكر !

وافضى بكلماته الاخيرة متقطعة، لضعف ايمانه بما يأذن به . لا ريب ان حسنة متأثرة بما ينتشر تحت سماء بغداد من اقاويل تنبؤ عن الحلم . قالت حسنة، وقد ابت الا ان تستمسك بما أبلغت. ، كأن ما استنبطت وموسى الهادي ولبابة اضحى لديها حقيقة راهنة لا سبيل فيها الى دحض وبطل : ولكن من نقلوا اليّ الخبر لا يكذبون ولا يفترون . ثم ألا يجد امير المؤمنين، في العقد لهارون على زبيدة، مقدمة لانقلاب يطاول الدولة في مناعتها، ويمهد الى اتساع فتنة خراسان?... ارى يحيى البرمكي ينظم المكيدة بمصانعة تغالي في التمويه . على ان ذوي الوفاء لا تغمض عيونهم عن اللؤم المكتسي نصاعة البراءة . ففي نية يحيى ان ينادي بهارون الرشيد ، وهو صنيعته ،

خليفة في هذه البقاع المستظلة لواءك ، ليموت على العرب بكون الخلافة ما تزال فيهم ، وقد حل محل المهدي ابنه ، ويسير بالدولة الى حيث ارادها ابو مسلم ، فارسية صرفاً ، ويطمس كل اثر للعباسيين !

فأوغرت صدره على يحيى وهارون . ليس يخلو بيانها من خلجة الصواب . ولاح له في الخيزران نزوع الى المناكرة . فان مناواته اياها ، في عقد ولاية العهد لهارون دون موسى ، أمالتها الى مظاهرة الفرس ، كي تنجو من شبح موسى الهادي ، ابنها البكر . وتعتع المهدي في قوله ، والهواجس تستيقظ فيه . فاعلن بأضطراب سحيق : ان يكن ما تنبئين به حقاً ، يا حسنة ، فانك لتدفعيني الى مجزرة لم يشهد لها العرب مثيلاً ، وسادعو الى الفتك بكل فارسي . فابدأ بيحيى البرمكي ، والمقنع الخراساني ، وانتهي الى الفطيم والوليد . ولكن أعيدي الرأي في ما تبدين . ربما كنت تتجنين على الابرياء ، وما يشوقني سفك الدم النقي !

فهمت ، وقد وضع لها انها تغلبت عليه : واين التجني ؟ ... أتكون بعيداً عن انباء فتنة خراسان ؟ ... ألا ينتقل اليك عمالك ، في بلاد فارس ، ما يتمخض به الجو من كره ومقت للاقوام العربية ؟ ... ابو مسلم لا يزال حياً في مطاوي الصدور . ولماذا ثار على الامويين ؟ ... هل ثار عليهم لكونهم خصوم بني هاشم ؟ ... لا . ليس للخليفة الذكي ان تحدهه الحجة المتداعية الاسانيد . ما قامت قيامة ابي مسلم ، على الامويين ، لسوى كونهم من العرب الاقحاح . وأمضه ان ينتقل الامر من العرب الى العرب ، بركوب العباسيين سدة الخلافة ، فنهذ الى احراج موقف ابيك ، ابي جعفر المنصور ، ليستتب له الامر ، ويمتلك السلطان في دولة خيل اليه انه بانيتها . غير ان

اباك قلّم اظفاره ، وفلّ من غربه . فرهب الفرس ابا جعفر واستكانوا .  
اما وقد قضى المنصور ، ومشت الخلافة اليك ، فتجرات المطامع على التحفز ،  
والانياب على التكشير . وقام المنقع الحراساني يطالب بأخذ الثأر . ومن  
هو المنقع الحراساني ، هل لك ان تعرفه ؟ ... ان هو الا ظل يحمي البرمكي  
المخاتل ، اللئيم !

فارتبك . ربما كانت على علالة من صدق . هذه المفاجأة ، بالعقد هارون  
على زبيدة ، تفرض الروية واليقظة . فكيف اسرعت الخيزران في الابرام ؟ ...  
وكيف اقدمت على المواهمة العجلى بعد القطيعة الكاشرة الناب ؟ ... ثمة ما  
يدعو الى ازاحة الستار عن الاحجية . فقد تنطوي على حفيل الشكوك .  
وليس ما يمنع الفرس ان يتعاضدوا بعد مقتل ابي مسلم الحراساني بسيف المنصور ،  
وان يجاهدوا في الاخذ بالثأر ، وهم يحسبون انفسهم ارباب اليد الطولى في  
تقويض الامويين ، وتحرير سدة الخلافة من ظلمهم البغيض . فما كان  
للعباسيين ، ولا للطالبيين ، ان ينتقموا من قاهريهم ، لولا السيف الفارسي .  
ومهما بلغ الولاء من يحيى البرمكي ، للبيت العباسي السائد ، فهل له ان  
ينسى انه فارسي قحّ ، وان في جلاء الكابوس العربي سوّد الفرس ، ونشور  
عرش كسرى ، وبعث الايوان ؟

والتفت الخليفة الى الجارية المقلقة فيه صفو الخاطر يقول : تزعت من  
نفسى البهجة ، يا حسنة ، في ما جهرت به من بلاء . والله ، ان يكن يحيى  
ابن برمك ، ذلك الغادر المناق ، فما هو بالطويل العمر . سابطش به كما  
بطش عمي ، ابو العباس ، بابي سلمة الخلال . وكما ضرب ابي عتق ابي مسلم ،  
سيصيب يحيى مني . هي لي بعض الزمن للتفكير ، وفاك الله . مزقت عن

عيني غشاوة كانت تحجب عن بصري الافق البعيد !

وشعلته عن الاعتكاف على ملاطفتها . فهو في سهوم ، وقد انصرف باله الى انعام النظر في الحيانة العاصفة ببلاطه ، بل بعرشه ودولته . وكاد يثب الى حاجبه كي يدعو اليه رئيس شرطته للقبض على البرمكي . اما الخيزران ، وهارون ، فسيكون لهما منه موقف وعر . الا انه تريت . فالعجلة مدعاة الى الندم . لا عليه اذا رقب طلوع الصباح . ونهض من مجثمه ، وقد ضاقت به حجرته على فسحتها ، واخذ يجتاز عرضها في ذهاب ، واياب ، ماج فيهما الخنق ، والاضطغان . ان يكن يربّي في حجره الافاعي والتاسيح ، فياله من خاسر ، اعمى !

وما برحت حسنة تنظر اليه بلذة من اجاد اضرام النار ، وهي ترجو ان يظفر الحراساني الثائر بتأليب بني قومه على الخليفة العباسي ، وان يقهر قوات المهدي ، كي تتوهج في ابي عبد الله الضغينة على يحيى البرمكي . ويودي به . ويجرّ الخيزران الى مهواة النعمة . فيطمس منها في نفسه كل اثر من ولوع وحلم . وتراءى لحسنة انها الفائزة في النضال ، وان السيادة معقودة لها في حواني امير المؤمنين . وستنتظر ريثما ينبلع البكور . فالانباء المتطائرة من خراسان لا تدل على ان الثائر الحراساني مهزوم ، بل تشير الى استنساره ، والى احتشاد القوم في طاعته ، ونفرتهم من السادة العباسيين

وتكلمت الجارية فقالت بمصانعة تحفي ما تتقد به الاحشاء من غلّ : ما كنت ارغب في ايلام مهجة مولانا ، حفظها الله . الا انه السعي لانتقاء الكارثة اهاب بي الى الانذار ، في ساعة تنبو عن البيان ، ولاسيما بيان السوء . ففعواً عن اخرجت فيك غفوة الهناء ، يا امير المؤمنين !

فلم يجب . انه لعلى زفير يكوي الخنجرة والحلق والشفتين . أنتطفئ  
فتنة الفرس ، في عهد ابيه ، وتهب مستأسدة في عهده ، ويكون من ادناه  
منه ، حتى بات المؤمن على النجوى ، احد النافخين في ابواق العصيان ؟ ...  
اذن لقد استضعفه يحيى البرمكي . ولكن لا . سيعلم المفسدون انهم سيذهبون  
ضحايا مكايدهم الخسيسة . فليس المهدي دون ابيه المنصور . ومال على حسنة  
يقول : ومن اطعك على هذه القواصم ، يا حسنة ؟ ... هل استقيت انبائها  
من مورد مصون ؟ ... أخشى أن تكوئي خدعتي ، وفي الخدعة ما يخرج  
بي عن الهدى . فاحذري أن تضليني ، وأن تدفعيني الى تحطيم من لا يزال  
لهم عندي بعض الكرامة . فالعاقبة ستكون وخيمة . فاتقي الله !

فاعلنت بقوة في الاداء : لست افترى . فلو لم يكن مذيع النبا من  
يقدرون عليّ الثقة بما يجهرون به ، لقعدت عن الشخوص اليك في هذه الحلقة ،  
وازعاجك بالرواية الموجهة . فالمخبر يدعو الى الركون اليه . ليكن امير  
المؤمنين بما احده به علي وفور يقين !

فاستطلع بفضول ملحّ : ومن هو ناشر النبا ، يا حسنة ؟ ... هلا  
اوضحت ؟ ... بجياتي !

فاجابت تتحامي الافضاء بما يشدد عليها في ابدائه : ليس لي ان اضرم في  
صدر امير المؤمنين الحقد على ذوي الولاة . ولا ان اعرضهم لنقمة ارباب الطول  
والجاه ، من امثال يحيى البرمكي . انا حاملة النبا اليك ، وعليّ تبعته وحدي .  
فاذا بدا لامير المؤمنين اني على حق ، فحسبي ان انعم بوضاه . وان يكن  
تمة وشاية ، فلست اصدف عن احتمال ذبورها ، وقد حباني الله رباطة جأش  
زادها امير المؤمنين ، دام بقاؤه ، مكنة ورحابة !

فادهشه منها الكتان ، وهتف : من هو الراوية ، يا حسنة ؟ ... من  
حقي ان افق على اسمه . أتخفين ما بنفسك عن امير المؤمنين ؟ ... اني  
لاهييب بك الى الافصاح ، فلا تترددي في الجهر بما تعلمين . من هو الثقة  
الراتع في ايمانك بصدق مقاله ؟ ... هلا اطلعتني على امره ؟ ... لا تخاطبيني  
بالانغاز ، ولست بمن يصبر على الاحاجي . فهاتي اسم فاضح المكيدة . اني  
لافرض عليك اعلان الاسم . هذا امر امير المؤمنين !

فصاحت تسدّ عليه السبيل الى المطلب : وحقّ الحليفة المفدّى ، لن افضّ  
ختم السر . انا من اذاع النبأ ، وليس لسواي ان يعاني وطأته . فاذا شاء  
امير المؤمنين انزال عقابه بالمعلن ، فلينتقم مني . باتت حسنة تشتهي  
مكابدة الويل !

وتنهدت عالياً من كبد تغلي وتثنّ . والتفت منها ابو عبد الله الى المارّة  
الكاسية معارفها ، فاقلقته فيها الحسرة الشائعة . وما تمالك ان دنا منها يقول  
مبهوتاً : أيروقك ان تكابدي الويل ، وانت احدي الجواري المرموقات في  
بلاط المهدي ؟ ... اني لاتعجب من منطقتك الكابي . ألا ماذا لسواك ان يتظلم  
منه ، وليس يبلغ نزفة مما تعوضين فيه من خير وترف ؟ ... فانت تكادين  
تسبقين الخيزران في نعمتي . بيد أنكين باجمعكن تتقلّبن على جحود . فالفضل  
مغبون فيمكن . اذا كانت حسنة ترّجحي الويل ، وقد بلغت في بلاطي مشارف  
الاکرام ، فليس لمن هن دونها الا ان يلتمسن الاحتراق بنار الجحيم . هلا  
ذكرت من انت مني قبل ان تطلق شفتاك التأوه والتأفف بما هي فيه ؟  
وتناسى حيال لوعتها ما اقبلت تعالته به . فكأنه لم يسمع بان عرشه في  
خطر ، وبان اعداءه يهددونه بابنه ، وبان الخيزران في قافلة هؤلاء المهديين .

قالت حسنة ، وقد تناهت في ابداء الحرقه : أرى امير المؤمنين انه يساويني  
بالخيزران ، وهو يتجاهلني حين تظهر لعينيه ؟ ... ليس حظي منك سوى  
حظ البائس من دنياه ، بل حظ الهالك من الجنة . فتسرف في وعدك لي ،  
ولا تجود عليّ منه برشاش . فلقد صبت بركاتك باسرها في بحر الخيزران .  
وماذا نالك منها ؟ ... انها لتكيد لك ، وتحاول محوك . هنيئاً لك  
تقدير الصنيع !

واقاضت بالتهكم . ليس يلقى من السيدة الاثيرة غير الاذى . وأرتج  
عليه . فما اطاعته شفتاه في دحض . وهل له ان ينكر انه يرفع الخيزران  
الى حيث يتضاءل الجميع ، بل الى حيث يتوارى الجميع ؟ ... وحاد في  
ما يخفف به عن هذه المتملمة مما تهون فيه من منقصة ، الغيور من مزاحمتها  
على قلبه الموزع الاهواء . فانه ليبصرها بعينيه الاثنتين ، على نور الشمع  
والزيت ، تغور في شقاوتها ، وليس يقوى فيها على علاج حاسم . داواها  
بكل ما لديه من مراهم ، فما ملك فيها القدرة على الشفاء . لقد كان يرقى  
بها الى مستوى الخيزران . ولكنه يقيم عليه القيامة اذا فعل ، والخيزران  
لن تغفر له هذا الاثم . وللخيزران سلطان على نهيمته ليس له ان يتحرر منه .  
فهو دون هذا التحرر ، مع سماعه أن السيدة الاثيرة تكيد له بالاتفاق  
والبرمكي الزنيم

وتشهد كما تشهدت حسنة . إنه لعاجز . بيد أنه قسا على نفسه في دره  
هوانه ، وجلجل : انت ابدأ في خاطري ، يا حسنة . فلن يسلك ابو عبد الله .  
الا انها الضرورة ، يا ابنة امي . وانت تعلمين ما للضرورة من صلب الاحكام .  
فالخيزران لم تبلغ مني هذا الشأو ، الا وقد ولدت لي موسى ، وهارون .

هذان يكرهاني على ملاينتها . ولقد كنت منها في امسي على مستفيض  
الشغف . لا اجد لها نديدة في وسعة الطلالة والجوى . غير ان هذا الحب  
الطامي استأثر به ولداي منها . وانها لتدري مبلغ حنيني اليهما ، فتنتضيه  
سلاحاً قاطعاً ، وتدرك مني شهوتها . فأنا لها لكونها أم هذين الاصيدين .  
واني لاسترخي في مودتهما . أما انت ، فاني اهواك لروعتك ونداوتك .  
فما الخيزران غير شجرة باسقة مثقلة بالثمار ، وانت نبتة خضلة تتفتح نضرتها  
عن ازاهيرها الفواحة العبير ، اللدان . والزهرة الريا ، تتعطر بها الانوف ،  
اشهى الى النفس من الشجرة المعطاء ، على مواهة ثمارها وطيبها !

ووفق ، وهو القلق الضمير ، لحبك البيان السني ، في سعيه لآخام  
لاعج الغيرة في صدر هذه الملسوعة القلب ، الهاججة العاطفة . ولكن حسنة  
لم تهدأ ولم تطمئن فيها نزوتها . قالت : ان ابا عبد الله لمبدع في صياغة  
الاعذار . الا ان النبتة الخضلة يدركها الجفاف ، اذا لم يتوفر على سقايتها  
زارعها . ثم ان للخيزران ، إن تكن تبدي حمال المهدي المودة والولاء ،  
مطمعاً يحدوها على الظهور بالمظهر الخلاب ، وهي تجنح الى السيطرة الغاشمة .  
بما ضجت من وقعه بسطة العرب والعجم . فكل من يتفياً ظلّ دوحتك ،  
الوارفة ، يجسد امير المؤمنين في حمى الخيزران ، لا الخيزران في فيء  
امير المؤمنين . وحفها طامحها ، وقد صدمتها باقرار موسى الهادي في ولاية  
العهد ، الى زعزعة عرشك ، قهراً لك ، ونسفاً لسؤددك . وانت لا تزال  
صابراً على قبحتها . بل على قباحتها . ولست ادري متى تفيق من غيبوبة  
طالت عليك . أتكون متلاًشياً في هوى من تنطوي لك على الكره والغدر ؟  
فجرض بريقه ، وقد جفت حلقه فغص ، وبربر : ألا يطلع الصباح ؟



وتوعد الخيزران . سيمثل فيها وفي يحيى البرمكي . اما الرشيد فانه  
لمكره على ما دعي اليه . بل جاهل ما يحاك لابيه من دسيسة منكورة ،  
سيكون بطلها دون ان يدري . فيغمد خنجره في صدر ولي نعمته بيد  
تتلبس بيده . الا انه بريء منها . فهي يد الثائر الحراساني يديرها يحيى  
البرمكي . أفٍ للسياسة ، كم تستحل الموبقات . فلا تتورع عن الميل الى قتل  
الاب بسيف الابن !

وكاد المهدي يثب ، على الفور ، الى قصر اساس . دم الخيزران بات  
مهدوراً . اما يحيى فسيصلبه المهدي ، في صدر بغداد ، تأديباً للمارقين ،  
لمن يأكلون خبز الخليفة ، ويحفرّون الحفر للايقاع به

ولكنه ملك القوة على الاضطراب . لن تفرّ الخيزران من بغداد . ولن  
يضرب الثائر الحراساني في هذا الليل الاليل الحصار على قاعدة الخلافة  
العباسية . فما يزال بعيداً عن العراق . وتعجب المهدي من نفسه كيف  
أوتي القوة على الاحتمال ، وثمة مكيدة لت هشيمه ، بل لمحوه . وجفاه الرقاد .  
ولاح له نجم الهادي على وهج ، وسعد هارون على أفول . ونقم على الرشيد  
بعد سماح . سيحرمه كل جلال ، ويزري به . هذا ابن الخيزران المدلل ،  
ولن يكون في مودة ابيه خيراً من امه الماكرة ، الوغدة . اخطأ جده  
المنصور حين لقبه بالرشيد ، وهو الضالّ

واذا هديرٌ يتعالى في كبد بغداد . واذا اصوات تتفجر بالهتاف الطروب .  
فارتعد المهدي . ماذا ؟ ... هل تتمخض بغداد بالثورة ؟ ... أيمشي اليه  
يحيى البرمكي في موكب هارون ؟ ... هل خانته الخيزران في عطفه  
ووجده ، فاستباحث نقض بيعته في اعناق الجند ؟ ... اذن صدقت حسنة

الجارية الامينة. لم يبق له سواها في هذه الدولة العريضة، المسبطرة التخوم،  
من المخلصين. وصرخ صرخة ماد لها البلاط، كأن صاعقة تهزه: ابن  
رئيس شرطتي؟

فاختلج منارة البربري، وقد هالته الصيحة. ووثب الى المهدي يستوضح  
مرتاعاً: ماذا، يا امير المؤمنين؟

فتصاعدت دمدمة الخليفة صخباً هلوغاً: ألا تسمع الاصوات المشؤومة،  
المقلقة احشاء بغداد في هذه الدهمة، يا منارة؟... ألا اسرع الى عبد الله بن  
عبد الملك رئيس شرطتي، واخلعه من رقاده. فالموقف يتنكر للهجوع.  
لا ارى المفاجيء غير المقنع الخراساني. فليضربه في قلبه. ولينقذني من  
بطره. ألا اين انت من الشرطة والجند تلطم بهم الثائر الرجيم!

واختلط فيه الذعر بالغضب. فهو يستجير. على ان ابواب البلاط لم  
تلبث ان تفتحت، وان اضيئت الساحات والافنية بالمشاعل، وان علا  
الهاثف لامير المؤمنين محمد المهدي. فلم يصدق الخليفة اذنيه. أهتف له  
القوم وقد اوجس منهم شراً؟... ألا كيف يهتفون له، وهم المقبلون الى  
خلعه، ومبايعة ابنه هارون؟

وارهف سمعه. والتفت الى حسنة المقيمة مثله على شدة، وكل ما فيه  
على ارتعاش. ما هذه الاضداد؟... أيحذف اليه اعداؤه هاتفين باسمه؟...  
أخدعة مموهة بياهر الطلاء، بما تجيد تدبيره الخيزران؟

وحارت حسنة في التفسير. انها لفي ضعفة. هل وفقت عقواً للمرجو،  
فخدمتها الاقدار دون ان تكلفها مضض العناء؟... وابتهجت الجارية.  
ووهبت سمعها للضجة المستيقظة لها بغداد على بكرة اييها. فازت بمنشودها.

فالحيزران ترمي بسهمها قلب المهدي ، لتقيم ، في منصب الخلافة ، ابنها هارون . فكأن حسنة ملكت من حدة البصيرة ما اباح لها قراءة الغيوب ولكن هذا الهتاف لامير المؤمنين اقام الجارية على خشية . أهتف للمهدي من يروم القضاء عليه ؟ ... وجحظت عيننا حسنة . فلا هي ، ولا امير المؤمنين ، يدركان اي غرابة تمثل في البلاط . واذا بعبد الله بن عبد الملك ، رئيس شرطة الدولة ، يندفع الى الخليفة صاحجاً بمستفحل الجبور : البشرى لامير المؤمنين . قبض رجاله على المقنع الخراساني الثائر ، واطفأوا نار الفتنة المندلعة اللهب . وكان ليحيى البرمكي اليد الحاسمة في قمع الشعب ، وقد رمى بانصاره في الواقعة يذلون المقنع الغليظ الروح !

فتفتح امير المؤمنين فمه ، وما برح الشده يسيطر عليه . فاين ما يسمع بما ألت اليه حسنة ؟ ... واستخذت الجارية . وارتجفت . لعبت بدمها . واحست بنصلة امير المؤمنين الباردة تبتو رأسها . فكأنها تلمس الموت بجمع كفها . ومال عليها المهدي بنظرة كاسحة ، ودّت بها لو ابتلعها الارض . واستجمع الخليفة قواه ، وقد عادت اليه الطمأنينة . واستطلع رئيس شرطته : أهو المقنع الخراساني يقودونه اليّ ، يا عبد الله ؟

— هو هو يا امير المؤمنين !

— وهل اعانني عليه يحيى البرمكي ؟

— انصار يحيى انقضوا على الثائر الارعن وخذلوه . وصال الجند صولته ،

وكبح جماح الشر . فالكارثة خمدت جهرتها ، والحمد لله ، يا مولاي !

فهتف المهدي ، وقد اضاء في طلعتة البشر الانور : ألا مرحى للبرمكي

وللجند . ادخلوا عليّ بالثائر اللئيم !

وأطلّ البرمكي ، بجلاله ، يقبل الارض بين يدي الخليفة . فما كان من المهدي الا ان انحنى عليه فرفعه ، وقبله في كتفه ، فيما تهوي شفتا يحيى على يمين ابي عبد الله تبركان بلمثها . وتكلم المهدي فقال بفرحة يانعة : سلمت يداك ، يا يحيى . ازددت يقيناً بولائك ، وبوفائك . ابلغني رئيس شرطي ما اقدم عليه رجالك في سبيلنا !

فاعلن البرمكي ، وهو يلوي رأسه في حضرة الخليفة : حرصنا على تأييد هذه الدولة الزهراء ، يأبى علينا ان نتهاون في الانقاذ . فكل ما يؤلم امير المؤمنين ، يقلق مهجنتنا . وكل ما يسرّه ، ينزل منا في مستقر الانس . ناوأنا المنادي بالعصيان في جوف موثله ، وخضدنا عزته . ودفعناه اليك بقرعة كي تفيض بين حوانيك المسرة الدهاق !

وتواتر حسنة الجارية ، وقد لاح البرمكي في حضرة الخليفة . وما تواتر لسوى خوفها من ان يبصرها يحيى في البلاط ، فينقل النبأ الى الخيزران ، فقتشد المكايده بين المرأتين . عدا اتقاءها غيره المهدي ، وهو من لا يجيز لنسائه ان يلقين على سواه خاطف نظرة . على ان كل سكينه نأت عنها . وكل شعور بالحياة انطفأ فيها . سيلمّ بمجدعتها ابو عبد الله ، ويقضي عليها . انها لفي النهاية من ايامها

وتولتها الغمة . وتعاضم فيها القنوط . فكيفما سعت للتفوق فهي عائرة . ورضيت بالموت . ليحصدها سيف المهدي . حان لها ان تستريح . ولم ترهب افتضاح امرها ، والرزوح بياسها اهاب بها الى الرضى بانكد مصير . وتذكر المهدي ما روت له حيال ما تبصر عيناه ، فعاظه التذليل . لو اطاع هواه ، وحسنة تحدته عن المكيدة الزائفة ، لدرج رأس يحيى عن مشواه ،

واطاح الخيزران . وانه ليتعجب من نفسه كيف حالقه الصبر ، وليس من  
عادته الاعتصام به ازاء المكاره . الا أن الحق أبى أن يهون . ولم يحقد على  
حسنة . اخلاصها دفعها الى اقلقه بما اضرب به سمعها . على انه نغم على  
من نفت الفرية ، وودّ لو يعرفه . فما هيبت بحسنة الى كتمان الاسم ؟ ...  
أيكون المفتري من ارباب الكرامات ، فلا يباح دمه ؟

وقاد اليه رجاله المقنع الخراساني الثائر . فجدجه المهدي باحتقار ، واعتداد .  
ووثب عليه يمزق عن وجهه قناعه ، ويصيح به : أنت المدلّ علينا بجبروتك  
الاهوج ، ايها الزريّ ؟

ولكنه ما نضا الحجاب عن المقنع ، حتى تهيب . فهو تجاه رجل في  
الاربعين ، عبل القوى ، متطائر النظرات تهباً ، وقور الطلعة ، قد كست  
لحيته الشمطاء عارضيه ، وبعض صدره . وسطعت في اساريه عزمة الاقدام  
والسمو . وجمد المهدي وهو يتأمل الهيكل الفارض الاجلال . فمن يكون  
هذا المتجرى على امير المؤمنين ؟ ... وشدد المهدي من نفسه ، وهدر  
كاشراً : ألا من انت ، يا وجه الشؤم ؟

فنظر الاسير الى الخليفة نظرة الخنق الفائر ، المشتعل اضطغاناً . وبلغ  
ريقه ونبر : انا نصير ذوي الحق المهذور ، والفضل المعموط . وانت ادري  
الناس بما كان فينا من ابيك المنصور !

فصرخ به المهدي نفوراً ، معتكر العين : أنت من يدعي الدفاع عن  
الحق المهضوم ، يا ابن اللئيمة ؟ ... والله ، لادوسنك كالتنواة الملقوطة .  
اقتلوه !

فاستطال الفارسي في قيوده ، وقال بجرأة رهبها سامعوه : ليس العجيب

ان تبطش بي كما بطشتم بابناء اعمامكم ، وبانصاركم . بل العجيب ان تعرفوني . ولن تفعل لنقص في خلقك . وهي منة احمد عليها الله . هذه دولة قامت على الدم ، وستغيب في الدم . فمن يرفع السيف ، يضرب به الاعناق ظلماً ، يحدد هامته السيف . ولي بابي مسلم أسوة حسنة . فلا احسبك تجهل ما لقي من ثوابكم ، بعد كل ما بذل في بناء دولتكم . وهل كنتم السادة لولاه ؟ ... انه لغرور شاحط منكم ان تعتقدوا انكم قبضتم بساعدكم المجدول على الناصية . فما استطعتم ، لولانا ، ان ترفعوا العين الى اقبال الامويين ، وقد استدلوكم تسعين حجة . ولكن اللوم علينا ، لا عليكم ، وقد حققنا لكم ما تخاذلتم عنه . رحم الله الظل الاموي على عسفه . فما ادر كنا رفقاه الا وقد بسطتم علينا ظلكم البغيض !

فارتفعت الصيحات ، وقد تفلقت الاسياف في اغمارها : اسكت ، لا أم لك !

وهدر المهدي : اقتلوه !

فتنازعت النصال لا تعفّ فيه عن مقتل ، ولا تفسح له الى شهقة . فخرّ يتضرّج بدمه ، ويملاً البلاط بمديد قامته . وهتف يحيى البرمكي فيما ترنو الابصار الى الجمان الحامد ، الاحمر الطلاء : لا أُقيلت له عثرة . عاش امير المؤمنين !

وترحزح عن الصدور كابوس هاصر ، جثم بها في لمعان ومضة ، فيما تفلقت السيوف جمجمة الخراساني المشاغب . وعلا الهتاف للمهدي . وتساقطت اللعنات على الثائر الوقح . فالتفت الخليفة الى الحشد معلناً : سلمتم جميعاً ، يا اخواني . ودام بقاء السلطان العباسي الموفور العدل ، العزيز الأسّ .

احملوا هذا المزعج المقيت الى فناء القصر، واصلبوه عظة لكل من يستطيب  
اساءة الظن بقدرتنا !

فاكبّ الجند على الجثمان الساجي ، النزيف ، يرفعونه هيكلاً مخلّعاً الى  
ساحة البلاط، ويدقون فيها الاعواد لصلبه . واوماً الخليفة الى يحيى البرمكي  
ان تعال . ودخل به الديوان ، ويحيى في اعتزاز ونشوة . سيفرقه امير  
المؤمنين في فيض من جزالة الاطراء، ونداوة الشكر، برّاً في الحفاظ والولاء  
لا يذهب العرفُ بين الله والناس !

لم تسكن نفس ابي عبدالله ، مع نجاته من شيخ الخراساني المتوعد .  
 فتراءى له ، في انتفاض القوم عليه في خراسان ، ما ينذر بسوء العاقبة .  
 فاذا هبت ريح العصيان ، في بلاد فارس ، اضحت في العراق اعصاراً ،  
 وفي الشام زلزالاً . وليس كل من يتوسد رحبة الدولة العباسية بالراضي عن  
 الاولياء . فان رهطاً ساس الامم المتململة من جور الامويين ، باغف بما  
 ضرب الامويون على رقابها من أنيار ، لن يحظى بعطف يكتب له الاطمئنان  
 في الاريكة . فالخفاظ الراكدة لا بد ان تستيقظ وتثور ، فتهدم ، وتمحق ،  
 لا تهاود ، ولا تهيب

والمهدي خشي البيضة ، والثورة ، بقيام الخراساني المطالب بدم ابي مسلم .  
 ففزع الى الحيلة لثلاث تكرر الدواهي ، وتستشري الفتن . واني للعرش  
 ان يرسخ على دعامة ، والانواء تتجاذبه في كل سبيل ، والحصوم يقتحمون  
 خدره ، كأنه معبر مباح ؟ ... ان هناة الببال لتفرض المضي في حصد  
 الرؤوس المزهوة ، والظهور بمظهر البطش الزاجر ، والا فلن ترسو الخلافة  
 في القرار المنتهية اليه

وايقن يحيى البرمكي ان ليس له ان يرقب الشكر ، وكل ما في اسارير  
 الخليفة يرشح بالنقمة والغيظ . وصاح المهدي بصوت غليظ يتهدج حقناً : اني  
 لقلق المهجة ، يا يحيى . وما دعوتك الي لسوى ابلاغك ما سوف يكابد بنو  
 قومك من تشتيت ، وهم يحثون الى نبش الدفين . وتربة ابي المنصور ، لن  
 ابقى فيهم على كبد خافقة . فليحذروا اثاره غضي ، والا ألحقهم فوجاً ، تلو



فوج، بهذا المصلوب في ساحة قصرى. فليس المهدي دون ابيه المنصور قسوة  
وتنكيلا. وان اكن جلوت لكم الحلم ، فما محوت من نفسي الحشونة .  
فالسيف المعمد ما علاه الصدا . وهذا الساعد خليق بنثر كل هامة تتشامخ .  
ابن المنصور يتقد بروح من نجله . فاذا استهواكم ان يكشف عنه الحجاب ،  
ذهب فيكم بكل عين مبصرة . اتقوا فتكتي . اثورة ، وعلى المهدي ؟ ...  
جاوزتم الحد ، لكم الويل !

فارتبك يحيى ، واهتزت جوارحه . أهذا ما يرتجي من اطراء وشكر ؟ ...  
وتكلم ينافح عن سلامة طويته ، وعن اخلاص الفرس ، وافتدائهم العرش  
العباسي بالاكباد . قال وتهديد المهدي يفت في روعه : صان الله مهجة  
امير المؤمنين . اولئك الزعانف الجانحون الى الشذوذ ليسوا الفرس باجمعهم .  
فان معظمنا ليرى في العباسيين سادتنا ، ويجد في خلافة ، يربع بمسندها  
ابو عبدالله ، دعامة الايمان والعز . وكيف نتعامى عن إمامة يليها خليفة رسول  
الله فينا ، وننكر ارباب الدراية القابضين على مصائرنا ؟ . لقي الجاحد  
جزاءه ، يا امير المؤمنين . وعلى كل من ينهل من نبعته ان يغيب في مهواة  
تدحرج الوغد فيها . فاشهر السيف على المكابرين ، واحمقهم ببطشك العادل .  
اما ان يذهب الصالح ، بجريرة الطالح ، فهو مما لم يقدم عليه المنصور كي  
يندفع فيه محمد المهدي . ان الدين نفسه لياى المساواة بين الاخيار والاشرار .  
فليقطع امير المؤمنين اعناق كل من بطروا وتاهوا . وما ذنب المسلمين كي  
تحرقهم النار ؟ ... فليست فارس باجمعها ابا مسلم . ولا المقنع الحراساني  
سيد كل من يتوي بهاتيك الاصقاع . فما يزال لابي عبدالله في بسطتنا  
خلصان وعبدان !

فدمدم عليه الخليفة المتماذي السخط : هذا بيان المضللين ، يا يحيى .  
ارى لك في فتنه خراسان خيالاً يتأيل . فكأن المقنع الخراساني صنعتهك .  
انت أهبت به الى خلع دثار الطاعة ، والى مصادمتي بالافلاق . وحق من  
نفخ فينا الارواح ، ووهب لنا الاحلام ، اني لاتبع النابل بالنبله ، واقيم  
الساعة في فناء القصر صليباً آخر . فلا يكون نصيبك مني اوفى من حظ  
ابي سلمة الخلال من عمي ابي العباس ، ولا اسمى مما آل اليه ابو مسلم ،  
وابو ايوب المورياني ، في عهد ابي المنصور . ألا ما هي صلتك بالمقنع  
الخراساني ؟ ... هل لك ان تنضو عنها الستر ، وان تكون صريحاً في ما  
تبدي ؟ ... ان تكن تحرص على روحك ، فتكلم بوضوح ، والا ندمت .  
ثكلتك امك !

وتطير المهدي شرراً مجتاحاً . وخاف يحيى على نفسه من فورة ابي عبدالله .  
هل دقت الساعة ؟ ... فكأنه يرقب ما صار اليه من سبقه في خدمة العباسيين ،  
من امثال ابي سلمة ، وابي مسلم ، والمورياني . فالثلاثة بلغوا في الدولة العباسية  
المقام السامق . وما ان استعلوا حتى حصدهم المنجل الكاره ان يستكبر ذو  
طماح . على ان البرمكي ابي الظهور بمظهر الحقير المهين . فان تكن روحه  
على وشك ان تطير ، فلن يستعين بالذل على استبقاها . قال يوضح للخليفة  
موقفه منه : ما كان يحيى البرمكي ذا وجهين ، يا امير المؤمنين . فانه ليدكر  
فضل ابيك على ابيه . كما يقرّ بيدك الراحمة عليه . وليس لمن يرتع في  
الحسنى ان يكفر بها . فاني لمن قوم يدينون لكم بالطاعة ما عاشوا .  
ويستमितون في رضاكم حتى التضحية بكل اثير . واذا بلغ مولاي الخليفة  
عني اني خافر للذمة ، فاني لا صارحه بان القائل يفترى على غرسة معروفك .

فهو من حسّادي على نعمة امير المؤمنين تبلّ جوانحي ، ويهنأ بها مشواي .  
اما ان يكن عطف ابي عبدالله، انقشع عني عفواً ، وتبدل في صدره الودّ ، فها  
هو ذا عنقي . فليرحني امير المؤمنين ، بصلي ، من عبء ثقيل لا اقوى على  
حملة ، ما دام سيدنا وإمامنا ينقم عليّ !

فتأثر المهدي بالجرأة الزاخرة بالولاء والشمم . ما اضطرب صوت يحيى  
البرمكي برعشة ، ولا بلعشة ، وهو يؤدي الكلام . فالصدق ينبض في بيانه ،  
وفي وقفته . على ان المهدي ابي الايمان بنصاعة ارواح الفرس ، فرعد :  
أتريد اقناعي بانك بريء من فتنة خراسان ، يا يحيى ؟ ... ولكنها المقدمة  
لاستئثاركم بالعرش . فلا تزالون تحنون الى كسرى والايوان . وما العقد  
لهارون على زبيدة ، وثورة المقنع الخراساني ، غير الخطوة الاولى لهدمي ،  
ومبايعة هارون بالخلافة ، وعودة الفرس الى السؤدد . فيقبض هارون ،  
بعض الزمن ، على الناصية ، ثم تزيحون من تحته السرير ، فيهوي الى حيث  
لا ترجى له نهضة . بل الى حيث لا ينتظر لنا جميعاً ان تقال لنا عثرة .  
وتستولون على الامر في دنيانا . وتذلون منا الرقاب . فيمسي الحكم اعجبياً .  
ويندثر العرب . ورجاوة ابي مسلم هذه هي . وكأنها رجاوة كل ذي روح  
فيكم . ألا خستّم . أسمع ؟ ... والله ، ما انا بمن يلوى له عود . فاني  
لانتوكم جماجم يأخذ بعضها ببعض حتى تسد المسالك . وتسمي دياركم مقابر  
لا ينبت فيها غير العظام . ان لي من بأسني ، ومن جندي ، ما يذلّ فيكم  
الوثبة ، ويطفىء الحياة !

فارتعد يحيى البرمكي . باي خطاب يصدمه امير المؤمنين ؟ . ولم يكن  
منه الا ان سجد بين يدي الخليفة . وانتزع من وسطه سيفه ، وعرضه على

المهدي يقول بلهجة المستسلم الى حتفه : سيدي ، وماك روحي ، هذا سيفي ، فاقتلني به . اصبحت اكره البقاء والارتباب بي يعروك . لا ، ليس لي ان اعيش وثقتك بي تزلق عني . فان تكن تراني ذلك الغادر ، فما اشهى الموت العاجل للخلاص من جفائك وسخطك عليّ . والله ، وحقك انت ، وتربة ابيك المنصور ، لو خطرت لي هذه الحواطر ، لقتلت نفسي لئلا تتلطح بالجهود . فلست ارضى بان احيا في وهم من الكفران بالجميل . ولا يدهشني ان يحسدني الوشاة على نعمتي لديك ، بل يؤلمني ويجزّ في كبدي ان يصدق امير المؤمنين السعاية بجادمه الامين . قد تكون انتهت مهوتي في التوفر على ارضائك ، يا ابا عبدالله ، فاستأصل شأفتي ، وأرح لبك مني . لا مردّ لحكم سيد الامة وحامي الدين !

وحنا رقبته لضربة السيف . وراع المهدي هذا اللين في مؤدب هارون ، فنبر : ألسنت منظم المكيدة السافلة ، يا يحيى ؟

فازداد البرمكي انحناء . وقال بصوت عميق ، كأنه ينبعث من اكباد اللهود : عالنت مولاي باني اصبحت اشتهي الموت . فلينقذني من ايامي ، وقد انتفت منه مودتي !

— ولكني اريد الجواب اليقين . أما اتفقت واخيزران على هدمي ؟  
فارتعش يحيى وما برح منسدرأ في صوته العميق : للحساد ان يختلقوا ما شاؤوا . على ان من الجناية على الحق ان يذيعوا عنا اننا نحاول هدم عزنا بايدينا . فهل لمن ينهلون من رعد امير المؤمنين ، ان يدهمهم الجنون ، ويغمدوا في صدورهم مواضيمهم؟... واذا جاز هذا الحق في يحيى البرمكي ، فهل يصدق في اخيزران ، المستميتة في مولاة سيدنا الجليل ؟

فصاح المهدي بحدة تنكر للرافة: ليس لناقل النبا ان يكذب، يا يحيى،  
وهو من لا يدرج في فرية ، ولا يستوي على اثم !

فبهر يحيى ، وقد ألقى امره الى المقدور : ما دام امير المؤمنين يجد  
الصدق في ما نفت الانكاد في سماعه ، فما به يقعد عن محوي ؟ ... لتفتح  
في الصباح بغداد عينها على صليبين في ساحة البلاط ، فتتعظ وتستهدي . قد  
يكون في إراقة دم يحيى البرمكي ما يزيد في توطيد مسند الخلافة . فلتذهب  
انفاسي فدى العرش ، يا امير المؤمنين . فالمخلص من لا يمك عن التضحية  
بروحه لاسعاد من يدين لهم بالطاعة ، ويقرّ بصنيعهم الحُصيب . حياتي هبة  
الله لكم . ومن حقكم ان تتدبروا كيفما شئتم امر ما تملكون !

فتقهق المهدي عن غليانه ازاء هذا الفيض من الزلغى . وقال بعنف يجبو  
الى السماح : ألا انهض ، يا يحيى . لست ارغب في ان يذيع عني اني  
كاره للفرس . والا كان لي ان ازول بكم الارض ، وكلكم ينطوي لنا  
على شنيع الحقد ، مع سخائنا عليكم بالرتب والارزاق . واعلم اني ساقيس  
خطوك . واصغي حتى الى هائلك . فاذا بدا لي منك انك فاسد الطوية ،  
فلن انام عنك . سيظهر المهدي السيف لتأديب كل زنديق . والويل لمن  
تطاوله التهمة . وعليك ان تتقي محادثتي في اقرار ولاية العهد في هارون .  
ليحمد الله على ابقائي له احد اطرافها . فما ولي العهد المجلّي غير موسى .  
وابلغ الخيزران ان تمسك عن الكيد . فانا السيد في دولتي ، لا هي . حسبها  
ما بلغت من العزة . والا فلكل شعلة خمود . انصرف وامتنع من  
الاستئذان عليّ . فلست اطيق مرأى ارباب الضمائر الزنخة !

فتمتم يحيى بلهفة موجعة : حبيت اليّ الموت ، يا امير المؤمنين . فلا

كانت الحياة في سخطك وقلاك . لا الخيزران ، ولا هارون ، ولا يحيى  
البرمكي ، خطر لهم يوماً ان يخرجوا على مسنون شرعتك . ارى الوشاة  
يمخرقون فيما ننام آمنين !

وتض وهو على الخناء . فقال المهدي بقطوب ومقت : لست بمن يؤخذ  
بجلو الكلام ، فدع عنك المصانعة . اذا ابيت على يدي ان تسترسل في  
الاذية ، فما يصونكم من فتكتها غير رذاذ من اشفاق . فحاذروا ان يطفح  
الكيل . انصرف ، يا يحيى !

• واهاب به الى براح البلاط . فتراجع البرمكي وبوده لو ملك القدرة  
على البيان ، تهالكاً منه على اقتناع امير المؤمنين ببراءته من وشاية ذوي  
الافك . وتعتبر بخطوه . وراعه ان ينال منه خصومه ، وان يخذلوه في  
عطف ابي عبدالله . فاستعل أماً واكمدت اساريه . من ينساب الى المهدي  
فيخرف له المنام ؟ ... ولم يكن يحيى ممن أغلقت بصائرهم عن الادراك .  
فاستشف نقمة المهدي ، وبدت فوراً لعينه اصابع لبابة ، زوجة موسى الهادي .  
فان لبابة لذات دالة على امير المؤمنين . ومن مصلحتها ان تفسد عليه رفقته  
هارون ، وبالخيزران ، وبالبرمكي ، وثمة نزاع على ولاية العهد . واحس  
يحيى بانتصار المناوئين عليه . فوقعوا من نهية الخليفة موقعاً لم تبلغه الخيزران  
على غلواء شأوها . ولم ينطلق البرمكي الى منزله ، ولم تكن تطيعه قدماه  
في الشخوص الى مغناه ، مع قلقه وانكساره . بل اندفع الى قصر اساس  
يطرق بابه ، ويروّع النيام

والقصر استفاق على الضجة السائدة ببغداد ، لما جيء بالمنع الخراساني الى  
الخليفة . ثم لم يلبث ان غفا وقد استجلى النبأ اليقين ، ووعد نفسه بان ينهب

الصباح الى امير المؤمنين في بث التهنئة، والدعاء بالنصر الكميل. وراعه هذا  
الطرق بالباب. واشتد به الروع وهو يأذن بان يجيى البرمكي يلتمس المثل  
في حضرة الخيزران. فماذا في جمعة يجيى ؟

واستيقظت الخيزران على وهلة. واطاعت في حجرتها النور. وما اطلت  
عليها البرمكي، بلاحه الحشيا، حتى لمست الهول. واستفهمت بعينين ومضت  
فيهما دمامة الرهبة : ماذا ، يا يجيى ؟ ... هل من ملة ؟

فاستجاز في حضرته الجلوس ، وقد ناهت به ركبته . واعلن وهو  
يلهث ، وكأنه يختمتق : نجوت من سيف امير المؤمنين باعجوبة . لا ريب  
ان امي صلت لي في ليلة القدر. فقد نمي الى المهدي اننا نكيد له، ونحاول  
زحزحته عن السدة . فعرضت عليه سيفي وعنقي ، كي يريخي من دنيا اسقى  
فيها، ما دام يرتاب بي. فدعاني الى الانصراف وهو يعن في تحذيري من اللعب  
بالنار. واي نار نلعب بها ، يا ذات الجلالة ؟ ... ابو عبدالله يري اننا اعوان  
المقنع الحراساني عليه . فيشوقنا ان ننسف به العرش لنقيم عليه هارون ،  
تمهيداً للفرس الى استعادة خطرهم . فهل عرضت لنا هذه الدنيا في بال ، زاد  
الله في رفعتك ؟

فهتفت الخيزران بغضب صخّاب : أيؤمن المهدي بلئيم الترهات ؟ ...  
ولكني اعتقده يُجبل عنها . فمتى كنا له على كره ؟ ... ألا من انسل الى  
خاطره بالوشاية الفاجرة ؟ ... ادميت قلبي ، يا يجيى . أما اتفق لك ان  
تقنعه بانه بما يتوهم على شطط ؟ ... اني لمنطقة اليه الساعة اعاتبه في سوء ظنه  
بنا . فهل لمثلنا ان يخلع عنه رعاية المهدي ؟ ... ارى لموسى ضلعاً في ايفار  
صدر ابيه علينا . تباً للاولاد العققة ، كم نجني من مشاينهم الويلات . أرايت

ما يحدوني على النفار من هذا الابن الشرير ، الفظ ؟ ... والله ، لكأني  
ولدت به اسأم الاعداء !

وهمت بارتداء ثيابها . فقال يحيى ينزع بها الى الاتئاد: صبراً . لا اريد  
ان يعلم اني جئت اشكو اليك ، في مثل هذه الساعة ، ما لقيت من نعمته .  
دعي الامر حتى منبلج الغدوة . على اني لا احسب الواشي بنا موسى . بل  
امراته لبابة . فهي ابدأ في بلاط امير المؤمنين تردلف الى عمها ، وتنفت في  
روحه سمها الزعاف لمعالبتنا ، وتسويد صفحتنا . وانها لعل اتفاق وموسى .  
الا ان لها من رجاسة نفسها ما يكفي ويزيد . فليست بحاجة الى مسعف في  
اضرام البغضاء !

فصعد صدر الحيزران وهبط ، وهي تسمع باسم لبابة . ان يكن موسى  
ذلك الافعوان ، فان لبابة لعقرب . ولقد خبرت الحيزران من لسعات هذه  
السامة ما فيه غنى ، وقد كادت تحرمها البهجة باستطالتها عليها . قالت وكل  
ما فيها على رعدة : صدقت ، يا يحيى . ذاك النفث من معين لبابة المشتعلة  
السخائم ، وليست ترى في الوجود غير المقابح والنفائات . فالبشر باجمعهم  
لديها ادناس ، وهي وحدها سليلة الشرف والمجد . ما كرهت مخلوقاً كرهى  
لهذه التياهة ، الحبيثة اللسان . فانها لتبالغ في الكيد لي ، كأني شجاً في  
حلقتها . على اني سأسحقها . فلن تنسخ حذب ابي عبدالله علينا ، وما تقوى  
على سلخه منا . فليس لي الا ان ابدو ، بين يدي امير المؤمنين ، كي ازيل  
من ضميره كل كدرة تلفحننا !

فقال البرمكي وقد هاب الصعاب : لبابة مسموعة الكلمة في البلاط ،  
يا ذات الجلالة . ولسوف نلقى في سعاياتها العقبة الكؤود . فقد صارحني



امير المؤمنين بانه لن يصغي اليها في رفع هارون الى ولاية العهد ، دون موسى . فان نكن نرجو ان نبلغ هذه الشهوة ، فاننا لنلتبس الوعر . وهو الدليل على ان دسائس اعدائنا فعلت فيه فعلها . ولم يبق علينا الا ان نلوذ بالصبر . فالعجلة تزيدنا احتراقاً . لقد كان الشائون ادهى منا . فكل ما تعبنا في تشييده تداعي !

واطلق زفرة الاسى . فقالت الخيزران ، وقد ضامتها الحبية : ان الحظ ليخوننا ، يا يحيى . على اني ساناهضه . انت تعرف الخيزران . فلن تهون في المعترك . في صباح غد سأكون وحدي في مقر الخليفة . فإما انا ، وإما لبابة . إما موسى ، وإما هارون . على ان الفوز لن يفلت منا . فليس للمهدي من اصفياء سوانا !

غير انها ، مع جهرها بالتغلب على نية المهدي ، معاهدة على ان تبدد من صدره فاحم الجفوة ، لم تبرح تتهيب سلطان لبابة على خاطر امير المؤمنين . فان لامرأة موسى الهادي من الاثر ، في عمها ، ما تتضايق في محوه الخيزران . واطرقت السيدة الاثيرة فيما يلوح لها طيف لبابة . أتقوى على استئصال ما نفثت هذه الحاقدة ، الحظرة ، في كبد ابي عبدالله ؟

وابو عبد الله ، ما نأى عنه يحيى البرمكي ممتعاً ، جازعاً ، حتى ارتدت الى جاريته حسنة يقول باعداد ذي الاثرة : هل سمعت رأيت ، يا حسنة ؟ ... المقنع الحراساني الرجم فللنا غريبه . ولم يبق له متسع للتيه والاشتر . ويحيى البرمكي هزنا قلبه ، بما سلقناه من حديد التبكيث . وانه لمبلغ الخيزران ما كان منا فيه ، وما اطلقنا فيها من زجر ، فتهدأ الغوارب الجائشة ، ويفيء الضالون !

واعجب مديداً بنفسه . أطفأ اللهب المنذرة بالضرم الاكول . وحسنة رأيت  
وسمعت . فما توارت الا وقد بدا يحیی ، مخافة ان يشخص له أنها موقدة  
الشحناء . ووقع في أذنيها كل ما أوقر به امير المؤمنين مسمع ابن برمك .  
وكانت تحتبىء وراء ستار ، مسدول في احدى الزوايا ، لحجب نساء المهدي لدن  
يقبلن لشهود مجالس الخليفة . واجابت ، والمهدي يسألها هل وعت وابصرت  
ما الم الليلة بالبلاط من شؤون : ما نددت عني مهزة ، ولا قولة ، يا امير  
المؤمنين . فلا ينفك ناظر ابي مطبوعين بسجدة يحيى بين يديك ، عارضاً سيفه  
ورقبته للنحر . لقي الحبيث جزاء مما كرته . فهو والحيزران ، من التغير  
بالخليفة ، ما يقدر عليك اتقاء العائلة . فما عرفت ثعلبين وواغين يضاهايهما .  
هما حملان في حضرة امير المؤمنين ، وذئبان لدى صدوفهما عنه . يبدیان  
الامتثال لمشيئته ، كي يزيغا عنها في ما يعمدان اليه من وغادة . ولكن  
القدرة بجانب الخليفة الميمون . ما اشعلاها في خراسان ، حتى انطفت في  
بغداد . فالزمن يؤاتي أبا عبد الله . على ان اليقظة مفروضة ، يا امير المؤمنين .  
فما التوى الشاعر في بيانه حين قال : « لا تقطعن ذنب الاعمى وترسلها ! »  
وعادت تغريه بدمهما . فقال بمنطق المتأني الحصيف : سانتظر ما يكون  
من موقفهما بعد التحذير . فان يخطر لهما الايغال في الكيد ، سقيت التراب  
دمهما . فالمصلوب صباح غد ، في ساحة البلاط ، سيكون لهما خير عبوة .  
وسيتدليان مثله ، على الاعواد ، إن هما شمخا فاشرب عنقاها الى المرتقى  
الحرام . هي لي بعض الزمن . اعتقد انهما سيرعويان عن التنكيد !  
فهزت رأسها لا تؤمن بارتداعهما عن المنكر . وقالت بصوت ينضح  
بالشك : أيتراى لامير المؤمنين ان الافاعي تمتنع من العض ، ونفت

السمّ ؟ ... هذا وهمٌ خادع . مناهما ان يبيّتا لك الدواهي ، تحت مظهر  
الامتثال لرغائبك . فهما يسعيان لترسيخ قدم هارون في ولاية العهد ، حتى  
اذا ما توسد المقام المرجو ، انقلبا به عليك . ورفعاه عنك . واحداثا في  
الدولة خضخضة تعبت في دفع وبالها . اني لآخشي ان يذهب مكرهما بندی  
امير المؤمنين !

فنبه ، وقد استعاد وقفته الجبيرة من يحيى البرمكي : ايشخص لك ،  
يا حسنة ، أن المهدي يكثرث لقرمين حقيرين ، كيجيى والخييزران ؟ ...  
انك لضعيفة الرأي اذا جاول هذا الظن بالك . والذي نفسي بيده ، اني  
لاطمرهما حين ، في أحشاء الارماس ، اذا نبض دمهما نبضة وغدة ، تم  
على عصيان . واذا طاب لهما ان يتكئا على هارون ، في مصاولتي ، فسأطرح  
هارون . هذا مقال وقع في اذنيك مني ، واني لاعيده امعاناً في التوكيد .  
فلست ابأ لابن عاق ، ولن اكون . ربما سلمت نية هارون من الغلّ والزنج .  
الا ان الارتباب بدخلة يجيى والخييزران سيحني عليه . من المحال ان يفوق  
اخاه في المرتبة . وقد يتدحرج عن منزلة اقمته فيها ، اذا بدا لي منه انه  
مطية الزنمين . فكوني موقنة أن المهدي ليس اجباناً ، ولا اعمى !

وارتعد . وتساعد الى وجهه الدم . فقالت حسنة تنجراً عليه في ما لم  
يكن لها ان تنفذ به الى وعيه : إذن عليك ان تعود الى المناداة بايثار موسى  
على هارون ، في ولاية العهد ، كي يعلم الناس أن يجيى والخييزران لا يقويان  
على زحزحتك عن شهوتك . فقد خيّل الى قومك انك رجل لا تثبت على  
رأي . فما للخييزران الا ان تشير عليك بمطلب ، حتى تميل بك عما اقررت  
وابومت . وليس لسيد ضخم نظيرك أن تقوده امرأة !

فصاح وكله على لظى: هذه اقوال سئمتها، يا حسنة. فما بك لا تنفكين  
تثقين بها اذني؟ ... لم يبق في هذا الصرح من كلمة للخيزران. فهي فيه  
اشبه بسائر نسائي. وجميع من يمتد اليهم سلطاني يعلمون أن ولي عهدي  
موسى، وان هارون يتلوه. ولا محيد. ألا تثقين ببيان المهدي؟

فأعلنت بوفور دهاء: انا اول من يثق بمقال امير المؤمنين، وبرسوخه  
في عهده. ولكن ليس الجميع حسنة، جارية ابي عبدالله. فمن الضرورة ان  
يعلم، كل من يدب على ارضها، ان الرأي رأيك في دولتك، وان  
الخيزران، ولفيفها، لا يملكون القدرة على تبديل حرف من المكتوب!  
فزعت: غداً ستعلم الديار العربية، على فضايف بساطها، أن ولي العهد  
موسى، وان بعد موسى هارون. فما ان يتدلى المقنع الحراساني على الاعواد،  
وتحتشد الجموع لمرآه، حتى ينادي فيهم حاجي أن المقنع لقي حتفه. وأن  
مصيره مصير كل مشاغب عرييد. وأن ولاية العهد لموسى اولاً. وبعد  
موسى تنتهي الى هارون!

فاستوضحت بطرب الفائز بالبغية: أيفعل امير المؤمنين، أيفعل؟  
فاجاب بعنف صاحب الامر، المباهي بسجية يؤلمه ان يشك من حوله في  
تأصلها فيه: ولكنني لا اذكر ان من عادتي النكوص عما ابدى، يا حسنة.  
فالمهدي لا يتلون في منطقته، ولا يهون!

فضحكت في نفسها من هذا البيان الملتوي. هل نسي ابو عبدالله كم  
عبث بعهد قطع لها، وكم تجاهل كلاماً نشر في أذنيها؟ ... والتفت اليه  
بعينين ما خلتا من ومضة التهمك، وقالت بدماثة في اللهجة: اني لموقنة ان  
امير المؤمنين من ارباب الحفاظ والوفاء. فلا يعدل عما يذهب اليه. بيد

اني اخشى ان يكرهه ، على الفتور في العزمة ، من ترجح كرامته لدى  
الحليفة كل كرامة . فيقلق ، بنظرة منه ، كل ما وطد عليه ابو عبدالله النية  
من تدبير !

وابتسمت ابتسامة ارتعش فيها خيالٌ من خبث . فصرخ المهدي من  
اعماق قلب ملسوع : ذلك كان في الماضي ، يا حسنة . يوم كنت احسب  
الخيزران بريئة الروح ، سخية العاطفة . اما وقد عجمت عود المناقفة ،  
المضللة ، فلن اركن فيها الى معسول المداهنة ، ولن انام على فراش  
توطئه لي . وحق من براني من عدم ، لن التفت الى وجه الخيزران التفاتة  
الارتياح والعطف . لك عليّ الميثاق الغليظ . هذه امرأة تزعتها من ضميري ،  
فلن اقرها . وكنت أطلقها لولا انها أم موسى وهارون . عدا ان امرأة  
المهدي لا يجوز ان تسف الى حضيض الدهماء . فيتجاوزها كل طالب لذة ،  
وكل راغب في ايلام !

فتمنست حسنة عالياً . وتعاظمت بهجتها . ماتت الخيزران في عرف  
امير المؤمنين . بيد ان الجارية ما برحت تخاف يقظة الحنين المؤؤود . فما  
عودها امير المؤمنين ان يتنكر لمشيئة امراته الاثيرة ، مع اقتنائها بحقوقه ،  
ومجاوزتها الحد في كل ما تنهد اليه . فهل تبدل حياها بعدما جاءه انها تكيد  
له ، وتجاهد في القضاء عليه ، فيما يعاندها في ارهاق موسى ، ابنها البكر ؟  
ورأت حسنة ، بماضي حيلتها ، ان ترفع من شأن الهادي ، عكازها في مناوأة  
الخيزران ، حتى اذا ما صلب عوده ، اضحى من الصعب تحطيمه . فيظل ابدآ  
في المقدمة ، في عطف ابيه ، وتبيت حسنة ذات الرأي النافذ في الدولة  
التيهاة ، الريا . قالت : ألا يجد أمير المؤمنين ، من جميل السياسة ، ان

ينتدب موسى الهادي لحطير الشؤون ، فيعلو صيته ، ويملك الهمة على تسيير الامر بما تصقله فيه التجارب من خبرة ، ويخطب ود بني قومه بنباهته ، وحسن بلائه ؟

فما خفي عليه انها تباعد في الرمية . وقال : أيرؤفك ان يستمتع الهادي بطائر الشهرة ، يا حسنة ؟

فاعلنت بوضاءة في المبسم ، وبقوة في الافناع : وكيف يكون جديراً بمنصب ابيه ان لم يتم له التدريب الوافي ، يا امير المؤمنين ؟ ... هذا فتى مدعو الى ركوب ارفع سدة ، والى سياسة ارقى امة . فهل يجوز ابقاؤه في الزاوية ، يتنقل من مخدع امرأته ، الى بلاط ابيه ، ومن المائدة الى المضجع ؟ ... من أعطوا مقاليد الامر ، في الناس ، عليهم ان يسبروا غور الناس ، يا ابا عبدالله . فالمنصور ، ابوك ، لم يبلغ مستواه العالي لو لم يمتزج بخليط القوم ، ويتعرف الى ارواحهم وميولهم . والهادي ، وقد أعدّه امير المؤمنين لغد واعد ، لن يقوى على القيام بالمهمة ، إن لم يعرف من هم الذين يسيطر عليهم ، وكيف يقودهم ؟ ... فاطلقه الى محاربة اعدائك ، ليغوص على حقيقة من سيتولى شؤونهم ، ويهبه كل مكابر حقود !

فهتف بها : لكأنك مفضرة على تدبير الممالك ، يا حسنة . فمن نفخ فيك هذا الارشاد السمين ؟

فافضت بالمقال الهادي ، الرقيق : حي لدوام دولتك ، يا امير المؤمنين ! فامسك بذراعها البضة ، وجهر : والله ، وددت لو اتقدت ، في جميع من حولي ، هذه الرغبة في النصر والهداية . حسنة ، لن يطول بك الزمن حتى تسمي من نسائي . وربما اضحيت السيدة المطلقة في شأوك المنيف !

فألقت رأسها الى كتفه . وتمت بصوت يتعمد اكتساء برودة الاخلاص :  
اذا ما دفع امير المؤمنين ولي عهده ، الهادي ، الى كبت اعدائه ، وقمع  
الفتن ، بطلت كل حجة للخصوم على ايثار هارون !

ونسيت نفسها حيال الهادي . ولم تكن تروم سوى قهر الخيزران . وفي  
قهرها فوز حسنة . قال المهدي ، وقد اشتاق بعد خنق الهياج في خراسان ،  
وطعن كبد المقتنع الثائر برهيف البواتر ، استنشاق عرف الهوى المعطار :  
ساطقه الى المعالي يتبوأ مصاعدها ، يا حسنة . لا عليك ، ايتها المطوقة  
الصدوح . فلن يكون ولي عهدي الا خليفاً بي . فالمهدي يضيحه ان يقبض ،  
على الاعنة ، مخنثت محبول . واني لاملس في الهادي الصلابة ، والصلاعة . فلا  
هو بالفاتر الهمة ، ولا بالملتوي الرأي . وهذه الفحولة التباهة ، المستعرة فيه ،  
تكربها الخيزران . فهي تريد ولي عهدي عبداً مطواعاً لمشيئتها الغشوم .  
تباً لهذه المرأة المستأسدة ، كم تضيق بها الكفايات . فليست تشتهي غير  
النقائص في من يلوذ بها ، كي تقبض على مطاول الجميع . فتسخرهم لمآربها  
أذلاء كالسوائم . غير ان الهادي ليس من هذا الطين الوبي . فالمكارم  
الزاحرة بها نفسه ، تأتي عليه ان يكون مطية . فكرهته الخيزران ، وهو  
ابنها . فهل من أم تكره من وهبت للوجود...؟ اني لاقم من هذه الشرهة  
الى السلطان ، حتى التخمه ، على دهش عريض . فليست ترتضي ان ينعم  
سواها بذرة من قرص الحلوى ، وهي الطامعة في حصة الاسد . الا اني  
سأخبرها في كبدها . فاسبغ على الهادي ، من نعمي ، ما يجرم الام السؤوم  
قرّة الطمانينة . اصبحت على برم بهذه المحتالة العنود !

ولكن حسنة اصغت منه مراراً الى هذا التظلم السخين . فالخيزران تلوي

فيه هناة الضمير . الا انه ، مع تأففه منها ، لا ينشب ان يرتقي في مودتها ، ويمحو من باله كل ما اقلقت به عيشه ، وكدرت به صفوه . فهل يمضي ابدآ في هذا الصعيد ، حتى مع ما يساوره من ارتياب بنيات الجشعة ، المتحفزة لمحو كل خيال تتوهمه يكدر عليها رحبة الفضاء ؟ ... وتملت حسنة ، كأنها لا تؤمن بازورار الخليفة عن الخيزران ، وان يكن يتدفق عليها بالمطاعن . فما فورات المهدي ، على امرأته الفضلى ، غير زبد سريع الانطفاء . وحات حسنة في ما تعمد اليه من حيلة لنزع الخيزران من خاطره . فهل آمن ، بعد الوشاية بها ، بانها تكيد للعرش ؟

واستنامت الجارية الى شهوة الخليفة ، الجانح الى اللهو بعد سكون العاصفة . بيد انها لم تكن تستأنس بهذا العناق يتهالك عليه ابو عبدالله ، ونفسها تحدثها بانه لها لهنيهات من الزمن ، لا يلبث بعدها ان يخمد ، وينسل من ذراعيها كالحيال الشرود . وودت لو استطاعت ان توثقه بها ، فتلد له ابناً يربطها به برابطة أيدة ، لا ينسل لها خيط ، ولا ينهار لها ركن . على ان هذه الشهوة لم تدر كها حسنة ، مع شوقها المستفيض اليها . فكأنها امرأة عاقر لا تثر . وتأوت فيما يضمها اليه المهدي ، ويخاطبها بالبيان المنمق ، اللهبان ، وقد هالها ما يجيها به زمنها من عرقلة وتنكيد . فصاح بها المهدي متعجباً من جمودها : ولكني اراك كالحطبة اليابسة ، يا حسنة !

فاعلنت وهي ترتجف : اني اخاف ، يا امير المؤمنين !

فهتف بمتعضاً : تخافين ماذا ، وانت في ظل المهدي ؟

— اخاف بما اکتوي به من خطر كلما حسبت نفسي في مأمن ، وامير

المؤمنين يدنني منه !



فصاح ، وقد لمس فيها مكنن الداء : ألا تزالين على خشية من

الخيزران ؟ ... أنتنص ابدأ عليك الخنفساء النتنة روعة إيامك ؟

فاوضحت بمجرد جارح الاثثة ، كأنه مغموس في الالم النغّار : هي

خنفساء نتنة حين تغيب عن عين الخليفة . غير انها لا تكاد تدلف ، الى ابي

عبدالله ، حتى تسمي عطر الجنة . ضععتني الغيرة ، يا امير المؤمنين !

وبكت بدموع حرار . وشعر المهدي بجرقتها ، فتألم لخالها . وتراءى

له انها مظلومة في عطفه ، مع رفعه اياها عن سائر جواريه . وعاد يشدّها بها

اليه ، ويقول بما نشأ عليه من سلاوة روح : حسنة ، ليست الخيزران احب

منك الى نفسي ، ولن تكون . فاذا عزّ عليّ ان اقيمك في مصاف نسائي ،

فسأجعلك في مرتبة يتضاءلن عنها . انت ابدأ رفبقتي في حلي ، وترحالي .

لك ان تدخلني ساعة تشائين الى القصر ، وان تشوي به ما سئبت . وستكونين

بصحبتني في كل جولة ، كأنك السيدة الاولى في بلاط المهدي . أفما تنسخ هذه

الخطوة اشجانك ، ولا الخيزران ، ولا سواها من نسائي ، يرتعن فيها ؟ ... سألقى

من عنت أم موسى ، وانا أخصك بهذا الايثار ، النقمة العضوض . الا اني لن

ابالي عيث الوبيدة الكريه . لها ان تحمد الله ، وقد ابقيت على حياتها ، بعدما

نثلت اليّ فضيحتها الكاسفة . أفلا تعلم الغادرة أن نصيب من يسعى ، للنيل

من امير المؤمنين ، الموت الصاعق ؟ ... اني لانتعجب من سكوتي عنها ،

وهي تتواطأ عليّ ويحبي البرمكي . لا ريب انها من الناعمات بالخط الثري !

فاستوضحت ، وما زالت على شك في هذه المنة : أيكون لي وحدي

حق المسير في ركابك ، يا ذا الجلالة ؟

— هذا حق لن تنافسك فيه امرأة . بل لن تشاطرك اياه امرأة . تقبلين

ابداً في الطليعة ، وتواكبك سائر الجوارى . أفما يكفيك ؟ ... وتربة ابي المنصور ، لن اجيز لامرأة ان تساويك في جناني !

فسرّي عنها . اقسام ، بتربة ابيه ، على السمو بها الى حيث لا تعادها انثى . وهو جلّ الصبوة . وطوقت يداها عنق المهدي بشغف . فازت بما ترجو من سعد عريض ، أريض . فهي تميل الى النجاة من شبح الخيزران الدميم . ولن تبلغ المرتجى ، الا وقد اقتنعت الخليفة ، بان امرأته الاثيرة لا تحفظ له الود ، بل تتقاذفه في مقاصدها . واقتنع المهدي بما حاكت مخبرته ونسجت . وكاد يبش ببيحيى البرمكي وبالخيزران معاً ، لفرط ايمانه بما اوهمته حسنة من بهتان . ولكن ألا يستفيق من خدره ، وتنبض في حسه الحقيقية ، وينتقم من الجارية الكذوب ؟

اذا أغلق عليه اجتلاء النبأ الراهن ، فالخيزران ستوشده الى الصحيح الصريح . ولكن هناك لبابة وزوجها الهادي . وبلاستناد الى هذين الركنين ، المنيعين ، ستقحم حسنة بلاط امير المؤمنين ، وتقصي عنه الخيزران الفضة المهجة . ففي صباح غد ، ستدفع الجارية المرموقة ، الى المهدي ، ابنة اخيه لبابة ، لتقص عليه نبأ مكيدة امرأته الاثيرة . فلا تكاد الخيزران تتنصل من التهمة ، حتى تلصقها بها زوجة الهادي . فيوقن المهدي بصدق الظنة . وتهوي الخيزران عن سدره ترتقي اليها . وتسود حسنة . وتتوطد بالهادي ولاية العهد . وتهيبض اجنحة هارون وزبيدة . وان هي الا الامنية الجموح . وفي ادراكها يستبسل الحزب المناوىء ، في البلاط ، ليحيى البرمكي وللخيزران ، وتحت لوائه ينضوي الربيع . فالربيع لم يكن يستجلي الخير في اسارير يحيى ، وقد وثب هذا الفارسي ، في نعمة العباسيين ، الى حيث تقهقر عنه العرب الاقحاح .

فالتنافس ، في الرفعة ، اثار الضغائن والاحن . فاستنسرت حتى كادت تسد على المهدي سبل الرشاد . وهو مما خلا منه بلاط المنصور . فحال ابو جعفر ، القابض على الناصية بيد قادرة ، منحوتة من الصلب ، دون كل تفتيت في السلطان ، ودون استشرء البطانة . ولم يكن ثمة سواه . فهو الدولة . على حين ان المهدي اباح ، بسلامة طويته ، لمن يتفأون ظلاله ، ان يشاركوه في تدبير الامور . فنشأ في البلاط خزبان يضطرعان ، ويتنازعان السيادة ، محتمين معاً برحابة ابي عبد الله

وما انسابت حسنة ، من البلاط ، الا وقد بعثر الفجر غطاءه . وعلا صوت المؤذن في سماء بغداد الصافية يدعو الى الصلاة . واحس المهدي بالحاجة الى الراحة . فنام بملء اجفانه ، وقد استعاد هدوءه فيما يرتفع وقع ضربات المعاول في ساحة البلاط . وتتجاوب اصداء دقات المطارق . فالجند ينصب الاعواد لصلب المقنع الخراساني الزنديق . فلن تثور في البسطة العربية نزوة ، والمهدي يتولى الامر . ومن عصى حصده السيف . فايقن ابن ابي جعفر أن القوم ما يزالون قاصرين عن الندى . فالظفرة من سياسة العنف ، وقد أحكم أسها ابوه ، الى رحبة السماح المتناهي ، تفضي الى قلقلة تخرجه . فلا بد بين الضفتين من معبر ، لا هو بالسهل ، ولا بالوعر ، تجري فيه الاقدام بخطا موزونة ، وثيدة ، تأمن بها الزلل ، وتستبقي الدولة عزتها . ومن رام تعكير الامن ، فالسيف قاطعه

ولم يكن بد من السيف للوقوف بالمآرب الجائشة عن دفتها الطاغية . فما برحت الشدة خير عنوان للامساك بهذه الاقوام المتلاطمة الاهواء ، المواراة الاحقاد ، عن فورة الحزازات الضروس

بغداد تحتشد في ساحة البلاط الفيحاء ، وقد طنّ ، في سمعها المرهف ،  
 نبأ القبض على المقنع الخراساني الثائر، واعتزام المهدي صلبه في بلجة الصباح .  
 فازدحم القوم ، في عرصات معقل الخليفة ، حتى باتوا وكأنهم على لحمة متلاصقة  
 الحبكة ، لا تأذن في فكك

وانصبّت العيون على الاعواد المنصوبة ، في صدر الساحة ، يتدلى منها جثمان  
 اصفر ، محضب بالدم . فتأملته الجماهير برهبة وغبطة ، وايقنت وهي تراه  
 ان العهد الاحمر ، المتسلسل من ابي العباس الى المنصور ، لقي في المهدي  
 عماده . فلن يعمد ابو عبدالله سيفاً انتضاه عمه ، وشهره ابوه ، لتوسيح  
 ركن دولة لا تزال تهبّ عليها الاعاصير من الجوانب جمعاء . كأن الامان  
 الممدود الملاءة لم يكن غير هدنة ، بل تجربة ، شاء بها المهدي العدول عن  
 سياسة البطش السائدة ، فلم يبح له الحافدون المجال الى هنيء القرار  
 وانجلت احدى الشرفات ، المطلة على الساحة ، عن طلعة امير المؤمنين .  
 فماجت الجموع بالهتاف والتكبير ، وكان دنيا من همامات تتمايل كالسنابل  
 في مهب الريح . وألقى المهدي الى الخراساني المصلوب نظرة . وغمس في  
 كبد الصفوف المرصوة نظرة . وحمد الله وقال بلمجة السيد القاهر ، المهيب :  
 ايها الناس ، ابي عليّ سفهاؤكم الرفق بكم ، فعمدت الى السيف . فمن تطاول  
 فهذا جزاؤه . فكونوا من انفسكم على حذر . اياكم ان تحذعكم طلاقتي ،  
 وما ابقيتكم على نزر من استئناس بولايتكم لي . وطنت النفس على احتراز  
 كل رأس صلب . فاعتصموا باللين ، اذا شاقكم ان تصونوا اكبداكم من

الهلكة . ليس للزنادقة في دولتي ظل يتفأون ، ولا موئل يفرعون اليه .  
فاتقوا فتكتي . ابو عبدالله محمد المهدي ، خليفتمكم ، مفتوح العين . فما ينام عن  
شعب ، ولا عن كفر . والمشغب كافر في شرعتي . فاعاقبه بالنار تلهب  
مهجته . ولكم في المقنع الخراساني اصدق عبرة . قضيت عليه كزنديق حاول  
اقلاق هناءتي . وهنأتي مقدورة عليكم ، وانا فيكم خليفة رسول الله . فمن  
تجراً عليّ ، فكأنه تجراً على الحق . وهو ما ينهى عنه الدين ، وبما سائق  
الدولة من رجسه وطغيانه . فالحياة لمن انحنى . والموت لمن عصى . فلا  
قعود عن ثواب . ولا ملاينة في عقاب . فاذكروا حبه لدينكم ودنياكم ، اذا  
ما خرجت بكم نفوسكم ، الامارة بالسوء ، عن مستوى الطاعة لمن يزن اقداركم  
بالعدل ، وهو القابض فيكم على القسطاس !

فصاحوا بملء حناجرهم : عاش المهدي امير المؤمنين !

فابتسم ابتسامة السيد الممتلىء النفس زهواً ، وقال : ولي كلمة اخرى  
انشرها عليكم ، وقد سبق لي اعلانها فيكم . ولاية العهد محبوسة على ابني  
موسى . ويخلفه فيها اخوه هارون . وليس لشقة ان تتخرص بما يعدو  
هذا البيان الصريح !

فجهروا بالتأييد لموسى وهارون . وبانت ساحة الموت معرض نصره  
وموالاة . وتذكر المهدي جاريته حسنة ، وهو يتحدث عن ولديه المعبوتين .  
فافضى بمشيئة القينة الروعاء . وانتفضت قلوب اتباع الخيزران انتفاضة الجزع ،  
والمهدي يشير الى ولاية العهد في المقبلين الى مشاهدة الخراساني المصلوب .  
واضطربت افواه اهل النظر بغمغة التساؤل : هل نفص امير المؤمنين من  
حنانه الخيزران ؟

وسطع مجد لبابة . وكل من يلمّ بانباء البلاط تبين في العودة الى هذا الايثار فوز امرأة موسى ، وتقهر الخيزران . والنساء المقيمت في الصرح ، ينظرن الى الاعواد من شرفة معتزلة، ويضعين الى المهدي، كن اشد الجميع تأثراً بما نضض به مقول الخليفة . فجالت العيون بعضها في بعض ، وقد تباينت فيها نبضات الحس . فمنها ما ومض بالطرب . ومنها ما اتقد بالشماتة . وجميع نساء البلاط كارهات للخيزران . وقليل من تألم هارون وزبيدة ما داما يستظلان رعاية السيدة الاثيرة، الناهدة الى التحكم في المصائر والارواح على ان المهدي ، ما كاد يرجع الى ديوانه ، ويهب للجماهير رحابة المهزة في الالتفات الى الثائر المصلوب ، وطلاقة الرأي في عقد الذبوك والحواشي على ما اذيع من بلاغ جزم ، حتى فوجيء بالجارية عتبة تعالنه باجلال ، وهي تلتوي في حضرتة حتى يوشك رأسها ان يمتك بالارض : سيدتي بالباب تستأذن على مولاي الخليفة !

فعبس وهو يبصر عتبة ويسمعها . وتجلي للجارية ان المهدي ناغم على سيدتها . غير انها ، وقد ألفت هذه النعمة ، وادركت انها سريعة التلاشي ، لم تأبه لها . ورقبت من ابي عبدالله ان يجيز فوراً لامرأته الاولى الوقوف بين يديه . ولكن المهدي تباطأ في السماح للخيزران بالثول في حضرتة . وحدث الى عتبة بغيظ كاد به يصرف عنه زوجته المطماع . الا انه عاد فرضي عن دخولها ديوانه ليخاشنها ويندد بها ، لا ليحتفي بمجيئها اليه . قال يخاطب عتبة بسخر يعلوه السخط : أتكون هنا سيدتك ؟ ... ألا تنتظر فينا ، وان تكن اقبلت على غير موعد . فماذا تريد ؟

فهاه عتبة ما ينفث امير المؤمنين . وتراجعت وفي قلبها رعشة ، وفي

طلعتها كمدة. وبدت في سيدتها على تقلص بشرة، وجحوظ عين. فصاحت  
بها الخيزران وقد لمست فيها الارتياح: ماذا؟ ... بم عالتك امير المؤمنين؟  
فاجابت ولسانها يتلجلج: لتدخل سيدتي. فالخليفة يفسح لها اليه!  
على ان الخيزران طمعت في الاستجلاء. وسددت الى جاريتها عينين  
ثاقبتين، تكرهان من تنفذان الى لبه على الايضاح. فقالت عتبه بهمس قليق:  
لاح لي منه انه على غضبة ساحطة لم اعرفها فيه. ولقد خشيت منها ان لا يبيع  
لك الوصول اليه. ففي نفسه من الاحن ما ترتعد له حتى فرائص العتاة!  
فما اكرثت الخيزران للتخويف، بل حثت الخطو الى الايوان، وهي  
موقنة أن نظرة واحدة منها تذيب الحشونة، وتروّض الطبع الجردان.  
وانحنت بين يدي المهدي، وسلمت عليه ببسمة يجري في تضاعفها جزيل  
الاغراء. ورقبت من الخليفة ان يميع حيال ابتسامتها، شأنه في جميع  
موافقه منها. على ان المهدي، وقد حدجها بنقرة، ما انفك يطلق فيها  
عينيه القاسيتين. واستطلعها ما يدفعها اليه، قائلاً بمستفيض الجهامة: ماذا،  
يا خيزران؟

فآلمتها النبوة الجافية، وكادت تتلثم. على ان دهاءها ابى عليها التخاذل،  
فازجت القول الهادي، المؤمن ببلوغ اثره في الارواح: ليس لدى الخيزران  
ما يزيد على التماس رضى سيدنا الفرد، وتمنئته باقتلاع الشر. اطال الله بقاء  
امير المؤمنين!

ولم تجمد فيها ابتسامتها المخصاب. فهتف ابو عبدالله، وقد استطار حدة:  
ألا تجيدين غير المكايدة، يا خيزران؟ ... ما عرفتك الا حرباءة، منذ  
انسللت الى مودتي. أنحاولين دكّ عرشي، ولا يقعدك الحجل مني عن المجيء

اليّ؟ ... وحق السماء ، ان بك من القحة ما لا تملك رقطاع في ليل . أما ابلغك يحيى البرمكي ما صارحته به من نقمة ، ومن تحذير ؟ ... ان يكن اطلعك على ما كان مني فيك وفيه ، واقبلت اليّ ، فلا ريب انك صفيقة الوجه ، وقحة اللسان !

وخيل اليه انه ادماها ، وارداها . فما رشقها به من قول يزعرع النهي . غير انها لم تتأثر ، ولم تجزع . بل ملكت من قوة الاعصاب ما دفعت به عنها الحنق المتواتب الى حنجرتها . واستطاعت ان تبدي المرح والارتياح . فقالت بالابتسامة المخضبة شفتيها : من حق امير المؤمنين ان يقول فينا ما شاء ، وان ينزل بنا من احكامه ما ليس لنا عليه اعتراض . اما ان يتهمنا بالسعي لك عرشه ، فهو مما يثير فينا موجة العتب على الخليفة ، ايده الله . اطلعتني يحيى البرمكي على فورة امير المؤمنين . ويقيني ان الايدي المفسدة تحاول اليوم ، كما حاولت بالامس ، وكما ستحاول غداً ، ان تسلخ منا عطف ابي عبدالله ، مما اهاب بي الى هذه الجسارة في الدخول على المولى المطاع !

فصرخ وكل ما فيه على ماضي احتدام : ماذا تلو كين من مماحكة ؟ ... الايدي المفسدة ؟ ... وما هي الايدي المفسدة تتحدثين عنها ؟ ... أتكون سوى يدك ويدي البرمكي ؟ ... اراك تتوغلين في ما يكشف فيك كل نعمة . أما زيتت ، بالاتفاق وابن برمك ، للمقنع الحراساني الثورة ، كي يقلقل بي مسندي ، لتزعيني من عليائي ، وتقيمي على انقاضي ابنك هارون ؟ ... اما المقنع الحراساني فانظري ما حلّ به . احسبك مررت بالاعواد في طريقك اليّ . واما ابنك هارون ، فاني لارميك فيه بالحرمان اذا شخص لك ان تناوئيني به . فما نجل المهدي ابناً عاقماً ، يا خيزران . والله ، ضقت



ذرعاً عن كل حلم . وان يكن صبري عليك طال فيه الامد ، فان للنهاية  
 حداً قاطعاً . واذا ابت شفقتي عليك محوك ، وارتضيت بقاءك في نسائي ،  
 فليس لك ان ترتجي الاستمتاع يوماً برضاي . نبذتك من خاطري . ولك  
 ان تتفجعي على ايام صافيات نهلت فيها من سماحي ما لم يتفق لسواك ان داناها .  
 انك لمنكرة الجميل ، مختالة . فهل بدا لك من المهدي انه غير حقيق  
 بالخلافة لتكيدي له ؟ ... ألا من هو الخليفة ، ايتها النكداء ؟ ... أنا ، ام  
 انت ؟ ... أرفعك هارون ، يوم يملك الناصية ، الى حيث رفعتك ، وقد  
 اصبحت الدولة على مداها ؟ ... اراك بطرت حتى عميت . وكان عليّ ،  
 منذ لمست فيك العجب ، ان اقصّ جناحيك . الا ان مديد عظمي جنى عليّ !  
 وشاء ان يزيد في النيل منها . بيد انه ظلّ يتهيب منزلتها منه . فما  
 ان يقسو حتى يرقّ ، كأنه يعاتب ، لا يدين . وادّرت الخيزران طول  
 الأناة ، والموقف يدعو الى الاحتمال . فقالت بنديّ اللين : هل انتهيت من  
 صبّ جام غضبك عليّ ؟ ... يشوقني ان اسمع منك كل ما يتأجج في  
 صدرك من كره لامراتك الوفية . وبعد ذلك هب لي من عفوك فسحة للبيان !  
 فاختلج مبرطماً وزأر : وهل من بيان لديك ؟ ... واي بيان ؟ ...  
 ألا نبتعد قيد شعرة عن التدجيل ؟ ... ستفضين منك كل ظنة ، لترمي  
 بمشاينك سواك . على اني اصبحت ملماً بالمواربة ، فلن اؤخذ بالترهات .  
 انت بعد اليوم امرأة عاطلة من كل سلطان . فلست تريدين على كونك احدى  
 جواري البلاط . وبما يضحكني منك ادعاء الامانة . أتعبين بجرمتي ، حتى  
 يجول في صدرك الميل الى إبادتي ، ثم لا تنفكين تتغنين بالوفاء ؟ ... ألا  
 اي وفاء هو هذا النكر تفيض به خستك ، يا ابنة الدهماء ؟

فاتسعت عينها ذهولاً ارمدمهجتها . هذه الشتام يسلقها بها المهدي لم تسقط قبل الساعة الى وعيها . فماذا ناب ابا عبدالله ؟ ... اي شفاه ابلغته عنها النبأ الزعاف ؟ ... ولمست بيديها الاثنتين هول الوشاية . وتراءى لها شيخ لبابة يقهقه شامتاً ، وكأنها تسمع باذنيها قهقهة التنسفي الناعبة . فارتجفت . غير انها لم تستعن على رد السعاية بالدمع ، بل بالعنف . فالدمع عنوان الذل . والحيزران تأبى ان تكون ذليلة . هو الدليل على الاقرار بالجريمة . والسيدة الاثيرة ليست مجرمة لتبيح لمدامعها الانطلاق تكفيراً واستغفاراً . قالت بتفجير غيظ : ان يكن يعتقد امير المؤمنين اني اكيد للعرش ، فمن الراهن انه يجهل الحيزران . ويؤلم مهجتي ان يجهلني سيد البسطة العربية ، بعد عشرين سنة من راسخ الالفة . أاكيد للمهدي ، وقد ادركت الرفعة بالاستناد الى رفق المهدي بي ؟ ... انها لسعاية زريّة ، دون ، لا اكلف نفسي دفعها . وجلّ ما اعلن ، في حضرة امير المؤمنين ، اني امدّ عنقي للذبح ، ان يكن ابو عبدالله مؤمناً بما ارجف المفترون ، في سعيهم لتتفير الخليفة عني . لا بأس ان يبطش بي امير المؤمنين للخلاص من حشرة تفسد عليه شذا السلام . فهذا جزاء الاخلاص والحفاظ !

فازدراها بصيحة راعدة يطلق بها قوله الفاحم : اترددن كلمات يحيى البرمكي ؟ ... هل لقنك اياها الزنيم كي تخففي بها من حدتي ، زاعمة انك على فيض من ولاء ؟ ... ولكني اعرف من انت . فاذا تعاميت عن اباطيلك ، لشغف بك يكمن في نفسي ، فقد اكرهتني مقابحك على النظر الى الحقيقة السافرة . انت امرأة تعتمدينني لفرض سيطرتك على الناس . اما وقد بدا لك وقوفي وقفة المعاند من مطامعك ، فسوّلت لك نفسك الوبيثة الغدر

بولي نعمتك. غير اني يقظان، ايتها الماكرة. خبتك لن يخفى على ابي عبدالله.  
رايت مني تزوعاً الى الهادي، المتأفف من غلاظتك، فانخيت على الرشيد  
تلاطفينه، وتستهويني به اليك. على اني لن انخدع بمراوغتك. فالكلمة  
المعلنة لا خروج عنها. وليّ عهدي موسى الهادي. وبعده هارون. وكل  
مجهود تبذلين، لصرفي عن هذه الرغبة الصلود، نصيبه الحبية الكاسحة.  
فعودي الى صرحك، وادفني فيه قباحتك. انت لست أمّاً. ما انت غير  
شعلة من شهبوات تتأجج لتتحكم في العباد. الا ان من خبرك، وابع لك  
الامر على مدّة ذراعك، قطع يدك، وقد ادرك اني يقوده طماحك. عطفتك  
على أربك يعدو حبك للرشيد. فانت لا تنظرين الى الفتى نظرة الام الخنون،  
بل نظرتك الى مطية ترقى بك الى جشعك. فبدي من روحك هذا السفال.  
واذكري انك أمّ قبل ان تكوني سيدة ذات عزة. اني لامنعك من ان  
تعودي الى المثول في البلاط دون ان ادعوك اليّ!

فمالت الى الكلام، وقد هالتها النعمة المجلجلة. ما بدا لها المهدي في  
هذا الهياج العريبي. قالت ولم تول مالكة جأشها: أتعجب منك كيف  
تؤمن بكل ما يذاع في سمعك. أتوى لبابة صادقة في كل ما اوهمتك عنا?  
فزعت، وقد احمرّ وجهه، وتناول الى الخيزران بصدر ناتيء وثاب:  
لا تفتري على الابرياء. فأني شأن للبابة في ما انعى عليك؟ ... لم تتلفظ  
ابنة اخي بكلمة نابية تنال بها منك. ولا ارتعشت شفتاها بنبا دسيسة امعنت  
في تطريزها يداك. ألا سلمت يداك! ... ان لبابة لاكرم منك اصلاً،  
فلا يعرض لها ان تلتفت الى مخازيك!

فنحرها وهو يعيّرُها حقارة اصليها، ويرفع عنها لبابة. غير انها ظلت

متماسكة عن البكاء . قالت وكل ما فيها على ارتحاه عود ، ونزق مكبوت :  
ليبقَ اذاً لامير المؤمنين من اختارهم ، ويشوقه الاصغاء اليهم . وسنحتجب  
عنه ، ومرآنا البشع يضيئه . نحن نرغب له في صفاء الروح . فما دام قرير  
العين في صحبة هؤلاء النخبة ، فنحن مثله على قررة عين ، و صفاؤه صفاؤنا .  
ولا علينا اذا بلينا بنفاره منا ، ما دام معتبط النفس . فكل منا ان  
يبتهج ، حتى مع ثواننا بالنار . اني لمنصرفة عن دار لا ازال انطوي لها على  
مباحضة طهور ، مع ما يصيبني من جورها . ولن اعود اليها الا وقد امر  
الحليفة بان اظهر في بلاطه . فالخيزران ستضرب المثل في الطاعة ، وان تكن  
تبيت على ظلم !

وتراجعت تتأهب للرحيل ، وهي تكاد تتمزق قهراً . ظفر اعداؤها بها ،  
ونزعوها من قلب امير المؤمنين . ولكن ايصبر المهدي على بعادها عنه...?  
لم تكن تعتقد انه يملك هذه القوة على القطيعة . وانكفأت في بطانتها الى  
صرح اساس ، دون ان تخلج شفتها بحرف . بلي ، كانتا ترتجفان لفرط  
الحسوف . ولكن الصوت اخنق فيهما . وكيف تطلقان الكلام ، وقد غار  
كل بيان في صدر الخيزران...? انها لتحمل خبيتها في ملاحظها وبين اضالعها .  
وتسير في جادات بغداد على اكفهارار وألم . فكأنها في جنازة صامته . وما  
تجرأ احد من افراد حاشيتها على استطلاعها امر لقاؤها المهدي . فالحلكة  
السائدة سحنتها ، فرضت عليهم الحرس . فاندفعوا في اثرها على وجوم ،  
وقد ايقنوا ، في صميمهم ، ان الحصوم تفوقوا على السيدة الاثيرة  
ولدى دخول الخيزران صرحها هتفت بمن حولها بصوت أبح ، مهتاج :  
اين يجيى البرمكي ؟

ويحيى كان في الصرح ، بجانب الرشيد وزبيدة ، يطلعهما على ما كان فيه من امير المؤمنين. انتمره الخليفة. واتهمه بالتواطؤ والخيزران على هدم العرش ، وعلى السعي لامتلاك الاعنة بدفع الرشيد الى السدة ، والاستئثار بالامر في الدولة العربية . وصاح يحيى باضطراب المتامل مما يتحمل به عليه حاسدوه : يجرّ في كبدي ان يؤمن المهدي بما نحن منه على خلو بال . فهل في ديار العرب من يحفظ للخليفة ما ندخر له من تأييد وولاء ؟

فقال الرشيد بصوت حيي ، خشيان : وهل يظن بنا امير المؤمنين شراً ؟ ... ولكننا ابدأ في طاعة ابي ، يا يحيى . فكيف نحاول الميل عن رضى الخليفة ، وليس لنا في ايلام روحه حياة ؟ ... ان لنا من امير المؤمنين الحامي الامين . وهل كان لنا ان نرتع في الرفاه لولا حذب ابي عبدالله ؟ وهو في غنى عن تنزيه نفسه عن القرية . فان حبه لابيّه ليطغى على جنانه . واستفهمت زبيدة بغصة : ومن تراه اقلق في امير المؤمنين عطفه علينا ، ايها البرمكي ؟

فاجاب ، وانفاسه تطلق كلماته بمضطرم الزفير : ما هناك غير لبابة ، ايتها الحسناء الوارفة المواهة . اختك هي الساعة بنا ، تنجدها الجارية حسنة . فمن مصلحة لبابة ان تتخاذلي لتسمو . وفي ركوب زوجها ولاية العهد املها الاغر بان تصبح يوماً السيدة الاولى في هذه الدنيا الوسيعة ، وعلى ناصيتها يقبض عمك الجليل !

فهمت بارتياح : أتسعى اختي بنا ؟

— ما هناك سواها ، يا ابنة جعفر . ولها من حسنة ، الجارية المتحمسة

لادراك القسط الراجح من المعالي ، خير معوان !

— واي شأن حسنة في مقاومتنا ؟

فاعلن يحيى ببيان المفوود : حسنة يمضّها ان تقف دون الخيزران في مودة امير المؤمنين . فقامت تحوكم المكاييد لبلوغ النظيرة في نفس المهدي . ودرت لبابة بما تنزع اليه الجارية الطمّاحة ، فاستعدتها على خنق مكانة الخيزران في صدر الخليفة السليم النية !  
— هل اتفقا علينا ، ايها البرمكي ؟

فاوشك ان يفضي بما في خاطره من واضح الادلة على المكيدة المنظمة لفصل المهدي عن الخيزران . الا ان دخول السيدة الاثيرة قصرها دفع يحيى الى لقاءها لاستيضاحها ما كان بينها وبين امير المؤمنين . وما نادته حتى كان بين يديها يقول بمفرط الخضوع : ها انذا ، ياربة النبل السنيّ !  
فجلجلت بجنق تبين منه للبرمكي ان الفلاح في تدليل البغضاء نبا عنها ، وان المهدي لا ينفك يلبجّ في النفرة والظنّة . قالت : دعني اخاطبك على خلوة !

وكانت تلهث . وتصلب منخراها لفرط غيظها ، فاذا هما في رهافة الشفار المسنونة . وكل ما فيها على ثورة . ووقف يحيى بقربها منحنيّاً ، فاتحاً اذنيه لسماع ما اسفر عنه لقاء الخليفة . وشعر بوهبة الساعة ، واتقد فيه الفضول . اي صرخة اطلقها ابو عبدالله في اذن السيدة الاثيرة ؟

ودخلت الخيزران مخدعها في الصرح . وانزوت ويحيى في حجرتها . ولم تجلس ، واعصابها المتوترة تأبى عليها الجلوس ، بل هتفت بيحيى وهي على انتصاب قامة ، والارض تكاد تضيق عنها : وقفتُ منه حيث رسخت انت في عناده . فما تقدمتُ خطوة . وانه لموقن اننا نتواطأ عليه . ومع جهدي

في تليين جفوته، لم اظفر منه باطفاء جذوة النعمة . وكلما دعوته الى الايمان بالولاء والمخالصة ، ازدراني ، كأني لديه خنفساء قدرة . ولم اعرفه في مثل هذه الاستهانة بي . وكدت ادّعى في حضرته لو لم ادّرع الصلابة . ولما طلبت اليه ان يسدّ سمعه عن وشايات لبابة ، وترهاتها ، نفى ان يكون للباباة يدٌ في افساد عطفه عليّ . مع اني واثقة ان لابنة اخيه السيد الطولي في تعكير المودة . فالغادرة اجادت الانسلال منه الى حيث تقهقرنا . وتمتت له كل اكدوبة خسيسة . فصدّقها واساح عنا يرمينا بسفاسف التجني . ولما عرضت عليه عنقي ليضربه بسيفه ، جزاء التهمة ، تفاقم تهكمه بي ، وقال : « اراك اتفقت في البيان ويحيى ، كما اتفقت واياه في الكيد ! » . ونبذني لا يصغي مني الى قوله . فالتويت وفي نفسي حرب على القدر والناس . فلم اشعر بالحيبة والحقد كما يتوهجان الساعة في جوارحي . فماذا ترى ، يا يحيى ، ايها المشير النصح ؟ ... ان النكبة لتجاوز الحلم . واذا صبرنا عليها خاطت اكفاننا !

ورآها يحيى تشتعل ، وكل ما فيها على مستطير نزوة . فاوجعه غليانها البأس واستفهم : ألم تتضح لامير المؤمنين سلامة طويتنا ؟

فنبرت : وكيف يؤمن بسلامة الطوية ووراءه موسى ولبابة ؟ ... لقد هددني بالانقطاع عني ، وبالنبيل من هارون . بل منعي من ارتياد البلاط بسوى دعوة منه . لم يبق غير رمة بالية من صديقتك الخيزران ، يا يحيى . فالعرز القديم عدا عليه القضاء !

وانتفضت السيدة الاثيرة فيما تنعى مجدها . وما استطاعت البقاء في وقفها . فهوت مفلولة العزمات ، الى ديوان بجانها ، وألقت رأسها بين

يديها وانفاسها تتصاعد زفرات حراراً . بيد انها ظلت ممسكة على جمود  
عينها ، لا تأذن لعبراتها في الانفلات . واذا بها تسدد الي البرمكي ناظرين  
ينفثان الاضطغان . وتصيح بجراح غصة : يحيى ، لن اسكت عن السعي  
لتهشيمي . ساقا تل حتى الموت . فالويل لمن يعترض طريقي . لن ارحم  
موسى ، ولا لبابة . فلا يدهشك مني اذا حرصتك على ابني . فكل من  
يخطر له ان يسيء الى الخيزران ، نصيبه الرمس . اصبحت مؤمنة بكون  
الناس ذئاباً . فمن يجنح الى المسالمة تقضه قواطع الانياب !

ولم تحفل بتقويض ابنها . فان يكن الهادي يروم محوها ، من ضمير  
امير المؤمنين ، كي يسود ، فلن تقعد عن البطش بولدها البكر . فان هذه  
المصوبة من حديد ، والموهة بالذهب ، لا تطمع في سوى اللعنان . وكل  
يد تحاول حجبتها ، واخفاء بريقها ، يلم بها القطع . سواء كانت يد ابنها ،  
او يد زوجها . فلن تغتفر لاحد الافتئات بما تراه حقاً لها . وليس للشانيء  
ان ينعم بالصفاء . وتعجب منها البرمكي وهي تتحدث عن الاستذئاب . فمن  
يلحقها في المضمار ؟ ... على انه ، وهو شريكها في الطماح ، لم يلبث ان  
استساغ القولة على شذوذها . فهما لا يسلكان الطريق العدل الى اقرار  
هارون ، في ولاية العهد ، دون موسى . الا انها المآرب الغاشمة . وهل يكون  
ذو المآرب الغاشم الا ذئباً ؟

ورأى البرمكي ان يجلو الموقف ، فقال : ربما لا تكون لبابة وحدها تلك  
المفتوية علينا لدى امير المؤمنين ، يا ذات القدرة . فقد جاءني من اقمهن  
عيوناً على الجارية حسنة ، انها انسابت امس الى البلاط ، ولم ترجع في  
سوى البكور !



فانتفضت شفتها بالقول الحادّ ، المرتاب : لست ارى حسنة تملك هذا السلطان على روح امير المؤمنين . فانها لتقوى على مخادنته دوني ، حين اقيم واياه على مناكرة . اما ان تتلاعب بشؤون الدولة ، فتدفع الخليفة الى ايثار موسى على هارون ، فهو بما اجده يعدو طاقتها . فلن يرتضي محمد المهدي ان تسمو جارية الى حيث لا يبلغ الا الاصفياء . ما الرامي غير لبابة . فهي انفذ اثرآ في نفس ابي عبدالله ، وتكاد تبزني في رضاء !

فقال يحيى بلهجة اليقين : ان لحسنة من الخطر ما يعادل شأو لبابة . فالخليفة يلقى فيها متعة الحس ، وبسمة الانس . وما يمنع ان يتفق موسى ولبابة وحسنة على استئصالنا من كبد ابي عبدالله ؟ ... هل ما يحول دون تضافر الثلاثة علينا ، ومن مصلحة كل منهم ان نخزي ؟ ... ليس ما يقف بهم ، وهذه رجاوتهم ، عن التحالف علينا !

فاصرت على القول : ليس لجارية ان تثب في بال امير المؤمنين الى حيث تتناول ذات القرني . حسنة تعكر علينا الماء . الا ان لبابة تشهر القبضة الساحقة !

فكاد يعلن تأييداً لحجته الصائبة : « ولكن من انت قبل ان تكوني امرأة الخليفة ؟ ... ألم يكن مقامك في رحبة الجواري ؟ ... واية امرأة ملكت من نهية امير المؤمنين ما ملكت ، وقد اكرهت المهدي على الزواج بك ، وعلى مساپرتك في معظم شهواتك ؟ » . الا انه امسك عن الالتفات الى الماضي ، وفي التحدث عن الامس ما يجرح سموخ السيدة الاثيرة . واكتفى بان يبدي : اذا صدق ظني ، يا ذات الجلالة ، فاني لاجد في الثلاثة قلباً واحداً يسعى لتكيد عيشنا . وضع لموسى ولللبابة ولحسنة اننا المجتلون

في مودة امير المؤمنين ، فتعاونوا على ائلافنا . وما رأونا نعقد لهارون على  
زبيدة ، ونوسك ان نستأثر بلب الخليفة ، حتى اوجسوا شراً ، وتآمروا  
في صدنا عما ادر كنا من عطف ابي عبد الله . وكان ان لفقوا وشاية نصرتنا  
المقنع الخراساني ، لا يغار صدر الخليفة علينا . واوفدوا حسنة لثفت الاضلولة ،  
فوقفوا لمقصدهم وهزمونا !

فلاح لها على صدق في الابانة . وغمغت : ان في ما تذهب اليه من  
تعليل ، يا يحيى ، لوفور اقناع . فليس ما يقعد بالثلاثة عن صوغ النائم  
لنسخنا . وعلينا ان نطوي الثلاثة . فلا يطلع عليهم نهار !

فاستوضح ببعض وهلة : أنقتلهم ، يا مولاتي ؟

فاجابت لا تخفي صبتها : نقتلهم جميعاً . فلا ينقذك من عدوك سوى  
اخماد انفاسه . والا ظل شوكة في عينك ، وحرية في كبذك . فلن تأمن  
شره الا وقد مات . ومن بواعث الحياة فينا ان نفتك بالهادي وبلبابه وبجسنة .  
فالى سفك الدم ، يا يحيى ، ولا تخش . لا بأس ان يموت الثلاثة لنعيش !

وحكمت بالموت على ابنها ، دون ان تكمد لها سحنة ، ويضطرب  
صوت . كأن عاطفة الامومة هانت فيها . بل كأن الهادي ليس ابنها .  
فجمد يحيى ، وقد تولاه الدهول . أبيضش بموسى الهادي ؟ ... وماذا يجلّ  
به وقد اخفق ، وتكشفت الدسيسة عن جليتها ؟ ... ووضح فيه للخيزران  
الوجل ، فصاحت به متأففة : ما بك ؟ ... أتخاف ؟

فبلغ ريقه مكرهاً ، وهو على طفاح يقين ان الامر يجاوز الوسع . وما  
استطاع الافاضة ببيان . فعادت الخيزران الى الصباح : أتخشى ، وانا  
عذك ؟ ... اضرب ولا عليك . اني لاتلقى بصدري المغبة . هذا ليس

ابني . فلست اعرف لي ولدآ يحمل اسم موسى . قد تكون ولدته سواي .  
ربما دفعته الى الكون احدى الجنّيات فنشأ على غرارها في شراسة الطبع ،  
وحب المشاكسة . ولقد تزوج جنّية . فما لبابة من الانس ، بل من الجنّ .  
والمنكودان اتفقا روحاً . والله ، لن اصون فيهما مهجة . واذا ابيت ان  
تكون في قتلها نصيري ، فلن أعدم من اضرهما به . أما حسنة ، أما  
تلك الحقيرة النكرة ، فاني لاقع في كل حين على من ينزع منها الروح . غير  
اني لن اقلها اذا اوديت بموسى وبلبابة . بل ساطردها من حظيرة الجوّاري ،  
واقضي عليها بالبؤس . فالسيادة في البلاط تبنت ملك يميني حين اقصي  
عنه شيخ الزنيمين ، المعنين في التنكيد والمضرة !

فتممّ يحیی برعب : ولكن موسى ولي العهد ، يا ذات الجلال . فاذا  
سلخته من رضاك ، فلا تنسي انه ابن امير المؤمنين . واي هزة تخضع  
الدولة العربية لدن يسقط فيها ولي العهد مضرّجاً بدمه ؟ ... انها لكارثة ترتعد  
لها الدنيا . ألا رافة بالارواح العزيرة ، ايتها الوالدة الرؤوم !

وبدا مخلوع الجنان . فوثبت من مجثمها هاتفة : أنتخذي ؟ ... ما  
كنت احسبك جباناً ، يا ابن برمك . موسى سيموت . ولبابة ستلقى منيتها .  
ولن يبقى سواي في عطف امير المؤمنين . انا الدولة . والارواح في قبضي ،  
اقصف منها ما اشاء . واستبقي ما اشاء . فان تكن ذلك الملتوي في خدمتي ،  
فدعني اترحم فيك على ثقة لم تنزل ارضها . أنت من يدعي الاخلاص  
للخيران ؟ ... سقّه قولك . فما الاخلاص منك في جارحة . انك لتتظاهر  
لي بالولاء كي تظل راسخاً في مقامك . فلا يسخط عليك امير المؤمنين  
وينفضك منه . واني لاشفق عليك . وارانني في غنى عنك في شهوتي . انهم

لجمّ العديد اولئك المستميتون في التماس عطفي . خيل اليّ انك اصدق  
جناناً ، يا يحيى !

فتلاشى حيرة وانخذالاً . ان الخيزران لتدفعه الى الويل ، وتأبى فيه  
مهادنة . ألا ما يكون منه وقد اقتضح ؟ ... فلن تقف البلية عنده ، وعند  
ذريته ، بل ستمتد الى فارس على بكرة ابيها . فيدوي ، في خلد العرب ، ان  
البرمكي يتابع خطو المقنع الخراساني ، في الكيسد للدولة العربية . وتقع  
الواقعة الصهور بين الامتين . ومن يعرض له في ذهن ان الخيزران ارادت  
البرمكي على نفس ابنها ، للنجاة من طمحاته ، وهو يسدّ عليها الطريق الى  
السؤدد والظهور ؟

وتصيب عرق الارتباك من جبين يحيى ومن فؤديه ، وقد ماع . غير  
انه ابى الا ان يكون ذلك النصيح الحكيم ، كما هو امره في جميع مواقفه .  
فقال بتؤدة ولين : لم نبلغ من الشحناء ، يا ذات القدرة ، ما يفرض علينا  
القطيعة . فالبرمكي موقن ان الوسعة العربية ، على مداها ، تجري في طاعة  
السيدة المختارة . بيد ان هناك من الحوائل ، دون المنى ، ما يصعب فيه  
التذليل . بل ما يبدو فيه التذليل فضيحة . واني لاضنّ بمولاتي ان تقدم  
على ما يشقيها !

فهدرت لا تهتدي بنصح : يشقيني ماذا ؟ ... أعييب عليّ الناس الفتك  
بابني ؟ ... ولكني افتك ببن عاق . وهل من حق بالبقاء لابن يتنكر لاهمه ،  
ويتمرد على سلطانها ؟ ... موسى يهزأ بي ويحتقرني . فكيف اطيعه ناعماً  
بالحياة ؟ ... لا ، ايها البرمكي . فالضريح اولى بهذا المجترىء على من  
وهبت له النور . ستقله وتحقق فيه رغبتني . والا فلم يبقَ من صلة بيننا ،

يا يحيى . بوسعك ان تنفصل عن الخيزران !

فاطرق يذيب الفكر في ما تقدر عليه هذه الحقود الحرون . أتطيعه يمينه في القضاء على ولي العهد ، وهناك الخليفة نفسه في الانتقام لابنه ، وخلفه في سياسة الدولة ؟ ... وما سها عنه الربيع عدوه الشائم ، المفتوح العين ، الساعي لحسفه . فالربيع يتحين النهزة لاقتلاع هذه الساق الفارسية ، وقد نصبها في المطمئن العربي ابو جعفر . فتمت ، وطالت ، وعشش الطير في مجدول اغصانها . فاذا ما اتسع له ان يضرب بالفأس الجذع المقيت ، المخيم عليه ، والحاجب عنه فرجة النور ، فيا ما اشهاها من سائحة مرتقبة ، تحن اليها المهجة الزاخرة بالقروخ !

على ان يحيى ، فيما يزن المخاطر ، ما نسي ان يروز المغام . فان هو ظفر بتدويخ الهادي ، فالدولة باجمعها تبيت في قبضته . الدولة بالمهدي والخيزران والرشيد . ومن هو المهدي ؟ ... رجل نقيّ الدخلة ، مع كل ما ينتفض فيه من غيرة جموح ، ومن نصب جائح في امتلاك الاعنة . فهو بمن حوله ، لا بنفسه . فان للبطانة فيه الكلمة المسموعة . ومن تكون الخيزران ؟ ... ان هي الا الطمّاحة الجشعة ، الرامية الى احتكار كل نعمة ، وكل رأي . على انها اذا ادر كت مأربها ، فليس لها غير يحيى البرمكي تعتمده في امرها ، ودوام سيطرتها . اما الرشيد ، فلا يزيد على كونه خيالاً ، بل رمزاً لدولة عربية اللون ، الا انها في صميمها فارسية خالصة ، ويحيى يديرها

والبرمكي على جليّ امام بوهن هارون ، وبجأته الى من يقوده . فليس يملك رأياً ، ولا اقداماً ، وقد نشأ على ضعف . اذن فمن مصلحة يحيى ان يقع هذا الانقلاب في الدولة العباسية . فيتوارى الهادي ، وينتهي الامر الى

الرشيدي . وخطر له ان يجازف بجميع ما يملك من مال ، ومقام ، وروح ،  
ارضاء لنفسه ، وللخيران ، وان يكن الامل ببلوغ الطلبة ضيلاً . فإما  
ان يفوز ، وإما ان يدركه الاضحلال . وإنه لعرضة للاضحلال يوم يصبح  
الهادي سيد الدولة على منبسط تخومها

اذن فمن ربيع العائدة ان يجاري الخيران في البغية . فينطلق جهاراً  
في نصره اهواء السيدة المختارة ، وله من الفريسة الحصة الوزني . قال ببسمة  
الدعاء المخضبة ، حين يشاء ، طلعت الرقور : معاذ الله ان اسعى للانفصال  
عن مولاتي . فالبرمكي رفيقها اني جرت ركبها . وان تكن ترى في  
القضاء على الهادي راحتنا ، فلا كان الهادي ، وهو يوجع فينا أمد الشأو .  
سنزيل موسى من حلقة الاحياء ، ما دامت هذه مشيئة سيدتي الجليلة !

فاطربتها موافقته اياها على التقويض . واعلنت بفرحة ماجت بها اوصالها :  
أخيلى اليك اني ازيغ عن الصواب في ما انهد اليه ، ايا البرمكي ؟ ... في  
محو موسى هناةنا جميعاً . ولماذا الابقاء على الدمل في اجسادنا ؟ ... لنبضعه ،  
ولنسترح من مضه . لتتوجع بيضعه مرة واحدة ، لئلا نغاني ابدأ شره . فمن  
لك تنتدبه للاجتاث ؟ ... أليس لك في اعواننا من يتدبر الامر ببطانة ؟  
فعاد يجيل الرأي في المسعى . من يتولى الضربة البكر ؟ ... وما  
خفي عليه ما ستحدث من راعب الاثر ، ورهيب الصدى . الا ان الجرح  
لا يلبث ان يبرأ ، مهما ذهب اليه الناقمون من تعليل وظنة . ولن تجهل  
الخيزران كيف تزيل التهمة بما تسكب من دمع هتون ، باكية ابنها ، ذوب  
حشاشتها . ورقبت السيدة الاولى من البرمكي ان يفضي بجواب . قالت  
وقد استبطأت بيانه : ما بك ؟ ... أما اهتديت الى سيف حاسم ؟

فاعلمن وهو لا ينفك من امره على ارتباك : عندي ان نصون اعواننا من مكابدة هذا الهول ، لثلا تقع تبعثهم علينا . فيسود فوراً الاذهان اننا اصحاب المكيدة . وخير ما نفعل ان نأتي بمن لا تجمعنا به عروة . فنسقط على رجل من ابناء البادية ، او من الحوارج العابثين بالنظام . فيقال عندذاك ان العصيان شدّ ساعد البطّاش ، فانقم من الخليفة بابنه ، وتذهب الظنون عنا . ان العملة لتدعو الى شديد الحذر ، لثلا يلوح لها خيط يدل علينا !

فارتاحت الى حنكته في إحكام التدبير ، وقالت : لك اليد المطلقة في الاعداد والتجهيز ، ولن اعترضك في ما يقرّ هداك . وجلّ ما اصبو اليه ان انجو من شيخ موسى . لك ان تحنقه بيدك ، او ان تضربه بمن يحسن اختطاف الروح . ذلك اليك . على ان تذكر ان لا خير في من تنتدبه للمهمة ان يكن واهي العضل . ففي موسى من القوة ما يطحن الصخرة ، وقد ملك ساعدين لا يثبت على صولتهما سوى طويل العمر . فاذا اصطفت كليلاً ، غير مجرّب ، زدت في مناعة الهادي ، وقد قهرنا . فاحترس من الحية !

فابان : ساجتهد في السعي لتحقيق حسن ظنك بي ، يا مولاتي . فلن يكون من نرمي به الهادي سوى اخي حزم ومرونة . حتى اذا ضرب ضربته كانت القاضية . فيجهز بها فوراً على عدونا ، دون اضطرار الى ضربة اخرى ! قالت وهي تريد الخلاص فوراً من المحنة : على ان تلوذ بالعجلة . فالبطء مضية للفرصة . ما يدريك ما يكون من المهدي اذا نحن نمنا على البغضاء العاصفة بنا ؟ ... قد يصينا منه ما لا نعلم منه بشقاء !

فاوضح : امهليني يومين . وليس للهادي ان يجيا بعدهما ! فرأت ان تطوّل له . قالت : لا بأس بأسبوع . على ان تجيد تسديد النبلة !

وصرفته عنها ، وفي القلبين فرحة ولهفة . فهما على اغتباط بازاحة الهادي  
عن طريقهما ، ليثبا وثبتهما البعيدة الشوط . وعلى خوف من اخفاقهما في  
المحاولة . فالخطر يرجع الامان في ما ينطلقان فيه من امنية جسيمة ،  
شاسعة ، سبوح ، لا ترتضي وقفه متقلقلة ، بين بين ، وليس فيها مجال الى  
هوادة . فإما الصدر ، وإما القبر !



الشمس ، في بغداد ، على غليان يتصاعد من كبد الارض بخاراً ،  
 كألسنة النار ، وحسنة لا تبرح سادرة في ضجعتها ، لا تفيق منها ، مع  
 اشتداد القيظ القارص ، المذيب . فقضت في كنف المهدي ليلة بيضاء  
 الجلباب ، لم تأذن في اطباق هدب . والآن ، وقد استسلمت الى راحة  
 الجسد ، وطمانينة البال ، فانها لترقد بلاء عينها ، ناعمة بالصفاء الريان  
 واقامت جارتها سعدة بالباب تمنع الجميع من اللغط ، حتى ومن وطء  
 الارض . والا نهرتهم وشتمتهم بما لا يقوون فيه على نسبة  
 غير ان هذه المقبلة الى المقصورة ، تطلب بالحاح المثل بين يدي الجارية  
 حسنة ، لتخاطبها في امر ذي خطر ، ازعجت في سعدة غيرتها على سيدتها .  
 فلم يكن لها ان تمنع في اجابة هذه الفارضة على المقصورة سيطرتها ، وهي  
 تبدو فيها من لدن موسى الهادي ، وزوجته لبابة . قالت سعدة متململة :  
 ولكن سيدتي بحاجة الى النوم ، ولم تذق له في الليلة الماضية طعماً !  
 فاوضحت المفاجئة للملاح : مولاي موسى ، ومولاتي لبابة ، بشددان  
 في دعوة سيدتك اليهما . وكلفاني ان ابدو في مقصورتها ، وان ابلغها  
 رجاوتها . فهل لك ان تحملي اليّ جوابها ؟  
 فما استطاعت سعدة الا ان تهيب . ولي العهد وزوجته يميلان الى  
 مرأى سيدتها . وتولاها الارتباك . أندخل على الجارية المرموقة ، وتنضو  
 عنها غفوتها ؟ ... ولكن حسنة لم ترقد ليلة امس بطولها . فلم ترجع الى  
 مقصورتها الا وقد تلاً الصبح . وعادت اليها على شوق طفحان الى

الانغماس في النوم ، والنعاس يأخذ بمعاقد أهدابها . واوصت سعدة بان تمنع الجميع من الحركة والاقلاق ، وبان تحول دون دخول اي كان على مولاتها . فليس لها ان توقفها ما دامت في هجوع ، حتى وإن تزلزلت الارض . فهل تعتمد الوصيفة الى العبث بهذا النهي ، وتحشد راحة الجارية البخيلة برفاها ؟

الا ان موسى ولبابة لا تردُّ لهما طلبه . وسعدة موقنة ان مولاتها لا تبدي الغيظ حين تعلم ان ولي العهد وامراته يدعوانها اليهما ، مع كل ما تنوء به من عبء . قالت سعدة وفي صوتها رعشة من خوف مكبوت : سيكون موسى ولبابة على رضى . صبراً واعدو !

وتنهدت وهي تقف بباب مولاتها تدقّه . فلم تسمع جواباً . فشددت في قرع الباب . واذا صوت يرتفع من كبد الحجرة مستقهماً بغيظ : من ؟ فاجابت الوصيفة بارتعاش : انا سعدة ، يا مولاتي . اوفد اليك موسى الهادي وامراته لبابة من يدعوك اليهما !

فكادت تنفجر امتعاضاً لو لم تعالنها الخادمة ان ولي العهد وزوجته يبغيانها . واطمأنت وابتسمت . ستطلعهما على جميع ما كان منها في ايفار صدر المهدي على يحيى والخيزران وزبيدة . نجحت الحيلة . وهتفت بنجاحتها : سأكون في اقرب آن لديهما ، يا سعدة !

ومتطّت وتثابت . وتحفزت للنهوض وهي تشعر بوهن قوى . على ان الرغبة في الافضاء بالبشرى اكرهتها على خلع كل فتور عنها ، وعلى الوثوب الى الماء تغسل به وجهها ، وتستعيد نشاطها . وارتدت حلتها على عجل . وحثت الخطو الى دار موسى الهادي ، وفي نفسها مرح وانسراح ، كأن

السعد ملك يمينها . وتراءى منها انها ترقص في اجتيازها السبل . ولم تكن  
تلقت الى من حولها ، كأنها لا تبصر احداً . وتبعها خادمها سعدة ، حتى  
اذا بدت في اعين موسى ولبابة ، ارتفعت صيحات الترحيب : اهلاً ،  
يا حسنة !

ومالت لبابة الى الوقوف فوراً على ما كان من امير المؤمنين في الجارية  
الانوس ، فاستبحت بلطيف نغمة : ماذا ، هل فزنا ؟  
فتجلت في قسماط الجارية المرموقة بسمة طفحى ، شفتت عن ضحكة  
طنانة ، وانتهت الى القول : وهل ينجم لك ان الحيبة ترصدنا ؟ ... لا ،  
وابيك ، يا ابنة جعفر . ما النصر الا حيث نكون !

فالتمعت في معارف موسى ولبابة الفرحة . وران عليهما الفضول .  
فقال موسى بشره الى معرفة ما كان من ابيه : ألا بم حادث امير  
المؤمنين ؟ ... هل اقنعت به بان خصومنا يفسدون عليه الطمانينة ؟

فاوضحت : خاطبته بما اتفقنا عليه . قلت ان الخيزران ويحيى يضرمان  
في الدولة سعيير الفتن . وانهما يد المقتنع الحراساني في الكيد لامير المؤمنين .  
وان العقد هارون على زبيدة جسر الى تقويض سدة الخلافة بالمهدي ، ورفع  
هارون اليها . فالفرس لا يدخرون وسعاً في استعادة العز المدفون . وقد  
اعتمدوا يحيى في التدمير . ويحيى زخرف للخيزران مناواة ابنها الهادي ،  
الصلب الرأي ، والعطف على الرشيد المائع ، الضعيف . حتى اذا ما تولى  
الامر ، لقي فيه الفرس دعامة واهية ، فلا يصعب عليهم ان ينسفوها آمنين !  
فصاح الهادي : لا فُضَّ فوك !

وهتفت لبابة : انك لذات جرأة مثلى ، وبيان خضيب ، يا حسنة ،

فماذا كان من امير المؤمنين ، وقد وقعت في مسمعه هذ الشواجي ؟  
فاعلنت بدلال : آمن بكل حرف منها . وشاء القدر ان يوالينا ، فاقبل  
رجال الخليفة بالمقنع الحراساني مكبلاً ، مفلول الغرب . على ان نخوته هدرت  
فيه وقد مثل بين يدي ابي عبدالله . فاستفاض بالمقال الجافي . فلم يكن من  
امير المؤمنين الا ان اودى به ، وبلّ بدمه البلاط . ونادى اليه يحيى بن  
برمك . فبدا المناق مباحياً بسحق المقنع الثائر . ولكن امير المؤمنين هزّ  
كبده بما اطلق فيه من حانق التبكيت . فاتهمه بالتواطؤ عليه والخيزران ،  
وبالتمهيد لك العرش ، والتحويل بالرشيد . فسقط في عضد يحيى ، وانتقع  
لونه . وغار بعضه في بعض . ورعد ابو عبدالله : « والله ، لا طيححتكم جميعاً .  
فلست بمن ينام عن الاستطالة الفادحة ، وهي تكلفكم ارواحكم ، يا يحيى .  
أتحدثكم النفس بالنيل مني ، وانا القابض على النواصي ؟ ... ألا اربعوا على  
ظلمكم ، والا حصدتكم بسيفي كسيقان الشيخ ، لا أبالي الرشيد ، ولا  
الخيزران ! » . فاستخذى البرمكي الخانع . وخرّ على ركبتيه في حضرة  
امير المؤمنين معلناً براءته ، وبراءة الخيزران والرشيد من الظنة . فما اصاخ  
اليه المهدي ، بل نبر : « الموت لكم جميعاً إن يخطر لكم تكدير عيشي ! » .  
فتمتم يحيى بذل ، وهو يعرض سيفه على الخليفة : « ليضرب امير المؤمنين  
عنقي بهذا السيف ، ان تكن ثقته بي طارت عني ! » . ولكن المهدي حجب  
دمه ، وطرده من حضرته بنفار وحقد ، فيما يدعوهُ الى ابلاغ الخيزران ان  
الحركة تذهب بها ، فلتهدأ في غليانها . فتراجع البرمكي من ايوان ابي عبدالله  
على كلوح ورعدة ، حتى خيل اليّ ان رجليه لا تحملانه ، وانه يوشك ان  
يتدحرج مكانه ، فيعضّ الارض !

فصاحاُ معاً مستبشرين : ليته قضي ونجونا من خبثه . اجدت ، يا حسنة ،  
في نسخه من عطف امير المؤمنين !

قالت بتألق البشر : ولقد اختبأت حيث ارى واسمع . والتفت  
اليّ المهدي فيما ابدو في حضرته يقول ، وقد توارى يحيى مكفناً بجذلانه :  
« رأيت ما يلقي الماكرون ، يا حسنة ؟ » . قلت : « مدّ الله ايام امير  
المؤمنين ونعمه . اصبحت اخشى الجبر بعد الكسر . فليس من الجميل ان  
نغالظ البرمكي ما دمنا سنغفو عنه لدى ظهور الخيزران فينا . بل الجميل  
ان نقهر فيه كل رجاء بنفيه من بالنا ، وباقصائه عنا بلا رجعة الينا . فما  
ان تبدو أم موسى ، حتى نضرب صفحاً عن كل غصبة ، وكأننا رضينا عن  
الشر يستفحل ويسود ! » . فصرخ ابو عبدالله : « ولكني لست المهدي اذا  
مضيت في مسأرة الحية الرقطاء . لم يبق لها مستقر في ضميري . سامنعا من  
المجيء اليّ ، كأنها ليست أم موسى وهارون . واذا مضت في عنجهيتها ،  
فلا ترقب مني الا القضاء المبرم عليها . لن انا على حربة مسددة الى صدري ! » .  
فابدت ان القوة في الثبات ، لا في الاكتفاء بالتنديد . وزدت في سخطه على  
السيدة الاثيرة حتى اضحت في خاطره فضالة حقيرة . ولم ارجع الى مقصوري  
الا وقد حشوته حمماً ، لا يحمد لها غليان . واعتقد انه سيظل منها على وقد  
لا يطفئه مكر الخيزران !

فاكبروا الجهد الاروع ، الا ان الحشية انتفضت في عروقهم جميعاً ، وهم  
يتمثلون الخيزران في دالتها على الخليفة . فليس ما يقف بها عن تقويض كل  
ما شيد اعداؤها لمحوها . قال موسى ، وقد انتابه السهوم : أتقوى على النفاذ  
الى رضاه ، بعد كل ما اقمنا بينهما من الرواسي ؟

فاعلنت لبابة : ليست دون هذه المعجزة . على ان حسنة تعلن انها  
اجادت التهشم والتنفير !

فابانت حسنة ، وكأنها ليست من امرها على ثقة : كل ما لاح لي من  
امير المؤمنين دلني على ان ليس للخيزران ان ترجو النهوض من الحفرة .  
أما ان تقدم على الخوارق ، فهو بما لا يتفق لاحد ان يثنيها عنه . فالمكيدة  
قامت على رجلين وطيدتين ، وقد حققتها كما وضعناها . فان تكن الخيزران  
ادهى منا ، فليس العتب علينا في ما تملك من بضاعة التفوق . بل على  
الاقدار . وقد وهبت لها من الفطنة ، والصلابة ، ما يستعجز صفوة الدهاة !  
وغلبهم على امرهم هذا المضاء في الخيزران ، واسترخاء المهدي حيالها .  
وانتشر فيهم الالم والشجن . واذا بموسى يذيع بقسوة ونقمة ما لا يبرح  
يدعو اليه : اذا اخفقنا في تعكير الجو بينها وبين المهدي ، فما علينا الا ان  
نستأصل الدم للستريح !

فاستوضحت لبابة ، وقد اتسعت عيناها : وكيف ، يا موسى ؟  
ولم تكن بحاجة الى الاستيضاح ، ولهجة زوجها الجياشة دلتها على مرماه  
السيحيق . فاجاب لا يتقي كتماناً : سنقتلها ، وما برحت اناذي بضروة  
الخلاص منها بموتها . والا نهشتنا بانباها الحداد ، لا تبقي منا على هباءة !  
فقال حسنة ، وهي من انصار ائتلاف الخيزران : وما هي وسيلتك  
الى محوها ؟

فاجاب لا يبالي مغبة البيان : علينا ان نلوذ بالسم . فالسم يطويها .  
ففي صرح اساس من الجوارى من نقوى على شراهن ، ودفعمهن في  
خدمة ماربنا !

فبلعت المرأتان ريقهما جزعاً، مع رهيف رغبتها في درء شبح الخيزران  
عنها . غير ان موسى ، وقد اعلن مراراً الفكرة ، مضى في تعليمها  
وتأييدها . ولم تجد لبابة وحسنة ما يحول دون الموافقة على الطلبة، مع كل  
ما تتسم به من دمامة . قالت حسنة، وقد طغت احقادها على خلجات الرفق  
النابطة بفتور في جناحها : اجل ، لنقلها . ساوفد اليها جارية بمن تضمنهن  
مقصورتى تسقيها حنقها !

فاوضحت لبابة : لن نتعب في الايفاد ، ولدينا في صرح اساس من  
يوافينا باخباره ، ويخلص لنا في ادراك الارب . عليّ التدبير ، وكونا بامان .  
فلن تفلت الخيزران من قبضتنا . فاذا تم لها ان تنجو من احبولة اليوم ،  
فلن تنجو من احبولة الغد . وان هي جاوزتها ، نصبنا لها احبولة اخرى .  
وهكذا حتى نوفق للتنكيل الامين بالافعى الفاغرة الشدقين لابتلاعنا !

فصاح موسى بجدة ساحطة : اذا لم ينجح فيها السم ، انقضضت عليها  
بسيقي احترق رأسها !

ولم يهرب ما تفوه به من كاسح فظيع . فالابن لا يصون دم امه من  
الاراقة . فقالت حسنة، وقد خشيت ان يفعل ، وهو الطائر الوثبة ، فيفسد  
عليها جهدها ، بل جهدهم جميعاً : ولكن علينا ان نصبر ريثا نقف على  
جدوى تدبيرنا . فاذا هدم امير المؤمنين ، في السيدة الاثيرة طماحها ،  
وقلّم اظفارها ، وادنانا منه ، فلن نشتهي ما يعدو هذه الحظوة !

ولكن موسى جلجل ، وقد هاجت فيه اوتاره : هذا التقويض بالابقاء  
عليها لا يكلل بالفوز مساعينا . ولن تلبث امي ، ما دامت سليمة الروح ،  
ان تنضو عنها اسمالها ، وتهبّ علينا عاصفة جائحة تدويننا سمومها . فما لنا

غير السم ، او السيف ، ينصفاننا منها !

وهوت يده الى مقبض سيفه . وهجم على الباب ينطلق منه اعصاراً هادراً الى امه يخلع عنقها ، صائحاً بنفاد صبر : ولماذا التطويل ؟ ... بنفسى ساكفيكما شرها . لا محاتلة ، ولا سم . بل ضربة جائحة ، ونحن بسلام . هذه علة لا يحسمها غير السيف الباتر ، والا جرفتنا احوالها !

وثارت فيه البغضاء حتى لم يكن يتاسك . سيقتم صرح اساس ، ويجتث ركنه غير مشفق فيه على روح . الا ان لبابة وحسنة وقفتا به عن مراده الانكد ، صاحتین بارتياح : لن تفعل . لن تفعل . دعنا ننظم الامر على صحة وجه وبصيرة . فالعجلة لا تحمد عقبها ، وستذهب بكل حكمة أجدنا إقرارها !

ولكن هذه اللطّفات لم تعد به عن غلوائه . فهو يتنوى اضطغاناً وشهوة الى قتل امه . لتمت وليذهب في اثرها . على ان يفتك بها . ووهنت قوى لبابة وحسنة في رده عن الطلبة المتوهجة شوقاً الى سفك الدم . وكادت المرأتان تولولان . غير انه فرض عليهما الصمت ، والا شفى بهما حفاظه . وهال لبابة ما يزعم فتجرات على الصباح به مسترحمة ، مرتاعة : ألا اقتلني ولا تمسها باذية . أتدري ما تستهدف له من عقوبة وضم ؟

فصدّها عنه وهو يدمدم عليها : ابتعدي عن طريقي . اصبحت لا استطيع . هذه المسترجلة لن تكون في عيني قذى . ساقتلها ولينزل بي من الشرور انكدها . فلن احفل بما ساتهي اليه ، وقد سدت عليّ القبيحة كل منفذ الى المتعة !

وزلت بامراته القدم لفرط الدفعة ، فكادت تسقط الى الارض لو لم



تنجدها حسنة . الا ان الهادي لم يلتفت اليها ، بل استعجل الطفرة الى صرح اساس تغلي فيه نزواته . هذه النيات الكوالح ، المعششة في صدر امه ، ستقودها الى القبر الموحش ، تسيطر فيه على هواها . وليس لذي مطمع ان يميل بها هناك عن رغائبها . فلتأسد في الضريح ما شاءت . اما ان تقلق الاحياء بمكايدها ، وان تحرم ذوي الحقوق نصيبهم من السعد والرفعة ، فهو بما لا يبيح لها التمتع بايامها . سيقطع فيها الهادي كل مهزة الى السؤدد والبقاء وضاعت عنه سبل بغداد في هجومه على صرح اساس . وركب اليه حماراً اقر ، لم يجد سواه بباب الدار من مطايا . وابصره الناس في جهامته وسرعته ، فتأملوه متسائلين : ماذا اصاب الهادي من محنة ؟ ... اننا لثراه على احتدام وجفوة !

وذكروا ما بينه وبين امه من مناكدة ، واستقصوا : هل قهرته الخيزران ؟ وما كانوا يرونها على صواب في سعيها لحرمانه ولاية العهد ، وهو ذلك القرم العنيد ، الجريء الفؤاد ، العامر الهيكل على نضرة عود ، وغضّ إهاب . على ان الهادي ضاع عن الجميع ، وهو المتطائر الى حاجته يقضيها ، وينفض أمه من طوق الوجود . وتناسى انها أمه . فهي الساعية به ، والمأحبة حظه من دنياه . على انها ستعلم كم يفرض عليها الظلم من ثمن ، وستؤدي عنه حياتها . وكاد يبلغ صرح اساس . فهو في جادة الصرح الفخم ، المبسوط الرواء . ولكن من يرى ؟ ... من هو هذا المقبل اليه شاهراً سيفه ، وليس يفصله عنه ما يزيد على ثلاث خطوات ؟ ... من اي وكر أطلّ ؟ ... اي ثأر له عنده كي يفاجئه بالموت ؟

وارتبك الهادي . لم يبق بينه وبين الموت سوى بضع ثوانٍ . وتجلي له

في السيف المنتضى وجه أمه . فالخيزران رمته به خلج مهجته . وشعر  
بالموقف الحرج ، وقد ابصر بعينه حمامه . ليس له ان ينجو من الفتكة ،  
وكل سعي لردّها عنه محال . وعزّ عليه استلال سيفه ، والمندفع الى البطش  
به لن يهمله ريثما يختلط الحسام . فلم يكن منه الا ان فزع الى الحيلة ،  
صارخاً ، وهو يلتفت الى ما وراء من يتعمد اذاقته الهلكة : اقتلوه .  
اهرقوا دمه !

واوهم هذا المنتضى عليه بالنصلة أن وراءه من ادركوا ما ينهد اليه  
من مأثم ، فمالوا الى ازهاق روحه . والتفت شاهر السيف ليرى من يتوعده ،  
فما كان من الهادي ، وقد لاذ بالساحة ، الا ان وثب على خصمه يرمي به في  
الارض ، وينتزع سيفه فيقطع به عنقه ، زاعقاً : يا ابن الفاعلة ، ما أأم  
طبعك . أتريد ان تودي بي ؟

والناس ، وقد رأوا ، وعرفوا الهادي ، هتفوا له يكبرون شجاعته ،  
وفطنته . لم يرغب عنهم انه مغوار ندب . أما ان يملك هذا الدهاء المتأدي ،  
فيردّي خصمه ، فيما يوشك هذا الحضم ان يحكم منه شفرته ، فهو بما زاد في  
استئناسهم بولي العهد وحبهم له . وتحلّقوا عليه وصيحات الاعجاب تنطلق من  
صدورهم ، زاخرة بالحامسة والافتتان . وانهاوا بالطعن على الشائنين . لا  
كان الجبناء الاوغاد . وشتوا بالقتيل المضرّج بدمه ، وهو من جابرة ضخام ،  
اكتنزت جوارحهم بالقدرة ، وانتشر في ملاحهم الاعتداد . على ان الهادي  
فاجأه من حيث لم يكن يدري ان الضربة ستهوي عليه . فصرعه واستلّ  
روحه ، عابثاً بمناعته ، وعرض ألواحته . والتفت الى الجمع المحتشد حوله  
يعالن القوم شكره ، ويقول : من يعرف فيكم الزنديق القبيح ؟

فصاح بعضهم : إن هو الا من الحوارج ، ايها الامير !  
فاطلق الهادي في الجثمان الحامد النظر الشرر ، ونبر : نال جزاءه .  
فليتعظ بحاله امثاله !

واكتفى لا يزيد . وابي ان يعود الى حمارة الاقمر يركبه ، وهو على  
متناول النصال فيما يمتطيه . فلن يعتلي غير الجياد العتاق ، فتبعده عن مدى  
الشفار . وله من ارتفاع صهواتها ما يدرأ عنه مباغئات المهاجمين . وتفاقت  
فيه شهوته الى قتل امه ، ليقينه انها صاحبة الدسيسة الشائنة . فهي من دفع  
الحارجي الى قتل ابنها البكر . غير ان القوم ، وقد بدا لهم في جرأة  
الهادي اليقظي اقداماً وحنكة نادرين ، حملوه على الاكف يعالونونه إجلالهم .  
وخجل من ان يكشف لهم عن نياته ، فاطلق فيه ايديهم . ولم يكن يقوى  
على الخلاص من قبضتهم ، وقد ابوا الا ان يدلوا على تأييدهم له ، وایناسهم  
ببطولته

وفي لحظات قلائل ، وقع النبأ قاصفاً ، صاعقاً ، في آذان جميع من  
حوت بغداد من الخلق . واذا الوفود تهرع الى البلاط تستوضح . وتضخم  
موكب الهادي . وتعالى الهتاف له من كل صوب . وصاح صائح : الى قصر  
امير المؤمنين !

وردد الموكب باسره : الى البلاط ، الى البلاط !  
وانطلقوا بالهادي الى مقر ابيه . والخليفة ما كاد يأذن بالنبأ ، حتى  
استكبر الحطب . أتبلغ القحمة بالكاشحين مبلغ الاستطالة على ابنه ، ولي  
عهده ؟ ... وشاقه من الهادي ان يكون اتقى الغائلة ببصيرة نيرة ،  
وصولة وارقة . فصان بحصافته نفسه من المكيدة السافلة . على انه رغب في

معرفة منظمها . فمن هم الكارهون لولي العهد ، الساعون لتدوينه ونسفه ؟  
ولم يكن للمهدي ان يتعب في الحدس والتخمين . فما ارباب الديسة  
غير يحيى واخيزران . هما الساعيان لازاحة الهادي عن الطريق . والهادي  
خيال يحبب عنهما النور . والمصلحة تهيب بهما الى اجلائه عن ألقهما . وودّ  
الحليفة لو بقي الخارجي على رمق . اذن لتكلم ، وافضى بالراهن الصراح .  
الا ان موته سدل على الحقيقة حجاباً قد يكون صفيقاً . وهل ليحيى ، او  
اخيزران ، ان يعلننا بلا رهبة ، تديروهما القضاء على ولي العهد ؟

وجلجل ابو عبدالله بسخط دامغ : ارى الامور تتخرج في دولتي .  
فالمكايد لا يهدأ لها حال ، كأني اعيش في جحر ثعابين . على اني رب هذا  
المنبسط ، ولن اعجز عن كبح جماح البطل . فاليد اللاعبة بالنار ساقطعها .  
أبلغ من نذالتها ان تستطيل على ولدي ، ولي عهدي ؟ ... لو لم يكن  
الهادي على رباطة جأش ، ومناعة عصب ، لذهبت به الداهية ، ولكننا حيال  
فاجعة تصيبني في قلبي . اصبحت لا اطيق هذا العدوان المستفحل . وما  
استفحل لولا طول صبري ، ورخاوتي ازاء من حسبتهم يقدرون نداوة  
حلمي . لا ، وتربة ابي ، لن استعدي عليهم غير السيف الماحي . وما  
للحسام المرفف الحد ، يمين المنصور ، ان ياوي الى غمد . فالرقاب تشرئب  
الى حيث لا يجوز ان تتناول ، وقد أبيع لها الزمام ، فبطرت ، وتاهت !  
والتوى على الهادي يعانقه ، ويغالي في ضمه اليه ، كأنه يرغب في ان  
يوقن ان ابنه نجا من المكروه ، وانه لا يبرح يملك العافية . وهناك بضاعته ،  
ورهاقة ذهنه . فما ضاع ، ولا ماع . وهتف ابو عبدالله معجباً بابنه الاروع :  
بملك أفاخر الدنيا . فقد اظهرت ، لجميع من يستظنون لواءنا ، أن في

عروقتك يجول دم جديك المنصور ، وانك خليق بولاية العهد . فليس هذا  
المدعو غداً الى ركوب منصب الخلافة بالضعيف ، ولا الجبان . من معدنك  
ينشأ السادة . وعلى كتفين ككتفيك تقوم العروش !

وتساقطت عليه التهاني من كل فم . وقيل الشعر المليح في ولي العهد  
الهمام . ووثب الربيع على البلاط يتوعد ، ويكبر إقدام الهادي . قال :  
الحمد لله وقد رزقك هذا الشبل ، يا امير المؤمنين ، يحطم ببرائنه انياب  
الذئاب . فما حسبت المناكيد يتشახون حتى يقتحموا العرين . بيد انهم  
جهلوا من يناوئون ، وقد غرّتهم من ولي العهد طراوة عوده . وغاب  
عنهم ان الاقدار ليست في الاعمار ، بل في العزمات ، وان البأس يجري  
في العروق فور احتمال العيون بلألائها ، فلا يرقب عهد الفطام !

ووثبت لبابة ، زوجة الهادي ، الى صرح امير المؤمنين وفي شفتيها  
اللولولة والاهزوجة . فهي على لهفة وطرب . فجزعت على الهادي ، وسرّها  
ان يكون نجا من الاحبولة . واستوضحت عما اتفق له من رزيئة ، امعاناً  
في الاطلاع على النبا اليقين . وما ترددت في الاعلان : هذه يد الخيزران !  
وساورها من الظنون ما دهم المهدي . فما ثمة غير الخيزران من ناغم  
على موسى ، يريد خذلانه واستئصاله . رأت فيه سيف ابيه القاطع ، فمالت  
الى ثلم حده ، بل الى تحطيم نصلته . الا ان العناية الساهرة انقذت الابن من  
ويل الام ، ونجا الهادي بسلام . ورغبت لبابة في رؤية زوجها لمعالتته  
نقمتها وهيجتها . ونادته ، وقد وقفت وراء الستار المضروب في زاوية  
الايوان . وما تماكنت ، وهي تخلو به ، ان ترمي عليه باسمه باكية ، ودمع  
الجور يسبق فيها كل بيان . قالت وهي تمسح عبراتها المواتن : باي انت

وامي ، أيجنح ابدآ الكاشحون الى اذلال فورة القدرة فيك ؟ ... انك لترديهم بسموقك ، ورسوخ دعامتك ، زادك الله صولة. فما ان تقع عيونهم عليك ، في اوجك ، حتى يعرفهم الكسوف ، وتسيل اكبادهم وهلة وحسدآ . ولكن السماء لن تخزيك ، وقد اسبغت عليك نعمتها . فانت حربة في صدور الشائنين ، وبرد وسلام على مؤيديك . وانهم للكثرة في هذا المطمئن الفسيح !

فقال وهو يكفكف دمعها : ليس لنا ان نهلع ، يا لبابة . فلا بد لامي من يوم ادوخها فيه . ولسوف يعلم الجميع ، بمن ضمتهم دولتنا ، أن الهادي يملك امره ، وان الخيزران لا تبغى الا شراً . حاولت ان تمسكي بي عنها ، فانظري الى اي دناءة تسفلت . فما كفاها ان رامت نزعي من خاطر امير المؤمنين ، حتى ازمنت قتلي . ولكنها عاجزة في الحالين ، ولي من رحمة الله ، ومن عطف ابي ، ومن علو همتي ، ما يقيني الانهار . فالخيزران وحدها ستموت ، يا لبابة . فان لم تمت بيدي ، ماتت بحقدتها ، وهي لا تكاد تستنشق غير الضغن ، ولا تتغذى بسوى المكر . ويخطر لي ان ابقى عليها ريثما تنفى في مخابها . ففي موتها ، على مهل ، ما تجرع به مراراً الهلكة ، وتشهى الفناء ولا تنفى . لئقتلها عضواً فعضواً ، بل ذرة فذرة . فهو اشهى لنا ، واوجع لها . فالشماتة تحلو في ذلك الوجه القبيح . لبابة ، انت على صواب في ازدرائك اصلها المغموز ، العليل !

قالت : اقتلها كيفما تشاء ، على ان لا تسفك بيدك دمها . فمن الذل ان يشيع عنك انك فتكت بامك ، وابوك امير المؤمنين ، وجدك امير المؤمنين ، وعم ابيك امير المؤمنين ، ويومك يجيزك لغد تعتلي فيه سدة

امارة المؤمنين . فليس لاعدائك ان يعيروك بطشك بامك ، وقد امسيت  
رب الدولة . والا لقيت التباريح . وانقلب عليك حتى الاعوان ، وهم  
يقبضون على سلاح قاطع يشهرونه في مناوأتك ، ساعة يلمسون فيك النفرة  
والاشاحة . فلا تهب لهم هذا السلاح ، وكانك تنصرهم على التنكيل بك ،  
وتساعدهم على تشويه محامدك !

فاعلم بتؤدة ، وقد لاح له في منطقها جميل الرأي : وهو ما تبدين .  
فلن اسدد اليها سهمي الا حين يضيق بي كل احتمال عنها . ولن اقتلها بيمينى ،  
لثلا تصمى الاجيال بالعقوق . بل سادفَع اليها من يقاتلها . ولن ارتضى  
القضاء عليها بالنصال ، بل بالسموم . فاعهد الى احدى جوارها ان تسقيها  
شربة تصوّحها بها ، ولا رحمها الله . فلا يذيع انى قتلتها ، بل يفشو انها  
قضت نجبها . اما الآن ، فحسبى ما ادركت من فوز . ان الايام لتخدمنا ،  
يا لبابة . فما عرفتنى في حظوة تشبه ما ارتع فيه من نعيم !

واذا بحسنة تبدو مترجحة في اكمل زينة . وكادت تفتح صدرها لهذا  
الظافر باعدائه ، فتقبله بلء شفتيها . بيد انها تهيبت لبابة وامير المؤمنين .  
فلن تثير غيرة الاب ، ولا الزوجة . والمهدي يتوهج غيرة ، حتى ليكاد يحتنق  
وهو يسمع عاشقاً يتغنى بهواه . فكيف يرتضى ان يشاطره قبلات جاريتيه  
المرموقة فمٌ وخذ ؟ ... والله ، انه ليخلع مهجة هذا الشريك ، حتى وان  
يكن ابنه . ولبابة لا تحتمل مرأى من ينافسها في حب الهادي ، حتى ولا  
في اختلاس قبلة من الزوج المهيب ، القسم . وصاحت الجارية المرموقة فيما  
تبسط يدها لموسى تصافحه : عشت ، ايها الاروع . انك لمن نسل جبابرة  
عظام ، لهم بالرسول عروة وثقى . وما العجيب ان تفتك بالعلاج الوغد ،

بل العجيب ان تهب له اطلاقه من نفس . سلمت يمينك ! ... من امثالك  
نزيد الرجال . حسبك الخيزران قزماً ، فاوفدت اليك من يزقك فيك  
الروح . ألا هانت في بغيته الكفور . فان سهمها ليرتد الى نحرها . أتريدك  
على الفناء ؟ ... قَبِّحْ مأربها الحسيس . على انها ذات فضل ، يا لبابة .  
فظهر للناس لؤمها . وارتفع فيهم قدرنا . سبقتنا الى الشين ، وغسلت منه  
ايدينا . فشكراً ، شكراً ! ... لن يقال : «فتك الهادي بامه ، فيا للذلة !» ،  
بل يقال : « تعمدت الخيزران القضاء على ابنها ، فيا للعار ! » . سلمت ،  
يا موسى !

وسمع المهدي صوت حسنة يعلو ، من وراء الستائر ، فحبا اليها يقول :  
ألا ماذا ، يا حسنة ، أنت هنا ؟ ... اراك لا تنقطعين في هذه الايام  
عن البلاط !

وشاقه ما تتجمل به ، وما يشيع فيها من فواتن . ودنا منها فألقى يده  
الى كتفها ، يستروح ما تغلقت به من طيوب . قالت وهي تبسم له بمستفيض  
الوله : نفسي فداء امير المؤمنين . ان نحن الا الرياحين النامية بغيته وغوثه .  
فاذا ما جئنا اليه ، فلكي نبطل برفقه ورفده ، فنظل على نمونا في طاعته  
ورضاه . ان الزهرة ، مع هيامها بالفيء ، لتستهي انوار الشمس ، يا امير  
المؤمنين ، كي تستبقي مواهتها . فلا عجب اذا ما اقبلنا الى الشمس ، نستمد  
منها الانتعاش والبقاء !

فهتف بابتهاج : عوفيت ، يا حسنة . إن في عرفك من الشدا ما يملأ ايامي  
اخضلاً وأنساً . لكأنك ناسخة اشجاني !  
قالت : وبما اهاب بنا الى ارتياد صرح امير المؤمنين ، ما وقع في



مسامعنا عن المكيدة المنسوجة لاغتتيال ولي العهد . انها لطعنة في كل قلب  
هذه البادرة الوقحة ، الوغدة . أيقدم الاندال على هتك حرمة رب الامر  
في الدولة العربية ، على متناهي فجاجها ؟ ... ما حسبتني اعيش الى مثل  
هذه الساعة ، يا مولاي !

و كأنها تعمدت اثاره غضبته ، وهو السريع الى الاحتدام . قال :  
صدقت . على اني ساعاقب الانكاس بما ينتجع فيهم من ضغط وقهر . فيرى  
كل من يتفياً ظلي المنشور ، حتى اقاصي التخوم ، ان المهدي لا ينام عن  
منكر . فكل يد استركت في حبك الدسيسة ساقطعها من ابطها . بل  
ساجاوز الابط الى العنق ، واجرف اللثام هامة تلو هامة ، حتى لا أبقى  
على زنيم !

فلم تؤمن بتهديده ، مع غلوه فيه ، وتماديه في سخطه . قالت بنبرة  
من ارتياب : ولكن هل وقع امير المؤمنين على الجناة ؟ ... أثب الى  
ذهنه اسم من اسمائهم ، وهم من اسم ؟

فالتفت اليها الجميع ، وقد تجلى لهم مقصدها . وارتفعت الانظار عنها  
لتهوي على المهدي ، وتستجلي ما تنتفض به اساريره . فبلغ ابو عبدالله  
ريقه ، وقد لاح له من حسنة الاحراج . وقال بلهجة تغور في اعماق صدره ،  
وليس ما يسهفها في الانطلاق : اذا جئت انطق بما في نفسي ، يا حسنة ، بات  
العامر خراباً . فلست اجهل ان الامر جسيم ، وخيم !

فاستوضحت الجارية المرموقة ، تميل الى اكراهه على البوح بما عنده :  
ومن يترأى لامير المؤمنين انه اقدم على النكر ؟ ... أيكون هؤلاء الكفرة  
في حرز حرز تقصر عنه صولة المهدي ؟

فلمس في مقالها رهيف التحريض . فهي تغريه بدم الخيزران ويجيبى  
 البرمكي وهارون . انها لمتطايرة الاحقاد جاريته المرموقة . وابت التخاذل ،  
 وهو المفاخر بصدق العزيمة . وهاب تلطبخ يديه بدم احب الناس الى قلبه ،  
 فاعتمد على مسلك ينجو به من اللوم ، ويظل فيه على مكانته . فلا يشيع عنه  
 انه تراخى مرة اخرى حيال الخيزران . وهتف : ولكن من هم هؤلاء  
 الكفرة ، يا حسنة ؟ ... من هم هؤلاء الممتنعون على امير المؤمنين ؟ ...  
 أتعرفينهم ؟ ... هل تعرض لك اسماؤهم في بال ؟ ... ألا ازيحي عنهم  
 الستر ، كي اصطادهم واحداً واحداً ، فتقوم في كل ساحة ، من ساح بغداد ،  
 اعواد تتدلى عليها هياكل المجرمين . هل لك ان تفصحي ، يا ذات الاناقة ؟  
 واحرجها كما احرجته . فهو يدفعها الى الجهر والاثام . وما جهلت  
 سوء مغبة الاعلان ، وستقف به من الخيزران موقف العداوة الصراح .  
 بل لم تجهل ما سيكلفها من صدمات وتباريح ، ولن تنام عنها السيدة الاثيرة ،  
 بل تجاهد في الانتقام منها ، حتى تبيدها . على ان الغيرة ، العابثة بكبد  
 حسنة ، اعتمها عن كل احتراس . ثم هي ابت الظهور بمظهر المتلعم ، الخانع ،  
 ازاء تجاهل الخليفة المبطن بالدهاء . فجهرت بالقول الجسور ، الزاخر بالاحن :  
 من يضمر الشر للهادي ، يا امير المؤمنين ، فيسمى لعزله عن ولاية العهد ؟ ...  
 من يشوّه كل خلق رفيع في هذه البيئة المباركة ، كي يبقى له وجهه ، ويستأثر  
 بعطف امير المؤمنين ؟ ... ألا من يشهد انيابه لركوب منصب الخلافة ،  
 ويبعد عنه كل ذي حق به ؟ ... ان من تتقد ارواحهم بهذه الشبهات ، هم  
 ارباب المكيدة . هم من راموا القضاء على الهادي ، كي ينجوا من تفوقه  
 عليهم في رضاك . غير ان القدرة ، ابت الا ان تخزيمهم ، حيث وهموا انهم

يفلحون . فاذا ما اعتزم امير المؤمنين ان يثار ولي عهده ، فليضرب هؤلاء  
المفسدين ، ولن يخطيء حكمه ، ولن تجترح يمينه الظلم !

وكشفت له عن متجهها . فهي تنادي بموت يحيى البرمكي والخيزران .  
قال ، ولم يبق من سبيل الى التمويه : أينجم لك ، يا حسنة ، ان الخيزران  
صاغت خيوط الغائلة ؟

فهمت لا تبالي : هي هي ، يا امير المؤمنين . فالسلسلة ما تزال متتابعة  
الحلقات . اوجع الفرس ان يهونوا ، بعد عز ، فاحتشدوا في اثر أبي مسلم .  
ووجأ ابوك عنق ابي مسلم ، فقام المقنع الخراساني يطالب في عهدك بالانتقام  
لدم المسفوك . ومن هو المقنع الخراساني ؟ ... هو كل فارسي ، وفي الطليعة  
يحيى البرمكي ، الناعم بخيرك ، والشاهر عليك سيفك ، ولكن في الخفاء .  
فهو يتحين الفرص للعدربك . وتجسم له مطعم الخيزران ، في امتلاك  
الاعنة ، وايقن انها تنيله طلبته ، وقد ركب ابنها المقعد الاسمي ، فشمّر  
لهدم الخلافة فيك ، كي يرضع بها جيد هارون . وما هارون ، في يد البرمكي ،  
غير قصبه مرضوضة ، لا يرتفع لها رأس . الا ان المقنع الخراساني اخفق في  
ثورته . وأبیت الا ان يرسخ الهادي في ولاية العهد ، فهاجت الخواطر  
المهزومة . وفتقت لها حيلة اغتيال موسى . وشاء ربك ان يدراً عن موسى  
الكارثة . فالشكر لمن وقى . ولكن لهذا العيث الكريه ، في الدولة ، ان  
ينتهي . ولن ينتهي بسوى القضاء على من ينفثونه . فليضرب امير المؤمنين  
بيد لا ترحم . فالزنادقة كثرت تحت هذه السماء . ليحتز رؤوساً لا ترتدع  
عن غي ، ولا تتوي من بحر . والا اقمنا باجمعنا على خطر . وكان الخليفة  
في طليعة من يستهدفون لفرور الحزازات الهوج !

فايقن انما على صواب . فالمنطق الحق ما تفيض به . بيد انه ، مع  
 استخفافه بالهامات تنناثر، وبالاماني تجفّ ، تهيبّ البطش بالخيزران وبيحيى .  
 جلّ ما سيقدم عليه ابعاد البرمكي عن السيدة الاثيرة . وكأنه بتر ساعدها  
 الايمن ، وحرما قوة التدبير . قال يتحامي ما تستدرجه اليه جاريتته المرموقة :  
 اني لاؤيدك في ما تذهبن اليه من تخمين ، يا حسنة . فالمكيدة من صنع  
 البرمكي والخيزران . ولكن اين الادلة على كونهما حباكما ؟ ... فالهادي  
 اطاح الخارجي في وثبة صاعقة . فما ابقى له منفذاً لنأمة . وكنت اود لو  
 ابقى عليه ، ريثما يذيع من حفزه الى ارتكاب الجريمة المنكرة . والله ، لو  
 بقيت في الغادر الانكد ، خلجة من روح استلّ بها سره ، لانقضت  
 على الاندال الفجار انقضاض الضواري ، أهشمهم بمخالب امضى من مسنون  
 الشفار . وأدق اعناقهم عبوة لكل متوقّح زنديق . فلا أرحم الخيزران ،  
 ولا البرمكي . بل ما استنني هارون ، وهو من لا تجمع عنه مودتي . الا  
 ان الادلة تعوزنا ، يا حسنة . فمن لي بان يجيئني بها كي اكتب في التاريخ  
 صفحة لم يسبق لقلم ان خطّها ؟ ... فيذيع عني الدهر اني رفعت للعدل منارة  
 تهتدي بها الاجيال ، حتى انطفاء الارحام . احمّلوا اليّ من يدي بالحجة على  
 تواطؤ الخيزران والبرمكي ، على الهادي ، كي اطرحهما في اسواق بغداد  
 اشلاء دامية ، تتخاطفها الكلاب . اما ان اقتل ، وليس من دليل على  
 الجرم كي استنزل العقاب ، فهو الظلم الديميم ، ونفسي لا تشتهي !

وكان موفقاً في التنصل والاحجام . فاين الدليل الملموس على كون  
 الخيزران ويحيى نسجا الاحبولة ؟ ... وما سها عن حاجته الى يحيى ، مع  
 جفائه له . فالفرس ، مع متفاهم نفرتهم من العرب ، لا بند ان يكبحوا

جماعهم ، وهم يبصرون احد سادتهم ، يتبوا في رحاب الخليفة عالي المقام .  
على حين تفور شكائهم لدن يشاهدون كل هامة فيهم يشدنها السيف  
العباسي . فتعم الثورة ديارهم ، ويبيت العرش في مهب الاخطار . وتلججت  
حسنة حيال منطق المهدي السديد ، لا تسعفها البديهة في اعتراض . فاين الادلة  
الكاسحة ، كي ينتضيها ابو عبدالله ، ويرشق بسهمه الاكباد النخرة ؟  
والتفتت الجارية المرموقة الى موسى ولبابة ، تستمد منهما الالهام . فما  
ارتعشت شفاهها بنبرة ، وقد اقاما مما نشر المهدي على شده . وايقن ابو  
عبدالله انه افحهم جميعاً ، وقهر فيهم وعورة المطلب ، فساق الكلام الى ابنه  
المهادي يستطلع : وماذا يلوح لك ، يا موسى ؟ ... ألا توافقي على ما  
ذهبت اليه ؟

فاجاب المهادي مكرهاً ، ولم يشأ احراج ابيه : اني لاجد الخير في كل ما  
يستفيض فيه امير المؤمنين !

وسدد الخليفة مقاله الى لبابة مستوضحاً : وانت ، يا لبابة ، ماذا ترين ؟  
فاعلنت وهي تتنهد : الرأي رأي امير المؤمنين . فكل ما ننجح اليه  
ألا تعاد الكرة . فيمسي وليّ عهدك ، يا عمّاه ، مهدداً بالهلاك . فالحفاظ  
المتأججة لا معدى عن اطفالها ، لئلا نظل عرضة للتلف . وهو بما لا يروق  
سيد هذه الدولة . أيجتاحنا العدوان ، ونحن في كنف المهدي ؟

ونبرت حسنة : من الاثم الفاضح ان يقف الطغاة من ولي العهد هذا  
الموقف المستطيل ، وان لا يجدوا في امير المؤمنين القوة الكاسرة الشكائم ،  
الحاطمة الانياب !

فعرّ على المهدي ان تنال لبابة وحسنة من صلابة مكسره ، ورعد :

والله ، ليس لصدر ان يتنفس ، في هذه البسطة ، بسوى اذن مني . فالمخزاة  
لن تتكرر . واذا تكررت ، دمرت' العامر ، واحرقت النامي . وان يكن  
يشخص لكم ان يحبى والحيزران ، هما اليد الجانبية ، فسابعده يحبى عن  
الحيزران ، واميل به عن تأديب ابني هارون . فليس ما يمنع ان يبرح  
بغداد الى احدى الولايات يسوسها . أيرضكم هذا التدبير ؟... ان في عزل  
يحبى ، عن الحيزران ، ما يحرمها القوة على التنظيم والتفكير . فلا تحاول  
الصيد في معتكر الماء ، ولن تلقى من يمهدها السبيل الى المشتهى الوبيل .  
منذ غد سبتولى يحبى الامر في ولاية متناثية عنا ، لا مجال له منها الى الحيزران!  
فقلت حسنة : هذه حكمة زكية ، يا امير المؤمنين . غير ان ثمة حكمة  
اعلى . لا تقطعن ذنب الاعمى وترسلها !

فصاح متطيراً : ويحك ، يا حسنة . انك لتغريني بدماء يمضني سفكها .  
فما بك كالرقطاء المتقلية في الهجير ؟

فاعلنت بمضاء : إن تضرب اليوم ، فخيرٌ من ان تضرب غداً . وإن  
تضرب غداً ، فخيرٌ من ان تضرب بعد غد . اطلاق ايدي الائمة ، في المقابح ،  
يبعث على الندم . فما يدريك ، وقد اخطأوا موسى ، ان لا يصيبوه بعد  
حين ؟ ... وما يدريك ، وقد اصابوه ، انك ستسلم ؟ ... ألا حطم ولا  
تشفق ، يا ابا عبدالله . لا تشفق على من لا يشفق عليك . اصبحت اخاف  
شديداً على موسى ، وقد حامت عليه دسائس الحيزران . فإما أن تبعده الى  
حيث يقيم بأمن من الغواشي ، وإما ان تنثر جماجم من يتحايلون على  
شدخ هامته . فالقظة ، اليقظة ، يا سيد هذا المطمئن !  
فابان برغبة حاسمة في اقرار الامور : هذا كله سانظر فيه ، فصبراً .

على ان مصير يحيى بات لا يحتاج الى مباحثة وارجاء . سادفعا الساعة  
المشاعب الى ازربيجان يتولى شؤونها ، ويكون فيها عند تناول يدي ،  
ومرمى عيني . فإن يتحرك ، بتوت فيه محركه ، واخذت انفاسه الحرار !  
وانجز ما وعد . ففي اليوم نفسه دعى يحيى البرمكي الى ولاية ازربيجان  
يسوسها . فاجاب ملوي الهامة . وضجت بغداد للنبا ، ولا سيما صرح اساس .  
فالخيزران لم تكن تهدأ لفرط ارتباكها ، وخذلانها . موسى ولبابة صرعا  
فيها الفياش والدلال . وما غابت عنها حسنة ، وقد لاح لها للجارية يد  
في الحسف والتكدير

وايقنت السيدة الاثيرة ان اعداءها تفوقوا عليها . واقرت لهم ، مكرهة ،  
بالغلبة . واحست بالرعدة تطغى عليها ، وبالجزع يحز في خاطرها . قضي  
عليها في حنان امير المؤمنين . ولكنها ، وهي المفطورة على الجبوت ، لن  
تيسح للباس محوها . فما ماتت ، ولها في البقاء جذور لا يعدو عليها  
الاضمحلال . وصممت على النضال حتى استعادة منزلتها . فلن تنهزم في  
رضى ابي عبدالله . فالبرمكي سيعود اليها . وكل ما تقدر عليها الحالة ان  
تنام ريثما تتبدد الغمامة ، ويصحو الجو . غير انها نومة اليقظان ، فتظل بها  
حذرة ، مفتوحة العين ، والغد لها . وآمنت بهذا الغد ، مع كل ما ينخعها  
به يومها من عابس لحظ ، وجهم محيا . فالقوة تنكشف في الظفر بالنائبة ،  
لا في البطر في الزمن الحصيب

واعتصمت بصرحها لا ترحف منه الى المهدي . فالموعد لم يحن للازدلاف  
والعتبي . على انها ، مع تظاهرها بالصبر ، لم تكن تطيق في اعماقها هذا  
الضيم الكاسف . ولكن وعورة الموقف تقدر عليها الخنوع ، ريثما تهدأ

الفورة . وماذا تستطيع في المهدي من اقناع ، وتبييض صفحة ؟ ... هل لها  
ان تنكر تواطؤها والبرمكي على ابنها موسى ؟ ... هذا الخارجي ،  
المغلوب على امره في اغتيال الهادي ، دفعته يمينها الى البطش بولدها البكر .  
جاءها به البرمكي لتطلقه في صدر موسى شفرة قاطعة . فاصطاده الفتي بحيلة  
تجسّرت بها الالباب ، واكبرتها . والسيدة الاثيرة تحشى ، اذا ما تهادت الى  
الخليفة ، تسأله في نفسها ، ان يحاسبها امير المؤمنين في البادرة الحسيسة ،  
وان يرميها بالسفال والوغادة . بل خشيت ان يهدم عليها البلاط انتقاماً  
منها في حقارتها ، وما تورعت عن اباحة صدر ابنها لطعنات النصال  
وما فتئت تلوذ بالاحتجاب والصمت . فهي على خجل من زوجها ، ومن  
ابنها ، حتى ومن نفسها . الا انها ستدّرع الانكار ، ولا تهون في رد التهمة .  
وخصوصاً بعدما سقط اليها ان الخارجي مات ، دون ان يتسع له مجال  
الى لهثة

وطوت جناحها على غلّ ، ترقب السانحة المؤذنة في الظهور . وطال جفاء  
المهدي لها . فما دعاها اليه في تأنيب ، ولا في لوم . وانقضى عليها في عزلتها  
اشهر ثلاثة ، دهمها فيها الاختناق . فالبلاط ميدان فسيح لموسى ولبابة  
وحسنة . وهي ، الخيزران ، في زاوية مظلمة ، تجرع مرارة الضيم والاختناق .  
الا انها لن تموت ، وستستعدي الدهر على شنواتها . فالامل ما يروح ينغش  
في خاطرها ، مع كل ما يساورها من فجيعه النعمة ، ورهبة الحزبي والحمرمان



لم يشأ، هؤلاء الفرس، ان يستنيموا الى الحكم العباسي، المعين في رؤوسهم قطعاً ونثراً، والفارض عليهم سلطانه بقسوة وزرابة. فما برح ظل السؤدد القديم بمدوداً في اذهانهم. وما انفكت شهواتهم تسوقهم الى احياء العز المطمور. فاذا قضى عليهم الدين بالانحناء لمشيئة الخليفة، فما ارادهم على الخنوع، وقد ولدتهم امهاتهم احراراً. والخليفة يسترقهم، ويستخف باقدارهم، فحقدوا عليه، وجبهوه بالثورات يؤلمون بها مهجته. فما ان تنطقى جذوة الفتنة في خراسان، حتى تندلع السنة النار في جرجان. كأن بلاد فارس ارض براكين، اذا ما خبا فيها بركان، هاج بركان

وتلظى ضرم الفتنة في جرجان، بعد استئصال نقتات المنع في خراسان، المترحمة على فتاها الندب ابي مسلم، والنافرة الى الاخذ بالثأر. وتألّم المهدي للنبأ، وضاق به. أتشتعل بلاد فارس، على بكرة ابيها، بالحفاظ السخان، فيما تقبض يمينه على قضيب الخلافة؟... اذن فالقوم على استهانة به، وليسوا يحلون محل ابيه من الاجلال والكرامة؟

وكاد يدعو اليه البرمكي يتوعده، ويضرب عنقه عبرة للمستذئبين. الا انه خاف ان يزيد في اضرار اللهب. ربما جاشت اوتار هؤلاء العصاة، انتصاراً للبرمكي المخلوع الجناح. فلماذا التماذي في الاحراج، وقد يدفع الى ما لا تحمد فيه العاقبة؟... فالحكمة تدعو، في البدء، الى خفق الهرج. حتى اذا ما ثبت ان البرمكي هو المحرض، تدحرج رأسه حيث تغور نواصي الشذاذ

ولم يبلغه ارساده من امر البرمكي ما يبعث على الريبة . فانه لمنقطع الى تديير شؤون الولاية بحنكة ودراية بجلائته عن الكيد . فلا يسعى اليه ذوو الفساد، ولا يخالفهم ، وهو المعتكف على ما يتولى من اعمال ، وليس يجاوز ما وكله به امير المؤمنين، وما يحفز به اليه امر المنصب . وهذا الكمال في السيرة صان يحيى من الفتكة . فسكت عنه الخليفة ، ولم يكن له ان يتهمه بباطل . وانصرف المهدي الى التفكير في من يملك الساعد الماحق لبتو المقلقين ، وسد الفوهة المتطيرة الشظايا

اليس له في قاده من يعول عليه في الموقف الحامي ؟ ... واستعرضهم في ذهنه واحداً واحداً ، وتنفس بألم . ودّ لو سار بنفسه الى قمع الهياج المستفحل . ولا عليه ان هو تعرض للمنايا . فعلى سيد الدولة ان ينتضي بنفسه فيصله في الذود عنها ، ووقايتها العوادي . وفيما يغيب في خواطره الحيارى ، اذا به يفاجأ بصوت نغوم ، يحيبه بمخمور الجذل : السلام على امير المؤمنين !

فشاقتة رنة الصوت . الا انها وقعت عليه في غير اوانها . فما يتسع المجال للمنادمة والطرب ، وثمة ما هو اسمى مطلباً . فالدولة تعاني نهش الانياب في المكامن الحساسة من هيكلها . والضرورة تقضي بتحطيم الناهشين الاوغاد . على انه لم ينقم على هذه المقبلية اليه في خلوته تعرض عليه صباحتها . بل ابتم لها ، وفي طلعتها النديّة ما يذهب عن النفس بالشجن . قال يرد التحية بارتباك ومضض : وعليك السلام ، يا حسنة . فما تحملين اليّ من مبدد للكدر ؟

فهمت بتأثر مفاجيء : أيعاني امير المؤمنين الاكدار ؟

فاطلق دندنة متأوهة ، متهكمة ، واستوضح : وهل يبدو لك اني على بهجة ، يا حسنة ، والاحن تتوائب في جرجان ، ولست ادري بمن اجثّ دابرها ، كأني على قحط في الرجال ؟

فتعالت فيها صيحة من اهتدى الى الضالة المرجوة ، وسألته بدهش : أيبعث امير المؤمنين عنن بكل اليه المهمة ، ولديه ولي عهده موسى ؟ ... ما عرفت فتى حرّ كألهادي ، يا ابا عبدالله . فانه ليضطرم اقداماً وحصافة . ابقاه ربه ، وضاعف ايامه . أحسبك خبرته في انقضاضه على الخارجي ، كالمصاعقة المحرقة . فما كاد الزنيم يدير وجهه ، حتى كان الهادي يثب عليه كالشرارة ويستأصل روحه . ان في الهادي لدعامة أيّدة للخليفة المفدّى ، وللخلافة العليّة . فاضرب به اعداءك ، وليس لمشاكس أن يعود الى العبت المستطيل !

فاستصوب الرأي . ولكن الهادي غير مجرّب . فاذا ما قذف به ابوه المقتنين في جرجان ، خشي ان تنوء الذراع اللدنة باثقالها ، وان يتفوق عليها الكاشحون . ولكن ما يمنع ان يسير ولي العهد ، على رأس الجيش ، الى تدويخ العصاة ، وان يسدد خطوه قائدٌ وهبت له الشدائد سمين العظات ؟ ... فالمدعو الى ركوب العرش ، لا خير عليه ان هو عرض صدره للنار ، وارتقى السدة بضلاعته ، وقوة ساعده ، لا بالاستناد الى حقه بما جهزه له ابوه . وجلجل المهدي : اجدت الاختيار ، يا حسنة . سارمي الاندال بولي العهد يحصد هاماتهم ، ويدل فيهم العرام . فاين موسى ألقى بين يديه امر التنكيل بمن تغلي في صدورهم القحّة ، وهم دون البغات ؟

وصفق بيديه . فأطلّ حاجبه يزّم نفسه ، حتى كاد يسي شبحاً ضيّلاً

إزاء الحليفة المنشور الظل . قال ابو عبدالله باحتدام : ابن الهادي ؟ ...  
أريده بلا ابطاء !

وما توارى الحاجب ، للبحث عن ولي العهد ، حتى كانت حسنة تقول  
بوارف المسرة : ستجد فيه نجلك المصطفى ، وحفيد ابيك الحقيق بما تسند  
اليه من المعالي . فاني لموقنة انه سيكبح جماح الشر بقبضته العاصرة الصلب .  
فلا تقعد به سنه عن اقتطاف جنى النصر . ابن عشرين لن يغور في عويس  
الامر ، وهو قبسة من سلالة النجاد !

فقال المهدي بسنيّ الاغتباط : إن هو قهر الشداد ، قهر مناوئيه . فلا  
تبقى للخيزران عليه حجة في تقديمه على هارون . ساعهد اليه في حملة التأديب  
كي ابلوه !

ونض له يمشي اليه ، وقد بدأ في الايوان بصدرة العريض ، وبفتوته  
العامرة ، المهيبة . وأماله اليه وقبله في جبينه . وقال بجزيل الطرب : ارى  
ان ادفعك الى الجلائل تغزوها ، يا موسى . فكن عند حسن ظن ابيك .  
انتدبتك لقمع فتنة جرجان !

فما ارتاع الفتى ، ولا بدر منه الاحجام . بل ضحكت في نصرته الغبطة ،  
واعلن بفضفاض الرضى : ولكني على ما يقضي به ابي . أيدفعني الى اقتناص  
المجد واتباطاً ؟ ... لست نجل المهدي ان اقف عن تحقيق الرغبة . اني  
لشاخص على الفور لاطفاء الضرم !

فعاد ابوه الى معانقته ، وهتف : عشت ، يا موسى . ما عرتني بادرة  
من ارتياب بمضاء عزمك . اني لحافزك الى الشر تقتلعه ، وانا موقن انك  
ستوفق للبغية . على اني لن اطلقك سراً ، بل علناً . فتجري الى تدليل

العقبة بطبل وزمر ، وقد حفّ بك جيش ضخم يسير في طاعتك ، وتقوده  
الى الفخار !

فتلظى الهادي ابتهاجاً . فالاماني ملء اليدين تقبض عليها الاصابع العشر .  
قالت حسنة : سوف تراه في الهيجاء سيفاً صقيلاً يقلق هامات اعدائك ،  
يا امير المؤمنين . فما الهادي سوى ظلك ، بل هو مثالك . فالابن تجسّد  
اباه . وستكون به مسروراً ، وسيجيئك بنواصي اعدائك مبدولة صاغرة ،  
تتمرغ في غبار نعليك . فما عرفت المروءة والاقدام ينبعان من صدر فتى  
همام ، كما يتدفقان غزيرين من حواشي موسى الاروع الميمون !

فشزر المهدي حسنة بعين جاولتها الغيرة . وهتف بصوت يترجع بين  
المزاح والجد: انك لتحميليني بهذا الاطراء المستطاب على الشك في النيات ،  
يا حسنة . فما بك تسرفين في المديح ؟

فقصفت ضحكة متبادية ، طنانة ، وصاحت بجذل : أي دور في خلد  
امير المؤمنين ان حسنة ، الجارية المخلصة ، تزلّ بها القدم في صادق المودة ؟ ...  
لا والله ، يا ابا عبدالله . هذا ابنك ، ابنك . وقوة ساعده ، وحسن بلائه ،  
يفرضان عليّ الاقرار بالشأو البعيد ، وباذاعة الفضل الحلال . فليطمئن  
بال المهدي الفدّ !

وتتابعت ضحكتها تذيب غيرة الخليفة . أما الهادي فجمد مطرقاً ،  
جليل الطلعة ، رصين العين . هذا كلامٌ لا يلقي الى مثله . وبدا في رزائمه  
كأنه احد اشياخ الوقار ، الراسخين في النبل العريق . فليس لهذا المقال ،  
يفيض به ابوه ، مجالٌ الى الاعلان في مزاح او جدّ ، وهو النابي عن الثقة  
المفروضة على الاب ازاء ابنه الوفيّ ، وعن الحشمة المقدورة على الابن حيال

ابيه . واستدرك المهدي، وقد لمس في بيانه التقليل ، فابان: لتتكلم جادّين .  
سأذيع اليوم في طول الدولة وعرضها اني عهدت اليك في الضرب على ايدي  
المفسدين ، يا موسى . وساعدت لك الجيش الحقيق بانالتك الصبوة . فكن على  
أهبة ، ولا تحيّب اباك . ولا بأس ان تختار من تسكن اليهم من القادة .  
فمن حقك ، والتبعة ترسو عليك ، ان تنتخب معاونيك !

وكان للنباّ الدويّ المتجاوب الاصداء . فتناقلته بغداد بشوق الى بلاء  
ولي العهد . فمن اي معدن هو الهادي؟... وما هي ايام قلائل حتى وقف  
المهدي ، في الجلّة من اقطاب الدولة ، يخطب في الجيش المدعو الى كبح  
جماح المفسدين . قال ابو عبدالله يخاطب جنوده ، بما أوتي من قاهر السلطان:  
انتم ساعدي في تقويض الشعب ، وتدويخ الفتنة . فكونوا النبلة الجائحة  
والفتكة البكر . ولقد رصعت هامتكم بموسى ، ولي عهدي . فهو بمنكم  
القبضة الساحقة ، والداغ الهادي . واحسبكم تعرفتم اليه بما سقبط اليكم من  
علو همته . فكونوا له على صادق عون ، ووافر اذعان . انه ليثب بكم الى  
النصر ، فانطوا له على ما تحفظون في حناياكم لابييه من اكرام . وهو  
قائدكم اليوم ، وخليفتكم غداً . واني لاقده الصمصامة ، سيف عمرو بن  
معدى كرب ، ذلك القرم العنيد ، من اقطاب الجاهلية والاسلام . فيستمد  
منه الجرأة والحنكة . ويعتمده قدوة في الكرّ والفرّ ، وكسر شوكة  
المعاندين . فانطلقوا ، وعليكم سلام الله . انكم لتقاتلون اشراراً طغاة !

فماج الجمع بالهتاف : الله اكبر ، الله اكبر !

وانبرى من يصيح : الحياة للمهدي، ولولي عهده الهادي . والويل للمارقين !  
وتعازم التكبير ، وصياح التأييد ، فيما يدفع ابو عبدالله الى ابنه موسى

سيف عمرو بن معدي كرب، معلناً : هذا هو الصمصامة ، المخضب الشفرة  
بالدم البغيض . اني لاخلعه عليك كي تزيد في مجده ومضائه . انتضاه ابن  
معدي كرب في مغالبة اعدائه، ونثر به الجماجم كمرضوض الحصى . فانهج  
نهجه ، وكن خير خلف لخير سلف . هذه الاعناق الماتعة في جرجان ،  
باتت يانعة ، فعليك بالحصاد ، وقد اعددت لك المنجل . لا تشفق ، ولا  
تستبق . فكل جيد اتلع اضرب به الارض ، ودمه في عنقي . لا حياة  
للمنافقين !

فتوالى الدعاء بالنصر الميين . وتحرك الجيش ، زاحفاً الى شرقي العراق ،  
في شخوصه الى جرجان . وتمست بغداد على نفخ الابواق ، وحقق البنود .  
وسار الهادي في المقدمة بمتطياً جواده ، وشاهراً سيفه . فكان لمرآه الوقع  
الحفي في القلوب . والتفتت حسنة الى لبابة ، الدامعة العين ، تقول لها ،  
وكانتا واقفتين على سطح القصر ، في حفل من نساء البلاط : أتبيكين ،  
والخليفة يزفّه الى المعالي ؟ ... والله ، لم يقدم ابو عبدالله ، في سبيل الهادي ،  
على مبرة تعادل هذه الغزوة الدانية القطوف ، المضمخة بعبير الفوز والسموق .  
وسيعود منها موسى باكليل الغار ، كخالد وابي عبيدة . فاطربي ، ان المجد  
ليعفر جبينه عند قدميك . هذا يوم سينقش في جبينك التفوق ، ويلقي في  
ميمتك مقود السعد . فالسعد اضحى جارية صاغرة من جواريك !

فغمغمت وهي لا تتمالك عن ذرف دمعها : اني لاخاف عليه من المعاطب ،  
يا حسنة . فما يدريك ما يخبيء له الغد ؟ ... على اني اسأل فيه الله . فالعيون  
العائنة تزجر له طير النحس يمرّ به ويرديه . وهل تجهلين مخابث الخيزران ؟ ...  
ان تكن وقعت ، في بغداد ، على خارجي يطمس في ابنها النسمة ، فكم

ستهدي في جرجان الى خوارج لا يتورعون عن البطش بالهادي ، كرمى  
عينها الضيقة ، العشوم . فلا تنسي انه يثب على بلاد فارس ، وان بلاد  
فارس وطن البومكي اللدود !

فهزت هذه المخاوف كبد الجارية المرموقة . الا انها أبت ان يسطو  
اليأس على لبابة ، فقالت تنفخ فيها الجلد والامل : ولكن الهادي ليس  
بالواهي العضل ، ولا بالمستطير اللب . فما ان يشعر بالملمة حتى ينسفها  
ويذروها . طيبي قلباً . اني لعلى استبشار بالمهمة الموكولة اليه ، وهي  
عندي الدرجة الاولى في معراج السؤدد ، وستهد له الى الاعالي يربع بقمتها .  
والا ، ان هو بقي في الزاوية ، يعانى تباريح الحمول ، فلن يضيء له سنى ،  
ولن يعلو له شأن . اطلبي له ان يحرسه الله من كل مباغثة ، وان يرد عنه  
قسوة التقادير !

ونظرتا معاً الى الكتابات الجرارة ، المتدفعة الى الاقاصي لبضع الدمل .  
وغابت لبابة في نواحيها ، وقد تباعد عنها زوجها في قيادة حملة القمع  
والتأديب . فاشفت عليها حسنة ، وقالت تخفف من لوعة ابنة جعفر : لا  
تتلهفي على بعباده . فما ان يخضد شكيمة العصاة ، حتى يعود . واذا لم يعد ،  
فالخفي به ، ولا عليك . فالجياة هناك اصفى ، وامتع . وابتعدي عن  
اوجرة الذئاب !

واقامت تنفي عنها الجزع . قالت لبابة : لكأني أحس بخلو ما حولي ،  
وقد نأى عني موسى . فما ثمة غير فراغ . واخشى ، اذا ألم به مكروه ،  
ان تمرّ بي الخيزران وهي تجرّ ذيل التيه ، سامته ، مستهينة . اجل ، يا حسنة .  
تلك الام الشرسة ، الداغرة ، تضحك متخابثة في مآتم ابنها . آه للمعالي ، ما



اصعب ركوبها . ففي حلاوتها لذعات من مرارة تذهب بكل شهد . فلن  
يشتر العسل الصرف من يرقى الى الذروة ، وفي مطاوي العسل إبر النحل !  
وادمت قلبها القطيعة . ونظرت الى الغد ، فبدا لها كالحآ ، على ما  
يتوهج به من اضواء . فالكيد والدس ، هما خير ما تجود به الايام على  
المستهلي . ولبابة ، مع صبتها الى بلوغ الاوج ، تولتها الحشية من وعورة  
المرتقى . على انها اتكلت على الله ، وهو مبدد كل عسير . وقالت تخاطب  
حسنة ، برغبة ملحاح في درء كل غاشية عن موسى : سألحق به على الفور ،  
يا حسنة . على الفور . فلن ارتضي ان اتنعم ويشقى . وجودي بقربه يدفع  
عنه حفلاً من الرزايا . وهو بحاجة الى رأي صدوق . وهل يلقي اليه هذا  
الرأي سواي ؟

وانحدرت من السطح ، الى صدر الديوان ، تطلب المثول بين يدي  
الخليفة ، عمها . وما ابصرها ابو عبدالله حمراء العين ، تنوء بالكمدة ، حتى  
بادرها بالصيحة المدهوشة : أتبكين ، يا لبابة ؟ ... ولكني اطلقته في  
اقتناص النباهة ، يا ابنة اخي . سيعود اليك على فيض من فخفخة وعز .  
فمتحدث عنك وعنك المجالس بالتعظيم . وينحني بين ايديكما كبار القوم  
بوفر من اكرام . فالمجد بيت صنع يده ، لا منحة ازجيهما اليه . ويشق  
عليّ ان تدمع عينك في مجال الغبطة . فمن حقا ان تتهيي على جميع  
اترابك ، وقد بلغ زوجك ، من الرفعة ، ما يشتاق اليه كل ظامئ الى السمو ،  
ولا يتفق له ان يلج منه الباب ، حتى ولا ان يظأ العتبة . ان زوجك لمن  
يقيمون من دهرهم على حظوة . فاشكري للزمن هبته المثلى ، واطربي .  
فالطرب خير مفرع لمن ادرك هذا النجح العريض !

واستبقاها ريثاً تنجلي دهمه العراك . ولم يكن الهادي رخو الجناح في التنكيد والتوطيد . فما ان بدا في ولاية جرجان ، حتى ضرب العصاة بباتر فاصل ، زعزع به الهمم الفائرة ، ولوى وثبة اخوان السوء . فسكنت الغوارب الجائشة ، وامتد الهدوء حتى لم يكن لنبسة ان تقلق صفاء الاديم . وطرب المهدي وقد سقطت اليه الانباء السارّة . وفاخر بالهادي الهمام . واندفع اليه الشعراء يهنئون ويمدحون ، ويطنبون في محامد وليّ العهد الاشمّ الاروع . وانتفت المخاوف عن لبابة ، فاقبلت على امير المؤمنين مستبشرة معجبة . قال المهدي بفيض من جدل وايناس : ما كنت اجهل انه ذلك المقدام الاهيم ، يا لبابة . ففي عروقه دمّ صافي المعين ، وثاب المهزّة . لو كانوا ألفاً ، وكان فرداً ، لزمهم بلا عياء . هذا من قيل فيه واحد بمقام ألف . فابشري ، يا ابنة اخي !

قالت بمفرط الدلال : رأيت انه حقيق بولاية العهد ، يا عمي ؟

فاعلمن بجزيل الارتياح : اني اعلى صادق الايمان بقدرته وبأسه . ولولا هذه الثقة مني به ، وقد خلعتها عليه بعدما لمست فيه حميد البلاء ، لامسكت عن ان اقلده المنصب المنيف . كوني موقنة ، يا لبابة ، ان اختياري له كي يخلفني لم يكن مرتجلاً . فطال تفكيري في الامر قبل البتّ . والا . فما كان يمنع ان اوثر عليه الرشيد ، لو رجحه ابن الخيزران المصطفى ؟ ... ولكن الدولة بحاجة الى سيد كفيء . ولست اجد من يفضل الهادي ، مهما علا نعاب امه الغضبي !

وضحك هازئاً بالسيدة الاثيرة . وما كانت لتبدو منذ زمن طويل بين يديه ، والجفوة قد استحكمت ، والتناسي يجاهد في الاستشراء . فالعشب

نما في طريق صرح اساس ، وقد تحلى ، فور القطيعة ، معظم الانصار عن  
الخيضان . وغرق صرحها في الوحشة الناهكة ، المرهقة . فذكرت أم موسى  
وهارون ان الخلان لا يام اليمن والاقبال ، لا لعهد اليبوسة والحلكة . فمن  
خبا نوره تحامى الناس الاستضاءة بهديه

وبدا منارة البربري يستأذن لحسنة على الخليفة . فصاح المهدي : وهل  
اقبلت حسنة ؟ ... لتدخل . لا ريب انها جاءت تهنئي بما ادرك الهادي  
من غلبة !

وفاح الطيب الغالي وقد مثلت الجارية المرموقة في حضرة امير المؤمنين .  
وتهادت حسنة الى صدر المكان على بسمه مغناج ، وخطو تيمس به قامة  
ماتعة . وسلمت بصباحتها النوراء ، على الخليفة ، وعلى لبابة . وقالت : البشرى  
لامير المؤمنين ، وقد محما ولي عهده الشائبة الملطخة نضاعة الافق . ما كنت  
لارتاب لحظة بضلعة الهادي ، يا ابا عبدالله . ابناه لك ربك ، وزاد به مجدك  
روعة وعلى !

فاضاء الجبور طلعة المهدي ، وقال : ما خاب ظننا بمن ندبنا لمؤازرتنا ،  
يا حسنة . فالحق ابى الا ان يسود . فشكراً اللهم وحيداً !  
وقالت لبابة ، وهي من الفرحة في اعلى سنام : كنت في قلق على  
الهادي ، يا عمي ، وهو الحديث العهد بمصاولة الجيوش . اما الآن فاني لفي  
نشوة من ايمان ببعيد شأوه ، وسداد ضربته . واذا اجاز لي امير المؤمنين  
ان ألحق بالظافر المغوار ، انطلقت الى جرجان اقيم بجانب ابنك وولي  
عهدك الباسل الاشوس ، واقاسمه اتعابه . اراه بحاجة الي . ومن له يبذل  
في سبيله جهدي ومودتي ؟

فاستطلع ابو عبدالله : أتشوقك الرحلة ، يا لبابة ، والاختار تتجاذبك  
في التغلغل في هاتيك المجاهل ، وامانتها لنا مشكوك فيها؟ ... ليس ما يملك  
على المجازفة ، وكنت قد ثنيتك عنها ، يا ابنة اخي . فما عليك وانت  
بجاني ارعاك ، واجود عليك برفقي ؟

فابتدت الرغبة العزوم في المسير الى زوجها ، معلنة بعدوبة وملاطفة :  
انا في رعاية امير المؤمنين حيث اكون . فلن اخشى الملمة وهو يزودني  
حمايته ورضاه . على ان ذاك المقيم في ساحة النضال ، لا غنية له عن مبسم  
مشرق ، يضيء ايامه بوهج الانس . ولا بأس ان اضحي برفاهي لاجله ، يا عمي ،  
وفي مبادلته خشونة الاقامة ما يسعدني ، ويزيل عني مضمض الفراق . و ابو عبدالله  
اجاز لي الرحيل بجلاء الدهمة . واني لارى الغمام انقشعت ، ولم يبق في  
الافق كدرة تعكر رونق السلام !

فهتف المهدي معجباً بما يأذن به : يا لك من زوجة صالحة امينة . وددت  
لو شع هذا الاخلاص في دنيا العرب على مداها . اذن لكننا مثال الولاء  
والتضحية . بورك فيك ، يا لبابة . ساوفد في ركابك من يقيمك كل وهلة .  
لك ان تسلكي ساعة تشائين طريقك الى زوجك . فاني لاهني الهادي بك .  
حقاً انه لحظي !

وجزعت حسنة ، وقد اباح المهدي للبابة المسير الى جرجان . مع ان الجارية  
المرموقة حضت بنفسها لبابة على اللحاق بزوجها الثاني لدن يفوز . غير ان  
حسنة شعرت بانها ستبقى وحدها في المناخلة بنأي الهادي ولبابة عنها ،  
وهما الدعامتان المنيعتان في المناوأة والصراع . وهل لها ان تتقي كيد  
الخيزران لدن تسمي وحدها في الميدان ؟ ... ان الخيزران لتبتلعها حين

تصبح عزلاء . فان قوتها لفي هذين الجناحين ، بل العكازين ، وبهما تطير ،  
وعليهما تتوكأ في انطلاقها الى هدفها . ومن لها يظاها في كفاحها  
بابتعادهما ؟... قالت وهي تميل الى اعلان اسأها ، وتجاهد في التمسك لثلا  
يتجلى استخذاؤها: ارجو ان لا تطول غيبة الهادي، يا امير المؤمنين .. فاننا  
لنحتاج اليه في صدر بغداد يزين البلاط بمغامرته ، وجسامته خطره . وهو  
السيف الضارب رؤوس الزنادقة والمكابرين !

فابتسم المهدي وقال: بل ان حاجتنا اليه في جرجان أمس، يا حسنة . وهو  
هناك غائم بطولة ، وكاسب مجد . اما هنا فماذا ترتجبن منه ان يفعل غير ان  
يصادم حساده ومنافسيه ؟... انه ليبنى اليوم في جرجان دعائم العز ، المهمة  
له غداً طريق السدة العليا . فالقوم سيروهونه وهم يجدون فيه ذلك الحمي  
الكمي ، الذائد بسلاحه عن نفسه وحقه . ولن يخطر للخيزران ان تقيم في  
سبيله العراقي ، ولا ان تهرع الى الدسائس تدمغه بها . بل ستمهيب الكيد  
له ، وهي موقنة انها حيال مجاهد مجرب ، لا ثقلة الدواهي ، ولا يقف حيال  
الفواجع خانعاً ، مكتوف اليدين . ألا سيوري اليه بلا ابطاء ، يا لبابة . فان  
اقامتك بجانبه تريد في شدته ، وتحفف عنه . فلن تدركه دمامة الوحدة ،  
وانت تهين له من نداوتك ما يوطب الجفاف المنشور حواليه !

فكادت الجارية المرموقة تصيح : « ولكن من لي وقد ابقيتني وحدي  
للنزال ، يا امير المؤمنين ؟ » . على ان المهدي لم يبع لها اطلاق صحتها  
الحشيا ، كأنه ادرك بفتنته ما يساورها من بجران ، فقال : اما انت ،  
يا حسنة ، فلن تكوني في عزلة ولك من حدي عليك ما يرد عنك الرزايا .  
فاذا ابتعد عنك الهادي ولبابة ، فان لك من المهدي العصد المانع كل غاشية .

فلن تنال منك الحيزران ولك في امير المؤمنين النصير الامين !

فانحنت بين يديه تقول: ابقى لنا الله الخليفة الوازع الحامي. فاي وهلة  
تجرؤ على مقاهرتنا ونحن نلوذ بندااه ؟ ... لست على هلع من اعدائي ، ولي  
فيك الحرز الحريز ، يا امير المؤمنين . بل يضيرني ان اتعرى من اصدقائي ،  
وهم العدد النزر . فاذا حرمني الهادي ولبابة أنسهما ، فلن اجد حولي غير  
الكاشحين لولا حذب المهدي علي . فالدنيا مودات وصدقات ، يا ابا عبدالله .  
وانا ، وقد حبست عليك ايامي ، ابيت على نفسي ان ارتبط بوافر الاصحاب .  
فحسي من الفيض قطرات . على ان تكون رويّة تبرد الظمأ . غير اني  
ما كدت اهتدي اليها حتى رأيتني منها على نفاذ !

واغرورقت عينها . فكادت غيره امير المؤمنين تستيقظ فيه . أتكون  
حسنة على هيام بابنه الهادي ؟ ... ولكن الساعة لا تفسح الى سوء الظن .  
فالجارية المرموقة لا تتفجع على فراق موسى ، بل على هجران لبابة . وانها  
لعلى حق في التفجع ، ولن تلقى بجانبها من يلزمها للمشاورة ، وللكشف عن  
مذخورات الصدور . فليس بوسع امير المؤمنين ان يرافقها كظلمها ، وله  
من مشاغله ما يصدف به عنها . واشفق عليها وهو يراها في لوعتها . وهتف  
بمحضا الحنان والرجاء : حسنة ، أنجيل اليك انك وحدك ، ولن يسلك  
امير المؤمنين ؟ ... والله ، لن تشعري بالوحشة وانت في كنفني . أما  
عاهدتك على ان اجعل منك رفيقتي في رحلاقي ؟ ... وستصحينني فيها  
جميعها ، حتى اذا اندفعت الى المعامع . لا تخافي . لن يدهمك الضجر ،  
وستكونين ظلي . فلن تفتزقي لحظة عني . هذا البلاط ساحتك ، فجولي فيه  
على مداك . وليس لعين ان تشزرك . ولا لقم ان يتأفف منك . فانت في

كف امير المؤمنين . ومن المحال ان تزحمك امرأة في مكانتك مني .  
فالخيزران ماتت في عطفى ، يا حسنة . واني لانعاها اليك . لا جادت عليها  
السماء برحمة !

فبت روعها الطمانينة ، مع استعادته قولة سبق له الجهر بها . على ان الجارية  
ما برحت تخشى . فمن يدري ما يبطن الزمن من اعاجيب المعاكرة ؟ ...  
غير انها تظاهرت بالايمان بما عالنها المهدي ، وقالت : ما كان لي ان اشك  
في رحابة امير المؤمنين . حبه لي ، ونبله السامق ، يدفعانه الى السخاء علي  
بمشور عوارفه . الا اني اتألم لنأي ابنة اخيه عني ، وهي من تشدني اليها  
اوثق ألفة ، وامنع مخالصة !

فابتسم ابو عبدالله ، وقال وهو يقبض على ذراع الجارية الحصة البضاضة :  
لا تهلمي ، يا حسنة . ليس لبعاد لبابة ان يطول . وربما سرت بك اليها في  
احدى جولاتي . فاني لاحس بما يلقي الاصدقاء من جمود وارتباك ، وقد  
دهمهم الفراق . ولكن الضرورة قاهرة . تجهزي لرحلتك ، يا لبابة . اصبحت  
موقناً ان لا غنية عنك لموسى . فما حكمننا عليه بالنفي كي نخرمه المنعشات !  
واجاز لها الانصراف الى دارها كي تنأهب . ومال على حسنة يجذبها الى  
صدره ويقول لها مازحاً : أتؤمك الوحدة ، وقد نأت عنك لبابة ؟ ... ألا  
ابن تجدين الوحدة ، ايتها العمياء العين والقلب ، وانا على مقربة منك ؟ ...  
أتلقين في الدولة على وسعتها امرأة تطاولك ؟ ... كنت ترهين صولة  
الخيزران ، فاين امست الخيزران ، وقد حجبته عني ؟ ... ألا تلوح لك ، في  
خزيمها ، مكسورة الضلع ؟ ... والله ، لقد آثرتك على جميع نسائي ، وفي  
رضابك حلاوة ، وفي مبسمك نار . فالفتنة تجري على طفاح فيك . ومن

الراهن انك اشهى امرأة في فسيح ديارى ، وقد استطعت ان تستأثري  
بخطرات امير المؤمنين !

وعبثت بغدائرها بينه . وتلذذ باستنشاق رائحة شعرها ، كأنه حيال  
قارورة من طيب . واطلق فيها قبلات مواتع . وكيفما امسك بها اندلع  
منها اللهب . فهتف في نشوة من لذة : انت من مضرمت اللظى ، يا حسنة .  
فكل ما فيك يبعث على الشغف والحنين !

ولقي في جسدها الريان ، المجدول ، مواضع مسرفة في التملتي  
والتصبي . فنتاهى في الاقتطاف والاستمتاع . وتفتنت الجارية المرموقة في  
الخلاب والارضاء . فامست ولها في نفس ابي عبدالله خوالج من نزوع ،  
ودعائم من استقرار لا تعدو عليها المبالغات المقوضة . فتفاقم شغف المهدي بها ،  
كأنه لا يبرح في الحففة الاولى من ملحاح الهيام . وهتف بها بطاغبي الشوق :  
ارى الدنيا في غواليك ، يا حسنة . فكأن باريك اختار اسمى ما لديه من  
فواتن وجاد به عليك . لقد بناك مداميك من قسامة وسحر وسلطان . انك  
لتملكين من قوة الاسر ما لم تقبض عليه امرأة من جميع من عرفت  
من الغواني !

فابتسمت واغتبطت وقد شفاها هذا الثناء الفواح من هواجسها .  
وتمايلت سكرى لفرط الدلال . وسددت الى المهدي عينين اتسع بياضهما ،  
وحلك سوادهما ، فزادت في الاستهواء . على ان نظرتها لم تطل ، وكانت  
خاطفة ، اشبه بالومضة ، بما بالغ في وقعها . واذا الاهداب تتعاقد امعاناً في  
السيطرة وفي الاقتناص ، وقد ارنخت ، لفرط طولها ، على المحاجر ظلًا من  
التيه ، دل على اعتزاز الجارية بتفوقها في القدرة ، والافتئات بالنهى



والاكباد . قال ابو عبدالله ، وما زال منها على مخمور جوى : لست اعدل  
بك جميع نساء بلاطي . فانت يتيمة هذا الحمى . فجرري ما شئت ذيل  
التباهي ، وانت الخليفة بالزهو والاستعلاء !  
وألقى رأسه الى صدرها ينعم في دفتنه وخصبه باندى وسادة . وما  
انفك شذاها الممرع يملأ انفه ، ويمعن في الامساك به . قالت الجارية ، وهي  
تعلم ان الساعة مسعفة في الطلب والادراك : هل لي ان اسأل امير المؤمنين  
في حاجة ؟

فافاض بالقول المتحمس ، وهو الممتلىء النفس كلفاً وانشراحاً : كل  
حاجة لك مقضية ، يا حسنة ، كل حاجة . فاطلي ما تشتهين ، وهو لك حلال !  
قالت على تعتة وخفت ، كأنها لا تؤمن ببلوغ الارب : ما فتئت  
اعلل نفسي بان اكون احدى نساء امير المؤمنين . فهلا اعتقني وتزوجني ،  
فابيت تلك المستعلية بحق واصالة ؟ ... فاي شأن لي وانا ابدو اليوم في  
البلاط متظاهرة بالسموق والانفة ، ومقامي لا يعدو مستوى جارية ؟ ...  
أفلا ينظر اليّ من حولي ساخرين معلنين : « بطرت الخنفساء ! » ؟ ... ولست  
ألومهم في الافاضة بهذه المثابة ، وموقفي لا يجاوز مكانة جارية . على حين  
استطيع رفع الرأس ، وقطع كل لسان خبيث ، وامير المؤمنين يدرأ عني كل  
ما يشوب جبيني من كدرة . وابو عبدالله كان قد تल्पف ووعد بانقاذي مما  
يعيب عليّ حسادي ، مع فيض ما اسبغ عليّ من نعمه الوارفة . فهلا انجز ؟  
وهي كلما دعتة الى اعتاقها ، والعقد له عليها ، استيقظ من سكرته بها ،  
وتذكر الخيزران . فليس يرتضي ان ينكب بطاغوت آخر . حسبه السيدة  
الاثيرة . وعبس ، على كره منه ، وحسنة تدعوه الى رفعها اليه من وهنتها ،

كأن لم يحظر له ببال ان الجارية ستعود الى مطلبها الوعر . وتولاه نفاثاً كاد  
به يصرف عنه هذه الناهدة الى الارتقاء العجلان ، بل الى ركوب المحال .  
الا انه لم ينس ما عاهدها عليه من قضاء حاجاتها جميعاً ، فاضطر الى المداهنة ،  
قائلاً : هذه امنية لن تستعصي عليك ، يا حسنة . فما ان يصفو الجو حتى  
انيلك المشتى !

فتجرات على الاستيضاح : ومتى يصفو الجو ، يا امير المؤمنين ؟ ...  
فاني لاسمع منذ عهد بعيد هذا الوعد ، وما كان للغمامة ان تسح !

فقال ، وقد اوجعته وخزتها : ليس من امر عسير ، يا حسنة . هلا صبرت ؟  
فايقنت انه يماطل ، وانها لن ترتع في الصبوة . وسال دمعا فابتعد عنها  
المهدي يزوي ما بين عينيه . ليس يقع من النساء على سوى الباكيات ،  
كأن قوتهن في سكب العبرة . وابي ان يجرح حسنة في اعماقها جرحاً لا  
يبرأ بصدوده عنها ، فرجع اليها يقول : لا حاجة بنا الى التفجع ، يا حسنة .  
ما ان ننتهي من الخيزران حتى ينتظم شملنا . اني لموطن النفس على الخلاص  
من تلك المتعنتة . وعندذاك يصفو لنا العيش ، ويطيب . ولا ارى الزمن  
بعيداً للظفر بالرجاوة . ساصرف عني الصلفة الحرقاء ، المؤلمة عليّ الفتن ،  
وأهلك محلها . فما يدعوك الى التلief ، وستبلغين من زمنك ما يعدو المنى ؟  
فنفثت من نفس خائبة : طال ارتوائي بهذا الامل ، يا امير المؤمنين ،  
حتى كدت اخشى الظماً !

فدغدغ خدها وقال مداعباً : لن تعطشي ويميني تسقيك . فالشهوات لا  
ترحف الى المرء باجمعا ، بل تقبل اليه فرادى . وليس يضيرك ان تتسلقي  
الذروة خطوة خطوة !

فلوت رأسها واعتراها السكوت . ليس لها ان تذهب الى ابعدهما  
ذهبت اليه ، وقد تآدت في دالتها على الخليفة . وجنحت الى الانصراف والاسى  
في خاطرها . ابو عبدالله لن ينيلها طلبتها . فكما حدثته عنها شغلها بالعرض  
عن الجوهر ، واغرقها في وعود بواسم . الا انها على وضائها اشبه بالنفّاخات .  
فما ان تشرق حتى تنشطى في العدم كخالب السراب . ولم يغب عن المهدي  
امتاعها ، فنزع الى خزائنه ينتضي منها عقداً من الياقوت ، ويلحق بالجارية  
فيطوّق جيدها بالقلادة الباهرة اللآلئ . وصفق يدعو اليه منارة البربري ،  
صائحاً به : احمل على الفور الى حسنة عشرين الف دينار !

فشكرت حسنة ، ولا بد من الشكران ، اكباراً لعطية امير المؤمنين .  
غير انها ابتعدت عن البلاط غير راضية ، وما شفى المهدي طماحها . وظهر  
منها للخليفة انها لا تبرح غير مطمئنة ، فبلغ ريقه تبرماً . هل له ان يتوفر  
على ارضاء الجميع ؟ ... وتبجلى لحاطره ان معظم المتظلمين منه اقرب الناس  
اليه . فليس للعامة في الشكوى لاجة الخاصة . وراعه ان يكون بين هؤلاء  
المتذمرين من بالغ في ان يجزل لهم الهبات . فلم ينل ذو حظوة من صلاته ما  
نالت الخيزران . والخيزران في طليعة المتلملين الكافرين بالنعى . وحسنة لقيت  
من بسطة يده ما غاضت به على مستفيض الوفر . الا انها تروم ما هو اسمى .  
فهي تطمع في ان تتبوا مرتبة نساء الخليفة ، فتتعادل في العزة والخيزران  
آه من الخيزران ، كم احيت من جشع ، وكم اجازت من دلال . فكل  
زوجة من زوجاته ، وكل جارية من جواربه ، تبغي الوصول الى حيث  
بلغت السيدة الاثيرة . ولكن رحاب امير المؤمنين لا تتسع لجميع هذه  
الشهوات . وتجهم ابو عبدالله . ان نساءه ليقلقنه فيما تقلقه الفتن في بلاد فارس .

ورأى ان يجنح عنهن للنظر في شؤون الدولة ، والاصغاء الى المظالم . وكان  
يستطيب الانصاف . فلا يبدو بين يديه صاحب حق الا ويظهره على خصمه .  
غير انه لم يكن اليوم راضي النفس ، حتى وهو يأخذ من القوي للضعيف .  
فان اضطرابه بين الخيزران وحسنة ، فجعه بالهدوء والارتياح . ففي اعماقه  
ما يسخ طمأنينته . فلا الخيزران شاكرة ، ولا حسنة . أف للزمن الكنود ،  
والاحسان فيه بات مدعاة للاضطغان !

وضاق به قصره ، فقام بجولة في بغداد ممتطياً صهوة جواده . وشاءت  
الاقدار ان يمرّ بجانب صرح اساس ، فزفر ، وان يدنو من مقصورة حسنة ،  
فانتفض ، وهتف بنفسه : كلما بعدت دنوت ، كأني فراشة تحوم على سراج !  
و ضرب بمهمازيه جواده ، فانتهب الفرس المسافات الشواسع . الا ان  
الخيزران ابصرت امير المؤمنين . والجارية ابصرته . والاثنتان اطلقتا فيه  
نظرات الحقد ، ودمدمتا عليه . وقد تكون الدممة حفزتهما الى التهديد  
باختطاف الانفاس . وليس للغضب قيده يمسك به عن التوكؤ على كاسح الالفاظ

بخصيب الفرحة ، ومرن الاستبشار، تلقى صرح اساس خبر رحيل لبابة الى جرجان . فصادف النبا في الخيزران مفرط الجذل ، ورخي البشاشة ، كأن الكابوس المرهق انجلي عنها . فباتت اليد تنبسط على مداها ، وليس من حائل يعوقها عن الامتداد الى المرام

ولم تحفل الخيزران بالجارية حسنة ، مع كل ما تجسم لها فيها من رهيف التنافس ، ومع فائر نغمتها عليها . فالسيدة الاثيرة موقنة ان لولب الكيد لبابة . فمتى نجت من ظل امرأة موسى الفاحم ، الضاغط ، تداعى عنها الكابوس ، وعادت الى سيطرتها الشاحطة على نهية الخليفة . فتميل به الى ابرام كل مأمول . ويتخاذل الكاشحون . وحسبهم ما تبادوا فيه من طماح واثرة . وهتفت الخيزران بجاريتها عتبة : ألا نادي اليّ زبيدة والرشيده . عليّ ان انفجها بصيبح البشري !

واغارت على الرشيد وزبيدة تعانقهما فور ظهورهما لعينها ، وتصيح بمستفيض الطلاقة : لنا الهناء . لحقت لبابة بموسى الى جرجان ، واضحى زمام المهدي بايدينا !

فاستطلعت زبيدة بطرب ميّاد : هل تأثرت اختي زوجها ؟  
فاوضحت الخيزران : بوحث اليوم بغداد الى جرجان ، وانقذتنا من دمامة طلعتها . فكل ما يجزنا عن ابي عبدالله امّحى بانصرافها عن البلاط ، وقد نفثت فيه خبائثها ، وافسدت علينا خاطر ابيك ، يا هارون . وليس بالامر النزر ان يشيخ عنا ابو عبدالله ، سيد الدولة وراعيا !

فقال الرشيد بحشية : ولكن أصفح ابي عنا ، وقد تفاقمت غضبته علينا  
بعد وثبة الخارجي على اخي الهادي ، فأتهمنا بالجنوح الى اغتيال موسى ؟  
فجبرت الخيزران بمديد الايمان : سيصفح . ليس ابوك بالحقود ، وله من  
صفاء النية ما يهيب به الى الاعضاء عن المساءة . وساقعه ببراءتنا من الظنة ،  
وبضرورة العفو عن يحيى البرمكي واعادته اليانا . وما ان يلتئم شملنا ، حتى  
نقص الاجنحة الدم ، المرفرفة اليوم في جو الاعتزاز ، وقد عدت طورها  
في سمو الخطوة !

فقال زبيدة ، ولم تكن تطمئن الى مغفرة عمها المهدي : ولكن لبابة ،  
اختي ، ليست وحدها في مناواتنا ، وثمة الربيع ، والجارية حسنة !  
فضحكت الخيزران ساخرة . واعلنت بامتهان الواثق بركين سلطانه :  
اما الربيع ، يا زبيدة ، فليس بذئ خطر في مصاولتنا . واما حسنة ، فلن  
تقوى وحدها على المضي في الكفاح ، مع كل ما تفيض به من مكر وبغضاء .  
وانا للخبيثة بالمرصاد . ولست ارى المهدي يرفعها عني ، مع بليغ كلفه بها .  
فهي لديه لساعة من الزمن . اما انا فاني لرفيقة كل حين !

على ان المخاوف ما برحت توابت زوجة هارون الرشيد ، فقالت : ألا  
يبدو لامرأة عمي ان عمل ساعة يعني عن مجهود دهر طويل ؟ ... في حسنة  
من القوة على تعكير زلال الماء ، ما لا يهوي بها عن مكانة لبابة في التهشم  
والتنكيل !

فجمع بالخيزران اعتدادها وزهوها الى الجهر بمخمر الدلال : كنت  
اخشى على نفسي من حسنة ، وقد ظهر لي في المهدي ولوعه بها ، بما لم  
اتبينه فيه حبال جارية من الجواري . غير اني ما نشبت ان ادركت انه

يسلوها حين ابدو بين يديه . فليس لي الا ان امثل ، في باصرتيه ، حتى يتناسى كل ما حشت به الوغدة وعيه من سفاسف ونمام ، مما هبط بها تجاهي عن منزلتها . فباتت لدي نكرة لا تخمش ، وهي المقلمة الاظفار . ولا تعض ، وهي المفولة الانياب . كل ما تشيد من بنيان ، وما تحبك من غائلة ، تنسخه نظرة مني الى امير المؤمنين !

فاذاع الرشيد : ولكن الذبابة تدمي مقلة الاسد ، يا أماه !  
فاعلنت بغمر من المرح : بروحي انت ، يا هارون . أيعدو عليك الوهم ان أمك تكبوها القدم ، ولا تقال لها عثرة ؟ ... ولكن جميع هؤلاء المتهاكين في البلاط على دس الدسائس ، لتقويضي في خاطر ابيك ، لا يقدررون على قطع خيط نسيل في اخبث غلالة من ريث مبادلي . واذا بدوا لك في أشري ، وبطر ، فان هي الا غفلة الزمن الوشكة التلاشي . طب قلباً ، وثق بامك ، يا ابني . فما دامت لبابة جلت عنا ، فالضيم أذن في الرحيل !

وتناهت في الحيلاء . ستعود الى القبض في هذه الدولة على الناصية ، وتنفض من لب المهدي كل من لقي فيه مساند للاتكاء . قال هارون ، وقد ادهشه فيها العجب ، وليس ما يبيحه : ولكن ما هي حيلتك ، يا أمي ، في استعادة عطف ابي عبدالله ، وقد رضضناه بمروقنا من فروض الولاء ؟

فكشفت عن ضميرها ببسمة تنوء بالتيه ، معلنة بوارف الرضى : سادفك اليه ، يا عين أمك . فادخل عليه وهنئه بفوز اخيك في جرجان . واظهر انتعاشك بالنبا الانيس . واذا ما سألك عني ، فابلغه اني اكابد السقم . وان ليس يشفيني سوى مرآه ، ورأفته بي . واني اردد اسمه في ساعات صحوي

وغشيانى . والتمس منه الرحمة للعليلة الجسم والروح . واملك من سعة  
البيان ما تخلب به النفس ، فتجد اباك مقبلاً اليّ ، وفي صدره العفو ، وفي  
طلعته اللهفة . فلست اراه يقوى على القعود عني ، وانت تصف له ، من عصفات  
الداء بي ، ما ينسخ من ضميره كل إحنة وضغن !

فالتفت اليها الرشيد على ذهول . زادته يقيناً ان في نفسها من نقات  
الروغان ما لا تعلقها فيه ختالة . فابانت ضاحكة من سهوة الحسير : كنت  
اعتقدك امضى ذهناً في مداهنة الناس . فمن يسلك طريق الصدق ، يا ولدي ،  
يتعب فيه . وثمة من الوعورة ما ليس لقدم ان تسلم من النواقي ، والاخاديد .  
وابوك ممن يقدر علينا الزمن مصانعتهم ، وفي يناه حظوظنا ومصائرنا . والا  
ركدت ريحنا . واكلنا الخصوم قبل ان نجبو الى نضج . اني لساعية للنهوض  
بك الى اسنى الرتب . غير ان صدعات الدهر تسدّ عليّ المهبع . فكيف  
ادوّخها ان لم استنصر عليها المكايدة ، والمخاترة ؟ ... ان الفطين من لا  
يستصعب المين ، والشين ، في ركوبه الى الصبوة . وعليك ، وانت تبلغ غداً  
من زمنك ، ما يجبس عليك ذروة السلطان ، ان توارب ، وتماذق ، للفوز بما  
ينيلك مودة قومك ، وتأبيدهم عهدك . والا اذا اعتمدت فيهم على الصدق ،  
اودت بك الصراحة وظاهرتهم عليك . وليس لمن يسوس الناس ، وقد اختلفت  
ميولهم ، وتعددت مذاهبهم ، ان يعتصم ابدأ بالحق !

فوقف منها مشدوهاً ، كأنه لا يفهم . بل هو لم يفهم . أيعرضه الحكم  
للفنّاق ؟ ... وتجلّى للخيزران انه لا يبرح في طبعه فظيماً ، فقالت : ارى  
معاملة الناس تندّ في واقعها عنك . بيد ان الايام ستزجي اليك عظاتها .  
فكل ما أريدك عليه الآن ان تشخص الى ابيك . ولتكن زبيدة ، امرأتك ،



رفيقتك اليه . وحده بما بثت' وعيك . والعقدة المعقدة لا تلبث ان تنحل ،  
وتنقشع الغمامة ، ويصفو الجهم !

فهمت زبيدة : اني لعاملة بما توحى اليّ به امرأة عمي . ولا اجد ما يقف  
بهارون عن الامتثال للشهوة . فمن يتشوّف الى النواصي ، فعليه ان يحتمل  
على تذليلها بكل ما يلويها . فلا يمسك عن انخاءه ، ولا عن طعنة ، حتى في  
الظهر . فالصدام وجهاً لوجه لا يقود في كل ساعة الى الطلبة . فان للروغان  
احياناً من الحسنات ما لا ينكر اثره ، ولا يدحض جداؤه . والا فاني لك  
ان تقهر موسى في ما تتحفز له نوازعكما ، يا هارون ، وتضطرب به موداتكما ؟  
فارمد عينه ان يخادع وينافق . اما وولاية العهد لا تلاينه ، الا اذا سعى  
اليها في تعاريج وسرايب ، فلم يتككب عن الاذعان للمشورة ، على ما  
يعتورها من زيف وزور . قال : ومتى اقف في حضرة ابي ، يا أمي ؟

فاعلنت الخيزران بارتياح واعتباط : اوفد اليوم من يستأذن لك عليه ،  
وكن لديه في الموعد !

— ألا يغلق بابي دوني ؟

فشقّ على الخيزران ان يمور الرشيد بهذا العباء كله . وصاحت به باحتدام :  
هل رأيت اباً يقسو على ابنه حتى لا يطيق مرآه ؟ ... ابن اثمك كي يدينك  
ابو عبدالله بالاحتجاب عنك ؟ ... فالتهمة رست في عنقي وعتق يحيى البرمكي .  
اما انت فبراء . ادخل ولا تخش . سيفتح لك صدرأ سمحاً ، ويضمك اليه  
بذراعين مشتاقين !

وعلا صوت زبيدة عابثاً بكل احجام : ليس لعمي ان يتعبس لنا ،  
ونحن منه على صلة لحم ودم . أينسى ابو عبدالله ابنه هارون ، وابنة اخيه

زبيدة ؟ ... من يخفق بين حوائيه قلب المهدي ، يجهل الحقد ، ويترفع عن الجفاء . فالاصلاب والارحام ، مهما طغت عليها السخائم ، لا بد ان تسكن الى موامة ، وتركن الى عطف !

ورأت الخيزران ان تتدبر الامر بنفسها . فالانسكال على الرشيد قد يذهب بالنهزة . وصفقت تنادي جاريتها عتبه . فاطلّت معشوقة ابي العتاهية النفور تقول ببسمة خضلة : ها انذا ، يا مولاتي !

والخيزران يشوقها في عتبه سلامة الذوق ، ورهافة الذهن ، فضلاً عن الوسامة . فهي على خفة روح وفهم ورونق . قالت السيدة الاثيرة : عليك بالانطلاق الى البلاط ، يا عتبه ، وتقييل الارض بين يدي امير المؤمنين ، والاستئذان عليه لهارون وزبيدة . فالرشيد يأبى الا ان يهنئ مولانا الخليفة بما ادرك من فوز ، في مغالبة الزنادقة في جرجان . فاسرعي وعودي الينا بجوابه . متى يضرب لهما موعداً للانجاء في حضرته ؟

فما خفيت على عتبه المحاولة المبطنة بالاستدراج والاسترحام ، وقالت : اني لو ائبة على الفور الى قصر الخليفة ، يا مولاتي ، وساجيئك منه بالبهيج الحفي !

وعتبه يروقها ان يحظى البلاط وصرح اساس بصفايا الامس ، وان تعود خلجات القلوب في القصرين الى وازن خفقاتها . فلا تستشري الضغائن ، ولا تُرضّ ضلوع السيدة الاثيرة ، وقد تراءت الخيزران لعتبه كاسفة البال ، شاحبة اللون ، غارقة في الوحشة . فالسوّد الفارط انطوت صفحته ، وقفّ اخضراره . فاضحى صرح اساس قاتم الجبين ، اسحم المهجة . فلا قدم تطأ عتبه للتمس رقد ، ولا يجبو اليه صديق ، كأنه مفزعة ، او وكر ابالسة .

وهو بما لا تستنيم اليه عتبة، وقد احسنت بمضض العزلة الجافية، الكاسرة الضلع  
وازفتت الى مغنى امير المؤمنين طائراً منشور الجناحين . وناذت منارة  
البربري . واليه تستنيم، لايمانها بصدقه ووفائه . فهفا اليها العبد يقول: أنت،  
يا عتبة ؟ ... ألا ماذا في صدرك من مكنون يروم التبيان ؟

فابتسمت وقالت : لديّ ما يسرّك ، يا منارة ، يا وجه الخير . هارون  
وزبيدة يبغيان الاستئذان على امير المؤمنين ، لتنهئته بما حاز من نصر في  
جرجان ، وقد كسر شوكة المارقين !

فغمز بعينه . ما هذه الحيلة المكشوفة الستر ؟ ... أتهنئة ، ام زلفى ؟ ...  
ان رائحة الاستعطاف لتهبّ منها حادة كاوية . قال منارة متخابثاً : والسيدة  
الاثيرة ، يا عتبة ، ألا ترغب في الاستئذان على مولانا الخليفة ؟ ... اراها  
ابطأت في استعتاب امير المؤمنين !

فهمست في اذنه مؤنبة : ألا اسكت ، اسكت ، يا منارة . هل سهوت  
عما قضى به ابو عبدالله على الخيزران ، وقد منعها من المجيء اليه بلا دعوة  
منه ؟ ... ثم هي تقاسي الاوجاع ، فانابت عنها ابنها وزوجته زبيدة . ألا  
متى يأذن لهما امير المؤمنين في موعد يتبركان فيه بتقبيل يديه ؟

وتحدثت عن مرض الخيزران ، دون ان تدري ان مولاتها اعتصمت  
بهذا الزعم في استرقاق كبد الخليفة . ولقي منارة في البيان وجهه العذر ،  
فانساب الى ايوان امير المؤمنين يتمم ، وقد تقوّس ظهره لفرط الانحاء :  
الرشيد وزبيدة يسألان امير المؤمنين في موعد يقرّه لهما ، لاداء فروض  
التبريك بالنصر الميمون !

فارتعش الخليفة . وكاد يستوضح : « وابن الخيزران ؟ » . غير انه

تذكر منعه اياها من الاقبال عليه بلا اذن منه ، وعالن البربري : ليكونا  
غداً في حضرتي . هذا الشباب الطريّ تروعي طلعتة ، يا منارة !

وحنّ فجأة الى الخيزران . فما حدثه منارة البربري عن هارون وزبيدة ،  
حتى رفّ في خاطره طيف السيدة الاثيرة . وكان قد تناسى وافلح . الا  
ان التناسي لم ينقذه من يقظة التذكار . واحس بما يدفعه الى الخيزران مع  
كل سعي منه لكبح جماح النزوة . فنهض عن سدته للترويح ، وقهر  
الخاطر المهتاج . الا انه تضاعف في العزيمة . وبلغ ، على كره منه ، مجلساً يحفل  
برهط من رجاله يتبارون في الرمي . فقبض على قوس سدده نبلتها الى الهدف .  
فاصاب . وهتف له جميع من حوله . وكأنه استعاد بهذا النجاح بعض مرحه ،  
فاستطاع ان يذلّ من اندلاع فورته ، وان يمضي في التناسي ، ولكن على  
رجرجة ووهن

وأحسّ بفراغ حوله ، وقد نزحت عنه لبابة . بل احس بعناء يحتاج فيه  
الى من يسنده ، ويقيه الزلل . فما كانت تنفخ في سمعه امرأة الهادي ،  
وتغذي به روحه من جفاء وكره ، اشرف على النقاد . فان لم يدركه من  
يحيّد ، كلبابة ، نفث الحزازات ، وهى ذرعه ، وألقى امره الى الخيزران ،  
مع كل ما يضر لها من نفرة . فما زال يشعر بان وقعها عليه لا يغالب ،  
وبانه مسوق اليها على رغمه ، ما دام لا يجد بقربه من يحجزه عنها . غير  
انه ظل يكافح منازعه . فلن يصفح عمن سعت لاشعال دولته بالفتن ، كي  
تهوي به عن سدته ، وما تورعت عن تنظيم المكاييد لاغتيال ابنها الهادي ،  
والخلاص به مما يعترض طماحها من عقبة عنود

ورقد ليلته يتقلب على قتاد . وهاله ان يكون عدوه في جنبه ، وان

يعيا عن طمسه. وأقرّ بغلبة الحب. فهو رب الامر في هذه الدولة ، الممتدة  
الجنبات حتى لا يكاد يغرب عنها ضوء النهار. الا انه ازاء الحب كليل عاثر،  
لا يرجح احقر عبد من عبيده . وهذه الغادة القاهرة ، المتوسدة اعلى مرتبة  
في المطمئن العربي ، سيطرت على جوارحه ، فامسى حيا لها مانعاً رخوآ ،  
كأنها ربة الشأن ، لا هو . فما هو الا الكاكي الموثق . ورصد مجيء هارون .  
ان هارون ليطلع على سريرة الخيزران ، وله من صفاء الطوية ما يهيب به  
الى الاعلان

ووقف ، في الصباح الباكر ، في شرفة قصره ، يرقب ان يطل هارون  
وزبيدة ليستطلعهما حال السيدة الاثيرة . وما عائلته الحاجب ان الزوجين  
بالباب ، يلتمسان الوقوف في حضرة امير المؤمنين، حتى اصلح من هندامه،  
وجاهد في قهر ارتبাকে . وربع بسدته مهيباً جليلاً . ودرج اليه الرشيد  
وزبيدة يلتويان ملياً بين يديه، ويحفان الى العرش للتبرك بيمين ابي عبدالله.  
فلم يمنع عنهما راحته ، بل بسطها لهما وهو يتسم ، ويضمهما الى صدره ،  
ويقبلهما بشوق. قال يعاتب بجلي التائر: طال هذا النزوح عني . فما افعدكما  
عن ارتياد القصر ، وانتما لا تجهلان مقامكما مني ؟

ودعاها الى الجلوس عن جانبيه. هارون عن يمينه، وزبيدة عن يساره.  
وصاح بحاجبه ان امنع عني كل مستأذن عليّ . وحبس مجلسه على ابنه وابنة  
اخيه . قال هارون : ما كنا لنفتقر في التماس رضى امير المؤمنين . الا ان  
مولانا الخليفة من اشغاله ما لا يطيق الاحراج . فصبرنا ريثما صفا البال ،  
ولاح النصر ، واقبلنا نعلن التهاني ، وندعو بدوام العز والسعد !

وقالت زبيدة : امير المؤمنين مائل ابدآ في الافئدة والنهي . غير اننا

ابينا ان نصدف به عما هيا له نفسه من تأديب الزنادقة الكفار . اما وقد  
ألقى عنه هذا العبء ، بما ابتهجت به الارواح ، فرأينا ان نهفو الى مشاطرته  
المسرة ، والى الجهر بمسيرنا ابدآ في طاعته . وما نحن منه سوى افلاذ كبده  
الدارجين في الارض !

فاطال اليهما النظر ببسمة مخضوزة ، بمراع ، وقال : ان عيني لتقر  
بمرآكما وانما لباب نفسي . فمرحى لكما تبدلان لي من مودتكما ينبع  
الولاء . ولكني لست ابصر بينكما الخيزران . فاين هي أمك ، يا هارون ،  
تقاسمكما اداء الاستبشار ؟

ونطق بجافز من صميمه المشتعل بسورة الهيام . فلم يحتمل التفاضي عن  
الاستيضاح ، ومرأى هارون احيا في صدره حنينه الدفين . ولم يتلعم الرشيد  
في الجواب ، فقال : أُمي تشكو غائلة الداء ، يا امير المؤمنين . ولولا ما  
يلم بها من اذية ، لاستعجلت الوثوب الى رحاب الخليفة ، تؤدي مفروض  
المخالصة . فان امير المؤمنين ليرسخ منا جميعاً في اكرم موئل . وليس  
لنا سواه من راحم مجير !

فهتف ملهوفاً : أتكابد الخيزران الالم ؟

فاوضحت زبيدة تنصر الرشيد في الابانة : هي منذ اسبوع على غليان  
جبين ، يا عماه . فالحمى لا تغرب عنها ، وقد امعنت في احراقها ونهكها .  
واحست من نفسها بانكسار العزيمة ، فاوفدتنا الى امير المؤمنين نهىء  
بالفوز الفضااض ، ونعتذر عن اقعدها الداء عن القيام بالتبريك ، واعلان  
لزام الطاعة !

فصاح مبغوتاً : وكيف سهوتما عن ابلاغي ما تعاني ؟ ... ايضيركا

اطلاعي على النبأ الوجيع ؟

فقال الرشيد يتناهى في الرقة : لم نشأ ان نزيد في الاحراج ، يا امير المؤمنين ، وقد خيل الينا انها وعكة عارضة . بيد ان الواقع نسخ الظن !

— وهل تتألم الخيزران بما يأبى عليها الحراك ، يا هارون ؟

فافاضت زبيدة بفاجع المقال : انها لمقعدة ، يا امير المؤمنين . تئنّ ولا تماسك . ويدهمها احياناً القيء . فاذا رأى عمي ان يجود عليها بروحمته ، فيعودها وييسط عليها نداءه ، فانه ليسبغ عليها العافية . ان لجفاء امير المؤمنين اياها الاثر البليغ في عنائها . فما الخليفة سوى غيث الله . إن امطر انعش . وإن امسك اتلف . فالرأفة ، يا عماء !

وكأنها جرّته ، على رغمه ، الى السيدة الاثيرة . فصاح بهلع : أأكون الجاني على امرأة عمك ، يا زبيدة ؟ ... لا والله ، يا ابنة اخي . لست بمن يجور على الخيزران . اني لو ائب اليها الساعة اعودها . وحق من براني من عدم ، ما كنت لاصدف عنها لولا ارتيايي بمودتها ، وتجهتها لابنها البكر . فليس اخوك موسى بالنكرة ، ولا الرذل ، كي تسعى أمك للاعتداء على ايامه ، يا هارون . اراها جاوزت في الخطوة الكابية حد الامومة السمحة . أفلا يكون موسى نطفة امتصت دما ، وتعذت بلحمها ؟ ... وعلى م تشتهي هدمه ، ولم اقف عليه ولاية العهد دونك ، وقد جعلتك صنواً له فيها ؟ ... فانت من بعده صاحب الحق الصاعد . وتراءى لي في المنام ، يا هارون ...

وسكت يتحامى الاعلان . وانتابه خادش الاكتئاب ، فhez رأسه ولواه ، كمن تراكمت عليه الشجون . فهاج الفضول زبيدة ، واستفهمت بهتفة

مخضّبها صارخ الالحاح : ماذا تراءى لك ، يا عمي ؟

فاجاب بمرارة ، وقد عاد يهز رأسه كمن تساوره الفجيعة : ما لي وللجلاء ، يا زبيدة . ان النبا لناخع يحزننا جميعاً . دعيني من الانغماس في الكوارث ، يا ابنة اخي . ولننطلق الى الخيزران . فما عراني من حلم لا تبتهج به روح من ارواحنا ، وهو يصيبنا في دعامة منيعة من دعائم بيتنا !

فتولى الشده هارون وزبيدة . ما يعني امير المؤمنين ؟ ... على ان المهدي ، وقد اتقى البيان ، زاد في شرهما الى الاستجلاء . والتفت بعضها الى بعض في طريقهما الى صرح اساس يستبحثان . من يكون المهمد بالمكروه ؟ ... والايان بالاحلام زيّ شائع ، يملأ دنيا العرب ويعدوها الى الاطراف . فما يلوح في المنام اشبه بالامر المقدور ، لا ندحة عن وقوعه . وشاق الرشيد وزبيدة ان يتبيننا الكارثة المنذرة . فلم يهد لهما ابو عبدالله ، وهو يتقدمها على متن جواده الى صرح اساس ، مخترقاً مناهج بغداد الى السيدة الاثيرة

ونبأ النفار ، المستحکم بينه وبين الخيزران ، على المدى اشهر رحاب ، ثقب كل مسمع . وجنح بالناس الى القول : « قضي على الخيزران ! » . غير ان بعضهم ، وهم ممن يتفاءلون خيراً ، حتى بالرزايا ، لم يؤمنوا بان الحصاص يبلغ اشده بين الصرحين المنيفين ، وللخيزران من القدرة على الاستهواء ما تنهار ازاءه الحوائل العنسد . وللمهدي من الشغف بالسيدة الفضلى ما لا يرتضي القطيعة على الامد . واصاب المتفائلون . وابتسموا لصدقهم في التخمين ، وقد لاح لهم الخليفة يطوي السبل الى ميبت أم موسى . وقالوا : عادت الامور الى مراتعها في الوكرين . فابن لبابة وحسنة تعيثان عيبتها



الفسيد ؟

وعتبه ابصرت من بعيد موكب امير المؤمنين زاحفاً الى الصرح .  
فانفتلت الى الخيزران صائحة برهبة : مولاتي ، مولاتي !  
وتأملتها في وهلتها الخيزران ، فاستوضحت بحجوف : ماذا يا عتبه ،  
هل من بلية ؟

فاعلنت الجارية بارتياح تنبسط في اعماقه فرحة الاستبشار : اقبل الينا  
امير المؤمنين !

فاستدارت عينا الخيزران هلعاً ، وهزتها المباغثة . ما جاء اليها عفواً  
امير المؤمنين . فلا بد من عذر فزع اليه في ارتياد صرحها . وما العذر الا  
الرغبة في عيادة الزوجة العليله . والخيزران ، زاد الله في همها ، على عافية  
راجحة . وافلقها ان ينخدع المهدي بما اختلقت من حيلة ، فهتفت بجارتها  
بمديد ما أوتيت من فطانة : عتبه ، اصلحي سريري . علي ان اضطجع ، كي  
يؤمن ابو عبدالله بما نمت له من فتكة داء تديبني !

وهفت الى سريرها ترقد فيه ، وتخفي بالغطاء وجهها ، وتنزع منه المساحيق .  
وعمدت الى الزعفران تصبغ به قسامتها ، وتخلع عليها الاصفرار . واطلقت  
الأنات البواكي . فهي تغور في لجة الالم . ودخل عليها ابو عبدالله ، فوخز  
قلبه منظرها الرث . انها لقي زفير وضئ . وانحنى عليها يقول وهو يتضاءل  
اشفاقاً ، كأن لم يبق فيه من الخليفة غير كبد مقروحة : ما بك ، يا خيزران ؟  
فالتفت اليه بعينين مسترحمتين ، دون ان يرشح مقولها بنامة ، كأنها  
عاجزة عن النطق . قال المهدي بمتمادي اللهفة : ألم يرحم فيك الداء حتى  
سلامة اللسان ؟

فتنهدت. وهمّ دمعها بالانحدار حسرة على نفسها . فقال ابو عبدالله يحثها  
على البيان : ولكن تكلمي . اريد أن أصغي الى حديثك !  
فقابلت نفسها على النطق، وجادت بغمغمة ترشح بالاسى: الصدود يقتل،  
يا امير المؤمنين !

فخلبت له باسيف بيانها . وأحس بان في قلبه دموعاً تترقرق . وجاهد  
في الامساك بماء عينيه عن المتون ، فقال وفي حنجرتة غصة عضوض : والله ،  
لست ابغي ان يعدو عليك الضيم ، يا خيزران . ولكنك خرجت عن موئل  
نعمتي . فما كنت اريدك على نسج الاحابيل تدمين بها مهيجتي ، وكدت  
تذهبين بابنك البكر . فهل يطيب لك العيش وانت تودين بي وبموسى ؟ ...  
محا حقدك هداك . فرفقاً ، وما نحن ممن يريدون لك الاذى . هلا تريثت  
في كره احب الناس اليك ؟

فجمجمت ، وبودها لو تجلجل ، فيملاً صوتها صرحها: لا يزال امير المؤمنين  
يسدد اليّ ظنة انا منها سليمة الضمير . فكيف اجرؤ على النيل من سيدي  
وموئل عزى ؟ ... ولكنهم الوشاة زخرفوا لابي عبدالله ما يحلو لهم به  
اقصاؤه عني . ان السماء لتشهد اننا ما حاولنا نكرآ ، ولا انطوينا على غلّ .  
الا انهم الحساد ، وما حيلتنا فيهم ، يا سيدي واميري ؟

وعادت تكتوي بدمعها . فكاد المهدي يفنى شعوراً . قال يستجير بها  
منها : ألا ازيلي عنك هذه السواجم . فان مرآها ليخمش جوارحي . اني  
لمحتاج الى الاستمتاع بنصرة احاديثك، لا الى الوقوف حيال فيض شوونك .  
اذا كنت ظالمة ، فعفا عنك الله . وان تكوني مظلومة ، فعفوك عني . هل  
يرضيك التناسي وبحو الماضي ، كأن لم ينتشر لكل ما وقع سحاب ؟

فأهجمها العرض، ولم تكن لترجو الفوز به. غير انها كتمت ما انتفضت به حوانبها من طرب. وقالت وهي تشكو ابدأ وطأة الداء الكابسة : ليس لي الا ان اشكر لامير المؤمنين حنوّه عليّ في سعدي وبؤسي. فان الشكر لمفروض علينا لرب الدولة، سواء في النعمة او النعمة. غير ان النعمة تذهب بالارواح، يا ابا عبدالله !

وشهقت شهقة كان لها في نفس المهدي ابلغ وقع. فأنحى الخليفة على هذه الغارقة في سرير الداء يقول بسلامة طويته، ساحلاً منه كل حرد عليها، كأنها لم تنله بمساءة: بروحي انت، يا خيزران. لكأني احس، وانا اراك تنوئين بعلتتك، بالداء ينزل بي. عوفيت، يا هناء ايامي. اذا غضب عليك محمد المهدي، فلقد اوجعه انقطاعه عنك بمقدار ما احزنك الصدود. الا اني لن افتح اذني لشافئ حاسد، ولا لو اشكنود. فالحيزران هبة الجنة لابي عبدالله. وليس ابو عبدالله بمن يزدري عطايا السماء !

وعانقها وقال: هوّني عليك. ستعيشين كما كنت، موفورة الكرامة، راضية النفس. فالبلاط لن يضيء الا وقد اشرق فيه سناك. فمتى تبلين من سقمك؟ ... أوفد اليك طبيبي؟

ولم تكن بحاجة الى طبيب، وهي السليمة من النهكة. فالطبيب يفضح خديعتها. وعلا صوتها يذيع بدهاء خمير: حسبي ان انعم بعبادة امير المؤمنين كي اشفي. فان رؤيته بلسم للجراح، وبعث للاكباد النخرة. لا ارى الداء يلزمني والخليفة يجود عليّ برضاه !

فابتسم وقد اطربته فيها روعة البيان. وقال بمستطيل المسرة: زيديني من هذه الشوادي !

وانتفت من خاطره حسنة ، الجارية المرموقة . فلم يبقَ لها بين اضالعه  
متكأ ، والخيزران تحتل سويداءه . غفر لها كل سعي مشؤوم ، وكل مأرب  
خبث . واسترخى حيالها لا يميل الى ارتحال . فقالت السيدة الاثيرة ،  
واليقين بالسيطرة على حجا امير المؤمنين ازال عنها شوائب الكمدة : لم  
يكن للعوادي منفذ الينا ، ونحن نعتصم بكنف ابي عبدالله ، بمعزل عن  
النمّامين . اما وقد درج هؤلاء في فناء الخليفة ، فامسينا بمن لا ترعى لهم  
حرمة . ما عرفت الغضاضة معرفتي لها في هذه الايام ، يا امير المؤمنين . غير  
اني كنت واثقة بان الغشاوة ستنجلي عن العين المخدوعة بالسراب . فتتقد  
الحقيقة لسيد هذا المطمئن بسرballها النصيع . والحمد لله ان يكون الامر جرى  
كما شاء الانصاف ان يكون !

واستولت على الخليفة حتى باتت لا تحلو منها فيه نزفة . فالسيدة الاثيرة  
عادت تستقر ببال المهدي سيدة اثيرة . قال وسخائه تتلاشى فيه : لا ترجعي  
بي الى الاويقات الدم ، يا خيزران . فلقد نسختها من نفسي . هاتي ما يجب  
اليّ يومي ، ويجفزني الى الاستئناس بغدي !

فالتفت الى هارون وزبيدة تقول ببسمة وارفة : لست ارى اشهى  
من هاتين الريحانتين يتعطر بشميمهما امير المؤمنين . فالفتوة الجبهة ، اللدنة ،  
تجري في معارفهما ، وتترنح بها اعطافهما . ولن يزيد في رونقهما وقدرهما  
سوى عوارف ابي عبدالله الفيّح !

وطاب لها النفاذ الى رضاه . فتميل به عليهما وتبلغ منه هارون ما  
بلغت لبابة لموسى . فتألفت طلعتاه بالبشر ، وهو يجيل ناظره في الفتوة  
القشبية ، تجرّ اذيال النضارة والوسامة . وما تمالك ان قال : اني لاجد في

هاتين الحليتين اكرم درر تاجي. فرعياً للصباحة المثلى تتبختر في اهبى البرود.  
ألا استمتعا بغلواء العمر ، ايها الصفيان . انما في موسم الصباية اللاعبة .  
فاغتنماه وتملّيا لذائذه الهوامي !

وردد ما سبق له اعلانه ، كأنه لا يجد لهارون وزبيدة من دأب غير  
الاستمتاع باللهو والهيام . فقالت الخيزران تبغي ما هو ابعد شأواً : ولكن  
الرشيد بات يقوى على انتضاء السيف وخوض المعارك . فما يقف به عن  
الانطلاق الى مغالبة المارقين ؟

فادرك مقصدها . ما تروم الا ان تقيم من الرشيد نداءً للهادي . قال :  
ولكنني لن اخلج به على المعالي يتزودها . فما ان تحين السوانح حتى اطير به  
الى استدرارها . فتهيأ لركوب الوعر ، والوثوب منه الى المجد ، يا هارون !  
فقالت بلجاجتها الماثورة : ولماذا نرقب السوانح ، يا امير المؤمنين ،  
وفي الدولة مجال الى الاستعلاء والبلاء ؟

فنظر اليها بقطوب . فهي ما تزال اياها في فرض مشيئتها ، كأنها لا  
تعتبر بما ألقى عليها من عظات زواجر . واستوضح ببعض جفاف : واين  
هو المجال ، يا خيزران ؟

فكادت تعلن : « في جرجان ، يا ابا عبدالله ! » . الا انها خافت ان  
تسمي الى روحه بهذه الاستطالة على رغائبه ، وقالت : لست اميل الى رؤية  
الشر يستدئب في هذه الدولة الايّدة ، يا امير المؤمنين . ولكن اذا تحركت  
بوادره فلا تنس هارون ، وهو يكفيك الاعباء . فان في جوانحه من الجرأة  
والحنكة ما يرفعه الى مصاف ابيه الامثل واجداده المساعير !

فخجل هارون ، وتورد خداه ، كأنه العذراء . وادناه منه المهدي يقبله

ويقول : لا عجب أن يتوقل بهمته في مصاعد الحزم والاقدام ، يا خيزران ،  
وهو من تربة لم تنبت غير الصيد المقاديم . له اسوة بجده المنصور ، وبعمي  
ابي العباس ، وعمي ابراهيم !

فهتفت تمنعني في اسره : وبك ، يا امير المؤمنين !

فتايل زهواً ، ولقي في الخيزران من تستنم اليها افانين الارضاء . فلا  
تخطيء الملاطفة ، ولا تفوتها الفرصة لامتلاك المهج . قال وهو يجيل عينيه  
فيها وفي هارون : لن اتواني في اعداده لليوم الازهر ، يا خيزران . فطبيبي  
قلباً . صدقت في ما تبغين له من التمرس بالصعاب . فعلى من يقبض على  
الناصية ان يكون من السادة والقادة ، المشهود لهم بالتفوق في كل مضمار .  
وما ان تلمع شرارة تنذر باكفهرار الجو ، حتى ادعو الرشيد الى جلاء  
الخطب . فكن على أهبة ، يا رجاوة ابيك !

فانتشر الطرب في محيا السيدة الاثيرة . وقال هارون : ما انا غير نبلة  
في قوس امير المؤمنين ، له ان يطلقني الى حيث تسددني يمينه !

وقالت زبيدة : كلنا فداك ، يا عماء !

فسرّه هذا الامتثال لرغائبه . ومال على الخيزران يقول : اريد لك  
الشفاء العاجل ، يا مفرّجة الكروب . لدي الساعة من الشؤون ما يناديني  
الى انجازه . غير اني سأعود !

فمشى هارون وزبيدة في تشييعه حتى امتطى جواده وتوارى . وهتفت  
الخيزران على بهجة متنادية ، فيما يخلو لها الجو ، وقد نضت عنها الغطاء ،  
ووثبت الى هارون وزبيدة تعانقهما : خلعتما عليّ الحياة بما اعددتما لي من  
مصاحلة امير المؤمنين . فكل ضم تلاشى عني ، وكل محنة تداعت . فان لنا ،

في صفحة الغد، من زخارف النعمى، ما يكتب لجميعنا الهناء الرخي. ستملك في هذه الدولة الامر، ياهارون. فلست الخيزران ان لم أوطىء لك مهاد العز! واطربهم نجاح الحيلة. قالت زبيدة: ان الحظ ليساعدنا على اعدائنا. فما دامت اخي لبابة تزحت عن بغداد، فلن تصدمننا عقبة. وليست الجارية حسنة بمن يقوى على تكدير الافق، وقد امست عزلاء، لا تستطيع ان تشهر علينا سلاحاً!

فضحكت الخيزران من حسنة. فمن تكون كي تنصب العراقيل?... انها لقطرة ماء في مرشف النار. قالت السيدة الاثيرة: ما بالننا نلتفت الى الخنافس?... اعداؤنا موسى ولبابة والفضل. وتقبل حسنة في آخر الشوط. ومن الغبن ان نقيم وزناً للمهازيل بعدما نأى عنا العتاة. رحيل لبابة بدد الاسى. غير انها لن تهناً في جرجان، وساقوؤض كل رغد وامل تموج في غلائلها. ما ولاية العهد لسوى هارون!

وارتجت ان يطل على الدولة العباسية يوم كالح المهجة، مستطير الشر، فيهب هارون للذود وكبح جماح الرزيئة. ولن يكون الهادي خيراً من ابنها المصطفى. وستستدعي يحيى بن برمك ليعضد الرشيد في الكفاح، ولن يخيبها المهدي بعدما ألقى اليها امره. فلا غنية لصرح اساس عن حكمة البرمكي المنفي الى ازربيجان، مسلوخاً من عطف امير المؤمنين

واليوم المرجو اشرفت شمسه. فالقائد « ميشال » البيزنطي استباح في الشمال حدود الدول العربية. فحلق المهدي على العليج الوقح، ونادى في قومه: الى الجهاد، يا من تظلمهم الرايات السود. ان سيوفكم المصقولة لتأبى ان تشوي بالاغمد، والعدو يرتع في لحمكم، وينهش كرامتكم!

وهرعت اليه الخيزران للتذكير : مولاي ، لا تغفل عن هارون !  
فصاح ، وقد راقته المهزة السخية : لعينيك ، يا خيزران . سيكون علي  
رأس مئة الف مقاتل !

فعدت الى الاسترحام ، وهي موقنة ان كلماتها في المهدي اشبه بالامر  
القاطع : مولاي ، زوده صفوة الابطال !

فاعلن : ولكنهم باجمعهم في خدمته ، يا خيزران . فما عليه الا ان يختار!  
فابدت بجرأة لا تهيب امدأ يقف بها عن غلوائها : لست اجد افضل من  
يحيى البرمكي ، يا امير المؤمنين . فانجده يحيى !

فزوي ما بين عيبيه ، وصاح بغيظ : عدوت الحد ، يا خيزران . أندعو  
الينا من هووا عن مكاتهم منا ؟

فدنت منه على مذلة هفى تقول : اصفح عن المخلص للسدة العليا ،  
يا ابا عبدالله . فالمرجفون افتروا . فهل يسيطر على نية المهدي المرجفون ؟ ...  
ما كان يحيى الا النصيح الحفيظ ، المؤاسي في النازلة ، والمقتبط في الرفاء .  
يوجع قلبه ان تلمّ بنا الدواهي ، ويجاهد ببعيد ادراكه ، وماضي وسعه ،  
في انقاذ مجدنا من طواحن العتاة !

فبددت فيه كل نقمة على البرمكي ، حتى بات يراه منكوباً بما آل اليه  
من تشريد واغضاء . على انه ظل يتناسك ، فقال : دعيه الى سائحة اخرى ،  
ايتها الامرأة الناهية في المهدي المدعان !

قالت بصوت يرشح بالاستعطاف الملتاع : لست اجد سواه حرزاً يقي  
الرشيذ الاخفاق . فانصره به ، وادفع عنا الحيبة . ليكون ناراً مندلعة على  
اعدائك ، فيصوّحهم ، ونغنم به خادماً اميناً في خدمة هذه الدولة ، وعليها



وقفنا الارواح !

فتمتم وهو يتنسم : انك لذات صولة في الاقناع ، يا خيزران . جاريناك  
في طلبتك وأعدنا اليك البرمكي ، على ان يتحامى الزوجان !

فهمت بفسيح الطرب : تبعته في عنقي ، يا امير المؤمنين . أما بدا  
لك في ازربيجان ذلك الوفي ، المعتم بالامانة للخليفة ، ايده الله ؟  
وانحنت على يده تقبلها دليلاً على بليغ الشكر . فالتفت المهدي الى وزيره  
يعقوب بن داود يقول : ليرجع الينا يحيى البرمكي ، يا يعقوب . فلا محيد  
عن الانتفاع بثاقب رأيه ، ويانع علمه !

ويعقوب بن داود تولى الوزارة ، لدى المهدي ، بعد انقطاع ابي عبدالله  
معاوية بن عبدالله الاشعري عنها ، لوحشة اصابته في ابنه ، وقد اطاحه المهدي  
بتهمة الزندقة . قال يعقوب مدهوشاً من استعادة الخيزران سلطانها المترومي  
على الخليفة : سمعاً وطاعة ، يا امير المؤمنين !

وما هي غير ايام سراع حتى كان يحيى بن برمك يقبل الارض في حضرة  
ابي عبدالله . فقال المهدي بجلال الصفوح : وهبناك للخيزران ، يا يحيى .  
فعدت لديها الى ما كنت فيه من اخلاص في النصيحة ، وغيره في الخدمة .  
والزم هارون . عقدت له راية القيادة في مقاتلة اجلاف الروم !

جفل الاروام حيال وثبة الرشيد عليهم بجيشه الضخم . واخلوا آسيا الصغرى ينزويون في قاعدتهم « بيزنطة » . وتأثرهم هارون يضرب في اوقيتهم السيف . فبلغ بقواته ضفاف « البوسفور » يشرف منها على عاصمة الروم ، ويحمهم متوعداً . ابقى وراءه ، من اعدائه ، ألوف القتلى يفسدون الهواء بنتن هياكلهم المتناثرة ، وألوف الجرحى يملأون الجو انيناً واستغاثة . ونصب على شواطئ الممر ، الفاصل بين الشرق والغرب ، العلم العباسي الاسود يتيه دلالاً على الاعلاج المختبئين ، في مطاوي الاجحار ، فرقاً وخذلاناً وسقطت الانباء الى المهدي فاستنشق عرف الغبطة . جناحاه يبسطان ظلها المديد على الدولة المترامية الجنبات ، ويصونانها من القواصم الراضخة . فليس لموتور ان يفلح في خطوة غادرة . الهادي في جرجان ، والرشيد في آسيا الصغرى ، يحطمان كل عدا ، ويكتبان لابيها الصفحة المجلوطة في سفر المجد . وتمايل المهدي جذلاً . من يجرؤ على الالتفات ، بعين شزراء ، الى الحمى المصون ، والاسد اليقظان ؟

وهفت الخيزران الى قصر السلام تصيح بابي عبدالله بمندلع المسرة :  
 أرأيت الفتى النجد في ترويع اعدائك ، وتوطيد اركان دولتك ، يا امير المؤمنين ؟ ... تطايرت رؤوسهم تحت نصلة سيفه ، كأنه يضرب في هشيم . فأسرف في تبديدهم حتى لم يبق منهم غير هامات مبتورة ، واشلاء منثورة ، غابت فيها الساق في الذراع والامعاء ، كأن الانذال غاروا في لجج في الدم !  
 فاعلن المهدي بفضفاض الارتياح : لنا البشرية ، يا خيزران !

وضحك للسيدة الاثيرة بلء حنجرته وفيه . فهتفت ، وقد كادت تضيق  
بها دنياها للمتادي فرحتها : وهل بقي لك ما تعيب على هارون، وهو يتسلق  
بجده واقدامه ذروة البطولة ؟ ... كنت تجد فيه خشي ، وتعيّره القعود  
عن المعالي، فماذا تلمس اليوم في ضلّاعته ؟ ... أتظلّ تهمة بالحمول، وتجاهر  
بانه لا يصلح لسوى الحدور ؟

فقهه ضاحكاً حيال سموخها وبطرها ، وقال : بدأت اعرف فيه نجابة  
من نشأ في مهدنا، وربي في حضننا . فهو من اصلاّب قوم بنوا للمجد الدعائم  
الرواسي ، وانقذوا الانفة من الكبو والاسفاف !

قالت وما زالت العنجهية تتواثب فيها : ومن تعدل به وقد عجمت  
عوده ، وبان لك شأوه ؟ ... ألا تتوسم فيه فرخاً من افراخ البزاة، يرفع  
من شمم العباسيين الى حيث يجزى كل سمو ؟ ... ليست دروب الروم  
الوعرة ، كسبل جرجان المعبّدة . وليس الروم الصلاب الشكائم ، كالفرس  
المقيمين على ديننا ، واعماق مهجهم تحتلج بطاعتنا . فالروم يميلون الى نسفنا،  
كأننا لم نكن ، وهم اعداؤنا في المذهب وفي الدم . على حين ان الفرس ،  
وقد صاهرناهم ، وصاهرونا ، وانطوا مثلنا على شرعة الرسول ، لا ينهدون  
الى محونا، بل الى مشاطرتنا السؤدد . فاذا ما ظهرنا فيهم مؤدبين، مدوّخين،  
ذكروا انهم منا في القوادم ، وان الخضوع للكتاب يجمعنا معاً في سمط  
واحد . فيزول عنهم العصيان، وتلتوي المغالبة . ونسي جميعاً اخواناً، إن  
لم يشدّهم العرق ، شدّهم الاستمساك بعروة النبي الامين !

فلم يغضب المهدي للمفاضلة ، بل قال وهو يبتسم للسيدة الاثيرة مباسطاً  
اياها : ألا نتزحزح قيد أمّلة عن طماحنا، يا خيزران ؟ ... والله، ما عرفت

في النساء من تبلغ في التشبث بالرأي بعض ما انت فيه . كاد هذا الجماح  
يكلفك الغالي . فما يدعوك الى الرسوخ في مخاطره ؟

فاوضحت بشدة : مائة جماح ، بل مصلحة ، يا امير المؤمنين . فمن  
الخير للعباسيين ، ولا سيما للمهدي ، ان يتولى هارون بعدك الامر . فيستقر  
بالمنصب من هو خليق به ، وتجري سياسة الدولة على مستوى قويم من  
الحنكة والسداد . اما اذا انتهت الخلافة الى الهادي ، فمن لك يقف بالغواية  
عن مستفحل رعونتها ، وبالفوضى عن مستشري نكدها ؟ ... خو في على  
الدولة ، من العثار ، يحفزني الى الاعتصام بعنادي ، يا ابا عبدالله !

فهز رأسه وزفر . ليس له ان يدحض جهالة الهادي ، وفي موسى من  
الفورة ما لا يسكن الى هدى . على ان هذا الجهول من البسالة والحمية ما  
ينسخ فيه المنقصة . فاعدته قسوته لكبح جماح الشر ، واريحته لامتلاك  
الناصية . وربما كان الرشيد ارحب صدراً ، واسلس قياداً . على ان الاعتزاز  
والتحكم ليسا في الولاة عيباً فاضحاً . واوجع المهدي ان تلج عليه الخيزران  
في فسح ما ابرم . فلماذا هذا السعي الاخرق لمحو المكتوب ؟ ... ولجأ  
الحليفة ، البريء الدخلة ، الى التؤدة في مخاطبة السيدة الاثيرة ، وليس يميل الى  
مقاطعتها كشأنه في ما تصرّم من عهد . قال وكل ما فيه يوشح بالجد والرزانة :  
هل لي ان ادري ما يملك على هذا المقت تكتينه للهادي ، وهو ابنك ،  
يا خيزران ؟ ... كنت اجد ، في منافرتك اياه ، باعث غيرة ، لو انه ابن سواك  
من نسائي . اما وانت ولدته ، فلماذا تنطوين له على الكره العصف ؟ ...  
فلا تنطبق لك اهداب الا وقد سللته من خاطري ، وانزلته من مرتبة  
سامقة لا اراه افتأت بها !

فعلت فيها احقادها ، وهتفت بغيظ : ولكنه دون ما تتوسم فيه من  
المخايل ، يا امير المؤمنين !

فاعلمن يحفظ غيبة الهادي : لا يلوح لي منه ذلك السقط ، كما يلذ لك  
ان تصوّره . فان يكن يجبهك بالعصيان ، وامراته تنفت في ما حولها  
الزراية بك ، فليس عصيانه ، واستصغار لبابة لسانك ، بما يقوّض فيه كل  
فضيلة ، ويجيز حرمانه ما هو حقّ به من مرتبة . فدعيه لما اقمته فيه ، وما  
هو بمن يخشى ظله . لا ، يا خيزران ، صدّقيني ، عهد موسى غير طويل !

وتصاعدت من حنجرتة أنفاسٌ حرار . وأنّ يجهد ولدعة . فجدقت  
اليه الخيزران مدهوشة ، ولم تدرك سر حرقتة ، ولم يتكشف لها ما يفيض  
به من لغز . كيف لا يكون عهد موسى الهادي طويلا ؟ ... هل حدد  
ايامه ابوه في سرير الخلافة ؟ ... ورقبت بياناً ، وقد فاتتها الجراة على  
الاستطلاع . فقال المهدي يؤدي كلماته متأنياً ، ملتاعاً : ابصرت في منامي ،  
يا خيزران ، ما لا تبرح تكتوي به كبدي . وهو بما لا احسبك تطربين  
له ، مع متفاهم غضبتك على الهادي . فتراءى لي كأني دفعت الى موسى  
قضيياً ، والى هارون قضيياً . فأورق من قضيب موسى اعلاه ، واورق  
قضييب هارون حتى لم يبق فيه ملمس الا صاح فيه الاخضرار . وهي رؤيا  
كدت اقصها على الرشيد وزبيدة ، يوم اقبلا يهتنانني بانتصار موسى في جرجان ،  
ويطلعاني على ما ألمّ بك . الا اني تمالكته ، ولم اشأ ايلامهما بالمرّوع الدامي .  
أتدرين على مَ تدل الرؤيا الجافية ، حفظك الله ؟

فوقفت ازاءه مدهوشة ترصد ما لديه من تأويل للحلم . قال بمضض  
قاصم : ان تكن غابت عنك حقيقة الرؤيا ، ألا فاعلمي انها تشير الى ضوولة

عهد موسى في الحكم . فما ان يربع بدست الخلافة ، حتى ينهار . فتفيض روحه وهو في عنفوان السن . ويقبل بعده هارون فتطول ايامه ، وتزهو سنواته . وما دام الزمن خادمك ، فما يلجّ بك في حرمان موسى - واحسرتي على موسى ! - مرتبة هو فيها لشهور عجاف ؟ ... فما ان يستمتع بالعرز حتى تهوي به القدم في حفرة المنون !

فلم تؤمن بصدق الاحلام . وليست تريد ان تستند في طماحها الى الواهي ، المشكوك فيه . ومع يقينها ان للرؤى اثرها في النفوس ، وان القوم يلمسون فيها الواقع ، ويجرون في تقديرها على اقتناع بنفاذها ، سخرت بمعتقد الناس . واصرت على ان تبصر بعينها ، الاثنتين ، ابنا موسى مخلوعاً من ولاية العهد ، والرشد راسياً فيها . قالت والهزء يتمطى في كلامها : زاد الله في ايام امير المؤمنين ، ما كنت لاشتري خيالاً في ظلام . ربما صدقت الرؤيا ، وما يبدو للمهدي المفدى غير الراهن الوثيق . على انها قد تطيش . واين نمسي وقد زاغت عن مسلكها ؟ ... ما نخعتني ببليّة ادهى من هذا الرفق بموسى ، يا ابا عبدالله !

وران الاسى على الخيزران . وبدا فيها كمد الحبيبة . فساء المهدي ان تتألم . وقال يزدلف اليها بلطيف نبوة : لا تمتعني ، يا خيزران . فما اردنا بك شراً ، وقد وهبنا لولدك الحق بما ناء فيه سواهما بالاخفاق . وكنا نجاريك في رفع هارون ، دون موسى ، الى المنصب المختار ، لولا ان نكون جاهرنا قومنا بما ازمعنا . وليس لنا ، وقد نشرنا على الناس رغائبنا ، ان نتراجع في ما سبق اليه اللسان !

فاعلنت متحسرة : لكأنك تبغي قهري ، يا امير المؤمنين !

فانكر عليها الظن الاثيم . ما رفع موسى ليزري بها ، بل ليمعن في اكرامها ، وقد حاز ولداها الشرف الاثيل بركوب مقعد الخلافة . اما وهي الناقمة على موسى ، فاي حيلة يفزع اليها المهدي ليعبد الهادي عن منصب اقره فيه ، فترضى الخيزران ، وتنفرج برظمتها ؟ ... قال ابو عبدالله بعد بمضّ تفكير : هل لديك سبيل الى نقض المبرم ، يا أم موسى ؟

ونادها عمداً بكنيتها كي تذكر ابنها البكر ، فيوقّ له قلبها . بيد انها لم تتأثر بشور الامومة ، كأن موسى ليس منها في حلّ ولا حرم . وقالت بشدة : ليس من سبيل ، مهما ضاقت ، يعسر على المهدي انتهاجها . فمن عقد العقدة محلّها ، يا ابا عبدالله !

— ولا يمتحننا الناس ، يا خيزران ، ولا يعيروننا التقلب في الرأي ؟ ... والله ، اصبحت اميل الى خلع الهادي ، من ولاية العهد ، كي افوز بابتسامة ليّنة من رطيب فمك . فارشديني الى الصعيد الآمن لثلاث اعرش ، وأرمى بضعف الحجا . كيف نغزل موسى عن مسند أبحنا له التوكؤ عليه ؟

فقال لا ترهب وخامة المغبة : يدعوه اليه امير المؤمنين لثلاث يتمرّد في جنده بجرجان ، ويعالنه امر الخلع ، واثبات الرشيد !

— وينقضي الامر بلا فتنة ، ولا سفك دم ؟ فصاحت وقد ادركت ان المهدي بات في قبضتها مرخيّ الجناحين ، طوع الشهوة الملحاح : ومن يجروّ على الفتنة ، يا امير المؤمنين ؟ ... لا احسب هذا الوالغ في دمه ولدته امه . ولا ينسّ امير المؤمنين ان له من مضاء الرشيد ما يطيح كل وقح زنيم . ليقبل كلمته ، فيخشع حياها كل جبار عنيد . ما هؤلاء المستظلون لواءه سوى رجاله وعبدانه . وليس لذي مكنة

فيهم ان يسير في مناهضة محمد المهدي !

ونفخت فيه العزيمة ، وقد خشيت عليه من التداعي . وعزّ على المهدي ان ينكص ، وينكث . فقال يلهو بالمعاطلة : هي لي فسحة من الزمن ادقق فيها في ما تدفعيني اليه . وعندي ان نصبر ريثما يبدو فينا الرشيد ، وقد عاد من مناكرة الروم . فنتبادل الرأي على بصيرة ، ونعلن ما نراه يتفق والمنشود !

فراّت من الحكمة ان تلوذ بالصبر . حسبها ان تكون مالت بالخليفة ، في ولاية العهد ، عن نصره ابنها البكر . فالرضي بخلع موسى فوزّ جسيم لها ، ما كانت لترجو بلوغه . بل ما كانت ترجو ان يرغب ابو عبدالله في العودة الى المباحثة فيه . اما وقد جاوزت المأمول ، وسمعت المهدي يوافقها على الطلبة ، فستهب له ما يطمع فيه من اويقات للتدقيق والتفكير . ولن تقف منه مكتوفة اليدين ، بل ستقوده الى رجاوتها مستعدية عليه الرشيد وزبيدة ويحيى . وستكون لها كلمتها الفاصلة . ولن يصدها ابو عبدالله عن البغية ، ما دامت لبابة في جرجان نائمة على عهد قلىق ، تحسبه وطيداً وقد عصفت به ريح هصور .

وكتبت الخيزران الى الرشيد أن عدّ وقد استوسق لك الامر . ففي بغداد ترقبك المعالي . وكان قد زحف الى مناخزة الروم يصحبه خالد بن يحيى البرمكي ، لا يحيى نفسه . فالخيزران استبقت يحيى بجانبها ليقود خطوها في تذليل العسير ، واستنجاز المروم . ويحيى اشار بعودة هارون ، وكتب الدعوة . فالنهزة تفرض اغتنامها ، ما دامت لبابة في نزوح عن امير المؤمنين ونمي الى حسنة ان الوثام بلّل الدواخل الجافية في قصر السلام وصرح



اساس . قتلاشت جزعاً . وادركت ما تكلفها الوحدة من ضم . فلم يكن  
للخيزران ان تنفذ الى بال المهدي لو حرصت لبابة على مقامها في البلاط .  
اما وقد جرت الى جرجان في اثر زوجها ، واباحت المضمار للخصوم ، فمن  
الشاق على حسنة ان تجلسي في الشوط ، والواقفون لها بالمرصاد يعرفون  
وثباتها ، وينفقون جناحها . واغارت على قصر السلام تنتحب وتطالب ابا عبدالله  
بعهده . فاكرم الخليفة وفادتها . وهش لها وبش . ودغدغ خديها . وتظاهر  
بانه لا يبرح يقرها منه في السامق من الجوانح . على ان هذه الملاينة لم  
تكن لتصدف بحسنة عن غليانها . فهتفت : هل قام على الرمل ما بنينا ،  
يا امير المؤمنين ؟ ... ابوك ، رحمت الله عليه ، لما شاء الفتك بعنه عبدالله  
ابن علي ، جزاء عصيانه ، شيد له بيتاً على الملح . وما ثوى به عبدالله الجبار ،  
حتى كانت مياه الفرات تعبت بالدعائم وتديبها . فانهارت الجدران على عم  
ابيك ، وقضت عليه . وهكذا انت في جاريتك الامينة حسنة . بنيت لها في  
حوانك بيتاً منيفاً ، فاتن الزخرف . ولكن على الرمل . فما ان بدت  
الخيزران ، حتى تساقطت عليّ الحيطان تدفني تحت انقاضها . وهو ما كنت  
اتوقع ، يا امير المؤمنين . مع سعيك لاقتاعي بانك في مودتي على الامل .  
ان حسنة لعائرة الجد في شغفها بالمولى الجليل !

وبكت بين يديه بدموع سخان . فجار في كفكفة هذه السواجم .  
فالخيزران تبكي . وحسنة تبكي . أف هؤلاء النساء ، ما سخاهن بالنجيب ! ...  
وما جهل ابو عبدالله انه لم يقم من الجارية المرموقة على حفاظ . فما ان  
عاهدها على عقد هواه عليها ، حتى ظهرت الخيزران تدمر المعالم ، وتستأثر  
بالمودات . وهو ما رقت حسنة ، وحدرت منه امير المؤمنين . فجاهر ابو

عبدالله بالرسوخ في العهد ، ولن يقوِّض ما انشأ . الا ان الخيزران كالرياح  
السوافي ، تذهب بكل مكتوب ، وتمحو كل ميثاق . قال الخليفة يبرّد  
لهبة المدامع : ولكني ما نسيتك ، يا حسنة . فانت ابدأ في نظيرة نسائي .  
وان كنت اجزت للخيزران ان تبدو في حضرتي ، فما اعدتها الى مكانها  
الاثير مني . وهي دونك . وانت تلك المكرّمة عندي، ورفيقتي الوحيدة  
في رحلاتي !

ولكن هذه الوعود ، على حلاوتها ، باتت مُزّة الطعم لدى حسنة . وقد  
تناهى فيها الايمان بان لا ثبات ، لامير المؤمنين ، على رغبة لا تلقى في الخيزران  
ارتياحاً . ورأت الجارية الحسيرة ان تلوذ بالهادي ولبابة . فتدفع الى جرجان  
من ينبئهما بالخطر المشتمر الاردان . وتهيب بهما الى الاحتراز من دسائس أم  
موسى . قالت ودمعها لا يفتأ يجلد بلا هواة خديها : انك لتدلي ، يا امير المؤمنين ،  
وانت ترتفع بي الى شاهق ، ثم تقصيني عن مرتبتي ، فاهوي الى حيث يشمت  
بي اعدائي . اصبحت لا اطيق الظهور في اترابي ، وانا الضائعة في عطفك ،  
المنكوبة برضاك !

فضمها اليه هاتفاً بها : أينسك امير المؤمنين ، يا حسنة ، وانت لديه في  
طليعة من ينفخه بمخمر الصباية ؟ ... لا بارك الله في من يسلك . الا انها  
سياسة المواءمة ، يا وجه الخير ، واراني مكرهاً عليها . فليس لي ان امضي  
في مناكدة أم موسى ، وقد اطلقت ولديها الى اقتحام النيران . ولكن اين  
هي منك ؟ ... بعوضة في حوض !

غير ان هذه الشوادي امست كليلة في حسنة ، وباتت تراها جوفاء اللب .  
ولم تعتب الجارية المرموقة على المهدي في جنوحه عنها . فامست تعرفه معرفة

اليقين . انه اضعيف حبال الخيزران . ولم تعتب على الخيزران ، والسيدة  
الاثيرة تنهد الى بلوغ اربها . بل عتبت على الحظ . هو هو الجاني . وستقاومه  
حسنة بما تستطيع . لا تهادن ، ولا تنكص . الا اذا تحطمت سهامها ، وانقطع  
وتر قوسها . عندذاك ستدعن للمقدور . واصغت الى ما يجاملها به الخليفة  
من التآسي . ولكن دون ان تحفل بما يلقي اليها . ليرجع امير المؤمنين الى  
الخيزران . وسوف يندم . وربما كان يحفر قبره بيديه . فالجارية المرموقة  
ستنتقم انتقاماً جارفاً ، قشوشاً . فإما هي ، وإما الخيزران ، ومن يخطر في  
حواشي الخيزران من مردول البطانة . وانحنت في حضرة امير المؤمنين  
ترقب ان يأذن لها في الانصراف . فاضحت تشتهي الابتعاد عن مقر تخزي فيه  
وشكرت بحميا كمد ، وبكلمات مراض . قال المهدي يباعد في المؤانسة :  
لا تزال مرتبتك لدي على مناعتها ، يا حسنة . فما كانت لتكسفك الخيزران .  
ومن يدري ؟ ... ليس ما يبعد ان تصبحي في حرمي من زوجاتي !  
وخيل اليه انه ينم فيها مضض الحيبة ، وهو يعللها بالخطوة السامقة .  
بيد ان حسنة ملئت الوعود الخالبة ، وليست تعقد ، ولا تزهو . وعادت  
الى الشكر دون ان تقوى على ستر خذلانها . فكل ما ينمق لها ابو عبدالله  
سيظل جافاً ، جديباً . وانكفات الى مقصورتها ، وامانيتها في نواح . الا ان  
طماحها في زئير . ستزع من نفسها كل هيام بابي عبدالله ، وتنحو في ولها  
نحو الهادي . فلا بأس ان تشاطر لبابة حب موسى ، وتستبدل بطلعة الاب  
وجه الابن . فمن حق الهادي ان يتسررها ، على ان تظل امرأته لبابة في الرعيل  
الاول من حظاياه . بل السيدة المقدّمة في نسائه . فإن تم هذه الرغبة ،  
فلن تبقي الجارية المرموقة من المهدي والخيزران والرشيد على خلجة . فالسم

في متناول يمينها للاجهاز على الجميع

واستقرت باحدى زوايا حجرتها تطلق الزفرات الحوانق. وكادت نختنق بجوابسها . وما زالت تطمع في ان توفد الى جرجان من يبلغ الهادي ما اعتزم ابوه، وما استعادت امه من الحظ المكين. فامست سيدة الدولة، والبلاط يخلو من لبابة . ويخشى ان تمنع عن موسى حقه بولاية العهد ، وان تجبس الامر على هارون . وليس لمهمة الابلاغ سوى الجارية سعدة . فتدفعها حسنة الى جرجان ، وفي شفيتها رسالة جهيرة تشرها على مسمع من ابن الخيزران البكر ، ومن اخت زبيدة . فإما ان ترجع لبابة، وتكبح جماح الخيزران المستأسدة ، وإما ان يباح للجارية المرموقة تقصير ايام المهدي

ولكن حسنة لن تنزل بامير المؤمنين فتكتها، الا وقد استمتعت بالجني من المنى . فاي منزلة يجلها منه الهادي ، لدن تدفع عنه شبح ابيه المضطرب الرأي ، المائع الكلمة ؟ ... فهل يسمو بها منه الى حيث ترتع في حياض المهدي ؟

ان حقدتها الطاغية ليشدّها الى الانتقام الحاصد، حتى اذا تنكب الهادي عنها . فستخدم مأربه عفواً في ركوب شهوتها . وليس يضيرها ان تمضي مغمورة، مهجورة، حين تودي بالمهدي وبالخيزران، وتشفي قلبها من ازرائلها بها . فلن تبلغ الخير في مودة هذا المتلاشي حيال بسمه ، بل حيال نظرة تسددها اليه أم موسى

وأبت حسنة التقهقر في مأربها ، على وعورته وخطره . ستضرب في أس الدولة قذيفة ناسفة لا تبقي فيها على ذي حس . واقعدت الظلمات تعاند في ان تبدو للنور، حتى في مقصورتها. فهي في حزن على نفسها، وفي حداد على

املها . وغلت في جوانحها البغضاء . ستنتقم . وكل من ابصرها من خدمها  
وجواربها خشى الدنو منها ، وهي ذات شراسة في حنقها ، وذات كتمان في  
مصيبتها . فلا تكشف عن اشجانها في حضرة من هم دونها

وطال انجباسها في الزاوية دون ان يوفد اليها المهدي من يقرئها السلام .  
لكأنها الحاملة المنسيّة . واشتدت بها الضغينة وهذا الاهمال يعصف بها .  
ورسخت في نيات السوء . فما دام ابو عبدالله لا يكثر لها ، فلن تكتب  
له البقاء ، والسوانح لن تضيق بها للفوز بمقصدها

ورقبت مؤاتاة الايام . فلا بد ان يسخو عليها الزمن بما يحقق الرجاء ،  
ولتذهب عنها بعدذاك حياتها . حسبها انها انتقمت لقلبها المكسوم ، ولأمينتها  
المخدولة ، متنصّفة من ختل الحدّثان . واذا بالرشيد يعود من ضفاف  
« البوسفور » اجابة لرغبة امه . فاندفع المهدي للقائه بعظماء الدولة ، ويحيش  
يمور بالطبول والمزامير والاعلام . بل هفت الدولة العربية قاطبة الى اللقاء ،  
هاتفه للغازي اليافع ، القائم ، مع لدونته ، باعباء الكفاية والمجد . وضمه  
المهدي الى صدره برعشة مستطيلة من صافي الحنين . وقبله في جبينه متمماً :  
وهبك الله من العمر ما يقيمك على هذه البسطة ، من الدنيا ، سيداً ملء  
برديه الغلبة . انعشت روعي ، وزدت في سعدي ، وانت تقهر اولئك  
الاذناب . فمن حسبنا الاوغاد كي يتحككوا بنا ؟ ... ان هم الاجرني ،  
مهازيل !

وصاح بمن حوله : مرحى للرشيد !

فضاقت السهول والفتاح بتريد الهتاف . وبدت الخيوزان في الحشد  
تضم ابنها الصفي الى قلبها ، وتطلق دمة الفرح . نالت ما اشتهت . وسوف

تدرك ما لا تزال تشتهي . فما دام مجال الحظ اتسع ، وطال ، فستسلكه  
حتى الامد . ودعت من حولها من الجواري ، المقتعدات الموارج ، الى  
الانشاد ترحيباً بالفاتح القاهر . ورشته بالزهر والعطر . وجارتها زبيدة في  
مهزة اليناس

وقامت الزوراء قومة الرجل الواحد في التكبير للرشد، الظافر باعلاج  
الروم . فامتلات الطرق بالرجال ، والنساء ، والاطفال . وكلهم على حفاوة  
وبشر . فدخل هارون عاصمة ابيه كأنه احد الغزاة المصاليت . واشرقت  
به بغداد . وفتحت له ارحب صدر . وانبت في الدهماء ، بوحى من الخيزران  
ويحى ، من يصيح : ولاية العهد هارون ، لبطل العرب الحمي . عاش  
هارون ، ولي العهد !

فعبس المهدي . ما هذا البيان الشاذّ النغم ؟ . . . وكاد يدعو الى اخفات  
الصيحة ، وفيها ما يعكر صفو اليوم البهيج . غير انها تفاقمت حتى امست  
هتافاً ملحاً ، يعاد ثم يستعاد ، ولا يسكن له قرار

وانبسطت جوارح الخيزران تدغدغها الاغنية الحلوة . وتبادلت وزبيدة  
النظر الممراح . وابتسمت طويلاً ابتسامة النشوة والاعتزاز . انها لتخطو  
حثيثاً الى المنشود . وبحتت ، من كوة هودجها ، عن يحيى البرمكي . فاذا نظرته  
تصبّ على الهودج بشوق ومسرة . فماذا بقي لامير المؤمنين كي يعترض  
على رغبة الشعب الصارخة ؟

ووقف الموكب ، على غليانه ، في افنية معنى السلام ، قصر الخليفة . ودخل  
السادة الاعلام البلاط . وكان للشعراء ، من امثال بشار ، وابن ابي حفصة ، واي  
العتاهية ، النصيب الجزيل من القول الجذلان . فتناها في صوغ قلائد المديح ،

يرصعون بها نحر الرشيد الممام . وضفرت له غواني القصر أكلة الغار ،  
يطوقن بها هامته ، اقراراً بحسن البلاء ، واناقة الصنيع

وتكلم المهدي في الجموع المألثة ساح القصر ، لا تني تطلق هتافها :  
« هارون ولي العهد !... ولاية العهد لهارون ! » ، فقال : الحمد لله الذي  
زاننا بالقوة الغالبة ، واقام منا هداة انجاداً ، ورزقنا توأمين نديين نعتمدهما  
في الغواشي ، هما موسى وهارون . والشكر لكم ، انتم ارباب اليد الماضية  
في المصاولة ، وفي قهر الطغاة المستنصرين . فما من مكرمة الا وتجد فيكم  
رايتها المرفوعة . سنبدل للرشيد من فيض ارحميتكم ما تقرّ به عيونكم .  
فانصرفوا على بركة الرحمن !

فهتفوا له هتافاً صيحاءً ، واكرموا باذخ مشيئته فغادروا باحات القصر .  
وتبودلت التهانيء . واجرى ابو عبدالله على قومه الرزق الوفير . فغرف من  
بيت المال ، لا بالحفنات ، بل بالبدر يسخوها على السائلين . واكل الفقراء  
هنيئاً ، مريئاً ، من خير امير المؤمنين . غير انه لم يطلق نامة في امر ولاية  
العهد . فعزّ عليه ان يجيد عن سنة اقرّ معالمها ، وطبع رواسمها . وليس  
ما يعلن المهدي بما يجوز العدول عنه ، والمواربة فيه

وتباحث صرح اساس في قعود المهدي عن حبس ولاية العهد على هارون ،  
دون موسى . وبدت الخيبران مدهوشة ، فقالت : ولكن الجموع على بكرة  
ابيهما التمسث بالحاف من ابي عبدالله انصاف الرشيد . فما به يغضي عنه مع جليل  
سعيه ، وصادق بلائه ؟ ... فهل كان للهادي ان يبلغ من الروم ، ما بلغ  
هارون ، وهو قاهرهم ، حتى لم يبق فيهم ذو جرأة على رفّة هذب ؟ ...  
اعرف المهدي عادلاً ، لا يهضم حقاً ، فما يمسك به عن حق ابنه هارون ؟

فقال يحيى البرمكي : هذا النصر ، تقبض ايدينا على نواصيه ، لم يعرفه العرب في عهد معاوية ، عاقد راية القيادة لابنه يزيد في مغالبة القسطنطينية . ولا في عهد هشام بن عبد الملك ، المفوض الى اخيه مسلمة امر الروم . فالاثنان بلغا ضفاف البوسفور ، إلا انهما عادا عنها مهزومين . اما نحن فدوخنا العلوج ، ورجعنا بهالات النصر . وغزوة موفقة ، هذا شأوها ، لا ترجحها ولاية العهد . نال هارون نصيبه من العلي بجده وحزمه ، ومن الغبن ألا يرتقي الى حيث لا يعادله حظي !

على ان المهدي لم يكن ليرضى بمحو ما كتبت يمينه . فليس للخيزران ان تحاول ما لا سبيل فيه الى لين . فالكلمة المعلنة تنزيل ركين ، لا تمحى حروفه ، كالنقش في صخر . فهاج هياج الخيزران . واطلقت تعاتب رب قصر السلام ، صائحة ، غضبي : أهذا ما يلقي من ابي عبدالله الاصفياء الاوفياء ؟ ... ألا ماذا يقدم عليه موسى في جرجان ؟ ... انه لينام بملء عينيه ، ويقلق الآذان بشخيره السقيم . وكل ما اندفع فيه لا يجاوز مناوشة صبية . فهل تقيمه بمستوى هارون ، خاضد شوكة الجبابرة ، الشوس ؟ ... والله ، اني لادعوك الى النصفة ، يا امير المؤمنين . كفتا الميزان بين يديك ، فانظر أيهما ترجح ، وأيها تشيل . فالافعال تتكلم . ومن الحيف ان يتجانف ابو عبدالله عن القسطنطين في الحكم . وليس من الحكمة ان ينعم بالرفعة غير الكفوي !

فنهذ ابو عبدالله الى التسوية ، كأنه لا يزال يبيح للايام ان تنوب عنه في حل المشكل ، واعلان الكلمة الفصل . غير انه احس بالاحراج والضيق ، فنزع الى استشارة ضميره . واذا ما يعالنه به ضميره ان ليس لمن قهر الروم ان يستوي ومن اخمد فتنة الفرس . فالفرس ، كما قالت فيهم الخيزران ،



قوم يدينون بدين العرب ، ويجدون في الخلفاء العباسيين نفحة من انفاس  
الرسول. على حين ان الروم اعداء في السياسة وفي المذهب. فمن يدوّنهم  
كمن يدوّن عدوين مزدوجين ، المنافس في السيادة ، والكاره للدين . على  
ان ابا عبدالله يلتهب حيرة كلما فاضل بين موسى وهارون. ويضيق به مثواه  
فيهرع الى حسنة يلتمس لديها الراحة ، ويرجو البرء من بجرانه . ولكن  
الجارية المرموقة اضحت لا تشتهي مرأى الخليفة ، المستهين بعهوده لها . فتلقاه  
بفتور ، حتى ليكاد يحنق ويهدم دم الجارية . الا انها تبكي وتتظلم ، فيرقّ  
للساكية المغبونة . وما ندّ عنه انه لم يفرّج عنها الكربة . بيد أنه لا يعد ،  
وكل وعد يسيء الى الخيزران لا نصيب له من الوفاء

ويلاطف حسنة . ويهب لها الاموال والخلي . ولكن الجارية الحردة  
تلتمس ما هو اسمى واوزن. وطالت على ابي عبدالله المهدي الرجرجة . فلا  
هو لدى الخيزران مطمئن المهجة ، ولا عند حسنة مأمون الانس . ومال الى  
الخلاص من الاضطراب العابت بجلده . فليس يطيق الارتباك الفاشي في نفسه  
حتى يوشك ان يعميه عن امره . وذات ليلة ، وهو يقيم من الخيزران على  
جهامة ، ويكاد يعود واياها الى ما تولاهما بالامس من مستفحل القطيعة ،  
انحنى بين يديه فارسي مقبل من جرجان يقول : لم يبق لنا من مفرع سوى  
امير المؤمنين ، ادامه الله وبسط عزه . فالهادي ينزل بنا من ضروب المخاشنة  
ما يرضّ فينا الانفة ، ويبدد الطمأنينة . فلسنا اعداء ابناء اعمام النبي كي  
نلقى من التنكيل ما يذهب عنا بالروع ، وبالروح . فالمرء منا بات لا يأمن  
الهلكة ، حتى على ثوائه بالمسجد يتعبد خالقه . وهي حال لا احسب خليفة  
رسول الله يرضى بها لمن تشدّهم اليه عروة الدين الحنيف !

فاوجعت الظلامه المهدي ، وصبا الى تبديد العنجهية . غير ان التذمر  
توالى حتى لم يكن يطل يوم الا والمتظلمون يقرعون باب امير المؤمنين .  
واذا وفد من ذوي المكائنة في جرجان ينحني بين يدي ابي عبدالله ليقول :  
نصر الله امير المؤمنين على اعدائه ، وشتت شمل معانديه . ما وقفنا بين  
يديه ، على التواء هامة ، الا لنبيدي ما يرمينا به موسى ، ولي عهده ، من ويل .  
فسلبنا اموالنا ، وهددنا بسبي نساءنا ، إن نحن لم نبايعه بالخلافة ، وهو الجانح  
الى الانفصال عن ابيه ، وانشاء دولة في فارس تناكد دولة المهدي ، وتنتهك  
حرمتها بما تفاجئها به من ترويع . وهالنا الانسلاخ من عطف امير المؤمنين ،  
فاتفقنا على المجيء اليه ، خفية ، لمعانته الطاعة ، ومصارحته بما تتزى به  
جرجان من فورة توشك ان تطفى . فلا ترحم شيخاً ، ولا ترقّ للطيم !

فقال ابا عبدالله ما يشكّ في اذنيه من قاصم رهيف ، ونبر : أيفعل  
الهادي ويتنكر لايه ؟ ... ومن يراني من عدم ، إن كنتم تقصون عليّ  
الاراجيف ، فلا طيخنكم طيخ الاماليد في هبوب الاعاصير . ما أحسب  
الهادي يتمرد على ناجله ، فيعقّ المنعم عليه بالضياء وبالمنزلة . خذلتكم ارواحكم  
إن كنتم كاذبين !

فاجابوا ولم يروّعهم التهديد : ما كنا لنفتري على ابن سيدنا الخليفة ،  
ووليّ عهده . بل ما كنا ندلف الى حامينا الامين ليروّد عنا المتالف ، لولا  
اننا نعاني من قسوة الهادي ما تكبو به الهمم ، ويذل الكرامات . فيسومنا  
الشقاء والقسر . ويفرض علينا من المكاره ما تنبو عنه طاعتنا لخليفة رسول  
الله ، ونحن من اعوانه ومثّقيه !

فقوّضوا فيه كل ما يدّرع من مناعة ازاء الاحداث . أيفكر الهادي

في الاستئثار بفارس ، ويحدد اباه ؟ ... واكفهر المهدي . وجمحت عيناها  
سخطاً وامتعضاً . ولكن أيؤمن بما يلقي اليه ؟ ... لقد توالى الظلمات  
حتى بات الايمان بها فرضاً . وما درى الخليفة ان الخيزران ويحيى البرمكي  
اتفقا على ايفار صدره على الهادي بهذا الدس المنكر . فهما من رشقاه بهؤلاء  
الشاكين من ابناء جرجان ، ليميلاه عن نصره موسى . وتشنجت اعصابه .  
واكتوى بما يقع في سمعه . فاذاع في نافثي التضليل : ساندبر امرم بما يصون  
سلامتكم ، وينيلكم الانصاف . عودوا الى دياركم آمين ، ولا عليكم . فالهادي  
لن يغفل عن حق ضائع ، ولا يرعى ذمة من يخفر الذمام !

ونادى اهل الرأي من رجال الدولة ، وفي طليعتهم يحيى البرمكي  
والربيع . فقال الربيع ينكر ما رمي به الهادي من فرية العصيان : ليس  
اولى من استدعائه اليك ، يا امير المؤمنين . فاذا لبي فهو المطيع . والا  
صدقت الظنة . وللخليفة ان يقطع صلته بولي عهده ، ويتجهم له !

وما استطاع البرمكي ان ينفر عن تأييد الربيع في ما ابدى من نصح ،  
لئلا تنفضح المكيدة المنسوجة الاديم في صرح اساس نفسه . غير انه زاد  
امعاناً في الاساءة ، فقال : وليحذر امير المؤمنين بما قد تجرّ العودة من  
وبيل الذبول . فليحتس في جنده من وخامة المنقلب !

فالتفت الربيع الى يحيى واصطكت اسنانه حقداً . ونفثت عيناه النظر  
الشزر . وجمجم في ما بينه وبين نفسه : يا للؤم الطافح سماً . الله من  
النفس المتمرّعة في الاثم !

قال المهدي : سادعوه الي . فالرأي ما اعلن الربيع . وسابث عليه  
الارصاد . فاذا وضع لي مينه وغشه ، كان المطبق مأواه . وقد اضرب

عنقه عبرة للمتطاولين . فلن يكون عندي ، اذا تمرد عليّ ، أفضل من المقنع  
الحراساني، بل يرجحه في البغضاء والجحود . فان عدوي لمعدور وهو يقلوني.  
اما ابني ، المجبول بدمي ، فاي عذر يملكه في الانقلاب عليّ ؟  
واوفد الى جرجان من يبلغ الهادي : اسرع ، ابوك يدعوك !

الا ان الهادي ، وحسنة تنشر في اذنه المؤلم الناعب ، اوجس من  
الدعوة شراً ، وتردد في التلبية . ماذا يريد منه ابوه ؟... أينهد الى سوى  
خلعه من ولاية العهد ؟ ... قالت حسنة وهي تطلق اليه من بغداد جاريتها  
سعدة : عادت الخيزران فوثبت في البلاط الى مكانتها السامقة . فان بعاد  
لبابة عن مثنوى امير المؤمنين اباح للماكرة ، على متبادي وسعها، الرتوع في  
النعم والصدقات .. فباتت ولا كلمة سوى كلمتها ، ولا شأن لسواها بين  
اقرب المقربين الى الخليفة . وتراخى المهدي في حذبه على جاريتيه حسنة .  
فلا يخاطبها الا مدهانة لثلا يبدد فيها طراوة الحس . ورجع هارون من  
مقاتلة الاروام خفّاق اللواء . فسعت الخيزران لوقف ولاية العهد عليه .  
وقد تكون وفقت للمأرب . واضحى موسى مهدداً بالخلع . فلترسخ قدمه  
في جرجان . ان بعده، في جنده، عن بغداد، يمانع في اقرار التدبير الظالم،  
ويبعث على الاحتراز والتأني . فكل دعوة ترد عليه من الخليفة تفرض  
الاحتراس وسوء الظن . فالخيزران شفة نمامة ، وعين قحامة ، تفيض  
بالجباث ، وتقوّض المحصنات !

وهذه الشواذخ الدوامي اقلقت في الهادي الضمير . أينقض ابوه ما  
ابرم ؟ ... وخطر له الاستئثار بجرجان . فيبني دولة فارسية اللون ، عربية  
الوجه ، يدوّخ بها عرش بغداد . غير انه تريت . فمن الخطل استباق دورة

الزمن . وليس بالصعب عليه، عندما يشاء، تبديل الميسم المطبوع . فما ان يلوح له ، من ابيه ، التجانف حتى يعاجله بالصدام . والمشاكسة آن اوانها ، وهذا الرسول المطلّ عليه من بغداد يقف بين يديه لابلاغه دعوة الحليفة بالمسير الى بغداد . فهزّ الهادي رأسه ، مستخفاً برغبة ابيه، واعلن باعتداد: ألا ليعلم امير المؤمنين ان ما كلفنا من اشراف، على التوطيد في جرجان، لا يزال يدعو الى بقاءنا فيها . ومتى استتب الامر، ودانت الناصية ، لن نتوانى في الامتثال لرغبة سيدنا الاثيل !

وصرف عنه الرسول لا يكرم مثواه . فليوقن المهدي ان ابنه موسى لا تحفى عليه المغلقات . هذا الفخ المنسوب لن يسقط فيه من يبدو شجاً في حلق الحيزران

وابو عبدالله ما وقف على قعود موسى، عن الاذعان، حتى رسخ في خاطره ان هؤلاء المتظلمين، من خروج الهادي على سنن العدل، لم يجهروا بالافك . فان موسى ليميل الى مناكرة ابيه بانشاء دولة تعادل دولة بغداد، بل تعلوها . وفي التنافس من الحظر ما يقلق الفناء ، ويتوعد الغد . واستعان المهدي برأي البرمكي : ماذا يلوح لك من الناشز ، المجاهر بالعصيان ، يا يحيى ؟

وشعر يحيى بارتباك المهدي وجزعه . ففكر ملياً قبل ان يعلن بمصانعته المتلبسة بالولاء الفطير: ليس لامير المؤمنين الا ان يشخص بنفسه الى جرجان، ويعود بالهادي الى بغداد . وما ان يسمي في كنفك ، يا مولاي ، حتى تذيع فيه مشيئتك . فيعزّز عليه التمرد وانت تضرب عليه جندك نطاقاً لا تتلم له عصمة !

فاطمأن الى الرأي . لن يخضد شوكة الهادي الا والفتى في حضرة ابيه .

فاذا لم يستسلم طوعاً ، استسلم استحياء . ونشر الخليفة في بطانته انه ازمع الرحيل الى جرجان . وتذكر حسنة . فلا بد منها في الرحلة الشاقة ترطبها بمواحتها . فهي صديقة الهادي ولبابة ، ولها فيهما الاثر الموموق . عدا ان مير المؤمنين وعددها بان يزجيهما ، في طليعة نساءه ، يوم يجوب الامصار . وحبا اليها يعالنها الرغبة ، قائلاً : هذا هو الموعد ، يا حسنة ، فتأهبي . سنندفع الى جرجان في زيارة موسى ولبابة . ومن سواك للجولة الميمونة ؟ ... امامك ثلاثة ايام لاعداد حوائجك !

فبوغت بالنبأ . ما يجنح بابي عبدالله الى بلوغ جرجان ورؤية الهادي ؟ .. وكانت قد سمعت ، ولكن بمن لا تفرض قوله راجح الثقة ، ان موسى تنمر ، ومانع في المجيء الى بغداد ، وقد استدعاه اليها ابوه . وتراءى لها في الدعوة اثر شفّاف من كيد الخيزران . فقالت في نفسها : « إن يكن يستأسد الهادي ، ويزري بشهوة ابيه ، فعليّ ان أمدّ اصابعي الى النار ، فاغنم اندلاعها ، وازيد في ضررها ! » . والآن ، والخليفة يهيب بها الى مرافقته في الوثبة ، لم تمنع ، ليقينها ان وجودها ، على مقربة من الهادي ولبابة ، يزيد في مكنة موسى ، ويضعف من لظى الخيزران . فقد تجري هناك الامور ، وحسنة بجانب موسى وزوجته ، على غير ما تطمع فيه السيدة الاثيرة . فيتداعى المأرب ، ويتلاشى الحلم . قالت حسنة بابتسامة خضيبة : على عيني ، يا امير المؤمنين ! فضعها اليه يتحسس فيها موانع الهوى ، ويقول : لست اعرف اللذة الا

بين ذراعيك ، يا ذات الحد الاسيل !

فابانت بغنج غرّار : وستكون راضياً ، ايها السيد الاوحد !  
غير انها ما انسلخت من المهدي حتى كانت تندلع الى جاريتها سعدة

تقول بعجلة تقرض الكلام : سعدة ، هذا اوانك . تعالي !  
فاعلنت الجارية بلهجة الملهوف المطواع : ماذا ، يا سيديتي ؟  
- أريدك على العودة الى الهادي في جرجان !  
- حباً وكرامة . وفي مَ تَرجيني ؟

فاوضحت بتؤدة ، كأنها تصطفي ألفاظها : ابليغيه ان اباه سائر اليه .  
ولا يسير اليه لسوى خلعه من ولاية العهد . وساكون رفيقة المهدي في  
الرحلة . وبوسعي ان اقضي الحاجة على وجهها الاصح . فعلى مَ يقر رأي  
الهادي ؟ ... أضرب فاوجع ، ام اتوانى وابيح للحظ الانطلاق في مجاله  
الرحيب ؟

فاتسعت عيننا سعدة ، وومضتا بهريق خشان ، تجلي منه لحسنة ان وصيفتها  
ادركت البغية . قالت الجارية المرموقة تستطلع : أفهمت ؟

- فهمت ، يا مولاتي . ومتى اسلك طريقي الى جرجان ؟  
- على الفور . وليند عن الجميع انك منطلقة اليها . فاندفعي سهماً  
سبوقاً . وعودي في لمحة خاطفة . وقد ألقاك في الطريق ، وبعد ايام ثلاثة  
سيجري موكب الخليفة في صعيد جرجان . فاسبقينا وارجمي اليّ بمشيمة  
الهادي الراهنة . فهو موقن اني استجيبه في كل ما يبدي من رغبة ، ويجري  
من تديرو !

فاعتلت سعدة سنام ناقة سبوح طوت بها الفدافد والجبال والاوادية الى  
بلاد فارس . وكان لمرآها في مقر الهادي رعشة استغراب . فانبرت لها  
لبابة تستنطقها بارتباك : ماذا ، يا سعدة ؟ ... أقلقتني بهذه العودة العجلى !  
فنضت عن بيان مولاتها ، الجارية المرموقة : امير المؤمنين زاحف الى

جرجان ، لتنحية موسى عن ولاية العهد ، وحبسها على هارون . هكذا تريد الخيزران . وسيدتي حسنة تعالئكما انها ستكون في موكب الخليفة . وليست تتنكب عن العمل بما تطلبان !

فهمت لبابة جازعة : أيزحف اليها الخليفة ليزيل الهادي عن ولاية العهد ؟ ... ولكنه يتعسف ابو عبد الله . بماذا اساء اليه ولي عهده كي يخلعه ؟ ... ان الخيزران لعقرب تحذق اللسع . غير انها ستعض صلب الحديد ، لا رسغ ابنها البكر . تعالي ، يا سعدة ، واسردي للهادي ما ابلغتكم اياه مولاتك . فان ما يحاول فيه اعداؤه لفظيح !

ومن هم اعداؤه ؟ ... امه ، واخوه ، وابنة عمه زبيدة . وضحكت لبابة ضحكة متهمكة مرّة . وقادت سعدة الى الهادي تشر عليه ، بجنق ، قولتها المضطّعة : أتدري ما يقود سعدة اليها ؟ ... مولاتها حسنة اطلقتها الى جرجان كي تقصّ علينا ما يروم فينا الخصوم !

فتفتح ناظره المأبوضولاً . وجلجل بقسوة : وماذا يرومون فينا ؟ فوضحت جارية الجارية : مولاتي تبلغ سيدي المهيب ان اياه يقتجم اليه السبل ، لينزع منه ما سما اليه من منصب . فلن تكون ولاية العهد من سوى نصيب هارون ، امتثالاً لحكم الخيزران . وتساءل مولاتي حسنة عما تستطيع في خدمة سيدي ، وقد اختارها المهدي ، دون جميع نساؤه ، رفيقة له في الرحلة !

فصرخ موسى ، وكل ما فيه على احتدام ، وارتجاف : ماذا تثرثرين ؟ - لا تثرثرة في ما ابدى . فالحقيقة كامنة في كل كلمة تلقى الى سيدي ! فاذاغ وما برح على صرخته النفور ، المختلجة بوفر من هزم : وهل كلف



ابي نفسه مشقة المجيء اليّ ليخلعني ؟ ... لست اراه راجحاً في الصفقة . فما كان عليه الا ان يُشير كي أُطيع !

وثارت فيه عنجهيته ، فرعد: ولكن رويد امير المؤمنين . انه ليكرهني على النيل منه وهو يبدو ازائي ليجردني مما وهب لي . أيعطي ابو عبدالله ويستود ؟ ... يقضّ صلي ان لا يظفر بالارب . لا والذي نفسي بيده ، لن يرجع المهدي الى بغداد سليم الروح ، وهذه بغيته . فاني لآخشي ان تسبقي يميني الى ايدائه ، وهو يدعوني الى التخلي عن منصب اراني فيه صاحب الحق المنيع . تباً للخيزران ، ما اعداها على الانصاف . الا انها ستلقى ما يحطم اضالعها . فلا المهدي ، ولا هارون ، سيد الدولة العباسية ، بل انا ، موسى الهادي . أبلغني حسنة ان تضرب ضربتها ، وهي عندي بمقامها من ابي عبدالله . بل سأرفعها الى ما يجاوز شأوها في دولة ابي . لتدفع عني لؤم المهزلة ، بانقاذي من والد شتيت الرأي ، تائه القرار ، ولها مني ما تطمع فيه من شأن . يؤلني محو من نجلني . الا اني مكره ، لا بطل . لتذهب حسنة بروح امير المؤمنين قبل وصوله اليّ ، ولها نصف دولتي ، بل دولتي على فسيح ارجائها . فان صدري ليتسع لها على مداه !

فتعنتت سعدة ، وقد خلع قلبها ما تسمع من دعوة الى البطش بامير المؤمنين : أبلغها أن ... أن ...

وأرتج عليها . فما استطاعت نطقاً لفرط ما سادها من رهبة . قال الهادي بشدة لم يكتوث بها للجلجة القينة : ابلغها ان تسقي المهدي السم ، وكفانا الله شر الحُصام !

فكادت تسقط الى الارض لفرط ما استحكمت منها الوهلة . فاستقصى

الهادي : ومتى يرغب ابي في ان يأتي اليّ ؟

فتحايلت على نفسها في النطق ، مغممةً بجهد تكاد تفيض به حشاشتها :  
هو في الطريق ، يا سيدي . نأيت عن بغداد فيما يتأهب لبراحها . واحسبه  
اجتاز اليك من المراحل نصفها !

فهدر : أتدعين صدقاً ؟ ... ألا ما يبقيك بين يديّ والخطر يشق اليّ  
الفيافي ؟ ... عجلي في الانصراف الي حيث تنشب مخالب مولاتك في من  
يريدني على الهلكة . أهددني الخطر ، واذت هنا ، قبالي ؟

ونفض كأنه يهيم بالوثوب على الجارية فيختلس لبها . فتخاذلت سعدة ، ولم  
تكن تدري كيف تتالك ، وتبلغ الباب . وامسكت بذراعها لبابة تساعدها  
على الخطو ، وتخاطبها بقولها : تعالي ، يا سعدة . ساعانك بما عليك . فالامر  
بات يحتاج الي السعي الحازم ، السديد . لا ارتباك ، ولا ابطاء . والا قضي  
علينا جميعاً . وفاز الكاشحون الغدرّة !

وسارت بها الي حجرتها تمس في أذنها : ان تكن مولاتك تحرص على  
حياتها ، وتريد لنا ولها الراحة والسؤدد ، فلتسكب في طعام امير المؤمنين  
السم . والآتي في قبضتنا وقبضتها . فمن المحال ان تنجو حسنة من كيد  
الخيّزان اذا انكسرت شوكتنا !

ودست في يدها حقاً ، وهي تبدي بحذر ، وبصوت وطيء : هذا هو  
العلاج . فلتحسّن مولاتك نفثه في طعام امير المؤمنين ، والنجاة مأمونة ،  
والسعد جاثم في العتبة . فلن نقضي على الخيّزان بسوى القضاء على عمي .  
انها لدسيسة منكورة . ولكن لا معدى عنها في خذل المنتمّرين !  
فاوسك الحق ان يفلت من قبضة سعدة ، لشدة هلعها ، لولا ان تحفيه

في صدرها . وانسلت من مغنى الهادي وكل ما فيها على ذعر . اي مكيدة تدبر في ليل أليل ستتولى مولاتها تفجير حممها?... وماجت الوصفة هولاً . وعادت تعتلي سنام ناقتها المرسال ، وهي تحرص على نفسها من ان تندرج الى الحضيض . فان ما تراءى لها ، وأذنت به ، ليميع له القلب الصليب

واختبأت في زاوية هودجها ، وهي في شبه خبل . وامتنعت حتى من الطعام ، وما فتىء شبح الدسيسة الراعب مائلاً لعينها . كيف تقتل سيدتها امير المؤمنين ؟ ... أفلا تهتز الدنيا ، ويغور الافق ؟

وبلغت « ماسبندان » . فقيل لها ان موكب المهدي يرسو فيها ، في انطلاقه الى موسى . فدفعت الى مولاتها من يبلغها سراً انها رجعت من مهمتها . ففطرت اليها حسنة بحيث الميل الى الاستطلاع . وحسنة تقيم على إبر ، بانتظار الوصفة الحاملة رسالتها الحظرة الى الهادي ولبابة . ولاحظ لها فانقضت عليها ، تستوضح بشوق خشيان ، وهي تتلفت الى ما حولها ، وناظرها يختلجان بالفزع ، وبالرغبة في الاطلاع فوراً على الحجيء : ماذا ، يا سعدة?... بهم عدت اليّ من الرهط الامين ؟

فما زال الوهن والاكفهرار يطغيان على الوصفة . قالت وهي تضطرب : هما يطلقان في الامر يدك . فاستعيني على المهدي بما يحزبه ، ويرديه . واذا كنت بحاجة الى دواء حاسم ، فاليك بهذا الحقيّ ، هدية لبابة اليك . ففيه الصعقة القاتلة ، كما اسمعتني . عاجلي به امير المؤمنين ، وأعنته الدولة بين يديك . صارحني الهادي بانه سيرفعك منه ، الى حيث لم يعرض لك في ضمير ان تبغني ، اذا انت دفعت عنه عدوان ابيه !

فابتسمت حسنة . ولكن ابتسامتها بدت اشبه بالتكشير ، كأن هول

الموقف يأتي عليها الانبساط . سترتقي الى ارفع ذروة . الا ان لطفة الدم  
لن تنجلي عن بشرتها وقسامتها . فستظل تبصر ميسم الجريمة مطبوعاً في نفسها  
وجسدها . ولولا كرهها للخيزران ، لعدت عن الاثم المشوب بالدناءة والجحود .  
غير ان نفرتها من السيدة الاثيرة ، وحقدتها عليها ، دفعها في سياق اهوائها .  
ستضرب ، ولتترزل الارض !

وتناولت الحق من وصيفتها ، وقد انتضته سعدة من صدرها تروم الخلاص  
منه . وكانت تحس ، وهي تحمله ، بانه صلّ ينهشها . وطاب للجارية المرموقة  
ان تنعم بملذة الوعد ، فاستدرجت سعدة الى التوكيد تسألها : هل وعدك  
الهادي وعداً قاطعاً بان يقيمني لديه في اسنى منزلة ، وانا أردّ عنه اذى أمه ،  
ومبعة ابيه ؟

— وعديني بان يهب لك الدولة على فسيح ارجائها . ولكن أتعدر مولاتي  
بامير المؤمنين ؟

فزوت حسنة ما بين عينيه . وألقت على جاريتها نظرة متوعدة ، كأنها  
تهدر بها دم الجارية الوقحة . ولم تجب ، بل انصرفت الى امير المؤمنين ،  
والحقّ في كمها ، والبسمة في ثغرها . فقال المهدي وهي تلوح له طروباً  
لعوباً : لا اراك على سوى اخضلال محيا ، يا حسنة !

فاجابت بغنجها الميّاس : وهل لي الا ان اكون كذلك ، وانا في  
كنف امير المؤمنين ؟

قال : ان لوسامتك وبشاشتك فضلاً عليّ ، وهما تنعشان روحي . فهل  
لك في جولة نشرف بها على هذه الانحاء ، وربما لن يتفق لنا ان نرتادها حيناً آخر ؟  
فاجابت بعذوبة مشرقة : ليس لنا ان نعاندا امير المؤمنين في شهوة ،

ونحن نجري في ركابه حتى الامد !

فراقته فيها آيات الفطانة . وقال يجاهد في نفي الاشجان عن نفسه

المعذبة : هيا ، يا حسنة !

فقال بصوت نعوم : هلمّ ، يا امير المؤمنين !

على انها ، قبل ان تنطلق في ظل الخليفة ، الى ضواحي « ماسبذان » ،  
نادت اليها بعض خدمها ، وعهدت الى اثنين منهم في صنع الحلوى للرحلة .  
وكلفت عبيدين زنجيين خنق سعدة ، لثلاث بوح بما تعلم . ولم تكن منها على  
ثقة شعبي ، وقد لمست فيها الرجرجة . قالت وهي تخاطبهما على خلوة :  
اخنقاها في هذا الليل . واطرحاها في بئر مهجورة . وعودا اليّ بخصلة من  
شعرها ، وباذنيتها ، ولكما اسنى عطية !

فانحنى العبدان يعلنان الطاعة ، وليست تخفى عليهما مكاييد الصروح .  
فما هي بمهمة التنكيد الاولى الموكولة اليهما ، وقد تعوّدا الغوائل يجرهما اليها  
الولاة . فلا بد آنأ ، بعد آن ، من هذه الحواسم ، للخلاص من المزعجين . وبعد  
سويعات ، كان المهدي في موكب ضئيل الى الحماثل والادغال ، المائلة  
هاتيك الهضاب . فرام ان يريح نفسه من عنائها ، ولم يكن مطمئن الروح  
الى ما يجهد فيه له . فانه لمقبل بارتحاء عزيزة الى جرجان ، لعزل ابنه موسى  
عن ولاية العهد . وما كان له ان ينكر على موسى الضلاعة ، والجدارة .  
ولا ان يتنكر لعهد نادى به وأقرّه . الا انها انباء السوء المتطايرة اليه عن  
الهادي ، وإلحاح الخيزران الثاقب ، ليل نهار ، اذنيه ، لا يبيح له نزرأ من  
راحة . وشعر ابو عبدالله بوخز الضمير ، وهو يقترب من جرجان . وكاد  
يرجع الى بغداد ، نازعاً من نفسه الافتئات بحق ابنه موسى ، لولا ان يقع

في وعيه ان الهادي ينهد الى العصيان، والى انشاء دولة تزحم عرش بغداد .  
فالخوف من قيام هذه الدولة ، فتّ في عضده ، واحرق مهجته . وهو ما  
يهيب به الى الانقراض على معقل الهادي في جرجان، فيفلّ حده، ويقوّض  
قاعدته. وما كان يرى الامر جسيماً صعباً، لولا انه يصادم فيه ابناً حبيباً اليه  
وافضى الى حسنة بما يغلي في حناياه من المشجيات . قال وهو يجوب  
واياها الرياض والهضاب : ليس لي ان اغتبط بمسيري الى الهادي اقلق فيه  
المهجة ، يا حسنة ، وهو فلذة من افلاذ جنائي . غير ان طماحه يقودني الى  
ما لست اشتهي . فما كان عليه وهو يجيبني الى ملتسمي ، ويمحو عنه وصمة  
العصيان ؟ ... ولكنه غرّ عنيد . أيكايده اباه وليس له ان يرتع ، لولاي ،  
في سوّد ولا في جاه ؟ ... أف للابناء العققة ، انهم ليدمون اكبادهم  
واكباد منجبيهم . ما حسبتني ألقى في الهادي هذا الدلال !

فاوضحت الجارية المرموقة : ان يكن الهادي ضلّ عن مهبع السداد ،  
فلا ينسّ امير المؤمنين ان ثمة الحافز الراغم ، وهو الحرمان بعد العطاء .  
فليس للخليفة المفضل ان يسترد بيسراه ما وهبت يماه . على اني موقنة ان  
المهدي بريء من تبعة التخلف ، وما قضت بالفادحة الا الخيزران . ولكن  
هل لسيد جليل ، كمولانا الخليفة ، وبين يديه يسجد الاقيال ، ويخشع الكماة ،  
ان يصغي الى امرأة تركب جموحها ؟ ... للخيزران ان تلتمس ما يطيب لها ،  
يا مولاي ، وعلى النهية النيرة ان تزع وتهدي . فلا تنحني ازاء مشيئة امرأة  
يستوي لديها الدرّ والحصى . ان الهادي لعلى وزر ، وقد عصى . وعلى ضم ،  
وقد أصيب في حق وضّاح !

فما استطاع ان ينفي . حسنة تنطق بالبيان المفحم . وآثر الصمت .

لم يكن عليه ان يصيخ للخيزران . ولكن هل له ان يتذوق علالة من هنا  
 اذا جافى أم موسى ، وادار لها اذناً صماء ؟ ... وتأوه . فهو ينوء بالارتباك  
 واشرف الركب على قرية « رزين » ، وحلّ فيها . وسكت المهدي  
 عن اعلان امره . هذا ليس امير المؤمنين ، بل احد افراد الناس ، يصحب  
 قوماً يجوبون الامصار انتجاعاً للعافية . ودعا الى ضرب خيامه في ناحية  
 معتزلة من القرية . وامرت حسنة بالموائد فمدّت . وجلس في الصدر امير  
 المؤمنين يأكل ، وفي نفسه كمدة ، وفي لبه بجران . وتفنن المداعبون في  
 المفاهمة . بيد ان الانس لم يكن يأوي الى بال ابي عبدالله  
 وتهادت اطباق الحلوى . وابو عبدالله على شغف بالقطائف المحشوة بالجوز  
 والسكر . فاعتكف على طبق منها يأكل بلذة رويّة ، مع كونه يمور في  
 شجوه الاسيان . وهتفت حسنة بصوت مرّن ، وهي تراه يعفوص على الطيبات :  
 هنيئاً مريئاً ، يا امير المؤمنين !

فابتسم لهذه الفارعة ، اللدنة . وقال يغالب ما يعتريه من اكتئاب : ان  
 للشهوة مسارب الى النفس وانت تتأوجين في العيون ، يا حسنة !

وكانت مباسطة تفتحت لها الحناجر على مستطيل القهقهة . ونهض المهدي  
 يعقد مجلسه ، ويصغي فيه الى مطارحات الحاشية . وغنت الجوارى ، ورقصن ،  
 وباعدن في نقر الدف والعود ، كأنه يوم أغرّ ، محجل . واستقرت حسنة  
 بجانب ابي عبدالله تجاهد ، كما دل عليه مظهرها ، في ان تحيي في نفس الخليفة  
 المسرة . غير أن ابا عبدالله ما ان يبتسم للنضارة المبسوطة بين يديه ، حتى  
 يتجهم ، وقد عاودته احزانه . واذا به يشعر بألم وثأب يخزه ، كأن في  
 احشائه مسماراً رهيف النتوء . فتمالك . الا ان الام تقادى . فشكا المهدي

وجعه بانين المكروب : من يلمّ بتسكين المضض ، فينقذني ؟ ... اني  
احترق وامتزق !

فقام رجاله وقعدوا للملحة الكاوية . ماذا دهى امير المؤمنين ؟ ... ولم  
يبقى فيهم ذو اطلاع على شربة ، او علاج ، الا وصفهما للخليفة . ونودي  
الطبيب ، ولم يكن في الرحلة عنه غنى . غير ان الطبيب لم يجد كلاماً يوضح  
به الداء . فوقف من الرزيئة على حيرة . واشتدت بالمهدي الاوصاب . وعلت  
صرخاته : انجدوني . اني احس بالموت يمشي في عروقي !

فران على القوم الجزع . وصبغ الاكفهرار الوجوه . ووهنت قوى  
حسنة . هل اشرف على منيته ابو عبدالله ؟ ... وشعرت الجارية المرموقة  
بمخفقان شديد في قلبها . وبردت يداها ورجلاها . وغار الدم في شفيتها ،  
وفي خديها . وقبضت على راحة امير المؤمنين ، كأنها تروم ان تبثه الحياة ،  
وهي بحاجة الى من يمسك فيها الرثوع . وصرخت باعلى صوتها : تداركوا  
مولانا الخليفة . أليس فيكم من يستنقذ خليفة الرسول ؟

ولم تكن تجهل ان الضربة ماحية ، لن يعتصم منها المهدي بآمن ، والجارية  
المرموقة صبّت بنفسها السم في ما التهم امير المؤمنين من قطائف . فالحقّ  
الصائر اليها من جرجان ، تحمله معدة باشارة من لبابة ، اراق جميع مائه  
في الاكلة الطيبة ، وعلى التلذذ بمضغها ، وازدادها ، يعتكف ابو عبدالله .  
وحسنة ما سكبت السائل القاتل في القطائف المحبوسة على المهدي ، حتى دعت  
الخدم الى عرضها عليه ، دون سواها . ففعلوا . وكانت الفاجعة الريداء  
وتقياً الخليفة المرضوض المهجة . واستجار على امره بالله . فصاح الطبيب  
عندذاك : امير المؤمنين يعاني فتكة السم !



فالتفت الجميع بعضهم الى بعض على دعر. من اودى بسيد الدولة؟...  
من اذاقه السمّ النَّسَّافُ ؟ ... ما ابقى ابو عبدالله في صحفة القطائف على  
بقية يستدل منها على السمّ في الحلوى. واهتز المهدي واستغاث : من ينقذني  
ويشاطرني دولتي ؟

ورلوت حسنة تخفي باعواها اثمها . ولطمت وجهها . وشقت جيوبها .  
واكتوى المهدي بالالم . وتلاشي نَفْساً في نفس بين زجرة الحقد ، ونجيب  
اللوعة . وطار الى الآفاق ان الخليفة العباسي الثالث جاد بمهجته . فتروحت  
الاعطاف على مرح في جرجان . وجمدت العيون على رعب في بغداد . من  
الضارب الناحر ؟ ... فراجت اقوال . واذيعت شوائع . وتحفز اثنان  
للوثوب الى الدكة . فتى جرجان ، وفتى بغداد . وصال فتى جرجان ورعد ،  
يميل الى اضرامها ناراً اكولاً . انه لصاحب الحق الامثل . وأسرّ الى زوجته  
لبابة بقول رضي : سلمت يد حسنة . صانتني من دم عارّ عليّ ان اذريه  
بنفسي . وكدت اسفحه لو لم اقع على من يقيني الشائبة !

فابتسمت لبابة ابتسامة تترجح بين الفرحة والحشية . فما مضى مخيف .  
الا ان ما سوف يأتي اخوف . وستتطاحن القوتان المتنابدتان عيناً لعين ،  
وصدرأً لصدر . فهي السنة المئة والتاسعة والستون للهجرة . وقد اوستكت  
فيها الدولة العباسية ان تشرف على الاضمحلال ، لولا ان يتداركها الحلم ،  
ويشفع فيها السداد . فهزّتها بصرع المهدي كما هزّ الاعصار شامخ السنديان ،  
ويكاد يقتله من جذعه ، هشيماً يكفّنه الهشم

## الفصل الثاني

### قاتلة ابنها

١

طغت موجة الذعر على بغداد، بل على الدولة العربية في مسطرّ تخومها،  
لدن نعي اليها ابو عبدالله محمد المهدي ، الخليفة العباسي الثالث ، وابن ابي  
جعفر المنصور ، مالى الدنيا رهبة ، وماحي العتاة

وراع القوم ان يتلاشى ، في ومضة خاطفة ، سيدّ ملء جوانحه العافية ،  
وظفاح كبده النشاط . فهو في الثالثة والاربعين . في مستهل الكهولة .  
الا ان الشباب لا ينفك يتواثب فيه على جمام . فتبسط عليه النضارة  
مواحتها . ويشعّ في طلعه العزم . وله من ضلعة ألواح ، ومناعة أعصابه ،  
ما يأبى على الوهن الناهك ، والفناء العاجل ، ان يدبّ اليه

وذاع في الدواوين ، والمجالس ، ومضارب الوب ، والفلوات ، على متناهي  
آمادها ، ان ابا عبدالله قضى غيلة . فالشحناء ، المستأسدة في الصروح ،  
اودت به . ولم يكن يملك القدرة على ارضاء المتحاسدين المتنابذين . وجنح  
فريق الى القول ، لا يتحشّم ، ان الهادي قتل اياه ، وقد سعى خلعه من

ولاية العهد. وثمة من روج ان الخيزران دبرت المكيدة ليستتب لهارون الامر  
وهذا يجيب البرمكي الى صرح اساس على سهوم ورعدة . تداعت الحيلة  
المنظمة لقهري موسى والافتئات بحقه . فما نادى ابوه بخلعه كي يستأثر بالامر  
هارون . ونفرت الخيزران الى البرمكي ، وهي تبصره يلج باب مقصورتها ،  
هاثفة بمرير الالتياح : رأيت اي داهية تجتاحنا ، يا يحيى ؟ ... والله ، كسر  
الاوغاد ضلعي ، وقد حرموني الساعد القاطع ، والسيف الحامي . فمن لنا  
يتدبر بليتنا ، وينقذنا من الاضحلال ، ايها الصديق الاوفى ؟

وناخت السيدة الاثيرة ، وهي تجمجم فيما تسكب دمعها : لم يفتك به  
غير موسى . غادرنا اسداً زائراً ، فما عدا عليه ، بين ليلة واختها ، كي يتوسد  
التراب ؟ ... خصومنا غير نائمين عنا ، وهم يعدون عليه خطونا ، بل نفَسنا .  
كيف السبيل الى درء البلية ، يا يحيى ؟

وغاصت في النوح الخيزران . كل ما شيدت صار الى الانهار .  
فالموت العاصف بابي عبدالله قوَّض المنيع ، واطاح المرجو . لن يركب  
مقعد الخلافة غير الهادي . وهو ما يخضخض مهجة السيدة الاثيرة ، ويذيب  
املها . فاي سوِّد يبقى لها ، وابنها البكر ، الصلب الشكيمة ، سيقبض  
على الاعنة ، ويدير الامر على هواه ؟ ... قال البرمكي ، والكمدة تطبع بمسماها  
القاتم اساريه : علينا بالصبر ، يا ذات الجلال . فليس لذي جبروت ان  
يعاند المقدور . مات المهدي ، وستنفذ فينا وصيته باقرار الهادي ، في الخلافة ،  
قبل هارون . ولا ندحة عن طأطأة الرأس للحكم المعلن . فالهادي خليفة المسلمين !  
فرض المقال الهاصر كبدها . وهتفت بغیظ : لا ، يا يحيى . لن يتسلم  
غير هارون مقود الدولة . واذا كبر الهادي ، اوغرت عليه صدور الجند .

فأثيرها فتنة دامية ، جارفة ، لا تبقي من المناوئين على روح !

فلم يلتهب البرمكي بما تلتهب به السيدة الاثيرة من حنق يزيد عن الهدى .  
بل قال بحصافة الاريب ، العليم : مهلاً ، يا ذات الجلال ، ليس الزمن بالمؤاتي  
لاضرام الفتن . ربما التهمتنا الهائجة ونحن نشعلها ناراً جموحاً . فالخزانات  
تضطرم في صدور الكارهين لبني العباس . وليس الكارهون بالعديد الضئيل .  
والحكمة توحى لنا بان نذكر رؤيا المهدي ، وان نعتمد عليها في التدبير .  
لن يعمر موسى في السدة العليا . فصاراه ان يدير فينا الحكم سنة ، او  
بعض السنة . ولا يضيرنا ان نصبر على ضم يهيننا فترة من الزمن ، ثم  
تضحك لنا الايام عن ثغرها الشنيب . لنعلن خضوعنا باستسلام رصين للمشيئة  
المبرمة ، مخافة ان يقول فينا الشامتون اننا نتخاذلنا حيال النائبة . وإن  
خدعتنا الرؤيا ، فلن نخزي في الركون الى البواتر تنيلنا ما نصبو اليه من  
شهي ، سمين !

فما اصاحت له وهي تنهد الى العجلة . قالت والكره يغلي في دمها :  
لست اؤمن بالرؤى . انت تقذف بالقول الضغث ، يا يحيى . اذا اجننا للهادي  
ان يسود ، فانه ليطينا الواحد تلو الآخر . ويزجينا الى الارماس نتوسدها .  
فالسلمة في المقاومة . والغلبة في الطفرة . ان الجند ليحاربنا ، والدولة على  
رحبتنا تدعمننا ، وقد رسا في الاذهان ان الهادي قاتل ابيه . لنشعل الثورة ،  
ايها البرمكي ، والفوز لنا !

فمانع في اضرام الثورة . لن يفسح للشهوات الرواكد طريقاً الى الانفجار .  
فما ان يوصم الهادي بتهمة القضاء على امير المؤمنين ، ابيه ، حتى يتحفز  
للوثوب الطالبون ، والعلويون ، والحوارج ، والفرس ؟ ... ومن لهذا

التيار المتمرّ يصدمه ، وسيطفي على كل تخم ومصر ؟ ... فتضيع الخلافة على العباسيين ، ويتحكم فيها اخو نزوة ، لا يطبق ظل موسى ، ولا خيال هارون. فيجئت ارومتها. ويقضي على الخيزران ويحبي وسائر اللف. قال البرمكي : اوثر ان تجنح الخلافة الى الهادي ، يا مولاتي ، على ان يقتنصها موتور قبيح. فلا بأس ان تنتهي الى موسى ، وتسلم من انياب اعداء البيت العباسي . فلست تدرين اي شر يعول ونحن نفرع الى الفوضى كي نشفي بها الاضغان . علينا ان نتقي الندم ، يا ذات الجلال . فما يبرح موسى ابنك . ومهما نقم عليك ولدك ، فلن يدفعك الى الهوان . لكن على نزوة من رصانة ، ولنفتح للهادي صدورنا . فمن المحال ان يتعبس لنا ، ونحن نقره على ما اقره عليه أبوه !

فجلجلت الخيزران : لكأنك اصبحت من شيعة الهادي ، يا يحيى !

قال ابن خالد البرمكي : العاقل من اتقى جموح العاصفة، ايتها السيدة الاثيرة . فليس لمثلنا ان يعتمد على الشعب ، في موقف يفرض علينا السكون . سنبايع الهادي بالخلافة احقاقاً لمشئته المهدي، ونغنم مودة الناس ، ونرداً عنا ظنة الفتك بابي عبدالله . وعندما يقبض موسى على الزمام ، فلا بد ان تساوره عنجهيته ، فتتفر منه الرعية ، وتعلو مكانتنا ، وتوجه الينا الانظار . وتقبل الينا الامامة طائعة ، بل مستجيبة . فلا نكلف انفسنا الا الهدوء في سريرها . واذا طال عهد موسى في الحكم ، وجرت سفينته في مهب ريح مؤاتية ، فلا يصعب علينا ان نضرب الابن بسلاح اردى الاب . رواحدة بواحدة . والبادي، اظلم !

— أنقله حين تسمن ضلعه ؟

— ما تميل اليه اليوم سيدتي، سنحاوله في الآتي ، ولا خشية من سمانة  
الضلع . وكل ما علينا الساعة ان نتريث . فالتأني نعمة من نعم السماء !  
فتأوهت ونبرت : انك لتغلبني على امري ، يا يحيى !  
فاوضح : بل الزمن هو الغلاب ، يا ذات الجلالة . وكل ما علينا ، كي  
نستدرجه الى المواممة ، ان نسايره في حكمه ، حتى اذا ما والانا ، قبضنا  
منه على الناصية ، ودفعناه في خدمة مآربنا . المهدي قضي ، فمرحباً  
بالهادي . ليس لنا ان نكافح المقدور !

فكبح جماحها . واحست بالهزيمة ، فبردت حديتها ، كالقدر الفائزة خمدت  
تحتها النار . على انها جرضت بريقها . ودل الاكفهرار في معارفها على احتمالها  
القهر ، على كره منها . ونادت اليها الرشيد وزبيدة ، تقول لهما بلهجة كابية :  
هل سمعتما رأي يحيى في ما يدعونا اليه الموقف من سعي ؟

فاستوضحت زبيدة بشوق : وماذا يرى السيد البرمكي ؟  
فاعلنت الخيزران ، وهي تتلهف : يحيى يهيب بنا الى الاستعانة بالتوادة .  
فلا نطالب ، ولا نخاصم ، بل نوقب وفور السانحة !  
فغمغم الرشيد باحتراس ، وقد راعه ان تغضب أمه : ليس لنا ان نصدف  
عن نصيحة البرمكي . فهو ابي ، وقد مات ابي . لك ان تقضي بما تشاء ،  
يا ابا الفضل !

فألقت الخيزران على ابنها نظرة ساخطة ، تتلظى امتهاناً ، وصاحت به :  
أراض انت بما يذهب اليه يحيى ؟ ... كنت احسبك أحمي أنفأ . أيرورك  
ان يسود اخوك وتخزي ؟  
فصغ وجهه الاحمرار . وسكنت نامته وهلة . قال البرمكي ينجده :

لا تغضي عليه ، يا ذات السنى . فهو قرين الصواب . ليس لنا ان نبيع  
للاخوين ان يتقاتلا ، وما يبرح الاب في نعشه يرقب من يدفع جثثانه الى  
التراب . سنشخص الى قرية « رزين » ، في « ماسبندان » ، ويتولى الرشيد  
الصلاة على ابيه قبل دفنه . وينادي بالهادي ، فيبايعه . وتنطلق الدولة في  
خطوها المأمون ، لا تزال بها القدم في منحدر صلد ، فيكتب لها البوار !

فاعلنت الخيّران : أنبايع ونحني الهام ؟

فاذاع يحيى البرمكي بسultan اللبيب ، الواثق بصحة بيانه : لا معدى  
عن المبايعه . لنجئح الى مفروض الحكمة ، يا أم موسى !  
فضربت كفاً بكف ، وهتفت بالتبايع : واويلاه ، انها لكسرة كاسفة  
لا قبل لنا بها !

غير انها لانت وألقت امرها الى البرمكي . فهو الصديق النصيح ، الباقي  
على الدهر . وليس لها ان ترتاب منه بولاء ، ولا بسداد رأي . واجال يحيى  
في الرشيد عينين تنضحان بنزفة من امر ، وقال بنبرة جازمة : هلم ، يا هارون .  
ليس لنا ان نتأخر عما يهيب بنا اليه المقام من صلاة ، وجنازة ، ومبايعه !  
وجرى بهما موكب حفيل حزين الى « ماسبندان » ، لا يداع المهدي مقره  
الاخير . هذا ملكٌ ضخم يلفظ روحه ، وعلى بطانته وشعبه ان يبذلا الوسع  
في الترحم عليه . قال يحيى ، وهو يحث السير بجانب الرشيد ، الى المآثم المعقود  
في ربوع فارس : حذار ان تبدر منك رعشة خوف ، او فورة حدة .  
فافعل كأن الامر يجري عفواً . فلا مكيدة مدبرة ، ولا خصومة تفصل  
بينك وبين اخيك !

فاعلن الرشيد : ساعمل كأن ابي مات قضاء وقدراً . فلا يد اطعمته

السم اضطغاناً عليه . ولا بغضاء تبعديني عن اقرب الناس اليّ . كلنا في  
المصيبة على معادلة ، يا أبتاه !

واشرف الموكب بجلاله على « ماسبّذان » . وبلغ قرية « رزين » واجماً ،  
مرضوض الحشاشة . وولوت حسنة . وتنتف شعوها وهي تبصر الرشيد  
ويجيى البرمكي . فالحوف من ان تعروها الظنة اهاب بها الى الامعان في  
ابداء الجزع والنحيب . وخلعت عنها حللها الزهر ، وارتدت المسوح .  
وحلّت غدائر شعرها ، وعافت الحُضاب والمساحيق . واحمرّت عينها لفرط  
سكب الدمع . واعولت والرشيد والبرمكي يدنون منها : يا للويل . انهار  
صرح المروءة ، وتداعي ركن الجلال والجود . فمن للبيلة الفادحة يدرأ عنا  
اهوالها ، يا هارون ؟

فبكى الرشيد . وأطفّ حاجبا يجيى على عينيه ، وانتشر في اساريه  
القطوب . ولم يلتفت الى حسنة وقد لمس في عبراتها الكلفة . بل أكبّ  
على الجثمان الوقور ، المعروف على دكة عالية ، وقبل راحته . وحذا حذوه  
هارون . واطلق على ابيه الدمع الهتان ، وقد شعر بجسامة الفاجعة

وناحت النائح على موئل الكرم ، ونبعة المعروف . وكبّر الجند .  
وتعالت صيحاته الملتاعة . ان الحُطْب لجلل . ووقف الرشيد ، فصلى على  
ابيه ، ونادى بمبايعة اخيه الهادي . فلم تصدق الآذان ما يسقط اليها . هل  
اقدم هارون على المكرمة السمحة ، وتناسى ، في الموقف الفصل ، ما بينه  
وبين اخيه من تنافس مرير ؟

وجالت النواظر في النواظر دهشاً واعجاباً . موسى الهادي اضحى امير  
المؤمنين . وباع الناس . وطاب قلب يجيى البرمكي . هذا ما ابتغى .



ويأبى الدهاء انتهاج مسلك آخر. فالعدول عن وصية الراحل، المعلنة، طعنة  
في صدر الدولة العباسية. بل قذيفة في ركنها لا تسلم بها من التدمير  
وقفل القوم الى بغداد يحملون من «ماسبذان» اوجع ذكرى. واقاموا  
يرصدون مجيء موسى الخليفة، وقد بايعته الامصار العربية جميعاً. والهادي  
ركب دواب البريد. وأطلّ بعد مسير عشرين يوماً على الزوراء، مرفوع  
الهامة، ممتلىء النفس اعتداداً. ولم يشأ الالتفات الى امه بعين شزراء. فهفا  
اليها، فور بلوغه بغداد، يقبل يدها، ويذرف دموعاً سخينة على ابيه،  
ويقول بجرقة: ستظل امي في مقامها السامق. فكأن المهدي لا يزال ملء  
العين والاذن. وهي من قبل، ومن بعد، طريقي الى النور. فلن تهمل  
لها طلبه، ولن يزدري مقال!

فاستفاض الخيزران في اذلال الدمع. وقبلت ابنها البكر في جبينه.  
ومتتمت بجرقة جنان، وخيبة امل: ابقى الله لي ولدي. فجعتني السماء بالعقل  
المدبر، والقلب المؤاسي، الا انها لم تحرمني جناحي. فما ازال قادرة على  
الخطو، حتى وعلى الطيران، باعتادك، يا موسى، واعتماد اخيك هارون!  
وصافح موسى اخاه الرشيد، وعانقه، واعلن: هذا اخي، معقد الرجاء  
فينا. فكن بجاني سيفاً مسنوناً، ولك الامر من بعدي في دولة العباسيين!  
وسجد بين يديه يحمى البرمكي يذيع خضوعه. فقال الهادي: لا تصدف  
عن الرشيد، يا يحيى. فانه ليجتاج الى خمير رأيك، وينبع اخلاصك. نحن  
في هذه الدولة يدٌ واحدة، وإن تعددت اصابعها. وسندفعا في طريقها  
المرسوم، وقد مهده لها جدي المنصور، وابي المهدي!

وخطب في المحتشدين في باحة القصر يقول: مات المهدي يتغمده الله

برضوانه ، وقام فيكم على اثره من ارتضيتموه خليفة وسيداً . وستختبرون  
من حذبه عليكم ، ومن حسن مداراته لكم ، ما توقعون به ان اليد الساقية  
العطاش ، المضمدة الكلوم ، لا تبرح تسوسكم . فالمنصور والمهدي اقدمما  
فيكم على نظامين مختلفان لوناً ، وان كانا يتشابهان جوهرأ . فالشدة البادية  
في المنصور ، تراخى عنها المهدي ، مع سعيه لاعلاء شأن دولة ترسو على  
عواتقنا تبعاتها . اما انا فساأجري فيكم على منوال لا هو الشدة على اقاصيها ،  
ولا اللين حتى اطرافه المائعة . فسالموا وانتم بنجوة من النخعة . كل ما على  
الوالي ان يقود الرعية بعدل وحزم !

فعلا الهتاف : عاش الهادي امير المؤمنين !

على ان القوم احسوا بالعنف في المنطق ، والدلّ في الوقفة . وما ندّ  
عنهم انهم حيال فتى في الرابعة والعشرين ، لم تحنكه التجارب ، ولا خففت  
من غظرفته السن . فما يبرح اعجز العود ، على لدونة إهابه . غير انهم  
أعجبوا منه بالصلابة ، مع نفورهم من الطغيان . فانهم ليطمثون الى الاعتزاز  
في السادة . وانصرفوا وهم يرددون فيما بينهم : في الهادي منعة المنصور  
وبطشه . فعلى اللاعبين بالنار ان يتئدوا . عهد الحلم انقشع ظله !

غير ان المهدي لم يكن دون ابيه بطشاً . الا انه قصّر عنه جلالاً ليقوقه  
كرماً . وهمست الخيزران في اذن البرمكي : ماذا يلوح لك ، يا ابا الفضل ؟  
فاجاب يحيى راضياً عما بدا له : لا ارى الا الخير ، يا أم موسى !  
قالت : ألا ينشب فينا محالبه ؟

— لا احسبه يفعل ، وحاجته الى رضانا ليست دون حاجتنا الى رضاه !  
فاطرت السيدة الاثيرة . فما الخليفة سوى ابنها . والابن في رفقها بها

اشبه بالزوج. فلن ينساب الى لبه العقوق. بيد انها تعرف من قسوة الهادي، ومياه الى الاستقلال بالرأي، ما يعني عن البيان. وهو ما تكره فيه. على انها مالت الى الظن بانه لن يؤلم فيها رهافة الحس، وما يخفى عليه انها أمه، وان الله دعا الى اكرام الوالدين. وودت لو كان هارون في مرتبة موسى. الا ان الاقدار جنحت عن النصرة. وعلى الخيزران ان تدعن للراهن الواقع. فالمناضلة وخيمة المغبة، كما قال يحيى البرمكي. ولكن أترضى الاتزواء في صرحها، كأنها في صومعة، من وهب لها الخليفة الراحل الدنيا وما فيها؟... ان حاشيتها لتقدر عليها اعانتها على امورها. فهل يجيبها الهادي الى كل ما تلمس من رجاوة ورفد؟

هي تقوى على استدراج موسى اليها، لولا لبابة وحسنة. اما وهناك الموسوستان، إمرأته والجارية المرموقة، فليس لها الى الاستظهار عليه سبيل. وباتت أم موسى تهاب الجارية حسنة، بعدما ازدرتها، في عهد المهدي، حيناً طويلاً. الا ان المهدي ركدت ربحه، وانطفأت روحه، وليس ما يمنع ان يقيم الهادي جارية ابيه في كتلة نساءه، فتميت ولبابة جحراً متعالى الفحيح، تنفت فيه لهاتان، طافحتان بالسّم، وشاياتهما بالخيزران. ورهبت السيدة الاثيرة الغد الطالع. وراعها ان يهي ساعدها، وتزلّ قدمها. فاستطلعت البرمكي بألم ناحب: أظن تلك الاثيرة في عهد موسى، كما كنت في عهد المهدي، يا ابا الفضل، فلا تُردّ لي كلمة، ولا يخيب سعي؟

فادرك البرمكي ما تترجح فيه من هول. وقال ينفي عنها الوهلة: لا اراه يجحد أمه. فاذا ما داريناه لقينا فيه الاليف الصفي! فغارت في سهومها. ان الضربة لقاصمة. ولكن على الخيزران ان

تتقي وقعها باللين والمداورة . فلا تبدو جافية ، مستنصرة ، كما ظهر منها في  
ايام ابي عبدالله . ويسحق روعها ألا تبقى تلك السيدة الاثيرة ، الملتوية في  
حضرتها الهامات !

واقبلت على الرشيد تضمه الى صدرها ، وتبكي وهي تججم : حرس الله  
مهجتك ، يا عين أمك . هذا حظنا من دنيانا . فلم يكتب لنا بلوغ الارب .  
فلا تمتعض ، ولا تغضب . لا بد ان ينجلي الافق ، ويصحو الجو !  
ولم تكن تدري كيف تنجاب الغمامة الربداء . فالهادي لا يبرح في  
الريث من العمر ، سليم البدن ، منيع العضل . فاذا ما رقت موته ، فكأنها  
ترقب ماء من صخر ، بل رفقاً من ذئب . وضحكت في نفسها من رؤيا  
المهدي . قضيبُ بورق اعلاه ، وقضيبُ بورق كله . وغمغت بلذعة في  
حوانها : اضغات احلام !

وما انفكت تشتهي ان يموت ابنها البكر . ولو اتفق لها الساعة ، مع  
كل ما تستمتع به من عطفه ، ان تلوي عوده ، لانزلت به الموت . فالبعض  
المستشري فيها ما فتىء يأكل من لحمها وخيلائها . وان تكن تحتل نزق  
موسى ، فما كانت لتطبيق دلال لبابة ، وغطوسة حسنة . وهو ما يستل منها  
الزفرات اللهاب

وكادت تتمزّع وهي تبصر حسنة متلفعة بالمسوح ، غائصة في الحداد على  
المهدي . وأفضت بسخين شجوها الى الرشيد وزبيدة ، قائلة بألم يستشيط  
غلاً وسخطاً : هل ابصرتما ما هو ادهى ؟ ... قتلته ولبست عليه الحداد .  
يا للختالة ! ... مات فيها الحياء والاباء . قضت عليه ، وبكته . هل من  
مكر اسفل ؟

وارتجت السيدة الاثيرة حنقاً . فقالت زبيدة ، ولم تكن دون الخيزران نعمة  
على حسنة : انها لتلعب بنا جميعاً . وسوف نلقاها تداور موسى ، كما داورت اياه .  
فتحتل لديه ما ادركت لدى ابي عبدالله من حظوة . وربما ... وربما ...  
فهتفت الخيزران بصوت أجش : وربما زحمت في مودته اختك لبابة .  
أليس هذا ما يروقك ان تعلمي ، يا ابنتي ؟

فابدت زبيدة : هو ما اوضحت امرأة عمي . ستلقى لبابة الضنى من كيد  
حسنة . والله ، لتنتزعتنّ منها الهادي بحيلة تضرب بها الامثال في القهر  
والمراوغة . غير ان لبابة هي الجانبية على نفسها . فلولاها لم تبلغ الحال ما  
بلغت من الشدة . وعلى من يدلل النمر ان يحتمل نهش انيابه ، وخذش  
مخالبه . انقذ الله أختي من الشر المهدد بالوبال !

وسكت الرشيد ، وكل ما يلوح له لا يرضيه . فلا أشر اخيه ، ولا نفار  
امه ، ينزلان منه منزلة التأييد ، وهو طالب مواءمة وموالاته . وساده  
اليقين ان يداً ائيمة بطشت بابيه ، وما مات المهدي عفواً . ولكنه لا يملك  
الدليل على المأثم والآثم . وممن يلتمس انزال العقاب بالجاني ، ان يكن ثمة  
من تعمد اختلاس الروح ، وقد يكون هذا الجاني ذلك المستأثر بالناصية ؟

لقد انساب الى عرف هارون ما تواضع عليه ، في البسطة العربية ، اهل  
الرأي والفتنة . حسنة اطعمت ابا عبد الله السم بوحى من الهادي . على ان  
الحجة ، على صحة التهمة ، بائدة الاثر . فاللغظ بالشائعة يزيد في اضرار  
الشحناء ، وفي الجمعية بلا نفع

وآثر هارون ان تطوى الاقاريل صوتاً لجلالة السلطان ، ولاحدوثه  
البيت العباسي المستوي في الذروة . وما حفل بنزوع حسنة الى اخيه الهادي ،

ولا بسعيها للمواربة . فكل ما نهد اليه ان يستقر الامر بنصابه ، وان تجري  
الدولة في طريق مأمون ، غير محفوف بالهلكة . ولم يقلقه ان يسمع من  
عيونه ان حسنة تغدو وتروح الى اخيه الخليفة ، لتبكي بعين ، وتضحك بعين .  
فتتلطف على المهدي ، وتغتنب بركوب الهادي سنام الملك . وتطلب انصافها  
برفعها الى مرتبة نساء الخليفة ، وهي من دفع موسى الى المقام الاسنى . فقد  
جاهدت حسنة ، في معتقد الرشيد . ولمن يجاهد الحق بالمكافأة . فاذا ما  
اجازها موسى ببعض ما يعادل صنيعها ، فما اتى امرأ إداً

على ان هذه الجائزة ستدوم بدوام الهادي . وبعدها سيكون للرشيد  
رأيه وحكمه ، اذا بقي في عداد الاحياء . وخطب من جاء يقص عليه اخبار  
حسنة بقول حازم ، خشن : دعوني من نتن الخنفساء فينفاقم به اشمئزازي  
من ابناء الدنيا . حسنة تبحث عن خيرها ، وعلينا ان نبحث عن خير البيت  
العباسي . فلتحاول ما تملك من وسع ، وسنحاسبها في زيغانها ، اذا وفقنا  
يوماً للمأربة !

واطلق لهذه الساعية للتقويض ، كي ترتقي على الانقاص والجماجم الى  
مطامعها ، يدها في الكيد والنميمة . فما جنح بها عن الاخلاص سوى غيرتها  
من أمه الخيزران . فلو توارت السيدة الاثيرة ، من الساحة ، لظل المهدي  
ينعم بالبقاء . الا ان إلحاح أم موسى في امتلاك كل وزن ، وحجب كل  
منافس ، قضى على ابي عبدالله . ولتنتد لبابة . والآلقي الهادي مصير ابيه ،  
وحسنة عين مفتوحة ، ويد مقوضة

على ان موسى ولبابة لم يتجهما حسنة ، بل جاوزا في اكرامها الامد .  
فما بدت للهادي في مسوحها ، تخرّ ساجدة بين يديه ، وتقبل الارض ، وكان

قد بلغ بغداد ، وخطب في مبايعيه خطبته الصادقة ، حتى هتف بها : تعالي  
اليّ في العتمة ، يا حسنة !

وشفت لهجته عن العطف والرضى . واطاعت الجارية المرموقة . فحبت  
اليه فيما تغور بغداد في الظلمة . وما استأذنت عليه حتى كان ينهض اليها ،  
فيقبض على ذراعها الرافعة ، ويقول بجزيل البشر : دام لك الانس ،  
يا حسنة . امانتك لي درأت عن نفسي الوحشة . وانقذتني من تلطبخ يديّ  
بدمه ، وهو ابي . شكراً لاريجيتك المثلي !

وامال بها عليه يحتم بشفتيه مبسمها . فامعنت في الالتصاق به . وتنهدت  
عن فيض اشواق . وتمتمت بجنين ظامئ الى نقع الغلة : مولاي ، ما اهنأها  
من ساعة !

رابت ان يلتوي عنها الا وقد اسمعها انها اوضحت من نسائه ، بمقام  
لبابة نفسها ، او تلو لبابة . وما ابطأ في الابانة ، وليس يجهل ما وعد به .  
قال ، وهو يشدّ حسنة اليه حتى يكاد يهصرها ، لفرط اكباره محاسنها :  
ستكونين من نسائي اقراراً بجميل سعيك . فانت في حريمي بعد سيدة  
أنسي ، ومجلى بلاطي ، لبابة !

ولم تكن تطمع في ما يسمو هذه المكنانة . لبابة في الطليعة ، وهي في  
اثر ابنة الاكرمين . فلن يسعفها جناحها في الطيران الى ما يجاوز هذا  
المدى . قالت وعيناها تبتلان بذوب الابتهاج الثريّ : شكراً للسماء ،  
وقد التفت اليّ امير المؤمنين !

ووهبت لقبلاته جيدها وصدورها . وشاقتها فيه الفتوة المخصاب ، والجلالة  
السامقة ، فتراخت بين يديه عطية خالصة . هي عبدة من عبدانه في ميولها

واحاسيسها ، وستجري في خطوه مستميتة في رضاه . فلم يذهب مجهودها  
ضباعاً ، وقد جازفت لاجل الهادي بحياتها ، فيما تسقي اياه نقيع السم  
وتقننت في نفحه بالم لذات الكامنة في دمها الفوار . فكانت بجانبه اشبه  
بها في حزن ابيه ، وقد رنحتها ساعة الاستسلام . فهتف الهادي بجذل ريان :  
ان فيك لنواضر ابكراً ، يا حسنة ، لا اراني وقعت على نظائرها . كان ابي  
سعيداً بقربك ، وانت تسرفين في هذه العطايا السماح !

فتذكرت كلمات ابيه . بمثل هذا المقال المانع الدفء كان يخاطبها  
ابو عبدالله ، وهي تسخو عليه بكل ما يختلج فيها من شهوات لواعج .  
وايقنت انها قبضت على زمامه . فما من خيزران اخرى تصدف به عنها  
قد يؤلم لبابة ان تتصدى لها من تنافسها في مودة الهادي ، غير ان حسنة  
ستبدل ، من نفسها ، ما يميل لبلاية الى وثيق الايمان بانها السيدة الاولى في  
نهاية امير المؤمنين وحرمه . فلن تجد فيها ذات استطالة على الحق المصون .  
قالت حسنة تعالن الحليفة المطمئن فيها الى نوافج الطيب : كل ما تنبض  
به عروقي من شعور تتأجج به روحي ، وانا انعم بعطف امير المؤمنين .  
هذه المنّة المخلوعة عليّ تجنح بي ، الى اليقين ، أي اسعد الناس !

وألقت رأسها الى كتفه ، متمتمة بمتوهج الفرح : نلت من زمني ما  
اشتهي ، يا مولاي ، وانت تعلقو بي الى حيث يحتجب عن عيني زينة القوم ،  
ولا يبدو حتى الاقبال . ولكنني اربأ بنفسي ان اكون عقبه في طريق لبابة .  
فاني من زوجتك المجلوة لصديقة ، لا يقلقل طمأح ولاءها ، ولا زحام .  
فهي في البدء ، ونحن في الاثر . واذا قضت عليّ بان اتوارى عن حنانك ، فاني  
لانزع ، مكتفية بما اسبغت عليّ من عطاء ، ما حسبني ابلغه في يقظة .



فان صداقتي للبابة تفرض عليّ ما تستطيب السيدة الاولى من تضحية !  
فقال باسمًا ، وقد راعه ما تحفّق به نفس حسنة من عذوبة وفداء :  
لبابة تلقى فيك اختاً صادقة المبرّّة ، يا حسنة . فلا يخطر لها حيالك انها  
ازاء ضرّة ، تسومها القهر ، وتثير فيها الغيرة . وخيرٌ لها ان اجنح اليك ،  
من ان أهيّم بمن لا تطيق لها ظلًا . فلا اراكا تتناهشان ، وقد امسيتا معاً  
في مقدمة نساء الخليفة !

قالت حسنة بمديد الاستكانة : بروحي لبابة ، ولست ارضى ان اعكّر  
عليها صفو الماء !

فعاد يضمها بعنف ، وهو يجاهرها برفق وبشاشة: اذا طاب لك ان تقفي  
علي رأي لبابة فيك ، فاني لاصارحك بما كان بيني وبينها في حديث عارض  
عنك . قالت : « حذار ان تغفل عن حسنة ، يا موسى ، وهي تذيب لاجلنا  
النفس والمقام . فالخيزران تفلوها ، وتريد لها الموت . وهي تناوى الخيزران ،  
وقد سبقتها في عطف ابيك . فاذا ما ظفرت بما ترجو من سيطرة ، وركبت  
مقعد الخلافة ، فلا تنس الباذلة المتلاف . فلتكن من نسائك ، لا من  
جواريك . ومن الفرحة لي ان اجدها على كשב مني ، وقد بنتا على هوى  
ودين ! » . ومن تبثني هذه النجوى ، فليس يؤلمها ان ارقى بك اليّ .  
يبهج قلبي ان تقيمي لبابة على وحدة في الميول . ستقبل وشيكاً من جرجان ،  
وتهنثني بك ، وتهنك بالتمهيد لنا الى هذا الموئل المنيف !

ولبابة ما زالت في جرجان . ولما بدت في بغداد ، وألّت بما كان من  
الهادي في حسنة ، طفرت الى جارية الامس ، واحدى سيدات اليوم ،  
تعانقها ، وتدفع فيها ببشر فيّاح : هذا قليل فيك ، يا حسنة ، وما اديت

الينا من خير جلا عنا الظلمة . ان البلاط ليزدان بمثلك ، وانت فينا على  
نضيد روعة ، و باهر و فاء . وليس من العجيب ان تصبح الجارية المرموقة  
سيدة مرموقة . فكل جائزة اجراها عليك امير المؤمنين دون ما وجب لك  
عليه . فما انصفك الا وقد ضمك الى حظيرة نساءه . فمنحك حقك من  
الاکرام !

وعادتا تتعانقان . و قهقهتا معاً ، قهقهة الشمانة ، واسم الخيزران يعرض  
لهما في الحديث . قالت حسنة ، وقد اشفت من السيدة الاثيرة بازالتها عن  
مكانتها الشاهقة : لا احسبها تنفض منها ما انتابها من خمول . فالذروة  
تصدعت بها ، فهبطت الى الخضيب . انها لنهاية كل متعطرس حقود . تاهت  
علينا ، في عهد عمك المهدي ، حتى امسينا حياها نكرات ، بل حشرات .  
فهدمت كل ما بنينا ، وعبثت بكل ما ابرمنا من عهود ، كأنها من سوافي  
الاعاصير . وملّ المهدي سعائياتها وغرائبها ، الا انه كان يجد نفسه حياها  
مكرهاً على الامثال ، كأن لها عليه السلطان القهار . فتقوده في خدمة  
مقاصدها طائماً ، حسيراً ، وقد تلاشت فيه كل عزيمة على المغالبة والنكوص .  
بيد ان زمن الامس التوى ركنه ، وانكسفت شمسه ، واضحى زمام الامر  
بايدينا . فماذا تستطيع المرخوضة الذرع ؟

فقال لبابة بفضفاض الانس : ظلت ترتع في لحوم الناس ، وتذكّر  
منعاتهم ، حتى رتع النكد في لحمها ، وأذلّ ناصيتها . على ان الخير في محوها .  
والا ان هي بقيت تنفّس وتعيش ، فليس ما يحول دون خطبها مودة ابنها .  
وبوسعها اذ ذاك ان تنفوّق ، وتستعيد مقامها الاثيل ، وهي تزخر بدهاء  
نقصر عن حجب صولته ، والحؤول دون منشوده . فالحكمة تدعو الى

الابادة، لا الى الاكتفاء بقطع ذنب الافعى. فاذا ما ارتمت عند قدمي ولدها،  
مستجيبة لهفي، تناسى الهادي حقه عليها، وابع لها الازدلاف اليه، فترتقي  
على رغمتنا الى قمة انحدرت عنها. فحذار، حذار، يا حسنة!

فاتسع امام حسنة أفق كان مغلقاً عليها. فما يمنع الخيزران ان تستعيد  
مكائنها، وتغزو موسى، وهو قطعة من كبدها، كما غزت محمداً زوجها?...  
فان يكن الهادي ذلك الناقم الجبّير، فما خلاصميره من سلامة طوية ابيه.  
فيغفو عن المسيء اليه، وقد استرفده السماح. ولا بد لحسنة، وهي تروم  
العيش الزلال، من ان تقطع على الخيزران كل طريق الى الهادي، والا هان  
على أم موسى التوغل الى حيث يتراءى لخصومها انها تنوء بالعياء. فاذا ما  
فجعها موت المهدي بتحطيم رجلها، وقصّ جناحها، فلن يطول الامد على  
نمو الريش، واندمال الجراح. والتفتت حسنة، الى لبابة، تقول بغیظ وثاب:  
اجل، علينا بسدّ كل منفذ لها الى موسى. والتمكنت من استهوائه، وقد  
تغذى بلحمها ودمها ولبانها. فالامومة تغري، يا لبابة. صدقت، يا ابنة  
جعفر، لا محيد عن سحق الرأس، بعد قطع الذنب، والا تولانا الحسف،  
وشقينا حيث ينجم لنا اننا بامان. فما عرفت مكرّاً تنطوي عليه حنايا  
خبيثة كحنايا الخيزران. ولقد لاح لي، يا اخي...

وسددت الى لبابة عينين معتكرتين، تسودهما الوهلة. فقلقت لبابة  
واستوضحت جازعة: ماذا لاح لك؟ ... ألا اوضعي!

— لاح لي ان ما تخشين اطلت بوادره. فلنكن على يقظة. موسى هفا الى  
امه، فور رجعت الى بغداد، يعزبها بابيه، ويعدها باستبقاً في حظوتها.  
فانحنى يقبل يدها، وينفي هواجسها. لن يسيء اليها، وهو في عنفوان

مجده ، كما اساءت اليه في ريعان عزها . بل يهب لها ، من القدرة والحول ،  
ما كانت تيمس فيه في سطوع عهد ابيه . وهي كلمات انعشت من روح  
عبدة النار . فاستشقت منها الخيزران رسوخ السعد في طاعتها . واستعاد  
بها يحيى البرمكي الروح ، والهادي كلفه المضي في تأديب الرشيد . ان شيعة  
فارس لمستمرة في مناواتنا ، ونحن سادة هذا العهد ، يا لبابة . فهل ترضين  
عن خذلاننا ، حتى ونحن نرفع الراية بايدينا ؟

فارتاعت لبابة ، واستفهمت بلجاجة : هل اقبل الهادي على امه يلثم يدها ؟  
— هذا ما كان منه ، يا ابنة الخير . فما وطىء ارض الزوراء ، حتى  
وثب نواً الى صرح اساس ، يعزي ويفيض بالمواثيق ، كأنه يجهل من  
هي الخيزران !

فهمت لبابة ، وهي تنتفض ألماً ، وقد وقع ما تحاذر شره : ما خيل  
اليّ انه يقدم على هذه الهفوة . اما وقد فعل ، فزاد في ضرورة احتراسنا  
من حبال الفارسية الغدور . لا ندحة عن ابادتها كي نجيا . وليس للسم  
المودي بابي عبدالله ان يعف عنها !

فما ابطأت حسنة في الموافقة . قالت : هو ما اعلنت ، يا لبابة . جنت  
على المهدي باحتكامها عليه ، وستجني على نفسها ، إن يحدثها طماحها النازي  
ابداً ، بالاحتكام على موسى . فالموت واقف لها بالمرصاد . وجلّ ما علينا ،  
قبل افنائها ، ان ندعو امير المؤمنين الى التحرّز منها !

وتوابت فيهما الكره شديد الغليان . أتستعيد الخيزران مرتبتها ، وتستهيبن  
بمناوئها ، حتى وهم يتقلبون في مهود النعمة ؟ ... انها لنكبة لم تنبض في  
ظن . قالت حسنة : لنندفع الى امير المؤمنين ولنطلعه على الملمة المتحفزة

للانقضاض . فما اراد يرضى عن سيادة عصابة الشر . والا ظلت الفخاخ  
الفارسية منصوبة ، في وسعة الدولة العربية ، للاقتناص والاعتبال !  
واندلعتا الى امير المؤمنين لسانين مسنونين ، يطعنان وينحران .  
فاخيذران ، الفارسية المنتمى ، تحاول ويجيبى البرمكي ، الفارسي الجذع ،  
اطاحة الدولة العربية . فالوشاية المستفيضة في حسنة ، على مسمع من المهدي ،  
ستتردد في وعي الهادي . الا ان السيدة المرموقة - وقد خلعت عنها لقب  
الجارية - نسبت انها تواطأت ، والهادي نفسه ، على نفث الاشاعة في اذن  
ابي عبدالله . فهل تفلح في اقناع من حبك ، واياها ، دسيسة الامس ، بانها  
على صدق في اذاعة نيمة اليوم ؟  
ابداً شبح الخيزران . فكم تملأ الخيزران في فسحة العرب من مدى .  
وكم يخلع الاكباد مرآها الرهيب ، المهيب . فكأنها من دنيا العباسيين اصغراها ،  
خافق القلب ، وحديد اللسان !

يحيى بن برمك على مستطيل بسمة . هوى المهدي وما تزلزلت الارض .  
 فالعز المبسوط الرواق ، لا يبرح ركين الدعامة . فما خشيت الخيزران ،  
 من الهادي ، بددته حرمة الامومة . فالسيدة الاثيرة لا تزال تلك السيدة  
 الاثيرة ، وقد حباها موسى السلطة والجلال  
 وشاق البرمكي نجح تدبيره . فما كان على ضلال وهو ينادي بالتريث ،  
 وبانالة الهادي حقه الصراح . فالشر لم يعصف بالخيزران ، ولا بالرشيد ،  
 وهما يجريان في مشورة يحيى الصدوق . فالهادي ، وقد تسنم السدة ، لم  
 يتنكر لامه . وما هي ذي الايام تواتي الخيزران ، كأنها لم تنسلخ من عصمة  
 ابي عبدالله . قال البرمكي ، وهو يبدو في حضرتها منبسطة الاسارير ، قريير  
 العين : ماذا بدا لذات السنن في اقرارني على ما ارتأيت ؟ ... ألم يكن  
 موقف السعي يحيى البرمكي فيما ينادي بالتؤدة ؟ ... لا نبرح في مستقرنا  
 من السؤدد ، يا مولاتي ، والهادي يهب لنا حرية المهزة . فكأن البلاط لا  
 يزال مثوانا ، وانف لبابة راغم ، ونفس حسنة خانعة ، رمداء . حاول  
 الكاشحون اقضاءنا عن مرتبة النعمة ، فباؤوا بالحبيبة . وانهم ليجرضون كيدهم ،  
 ويكتوون بالحسرة ، وقد افلت منهم التفوق . لا عليك ، يا ذات الجلال ،  
 لن يغفل الله عن متيقبه !

وما خفي عليه انه يتأدى في الافك والزور . فاين اتقى الله في دفع  
 المهدي الى حرمان ابنه موسى حقه بولاية العهد ؟ ... ولكنها كلمات  
 تلقى جزافاً . وليس يحيى باول من استقاد البطل الى مبيع الحق . قالت

السيدة الاثيرة ، وقد غشيتها وفرُّ من طرب : لا احسب من انعمتُ به  
على المكارم يزدريني ، يا يحيى . فالهادي لم يمت فيه الحفظ . وهل يكون  
الابو عمًا نما في احشائي ، وخلعته على الوجود ؟ ... يخطيء شديدًا من يعتقد  
ان الابن يشيخ عن امه ، وهو يجد فيها من الحنان ما لا يلمس في ابيه ،  
ويسخو عليها بعطف لا يستمتع به منه ابوه . فالام تستدر بضعفها ، وحنوِّها ،  
رفق ابنتها بها . فيحس ابدًا بانها تحتاج اليه في مغالبة طمحات القدر . بوسعك ان  
تنشر ، منذ الساعة ، على اصدقائنا ، اننا لا نبرح راسخين في أحرارنا . فما  
نفر عنا الدهر كي ينفر بنوه . صرح اساس ما ينفك في اشراق الامس .  
فاذا مات المهدي ، فلم تمت الخيزران !

وتاهت في نشوة الاعتزاز . قال يحيى : لا ، لم يخن الحظ ، يا مولاتي .  
ويضحكني من خصومنا ان يمضوا في كيدهم لنا ، مع كلال مخابثهم عنا .  
فقد حملت اليّ الجارية ، أمة العزيز ، وهي عينٌ لنا على الهادي في صدر  
مأواه ، كما تعلمين ، نبأ استهنت به اكثر مما جزعت له . فروت لي ان موسى  
اعتق الجارية حسنة ، وتزوجها في ليلة ليلاء ، دون ان يفشو في الناس الخبر .  
فكانه نهج نهج المهدي حيالك . وما كان يجمل به ان يتزوجها ، فور موت  
ابيه ، وقد كانت لابي عبدالله . فهل للولد ان يهتك ستر من نجله ؟

ومال يحيى الى معرفة ما يكون للنبي ، من اثر ، في نفس الخيزران .  
أترضى عنه السيدة الاثيرة ، ام تجلجل بنزق ورعدة ؟ ... وأم موسى ما  
كادت تأذن برواية البرمكي ، حتى شعرت بان جوانحها تزيع من اماكنها ،  
وبان قلبها وهى بنياطه ، وكاد يجمد فيه الحفقان . وصاحت من نفس تجيش ،  
وقد نتأت عينها ، ونضض فيهما الهول : هل تزوج موسى الجارية حسنة ،

يا ابا الفضل ؟ ... ماذا ، ماذا تنفث في وعيي ، يا يحيى ؟

فاجاب ببرودة المستهين : مائة غير الظاهر الملموس . تزوجها ، يا ذات

الجلالة !

فاختببت ، كأن كل جارحة فيها على جيشان . هل تزوج الهادي حسنة ؟ ... اذن لم يبق ريبٌ بكونها قتلت المهدي . فلم يكذب من رماها بالظنة . بطشت بابي عبدالله حين بدا لها منه انه لن يجارها في قهر الخيزران ، ولا يعادها بها . والهادي دفعها الى هذه الفتكة ، بتدبير لبابة . على ان حسنة ابت اخترام الروح ، الا وقد قطع لها موسى على نفسه عهداً بان يتزوجها . وما أعلن العهد ، حتى كان ابو عبدالله ضجيع التراب . وهو ما اعيد سرده ، في صرح اساس ، واستعيد . غير ان الخيزران لم تؤمن به الايمان العريض ، الا ويحيى البرمكي يجاهرها بان الهادي ضمّ الى نسائه الجارية المرموقة ، بعدما اعتقها وتزوجها حرّة . وعاد فانخلع بال الخيزران ، وكان قد اوثقه الهادي بمتين الرباط ، وسكب عليه غمراً من بلسم . فان تكن حسنة اذحت من نساء البلاط ، فاي امل سينضو عنه الغلاف ، واي مطمع سينبلج له فجر ؟ ... لا ، لم يخفف موسى عن أمه . قالت السيدة الاثيرة : لكن المهدي نشر وطوي ، يا يحيى . هاتيك المنى الشوارد ما كادت تستقر بسط مقتول ، حتى عدا عليها الانتثار . لا أبا للدهر ، وهو المماذق . كل ما أفاء به علينا ، استرده منا . يرفعنا ليهوي بنا . فكأنه الطين اللزج ، وليس لقدم ان تهدأ منه في صوب . حيرني زمني ، يا ابا الفضل ، وليس لخطوة فيه ان تجري على غرار الاخرى . أيقطعنا الرجاء ؟

فقال يحيى بطول أناة : ليس لذي يأس نهضة ، يا ذات الجلالة . اذا



حاربنا الزمن، فلن نبسح له نواصينا، بل سنطاوله بسلاح امضى. فان تكن  
حسنة ارتقت الى حظوة. نساء الهادي، فما تبرح مولاتي صاحبة المقام الاسمى،  
وهي أم الهادي نفسه. ولا ارى الخليفة يشيخ عن أمه، وقد رسخت في  
نهيته تعاليم السماء. الله نفسه يوصي باكرام الوالدين، يا أم موسى!

فهزت برأسها جزعاً. وقالت بنبرة ذليلة، لهفى: ولكن لا اكرام  
للخيزران حيث تكون لبابة وحسنة، يا ابن برمك. لقد دل موسى، باقتوانه  
بجارية ابيه، على انه ذلك الحافظ بيديه الاثنتين روح المهدي. وهل  
ترقب، بمن قتل اباه، ان يكرم امه؟ ... لا تزال بعيداً عن سبر غور  
النفوس، ايها البرمكي. تداعى مجدنا، وتنت دنيانا، ولم يبق علينا الا  
ان نقعد الزاوية. وهذا منتهى الويلات!

ودهم اكتاب متلاف السيدة الاثيرة. وتعب يحيى بن خالد البرمكي  
في ان يرد اليها الروح، فاعياه الجهد. فلم تكن الخيزران تتأسك، على  
صلاية شكيمتها. بلوغ حسنة، جلالة نساء الخليفة، رض مهجة الفارسية،  
المشيدة في دولة العباسيين بلاط الاكاسرة. وهفا اليها الرشيد وزبيدة  
يغالبان في المؤاساة، وفي ازالة الكربة. فما شفت الخيزران من كلومها.  
قال الرشيد: ولكنني ابذل الوسع والروح في رضى امي!

فضمته اليها، وهي ما تزال ماضية في اسائها. وقالت بالتبايع: ابى القدر  
ان يكتب لنا النجح، يا هارون. أترى اين صرنا من الزراية باقدارنا؟ ...  
اضحى عبيدنا سادتنا!

ونسيت انها من طينة حسنة، وان الزمن الوهّاب نشلها معاً من  
جوف العدم. قال الرشيد يضمّد الكبد المقروحة: ليس من دأب الايام

ان تثبت على حال ، يا اماه . فكما والتنا ، ستناى عنا في موالة سوانا .  
وجلّ ما علينا ان نقهرها بالصبر . فليس ما يذل القدر الجائر ، كالصبر على  
مكارهه . فمن ضاق به الجلد ، اكنسحه الشؤم !

قالت الخيزران ، وهي تنهد: انها لنصائح من ذهب ، يا ولدي . ولكن  
اي صبر ينتقني من كيد لبابة ، ابنة عمك ، وحسنة الجارية الوضيعة ، الطافرة  
الى مستوانا ؟ ... فهل تنامى عنك ان اخاك تزوجها ، واضحت في بلاطه  
من ذوات الرفعة ؟ ... امست بمقامنا هذه المجهولة الاصل ، الدنيئة الروح !  
فلم يدعش هارون . حسنة بذلت كل سعي لبلوغ القمة . وستلقى فيها  
الخيزران عدوة جاثمة . الا انه المقدور ، ولا مفرّ من حكم القضاء . وعلى  
السيدة الاثيرة ان تعالج الموقف بما تفرض عليها الحكمة من ليان . فتألى  
الهادي بلطافة من يحس بانه مغبون ، مدحور ، الا ان حسن السياسة يأبى  
عليه الظهور بمظهر الكافي . وتكلم الرشيد فدل بيانه على رشد . لا ندحة  
عن مسايرة المكتوب ، واغتنام النهزة حين يبدو لها ظل . قال : علينا  
بالانحاء للمشيئة الطاغية ، يا أمي . ومهما بلغت القسوة من الهادي ، فلن  
يخزيك . على ان تراعي فيه الوسع . فلا تغالي في المطلب ، ولا تعاندي .  
ولن يتفق للزوجة ان تتفوق على الام البصيرة . حسنة ادركت الشهوة  
في مقابل الضربة الغدور . فما تزوجها الهادي عن كلف بها . والمرأة غير  
المسكة بلب زوجها ، لا كلمة مسموعة لها عنده . فلا ترقبي اذاً من حسنة  
ان ترجحك في خاطر موسى . سيتبرم بها بعد ضؤولة من الزمن ، ولا سيما  
حين يذكر انها قاتلة ابيه ، وحين يتجلى له في هيكلها شبح الجريمة . فينفر  
منها ويقصمها عنه . ولبابة لن تكره امرأة عمها حتى تقتل فيها كل عزة ،

وكل كرامة . فلا بد ان تجول في جبينها نضاضة من حياء . فسيري الى  
ابنك كلما هزتك اليه الحاجة ، وصارحيه بشؤونك ، وانا الكفيل بانه لن  
يحتاج عنك فراواً من التلمية !

وسمع البرمكي فاستجزل الرأي . على الخيزران ان تصانع الزمن ،  
وقد مال عنها . فالمصانعة تستهويه . واستفاقت الخيزران من حديثها ، وبأسها ،  
وهي تصغي الى هارون . هذا الفتى اللدن يجيد النصح ، كأنه اختمر قبل  
الايوان بالحكمة . ورأت ان تحاول السيدة الاثيرة . فلا خسران في مداراة  
الحبل لثلا ينقطع ، ولها بشعرة معاوية خير عبرة . عدا ان موسى لم يقطعها ،  
بل ابدى لها من الملاينة ما لم تكن ترقب منه

واستعانت بدعائها ، فلوت من عنجهيتها . لا هوان في اخفاء الاظفار .  
ومشت الى القصر في موكبها الفخم ، الجرّار ، وفي مقدمته يسير الف من  
العبدان ، وفي مؤخرته المئات من الجوارى ، تهنى امير المؤمنين بما يرفل  
فيه من نعمى ومجد . وقالت بغداد ، على بكرة ابيها ، والخيزران تزحف  
بهذا الجيش الى الخليفة : ما تقهرت الفارسية عن قمة السعد ، مع عصف  
الانواء بها . ولم تزل في مناعة النسور !

وملأ الموكب ساحة البلاط . ورأت لبابة وحسنة ، فامتعضتا حنقاً ،  
وكوت الغيرة الحمراء اضالعهما . قالت حسنة ، وهي تزوي ما بين عينها :  
أتبصرين الوقحة ، يا لبابة ؟ ... ما تزال تترجح في دلالها ، كأنها لم تصب  
بمقتل . انها لتغزو القصر ناهية ، آمرة . ألا خسئت . لتذوقن الشكال إن  
تكن تعتقد ان الحظ لا يبرح خادمها !

فاعلنت لبابة : ولكننا ملأنا سمع امير المؤمنين بما يخذلها . وسوف

ترين اي لقاء جافّ يعدّ لها . سنأى عنه وهي تقسم بالله ، وبملائكته ، على  
انها لن تعود الى موسى !

وبدا في محيا حسنة الشحوب . لا تبرح الخيزران على جلالتها الوارفة .  
فكان المهدي لا ينفك يتوهج ، في الدنيا ، عزة وخيراً . والسيدة الاثيرة  
دخلت القصر كالفاتحين . وما استطاع الخليفة ، ابنها ، الا ان يوفد للترحيب  
بمقدمها وزيره الربيع . وهو نفسه مشى الى باب الايوان ينحني للسيدة الاثيرة ،  
ويصافحها بمتناهي الايناس ، ويقبل يدها

وقبلته الخيزران في جبينه . فقبض على معصمها ، وسار بها الى صدر  
المجلس ، يفسح لها بجانبه ، قائلاً : مرحباً بام المؤمنين !

فشاققتها الحفاوة المستفيضة التبجيل . ووضح لها ان ابنها الرشيد ، ويحيى  
البرمكي ، كانا على صواب فيما يدعوانها الى الاعتصام بالامل . فما ذوت  
كل علالة من رجاء . وعرفت نداوة المسرة طريقها الى مبسم الخيزران .  
فتألق البشر في محيا السيدة الاثيرة ، كأنها لا تبرح ثاوية بمهجة ابي عبدالله .  
وتراءى لها ان لبابة وحسنة كليتان عنها . فلن تظفرا بها ، مع اشراق زمنهما ،  
وقد اقرّها ابنها منه مقر التجلة والاستعلاء . قالت : يسرّني ، يا ابني ،  
ان تحرص على دولة زاهرة تعب ابوك في البناء لها ، ضنيناً بفغوايتها . فكن  
فيها المشيد ، الساعي لزيادة المداميك ، لا المقوّض الميسد . لم تهرم دولة بني  
العباس ، وانت تتولى مقاليدها . فانفجها بما يغلي في عروقك من دم الشباب ،  
وارفع لها هيكلًا تنطح به عين الشمس ، وتقتعدها . اننا لنعاهدك على  
العون . فسرّ في الطليعة ، ونحن نبذل لك الارواح ، عن سماح . يفرح  
قلبي ان اسمع المعجبين بالمهدي يقولون في الهادي : هذا ابن ابيه !

فانبسط اساريه طرباً ، وابان متحمساً : ما دامت أمي تهب لي  
النصرة ، فلست بمن يهرب التبعة ، مع كل ما يلوح لي فيها من باهظ العباء .  
لا يبرح الهادي نسمة من انفاسك ، ايتها السيدة الاثيرة . فزوديه نصحك  
التمين ، واسدي اليه المعروف . فلا ينفك يحتاج الى ساعد غلاب كساعدك  
فيتكئ عليه !

فملاً قلبها اطمئناناً ، وقالت بنبرة من عتب : أترتاب باخلاص أمك؟ ...  
ولكنها تستميت في الحذب عليك . اندفع الى المعالي ، وكلنا جنودك . ففي  
رفعتك رفعتنا . فلا تفرغ الاجنحة وتصفق ، إلا حيث يرى الرأس  
ان يطير !

فهتف بجمام فيه : سلمت أمي . ان دولة لا تهتدي بهدي الخيزران ،  
لاشبه بالسفينة التائهة ، وليس من ربان يديرها . سنحصر ابداً على رضى  
سيدة هذه البسطة ، العامرة الرأي ، السليمة الروح !  
وطالت المجاملات ، ولبابة وحسنة تسمعان من وراء ستار ، وتكادان  
تنشقان نقمة وهولاً . اين ما نفتنا ، في روعه ، من تحريض على أمه الساعية  
لتقويض الدولة العربية ، واعادة مجد الاكاسرة ؟ ... أما دخلنا عليه  
مولولتين ، تنعيان على العرب سوؤدهم ، وتندرانهم بالاستعباد ، ما دام للألاء  
الخيزران في بزوغ ، فاوهمهما انه يؤمن بمكايد أمه ، وانه سيحطم رجليها  
فلا تمشي ، ويستلّ لسانها فلا تتكلم ، ويفقأ عينيها فلا ترى ، ويقضي  
فيها القضاء الماحي على الختل والروغان ؟

على انه ما كاد يبصر هذه الام ، حتى تناسى ما هدد به من ويل ، ورحب  
بالزائرة ترحيب المشتاق ، المتهالك على التفاف الشمل . فصرفت حسنة باسنانها ،

ونبرت وهي تشوى على الضيم : هذا هو المهدي بعينه . فلا نبرح نغاني  
مبعة ذلك . كادت تنهار دعائم السماء وهو يتوعد ، وما اطلت المغضوب  
عليها حتى امسى العباب المعتكر زلال الماء . فماذا يكمن في هذه المرأة من  
سر قهار ، يا لبابة ؟ ... ما نوثك ان تنسفها ، حتى تضرب في كبد البقاء  
وتدأ . نرميها بالفرية تلو الفرية ، بما لا يثبت على هوله حي ، فتذلل مكايدينا  
بنظرة خاطفة . ما ان تبدو ، حتى يضمحل كل ما تعبنا في نصبه من احابيل .  
كنا نحس ، في ايام ابي عبدالله ، بانها باتت محمولة على نعش . غير انها لا  
تنشب ان تستفيق ، وتمزق الكفن ، وتبدو كاصح عباد الله بدناً وروحاً .  
وخيل لنا ان الحال ستبدل في عهد الهادي الكاره لها ، الراغب في افنائها .  
الا انها ، ما نعشت في عينه ، حتى تناسى ما حشونا به ذهنه من اقاويل  
تعرضها للذبح . ان لها من سلطانها ما يفرض على النفوس اجلالها ، ونسيان  
مخازيها . فما العمل للنجاة من ظلها المقيت ، يا اختاه ؟

فتذكرت لبابة حقّ السم المملوء في جرجان ، والمهروق في ماسبذان .  
فما عليها وهي تفعمه في قصر السلام ، وتسكبه في صرح اساس ؟ ... هذا  
خاطرٌ جال في نفس لبابة ، فاذا عته في سمع حسنة . وانها لتعود اليه الساعة ،  
داعية الى الاعتماد عليه في اتقاء ويلات الخيزران . فجمجمت ، ولكن بجنق :  
وهل لنا ان نداويها بسوى ما يخرس نامتها ، يا حسنة ؟ ... الدواء عندي ،  
وليس يضيرنا ان نعالجها به . فليست خيراً من المهدي ، كي يموت ، وتسلم .  
ولا هي افضل منا ، كي تتهادى على المقعد الوثير ، وتتململ على الشوك . ما  
فتئت تسقيننا المرّ دهاقاً ، وكيفما ادرنا اعيننا ، وخزتها بسمار . فهل لنا ،  
وقد بلغنا الذروة ، ان نظل من الانكاد ، فنحبو على مضض يبيض فينا دعة

الاطمئنان ؟ ... اقتليها ، يا حسنة ، ودما في عنقي !

فابانت حسنة ، وهي ترتعش حقدآ : لن اتهاون في تسديد الضربة ،  
يا لبابة . إن يم المهدي ، فليس ما يجيز بقاء الخيزران . دهاؤها الاشأم  
دفعه الى الموت . وعليها ، وقد عبثت بمهجته ، حتى اذاقته حتفه ، ان تلقى  
حظه من المحق . لي ، في صرح اساس ، من لا يججم عن صب السم في الدم .  
هذه المتأثرة خطونا ، تأتي علينا ان ننعم لحظة بصفاء الرغد . كتبنا  
عليها الموت !

وأحستا ، وهما تبصران الخيزران في فحفختها ، وفخامة موكبها ،  
بالشعار المسنونة تحزّ في حرانيتها . وتجهمتا لفرط الكسوف . اية سيدة ،  
من ربات السلطان ، تدرج في مثل هذا البذخ الجيتاش ؟ ... فكأنها وحدها  
البسطة العربية . وما نات عن القصر ، محفوفة بالبشاشات ، غارقة في مهود  
العز ، حتى انقضت لبابة وحسنة على الهادي ، ترعقان بمستطير الغيرة :  
أهذا ما عاهدتنا عليه من كسر شوكتها ، وتقليم اظفارها ؟ ... ولكنك  
تخاذلت حيالها حتى لم يكن يبدو منك انك امير المؤمنين ، سيد البدو  
والحضر ، قاهر الملوك ، ومفتتح البلدان . بل لاح منك انك من الحاشية .  
فاين استعلاء موسى بن محمد المهدي ، ابن جلا وطلاع الشايا ؟ ... أتکید  
لك وتكرمها ، وترفعها عنك وهي تبغي محققك ، وتلتمس عونها ورضاها ،  
ولن تكون عليك الا صاعقة وبركاناً ؟ ... أترجو ان تنصرك في تدبير  
الملك ، وهي الساعة لخلعك ؟ ... انك لتروعنا بهوانك ازاءها . فهل  
نسيت من انت ، ونسيت من هي ، وقد تهالكت على الغدر بك ؟ ... كنا  
نعتب على ابيك ، وهو ينزها منه المرتبة العليا ، ويجري في رغائبها . على

ان المهدي زوجها ، وما لقي منها ما لقيت انت من أشرها ولؤمها . وكم  
سعت لسلبك حقك وقتلك . فكيف تغفر لها ، وتشفق عليها ، وتلتبس  
برّها ؟ ... أفلا تعلم انك تربي في حجرك افعى ، وانت تبيح لها منك ،  
ما رتعت فيه من ابيك ، وقد كلفت اباك الروح ؟

وفارتا كالمرجل في ابعد امد من الغليان . بل اشبه بجيبتين هائجتين  
تخدمان فحيجاً ، وتكشير انياب ، وقد هدرت فيهما لواعج الاوتار . وما  
كان يدري الهادي الى من يلتفت منهما ، ومن يخاطب من هاتين القاذفتين  
بالحمم ، المتطيرتين شظايا كواسح ، كأن في صدرهما زلزالاً يثور . وهتف  
الخليفة حبال دمامة الحطب العاصف به : ألا رويدك . ما جنيت على  
المروءة ، ولا نخرت الفضيلة ، وانا اكرم أُمي . جاءت اليّ تهنئي بركوبي  
مقعد الخلافة ، فاحسنت وفادتها . وهل يليق بي ألا ابدو حيا لها ذلك  
الابن الرفيق ، المانح العفو عند المقدرة ، والكاذب للامومة صفحات الاعجاب  
والاجلال ؟ ... ألا ماذا يقول الناس ، في امير المؤمنين ، وقد ازرى بامه ،  
وصفع فيها مشيئة الخلائق ، الأمر باكبار منزلة الوالدين ؟ ... أرووكما  
ان يقال عني اني جلف ، عاق ؟ ... ألا يكفي ما لقي مني ابي من تنكيد ؟ ...  
والله ، ان هو الا التكفير عن اثم سلف ، يجملني على الاسترخاء تجاه  
الخيزران !

واصاب منها مكمنا الاقناع . الا ان الغيرة ما كانت لتتقع . ونضض  
مقول حسنة يرشح بالبغضاء : تكفير امير المؤمنين ، عن نيله من ابيه ، لا  
يقدر علينا احتمال الاستعباد . ما اعلناها حرباً على المهدي ، الا وقد احتكمت  
علينا الخيزران ، واذلت لئيرها اعناقنا . فهل يرضي ابا جعفر ان يستمر



فينا الارهاق ؟ ... كنا نصبر على المهانة ، اكراماً لمصلحة الخليفة ، اما  
وليس في الانحاء للمكروه طائل ، فلسنا باضرار الى مكابدة احوال  
الغطرسة والصلف . ففي نفس الخيزران ، من الحفاظ ، ما يقيمنا منها على  
خشية واحتراس . وهل يقضى علينا بان نكون في بيتنا على خطر ؟

فنبر : ما اشد جفائك لامي ، يا حسنة !

فاذاعت بجدة : وما اكفرها في التجني علينا ، يا امير المؤمنين !

— ولكنها أُمي ، وعليكم جميعاً ان تشاطروني تبجيلها !

— ونحن من نسائك ، ولست تريد لنا الزراية باقدارنا . لو كانت هذه  
الام ، على مسكة من حدب عليك ، شأنك فيها ، لاقتديناها بضمائرننا . الا  
انها حرب على امير المؤمنين ، حتى وهي تضمه الى صدرها ، وتقبله في جبينه ،  
وترجوله الاستمتاع بالعمر الطويل . لا احسب امير المؤمنين نسي وثبة  
الخارجي عليه ، شاهراً لاغتياله سيف المنايا . فمن دفع الخارجي الى الفتك  
بابي جعفر ؟

وتناهت في الطعن على أمه . ليست تميل الى رؤية هذه المتشاحجة في  
وطيد صولة . فابتسم وقال : لن تبلغ مني ما بلغت من المهدي ، يا حسنة .  
فلا ازال املك امري !

وكأنه امعن في اثاره احقادها . فدمدمت عليه لا تهيب : ان يكن  
المستهلّ يدل على الختام ، فاني لانعى الى امير المؤمنين صلابته وعزته . لم  
يبق علينا الا ان نرفع الخيزران الى سدة الخلافة ، في هذه الدولة الناصلة  
للون العربي ، والجائحة الى الانطباع بطابع الفرس . فاللا كاسرة قوم لم  
يموتوا ، يا ابا جعفر !

فأقلقت فيه منعة الصبر . وهو نفسه تعجب من مديد جلده . فما كان ليطبق الدغدغة . فما به يحتمل الوخز ، بل الطعن ؟ ... ونهض وقد صاحت فيه سخائمه : مكانك ، يا حسنة . لا تزالين طريئة المثوى في هذه الاكناف . فان تكن دالتك علينا ، تبلغ هذا الامد في ديببك ، فكيف وقد امسيت على حبيب ؟ ... لا ، لست الخليفة اذا اغضيت عن الاستطالة . ما الخيزران سوى أمي . ولا مي حرمة عندي امانع في انتهاكها . فالزمني حدك ، اذا شاقك ان تربعي في عظمي ، والا ... والا ، يا حسنة ، فالكيل يطفح . واني لاعينك من الانفجار !

وارتجف سخطاً . ووضع الغضب في الجبين ، والعينين ، والشفتين . فاستخذت حسنة . اجتازت شوطاً بعيداً في التبكيت ، وغاب عنها انها في حضرة الخليفة . وتمت بنامة مرضوضة : ولكن اخلاصي لامير المؤمنين يحدوني على تحذيره من العاشية . ليس اطلاق يد الخيزران بالامر المحمود المغبة . والايام ستوضح صدقي في النبوة ، يا امير المؤمنين !

فصرخ بها ، وحنقه يستطير شعاعاً : لست اجيز لمقول ان يتجرأ على أمي بمثلبة . فهي أم الخليفة ، لا امرأة من خليط الدهماء !

وسمعت لبابة ، فئات بما يجلبج الهادي . ولم تستطع ان تتماسك حيال الشواذخ المنقضة على حسنة . فقالت بامتعاض شعر الخليفة باثره الناهك في نفس السيدة المجلوة : لسنا نميل الى الفصل بين امير المؤمنين وأمه ، وحق ابننا جعفر ، يا موسى . الا اننا نلفت الخليفة الى امر خطر ، قد يكون نذراً عنه . فالعفن لا يمسي عطراً . والذئب لا يصبح حملاً . فالخيزران ستظل الخيزران ، وانوفنا زاغمة . فلا يطلق لها امير المؤمنين الرسن ، والا كعمه

فيها الجراح ، فيتعب حيث لا اضطرار الى الضنى !

فما انكر على لبابة استجادة البيان . انها لتنتطق عن بلاء . ولكنه يرضى بامه ان تخزي ، مع ارتياحه بجنانها ، وایمانه بكرهها له . فالخيزران لن تصبح مسكاً ، وهي الحبيثة الدخلة . الا انها من ازجاء الى مدرجة الاحياء . واضطر الى ابداء اللين تجاه لبابة . هذه ابنة عمه ، قبل ان تكون امراته ووالدة ابنه جعفر . وانه ليجد في جعفر زينة العمر ، وبهجة الزمن . قال وهو يحتبب في حيرة عمياء : وكيف أتعبس لها ، يا لبابة ، وقد عاهدتها على المسالمة ؟ ... اراني اسأت التدبير . غير اني اعلنت موقفي ، ولن ارجع عنه — مع يقيني اني فيه على غبن — الا اذا اسرفت امي في طماحها . ولا بد ان تسرف ، وهي السؤول الملحاح . وعندذاك سأقف بها عن غلبانها ، فلا تعدو الامد . أترضيكما هذه العزمة ؟ ... انكما لتضيقان علي بسطة الجراح !

فقال لبابة : وهو ما سيضطررك اليه عاجلاً شره أمك ، ولن تشبع الخيزران . وكل ما نهند اليه ان نقيمك غوائلها . وستواها تنافس البلاط في الابهة والعظمة ، وتدعي انها الدولة العباسية حتى منتهاها . فيهرع القوم الى صرح اساس مستوفدين ، مستعطفين ، وفي ظنهم ان رب الامر هناك ، لا في هذا المعنى ، وان الخليفة اداة لينة في قبضة أمه . فما للخيزران الا ان تشاء كي تجري الامور في الصعيد المسهد . فلا حران ، ولا انحراف . وهو بما لسنا نريد للهادي الحازم ، النير الذهن . زمن المهدي احى ، وليس لصرح اساس ان يقود الامر فينا . واذا جرّ زمناً في اثره البلاط ، فمن حق البلاط اليوم ان يستعيد يده الطليقة من كل قيد ، كما كانت حاله في

## عهد المنصور !

وقالت حسنة ، وقد تشبقت عرف الطمانينة فيما تميل لبابة بالهادي الى الاحتراس من الخيزران : لسنا نبغي النيل من شأن امير المؤمنين ، ولا الحد من سلطانه ، ونحن ندعوه الى اجتناب السقوط في المهاوي . ان هو الا الاخلاص يدفعنا الى ايضاح المخاطر ، كي يتحامى سيد الدولة شرها . ليس في الركون الى الخيزران ذرة من رشاد ، ايها المولى المهيب !

فاشددت به حيرته حتى لم يكن يهتدي . فماد رأسه ، واصابه دوار ، فهتف بتأفف عريض : آمنت بصدقكما . والله ، ليست الخيزران غير مداجية . تقسم لي بالسماء على الحنان والامانة ، وتسعى لخذي وتهديمي . ولكن لا غنية عن انتظار غلوها في مطالبها لكرمها ، والامساك بها عن قاديها . هلا صبرتما على امير المؤمنين ؟

فما خفي عليهما انهما اخرجتاه . وابتعدتا عنه تخففاً من عبء الجوارح الخائق . وانزوتا في احدى حجرات القصر تتبادلان الرأي في القضاء المبروم على أم موسى . قالت لبابة : اعتقد اننا بلغنا من نفسه ما لا يزيغ به عن صبوتنا . فلن يبقى في الدولة العربية من يقال لها الخيزران !

فقال حسنة بوفر من قلق : زادني يقيناً انه في طباع ابيه ، يا لبابة . هكذا كان ابوه . يقيم الدنيا ويقعدها سخطاً على الخيزران . وما ان تطلّ الخيزران حتى يسمي السخط عطفاً وحنوياً . لسنا نهيب به الى ايلام أمه ، بل الى درء انياب الافعى عن صدره قبل ان تنهشه ، وتذهب به . هذه ليست أمماً ، بل نائبة من انكدر نوايب الدهر !

وتجلى في حسنة من القهر ما جاوز ما يساور منه لبابة . فهزّتها الهادي

بعنيف المقال مما لم تكن تلقى بعضه ، حتى ولا شبه اثر منه ، في المهدي .  
ابو عبدالله كان يضمن بها ان يقسو في الوعيد عليها . قالت لبابة : لا ارى  
عهد مودتهما يطول . فقد حدثناه عن مينها وفساد سريرتها بما يمنح به عن كل  
سكون اليها . وسوف يعاني من نهمتها ما ينهد به الى الملل ، بل الى النفور ،  
فيصرفها عنه مخذولة ، مجفوة !

على ان حسنة لم تكن تقرب هذا الجفاء . وهو اذا وقع فلن يزيد على  
مدى شعلة عارضة ، سريعة الحمود . والامثلة وافرة في عهد المهدي . ما  
ان تقع بين ابي عبدالله والخيزران الواقعة ، حتى يسود الازهان ان قصر  
اساس تداعي ، ودارت عليه الدائرة . غير ان هذا المتداعي لا يلبث ان  
يبدو كالعروس المجلوثة ، كأن الكسوف لم يخضد فيه نفخة الخيلاء

والهادي نطفة جادها المهدي . أفليس الابن من طينة الاب ؟ ... قالت  
حسنة على بأس من الغد : ان القدر ليهزأ بنا ، يا لبابة . فما من سعي  
نحاولة الا ويردّ فيه كيدنا الى نحرنا . انرتع في الذرورة ، ولا نقوى على  
محتالة مستأسدة ؟

غير ان لبابة لم تستسلم الى ما يأخذ بروح حسنة من فنوط . فالخيزران  
كانت تهبها وتقميها فيما المهدي يبشر راية المجد ، فهل تنتمّر عليها اليوم ،  
وامير المؤمنين زوجها ، والرأي في الدولة رأيا ، والمقام الاول مقامها ؟ ...  
قالت تزيل عن حسنة اشجانها : لا تخافي منها . ساسحقها . لتتبختر الآن ما  
شاءت ، فسوف يأتي يوم اخلع فيه قلبها . كل ما علينا ان نمنع في نفث  
البغضاء في مهجة امير المؤمنين . فنظهر له ان شأنه يكاد يمحي ازاء صولة  
الخيزران . علينا ان نخفي في ما بدأنا . ولا بد للكيل ان يطفح ، وان

يذهب فيضانه بلجاجة أم موسى ، الفارسية الكنود !

ورأت حسنة ان تساند لبابة في الرغبة ، وان تبيح لها مطلق الرأي ،  
مكتفية بان تجارها في السعي ، ما دامت الميول واحدة. فلن تعرض نفسها  
لخزي آخر يفجعها به الهادي . قالت : سألزم حدي ، يا لبابة ، لئلا اوغر  
صدر امير المؤمنين . على اني اؤيدك في جميع مساعيك ، ونحن متفقتان على  
هدم الخيزران . صدقت . لا بد ان تخرج الهادي بالحاها المقيت ، فيتنكر  
لها ، وينفضها من طوقه ، كالخشرة الوبئة !

وكانت الخيزران عند معتقدهما . فغصّ صرح اساس بالوفود ، وقد شاع  
في القوم ان الهادي وأمه على وثيق عروة . ولم يكن هناك سوى طالب  
حظوة ، وملتمس رفق . فاضطرت الخيزران الى الاستجابة لاستبقاء مكانتها  
في النفوس . وترددت الى ابنها تسأله انجاز ما وعدت به . فلم يكن  
الهادي ليردّ الرغائب على وفرتها ، ورجاحتها . من حق أمه ان تطلب ، وتنال  
ولكن التذمر من فحولة الخيزران عمّ وساد . فعدا لبابة وحسنة الى  
الوزراء والقادة . وما احجم الربيع عن التظلم في حضرة الخليفة نفسه .  
قال : ادر كتنا الحيرة في امر مولانا ، حتى كدنا نجعله . أهو الهادي ، ام  
انه الخيزران ؟

فابتسم الهادي ، مع شديد امتعاضه من استيضاح وزيره النمام الارب ،  
وقال : كلانا اهل لها ، ايها الربيع . فلا انا ارجح أمي ، ولا هي ترجحني .  
أتجهل من هي الخيزران ، وقد كانت سيدتك في عهد ابي ؟ ... لسنا ننجو  
بهذه السرعة الطائرة نقوش الزمن ، يا ابا الفضل !  
الا انه حقيق على أمه في قرارة ضميره . أتجبهه حتى يتضاءل شأوه ،

ويبيت في مسند الخلافة شجعاً يبعث خياله الممجو على الشك فيه؟ ... قال الربيع ، وهو ممن راعهم ان تستعيد الخيزران خطرهما ، وتحمل مكانتها الفارطة في صدر الدولة ، كأنها القابضة يمينها على مخصر الخلافة ، والملتقمة بودة الرسول: ولكن الناس لا يملكون البصيرة الوقادة، يا امير المؤمنين. فيؤلمهم ان يعيد التاريخ سيرته ، وان ترتقي الى سنام الحكم امرأة تسوس الامة بالعاطفة ، لا بالعدل . انصارنا يكادون يفلتون منا ، وهم يبصرون خصوم العهد في الجنة ، على حين يشقى الاخذان الاصفاء !

فغص الهادي بريقه . هل بلغت الحال في الدولة هذا المبلغ الغضيب ، فتستسر الخيزران حيث هون الخلان والاعوان ؟ ... لا ، ليس الهادي بالضعيف الذرع . فهو هو الخليفة ، لا ذات الحجاب والمئزر . على ان بسمة ظلت تحوم على شفتيه . فقال بجهد في ابداء البشاشة: لا تجزع ، ايها الربيع . فما تبرح الخيزران امرأة خليفة ، وأم خليفة ، وحاضنة ولي عهد. ومن ترامى عزاها ، واطاء سناها ، فمن الانصاف ان ترتع في حفيل المجد! على حين لم يكن يؤيد في سره هذا الافتئات بحقه . فهو الدولة ، لا أمه . هو الخليفة ، لا الخيزران . وتعجب من نفسه وقد اباح لاهه هذا المدى ، مع متفاهم غيرته على سلطانه. وتذكر ما افضت اليه لبابة وحسنة من تحذير من الخيزران ، وما تنفكان تقولان له : « ستحجيك وتملك الامر في المطمئن العربي ! » . ولقد حجبتة . هذا ما يعالنه به الربيع ، وزيره . فلم يبق في دنيا العرب من يبصر في بغداد صرحاً غير صرح اساس

لا ، لن يحتجب عن قومه . ان الخيزران لتعدو طورها . واعتزم ان يذل منعها بالوقوف بها عن فورانها. هذه الطفرة لن يطول امدها، وسيقص

منها الهادي الجناحين . ورقب ان تأتي اليه أم موسى . ومن عاداتها ان تبدو ، في معظم الايام ، في حضرته . غير انها لم تكن تبدو الا وفي شفقتها سؤلة . هذا القائد تريد رفعه الى مرتبة يسمونها شأوه . وهذا الصفي الامين لا بأس ان يقبض ، في احدى الولايات العامرة ، على المقاليد . وهذا الشاعر اجد المديح ، فلينعهم بمكتنز العطاء . وهذا النصير الوفي ابدى الاخلاص ، فليكن له من ديار امير المؤمنين ضيعة وافرة الجنى

والهادي كان يهب باسراف . فلتشمخ أمه . وليعلم كل من دب عليها ان الخيزران ذات كلمة قاطعة . فالتكفير عن مقتل ابيه يفرض هذا السماح . غير انه منح أمه من القدرة ما اقفر به قصره ، وضاق به صرح اساس . فاضحى الناس لا يلججون بسوى اسم الخيزران . وهو ما ازمع امير المؤمنين الخوول دونه . فيجتذب اليه الابصار ، لا الى سواه من الناس ، حتى وان تكن تجمعه به آصرة رحم . وما ان تمايلت الخيزران في القصر ، تستأذن على الخليفة ، حتى هتف الهادي بالحاجب : لتنتظر أم موسى . لدي من الشؤون ما يقدر علي الاعتكاف على انجازه ، قبل الالتفات الى ما عداه ! وتعمد إذلالها . هذه طليعة القاصمات . فاضطربت الخيزران ، وألم بها سهو شاذخ . أئمنعها ابنها من الدخول عليه ؟ ... ولكنه لم يجبهها ، قبل الساعة ، بهذه النواهك . فما دعاه الى كسر شوكتها بالمهانة الطحون ؟

ونجبت من نفسها ازاء من يدلفون في بطانتها ، وليس لباب ان يستعصي على الخيزران . واقلقتها البادرة . هل من غاشية تدهمها ، وتفسد عليها خاطر ابنها موسى ؟ ... وتمثلت فوراً أخيلة لبابة وحسنة والربيع ، اعداء الانكاد . هم من اوغروا عليها جوانح امير المؤمنين . وجمدت



مكانها كالمصعوقة . واستحيت من الالتفات الى ما حولها ، ولم تكن تدري  
ان تحفي باصرتها . ونضح جسدها بالعرق ، يخرج فيها طلاقة الحركة .  
وتمت بجهد : ايكون لدى امير المؤمنين من المهام ما يجبسه عنا ؟ ... لا  
بأس . سننتظر . فلن نذهب باوقات ابي جعفر ، وللدولة نصيبها من سمعه  
وبصره ! .

واكرهت نفسها على الابتسام ، لتبديد الوهلة السائدة . وسرّي عن  
الحاشية والحيزان تبسم . فالدعوة الى الانتظار لم تؤلم روح السيدة الاثيرة .  
ولكن الانتظار طال ، وتوترت عروق أم موسى . فخاطبت الحاجب  
تستوضح : هلا ابلغت امير المؤمنين اننا ببابه ، وان لنا زمناً ليس بالقليل  
نرقب ساحة المثل بين يديه ؟

وما تعودت هذا الاصطبار ، ولا سيما في البلاط ، وهي ترى فيه مأواها .  
واحست بالعرق والحجل يقرصانها ، فهانت نفسها ، والهادي على ارتياح ،  
وقد كبح نخوتها . وما أذن لها في الوقوف في حضرته الا وهو موقن انه  
ثم شموخها . ولم ينهض لها فيما تبدو ازاءه . ولا هشت ، ولا بش . بل  
خاطبها بجفاف ، كأنها امرأة غريبة لا يربطها به وشاح قرني ، فقال : ماذا  
تلتمين ، يا أماء ؟

فراعها ما يساوره من انقلاب ، وما يتلبد في اساريه من قسوة .  
وشعرت بالاعصار يهب عليها ، فادركت انها على خطر . ولكنها تجاهلت  
ما وثب الى بصيرتها ، ولم تعجز عن البسمة . قالت بنديّ المؤانسة : جئنا  
الى امير المؤمنين نصطحب بطلعته الميمونة ، ونقرئه السلام . فمن المفروض  
علينا ان نتبرك بانس خليفة الرسول !

واجادت كلمات الاسترضاء ، وهي الداهية ، اللسان . بيد ان هذه الصفايا ما كانت لتخرج بامير المؤمنين عن كمدته ، فقال بلهجة قاطعة ، ناضبة من كل رفق : ثم ماذا ؟

فما نأت الابتسامة عن شفتي السيدة الاثيرة ، وان يكن تجلى لها انها اقبلت في السؤال في ساعة من ساعات الغضب . قالت تتناهى في الممالأة : حسبي ان ادرك ما اوضحت ، يا امير المؤمنين ! فاستوضح ينتطح للشر : أما من حاجة ؟

فرأت ان تكشف عما جاءت اليه فيه . ربما رقت لها فؤاد ابنها ، وقضى لبانتها . قالت : هناك حاجات ، يا امير المؤمنين . غير اني لست ارى المقام مسعفاً في ازاحة الستار عنها ! فنبه بصوت أجش : وما هي ؟

فخيل اليها ان الدعوة الى البيان تشير الى الرغبة في الملاينة ، وان الهادي ليس متبرماً بها ، بل هناك ما ازعجه ، وما استطاع فيه تبديد الغمّ فيما تعرض له . قالت : أيجيز لي الموقف الاعلان ؟ فمال الى سماعها في طلبتها ، كي يضرم شرارة الحصومة . واجاب بما يستولي على لبه من جفاء : ألا اوضحي . ليس ما ينفر بي عن الاصغاء اليك . فما تشتهين ؟

ومنذ اربعة اشهر وهو يقضي حاجاتها ، ولا يتواني في نصره . قالت ، وقد استدرجها الى الابانة : اقبلت استنجزك حاجة عبدالله بن مالك ، يا ابا جعفر !

وكانت قد طلبت اليه انصاف عبدالله من ريبة علقت به ، فوعد بالنظر

في الطلبة . اما الآن فما استقرّ بوعيه اسم عبدالله ، حتى كلح جبينه ، وتفتح  
منخره تأففاً ، وزمّ شفتيه ، ورعد بلاسع نبوة ، كأن صوته السوط :  
أتخاطبيني بامر هذا الزنيم ، ولا تدرين ما بدر منه ؟ ... ألا اخبريني كيف  
ترضين ان ينسلّ هؤلاء الانكاس الى صرحك ؟

فهاها انفجار غيظه ، ولم تعرفه منذ ارتقائه الى سدة الخلافة في هذه  
الحشونة . ورسخ فيها اليقين ان الكاشحين عبثوا بها لديه ، وازالوا عنه  
حده عليها . غير انها تلمسكت على الهزة ، وقالت بقوة في الاداء : لا بد  
من اجابتي ، وقد وعدت عبدالله بن مالك بالتلبية !

فهدر مستهيناً بجرمتها : لا تكرهيني على ما لا سبيل اليه . فالويل على  
ابن الفاعلة . أيتسامخ علينا ، ثم يقبل اليك في انقاذه من غضبتنا ؟ ... لا  
قضيتها له ابدأ . فما شأنك وهذا الحديث تشفعين فيه ؟ ... دعي عنك  
العورات ، وليس لك ان تستويها !

فعلا فيها الخنق ، وجهرت باحتدام : ولكنها حاجة تضمّنتها له . ولا  
احسبك تخيبتني فيها !

فصاح بحقد : ليس لكل حاجة تعاهدين على قضائها نصيب من النجح  
عندنا . فاشيحي عن السفاسف ، وليس لمن في مستواك ان ينشط لها !  
فخلعت عنها كل هيبة ، وزعقت لا ترهب جلال الموقف : اذن ، والله ،  
لا اسألك حاجة ابدأ !

فاذاع بمتطير الاستخفاف : ، اذن ، والله ، لا أبالي !  
فرضّ اذالها . واندفعت الى الباب مغضبة . فصرخ بها بفيض من  
حقق : مكانك تستوعبي كلامي . والله ، لئن بلغني انه وقف ببابك احد من

قادتي ، او من خاصتي ، او من خدمي ، لاخرين عنقه ، واقبضن ماله .  
والا فاني نفيت من قرابة الرسول . ما هذه المواكب تغدو وتروح في كل  
يوم في بابك ؟ ... أما لك مغزل يشغلك ، ولا مصحف يذكرك ، ولا  
بيت يصونك ؟ ... اياك ثم اياك ان تفتحي بابك للمي ، او ذمي ، والا  
لقيت من نعمتي ما لا يثبت على هوله صوابك !

فاربذت سحتها . وانصرفت على ارتجاف واختناق ، ما تعقل ما تطأ .  
نسف فيها الهادي كل دلال . وانكفأت الى صرحها مهبط المهبجة ، دامية  
اللب . اعداؤها ظفروا بها . وارتمت في صرح اساس على ذوب حشاشة .  
الا ان هذه الحشاشة ، الذائبة ، ملكت القدرة على تفجير كربتها . فصاحت  
الخيزران بجميع من ضمهم مئواها : ان الهادي ليدير اذنيه الى الشائنين .  
ظلوا به حتى اقصوه عني . فالويل للاعبين بالنار ، وسيحترقون فيها . لست  
الخيزران اذا نمت . على الذل . فالهادي يجهل اي سخيمة أضرم ، واي  
بركان أثار !

وهاج صرح اساس ، كأنه هادر السيل . ودرى يحيى البرمكي ، فتجلت  
لعينيه الدسيسة . غير انه اقبل يروض الجماح . قال يلطّف من حدة  
الخيزران : ألا صبراً ، يا ذات الجلالة . هل غاب عنك من هو ابو جعفر ؟ ...  
ان لنزق الشباب مواعد يضع فيها الهدى . ما موسى سوى ابنك ، ولمثلك  
ان يصفح عن زلة الابناء !

على ان الخيزران اشتعلت زفيراً . قالت وهي تلهث ، وكل ما فيها على  
انتفاض : رأيتني ازاءه احقر من بعوضة ، يا يحيى . فاهانني وتوعدني ، وقضى  
عليّ بالانزواء . والا اطلق فينا لسيفه الزمام . فهو يتهددنا بالقتل . أرايت

الى ابي شرّ انتهينا ، بعد ابي عبدالله ؟  
وناحت السيدة الاثيرة . ولكن نواح الجبروت . فالجرح النزيف ستضمده  
باكباد الساعين بها . لن تطبق اهدابها ، للموت ، الا وقد اطبقت كل هذب  
في مناوئتها

وحشد الهادي في ايوانه رؤوس دولته يعلن فيهم باستكبار ساخط ،  
موتور : أيما خير ، أنا ام انتم ؟  
فراهم الاستيضاح . واجابوا بدهش ورهبة : بل انت ، يا امير المؤمنين !  
فاستطلع ، والحشونة في صوته ، والعنجهية في نظرتة النائمة ، الناقمة :  
وأيما خير ، أمي ام أمهاتكم ؟

فاجابوا ، وقد شاقهم ان يلمّوا بالباعث على هذا التنقيب النافل ،  
والواقع جليّ ، جهيز : بل أمك ، يا امير المؤمنين !  
وساءلوا انفسهم : « هل اعترت جنة الخليفة ابا جعفر ؟ » . قال ، وما  
زال يستقضي بصارخ الاحاح : فأيتكم يجب ان يتحدث الرجال بنخب عن  
أمه ، فيقولوا فعلت أم فلان ، وضعت أم فلان ؟  
فاوضحوا ، وقد اخذت تتضح لهم البواطن : ما من احد يجب ذلك ،  
يا امير المؤمنين !

فرعد : اذن فما بال الرجال يأتون أمي ، ويطيب لهم ان يتحدثوا  
بجديتها ؟ ... اني لامنع كل عين من الالتفات الى صرح اساس ، واحطم  
كل رجل تجبو الى عتبه . ربة الحدر للخدر ، ولا يحيد . والا فما كان  
للخدور ان تقوم ، ولا للرجال ان يتولوا ازمة الامور !  
فقهّموا . امير المؤمنين يأبي على الخيزران ان تنصرف الى معالجة شؤون

الدولة. فالهادي نفض منه كل وصاية عليه، وابتى ان يقوم له في الحكم شريك. هو وحده رب الامر. وعاد العشب ينبت في طريق صرح اساس. فالناس انقطعوا عنه هلعاً. وعادت السيدة الاثيرة الى العوور في عزلتها، كأنها الحيس. وما تنكسف للمرة الاولى الانوار في صرح الخيزران. فالخذ تعود هذه اللطمة، كما تعود ان لا ينام على المكروه. فالمرذولة، المجفوة، لن تبيع للقدر، المنقلب عليها، ان يطيل نفرة الصدود

البشائر تذاق في البلاط بفيض من بهجة ، فتقع في الآذان نديّة، جنيّة، لتبشها الافواه صياحة ، لهي . امير المؤمنين قضي على أمه باقتعاد مطارح الزهد . فليس لها ان تسوس الامر في الدولة ، وما هي من اهل الرأي ، ولا من اصحاب القيادة . فكل ما عليها ان تلزم صرحها للتوفر على شؤونه ، ولعبادة ربها . وهتفت حسنة فيما تعانق لبابة : هذه هي الرجاة الطفحي ، يا أم جعفر . فهنيئاً لنا الفوز الوثيق ، وعلى الخيزران العفاء !

ورقصتا لفرط الطرب . هذا مجلى الطمانينة . فالشوكة انتزعت من الجنب ، بل من الخلق ، وطُرحت في النار تفتى فيها . وقمايل البلاط على مستباح النشوة . فالسؤدد استقر بيمين الخليفة . وليس لذي دعوى الافئآت بحق ، ولا الاستمساك برغبة .. وتاه انصار الهادي عجباً . وايقنت الدولة العباسية انها بامير المؤمنين ، لا بمن يجرون في الحاشية . وهفت الى الابوان لبابة وحسنة تسجدان بين يدي الخليفة ، معلنتين نجميل بسمه ، وجذل نبوة : مرحى لامير المؤمنين . بضع الدمث بما أوتي من قدرة على الحسم الشافي . ماتت العقرب مكفّنة بدمها ، واستراح الببال ، وقد أمن سمها !

فاوجهه ان يقال في أمه انها عقرب ، وما يزال ابن الخيزران . بيد انه تصامّ عما نفتت امرأتاه من مطعن . وقال بلهجة خشنة ، يطفو عليها الاعتداد ، ويلتمس بها لنفسه المعاذير : لم يكن بد من هذه القطيعة . والله ، ما كنت اريدها . الا ان الخيزران سعت لها . فالفوران المتأجج فيها يأبى عليها ان تهدأ ، كأنها في فوهة بركان . ولقد اصبحت اخشى ان تحرقنا بنارها .

فليس لامرأة ان تقبض على الاعنة ، في دولة لا تسلس مقاودها لسوى الرجال . والرجال انفسهم يكبون في المهمة العسيرة . فكيف بالنساء ، وقائدهن الميل الاهوج ، لا الروية والسداد ؟

فقال لبابة : الحمد لله ، وقد ايقن امير المؤمنين اني وحسنة لم نكن نداجي يوم طلبنا اليه اجتناب الهفوة ، ودرء البلية . فمارقبتنا من اقتنات ، واحتكام ، وقع ، وليس للخيزران ان تخالف نهجها المرسوم . فهي لا تنهأ الا وقد طغت كالحباب ، حاجبة من وراءها . الا ان رغوتها كانت في عهد الخليفة موسي الهادي فقاقيع سريعة الانطفاء . سحقّت رأس الافعى ، يا ابا جعفر . فابشر بالهناء المستطيل !

وهتفت حسنة : اسعد الله ايام امير المؤمنين . ان تكن الخلافة الجنة ، فالخلاص من الخيزران سدرة المنتهى . لكأنك دفعت عنك الداء العقام وانت تنفضها من طوقك ، وتقصّ جناحها . والله ، وددت لو طويتها طيّ القرطاس ، وكان القبر لها غلافاً . فالشؤم يجنح عنك إن تفعل . والا كان لك من بقائها ما ينفث سمومها . أتدري بما اشبهها ، يا امير المؤمنين ؟ ... بالذئب الحطّاف . فلا تأمن جانبها الا وقد حطمتنا انيابها ، بل رأسها . والا ظل الخوف من عضّاتها يتوعدنا ، ما دامت تحتلج في صدرها نسمة . اما وقد ضربت ، فأوجع ، يا مولاي !

فضحك ضحكة مغتصبة . وقال بمتهمك البيان : حسنة لا يصفو لها خاطر الا وقد بسطت أُمي على نعش ، وجرتّها الى الرمس . عندذاك يلدّ لها العيش ، وتحس بانها في رعد !

فابتسمت حسنة ، وقالت بمديد السعي للكشف عن اخلاصها للخليفة



زوجها: لست اجور على أمك لسوى انقاذك من جورها، يا امير المؤمنين .  
والا فما كان لي ان اجيل فيها نظرة واخزة ، ولا ان اقول كلمة قارصة .  
الا انها الرغبة في صونك من الدواهي الدم ، وأمك ليست لك . قهرت  
فيها الحياء ، فاسلخ منها كل رجاء . فلماذا تكون ولاية العهد في اخيك  
هارون ، لا في ابنك جعفر ؟ ... قد تستعين بها الخيزران على تنظيم امرها ،  
والتحفظ للوثوب . فالناس يشوقهم ان يكونوا من خليفة الغد على مسالمة  
وملاينة . وفي مثل هذا الازدلاف استبقاء لآمال الخيزران . فجردها من  
سلاحها ، لئلا تجرّده علينا ، ايها السيد المقدّى . فمن مصلحة قصر السلام ان  
يتلاشى في العدم صرح اساس !

فكانها اوحى اليه بما يبحث عنه ، ولا يهتدي الى معرفته . انها لتشق  
امامه أفقاً فسيحاً يستنشق منه عرف الامان ، ويستصبح بالألأته . وراقه  
خلع اخيه هارون عن ولاية العهد ، وإقرارها في صلبه . فيزدان بها ابنه  
جعفر ، وتنحدر من الاب الى الابن . وهو الرأي الحميم . فان هذا الشعب  
يبسح للاشداق النهمة المجال الى القضم والالتهام . فيضطرب الامر . وتشقى  
الدولة بالمطامع الرهاف . وبدا من الهادي انه مطرق . واذا به يطلق باصرته  
في لبابة حيناً ، وفي حسنة حيناً آخر ، ويقول : هذا ما لم افطن قبل الساعة له .  
صدقت حسنة ، يا لبابة . فلماذا تستقر ولاية العهد باخي ، لا بابني ؟ ...  
جعفر اولى بها من هارون . فان ابننا خليق بركوب السدة . لا ، لن استبقها  
في هارون اخي ، وللخيزران عليه السلطان النافذ . فتضيق به علينا  
الحناق ، وتفصل عنا الناس ، وهي تعدهم بالمناصب والجعائل للغد المرتجى ،  
يوم تعود فتستأثر بالحل والربط . ألا ابن الربيع ، وزيرى ، اتباحث واياه

في الخاطرة الخطرة . فعلينا ، وقد ضربنا ، ان نوجع . لا فضّ فوك ،  
يا حسنة !

قالت حسنة تغلو في النصح : اذا اوجع امير المؤمنين فقد احتاط .  
فالخصوم غير نائمين عنا . ويمضنا ان يقلقونا ، ونحن في بسطة العز . انهم  
لقوم لا يركن اليهم ، يا ابا جعفر ، وفي ضمايرهم خبثٌ وذنخ . فاعينك ان  
تستقيم الى ابالسة يضرمون لك النار ، كي يشووك على وهجها . ولكنهم لن  
يفلحوا باذن الله ، وامير المؤمنين يدٌ حاسمة ، وعينٌ بصيرة . فيحطم فيهم  
كل منعة ، ويقلّم كل ظفر ، لئلا يتطاولوا الى حيث لا يجدر بالزرابير  
ان تحوم !

فصفق بيديه ينادي حاجبه ، ويهتف به : ألا ابن الربيع ؟  
فان ابا الفضل لينضو مقوله عن التدبير السويّ ، وفي نهيته بوارق من  
حصافة نيرة . واقبل الربيع سيفاً احذب في قبضة الخليفة . قال الهادي :  
ألا ماذا يلوح لك ، ايها الربيع ، في الاستعانة من كيد الخيزران على امرنا ؟ ...  
أيجمل بنا ان ننبد هارون من ولاية العهد ، ونحبسها على ابني جعفر ؟

فادار الربيع اليقظان باصرتيه في من حوله ، ليعرف من افضى الى امير  
المؤمنين بهذا الرأي الجزل . ولاحت له لبابة وحسنة ، فوقع على مصدر  
الشظية العافية ، وابتسم ، وقال : ليس من منطوق يرشح بالصواب كهذا  
المقال السديد ، يا امير المؤمنين . فلا يصحو الجو ، ويصفو الاديم ، الا وقد  
حصرت بيديك السلطة بجميع اعنتها ، واستوليت على كل دعامة فيها .  
وإن أبقيتَ في ايدي اعدائك دعامة ، او شبه دعامة ، بل حجراً من الصرح ،  
فالخطر ينذر بكالح العاقبة . استأصل في أمك واخيك كل مظهر من

سوّد ، ولك العز التليد والطريف !

فهمت لبابة وحسنة للوزير الربيع : عوفيت ، يا ابا الفضل !  
فقال متناهيّاً في اللين استدراراً لعطف الخليفة ، حتى كاد ينهار لفرط  
امعانه في العتبي : والله ، لست ابغي الا الخير ، يا ابا جعفر . فان لجناحك ،  
المدود عليّ ، من فضل المعيث الوافي ، ما ايقنت به اني مهما اصفيت الود ،  
فلن اقوم بوفاء بعض ما اصطنعت عندي من يانع الجميل . ان اعداءك لذوو  
قوة ومكر ، مع كل ما تذلل فيهم من نخوة ، وما تطمس من عرام . فاذا  
ما استنزفت بقيا النبال في كنانتهم ، فانك لتأمن كيدهم . وبوسعهم ، بنصلة  
واحدة يجيدون رميها ، اصابتنا في مقتل لن نسلم من وباله . فانزع منهم  
كل قدرة ، وليكونوا في ركابك من احقر مواليك !

فأيد الهادي ما يسخو به وزيره من سمين المشورة . عليه ان يزيل عن  
أمه كل سلطة على الايداء ، والا كابد من حفاظها ما يكعه في حكمه .  
فالخيزران ان لم تستطع ان تجرح بلسانها ، عضت بانباها . وإن تحطمت  
في شديقها الانياب ، نفثت من حنجرتها سمها . وان عدمت السم ، نطحت برأسها .  
وان اصاب عنقها بالشلل ، مزقت باظفارها . وان برت اظفارها ، ركلت  
برجلها . فلا نجوة من ويلها بسوى القضاء عليها ، حتى لا يبقى فيها عين  
ترى ، ولا مقول يتكلم ، ولا ظفر تحدش به

قال الخليفة يلحف في الاستشارة ، وقد استأنس بما ازجى اليه الربيع :

وهل ترى القوم يبائعون في الامصار جميعاً ابني جعفرأ ؟

فابتسم الربيع ابتسامة يور فيها التعجب من هذا الاستيضاح الجازع .  
واعلن يشدة : وهل من يجرؤ على التقهقر عن الموافقة ، يا امير المؤمنين ،

وبين يديك المصير؟ ... انك لتقابض على القسطاس . وليس لتنافخ في الفتنة  
ان يجازف بروحه ، ويتنفس عن معاندة . فالامر بين يديك على اطلاقه ،  
وما للخليفة الا ان يأمر لتطأىء الرؤوس هيبة واجلالاً !

— وما يكون من الرشيد ، ايها الربيع ؟

— سوف ينحني ، يا امير المؤمنين . فما هارون غير المطيع لمشيئة يعلنها  
سيد الدولة . وان هو كابر ، فليست يد الهادي بحاجة الى من يدعمها لتحوش  
الرقاب . فإما السجن ، وإما السيف . والا فالاذعان المحض لشهوة مولاي !

فجلجلت حسنة : انك لتنطق عن هدى ، ايها الربيع !

وخشيت لبابة على ابنها الصغير من تطاحن الاهواء ، فهتفت : ألا لتحذر  
العوادي ، يا امير المؤمنين . فلا يبرح ابننا جعفر في فئة من لم يبلغوا الحلم .  
وعلى م يقوى ابن ست سنوات في مغالبة الرجال ؟

فالتفت اليها الربيع يقول بثقة المطمئن : لا عليك ، يا ذات السنى .  
أنخاف عليه وقد عصمه ابوه ؟ ... ان امير المؤمنين لوارف السطوة ، صلب  
الشوكة . وما لذي استطالة ان يسخو بروحه ، وينال من جعفر المفدى .  
اقمنا حوله سوراً من الاكباد نقيه به النكد . صانه الله من ضئيل الوخزة .  
اننا لبني له الغد الحُضَل فيما ننصبه خلفاً لابيهِ !

واوضحت حسنة متحمسة : ولكننا نفقاً كل عين تنظر اليه بمقت وحقد .  
امير المؤمنين هذا . وخليفته هذا . ولا يحمد عن قهر الاعصاب في صرح اساس  
كي يمسي كوخاً مهجوراً . فالسيادة هنا مشواها ، لا في ذاك المغنى الغدور !  
فقال الهادي على اقتناع بصباحة المبتغى : بقي عليك ، يا ابا الفضل ، ان  
تدعو الناس الى المبايعة . فتحشد في القصر القادة واصحاب الحُطَر في دولتي .

وتطلعهم على ما ازمعنا من أربة . فمن جانبنا ، خلعنا عليه الامان . ومن  
اجتنبنا ، انزلنا به الويل . فليحذر اللثام المماكرون !

فاذاع الربيع برحراح المسرة : ليوقن امير المؤمنين ان ما من هامة  
تعلو مداها . فمن لم يؤيد عن رغبة ، تطأمن عن رهبة . ولي العهد جعفر بن  
موسى ، على حداثة عهده بالفطام !

والربيع لا ينهد الى سوى هذه الرجاة ، وبها ينجر يحيى بن خالد  
البرمكي ، مؤدب الرشيد . فما دام يحيى يمسك بشعرة من صولة ، فهو خطر  
على الربيع . ودعي قادة الدولة الى المبايعة والتأييد . ووقف فيهم الربيع  
خطيباً . فقال بعنجهية صاحب الامر المبرم : ايها القوم ، اسمعوا وعوا .  
امرني مولاي الخليفة ، ابقاه الله ركناً أيداً لعزتنا ونعمتنا ، بان ادعوكم  
اليوم الى القصر كي ابلغكم ما قرّر عليه الرأي من صائب التدبير . فقد رأى  
امير المؤمنين ، بنافذ حجاه ، وثاقب حكمته ، ان يخلع اخاه هارون  
الرشيد عن ولاية العهد ، وان يقفها على ابنه جعفر . ولا اراني مضطراً فيكم  
الى استعادة كلمات يزيد بن المقفع في من جمعهم معاوية لحصر الخلافة بابنه  
يزيد . فكلكم يوافقنا على ان امير المؤمنين هذا . وخليفته هذا . ومن ابى فهذا !  
وردد كلمات حسنة ، وهو يشير الى اثنين ، الى الهادي ، والى ابنه  
جعفر ، المستقر بلصق ابيه . اما الآخر ، وهو سيفه ، فهوت يده الى مقبضه  
تدغدغه . فهتف القادة وارباب الشأن في الدولة : الهادي خليفتنا ، وابنه  
جعفر ولي عهده . مرحى للربيع !

فجهر الربيع بالقول الفرحان : بورك فيكم . ما كنت لارتاب بولايتكم  
لسدة الخلافة ، ولا بوفائكم لامير المؤمنين . هذه السيوف ، وقد صنتموها

في اغمادها ليوم الفخار ، ستخترطونها في الذود عن كرامة الهادي وابنه  
جعفر ، ولي العهد . ولستم من ذرية الابرار ، اصحاب الكرامات ، اذا  
انتضيتوها لخدمة مقاصد ذوي الضلال ، الانكاس !

فرعدوا : ما تجري في سوى خدمة القابضين على ناصية الامامة .  
خليفتنا الهادي ، وخليفة خليفتنا ابنه جعفر . دامت السيادة في البيت الزاخر  
بالمجد والسعد !

ووقف الهادي ، فتطاولت اليه الاعناق . فحمد واثني ، وقال : إن  
نكن هامة هذه الدولة ، فانتم ذوائبها . والذوائب زينة الرأس . اني لوائق ،  
وانا ابدو فيكم ، بوقوفي في اكرم قوم ، واصدق عشير . فعلى سواعدكم  
تشدّ الدولة صُعداً الى مراقي الكمال والتهيه !

ونعش جعفر الصغير ، يقول بنامة رفيقة ، كزغب المخمل : السلام عليكم !  
فارتفعت الاصوات بهتاف المرح : وعلي ولي العهد السلام . عاش ولي  
العهد الغضّ النضير !

واغرورقت اعين الهادي ولبابة وحسنة ازاء المشهد البهيج . ان من  
الفرح ما يذري الدمع . وقال الهادي ، وقد دعا الى بسط موائد الطعام ،  
يقري هؤلاء الانجاد : لنبلغ هارون ما صارت اليه ولاية العهد . فليس له  
بعد اليوم ان يتقلد سارتها ، ويباهي بعزتها !

ودفع اليه من يعالنه نبأ الخلع . والرشيد جمع بعضه بعضاً في صرح  
اساس ، يتقي سطوة اخيه الهادي . وما كان ليندّ عنه امر ابي جعفر ،  
الصلب الشكيمة ، الصعب المراس . ويئس قرة عين الخيزران من غده .  
وهتف بامه ، وبامرأته ، وبيجيى البرمكي ، متأففاً بما يدعونه اليه من رسوخ

في ولاية العهد الرجراجة : ولكنني لست اريدها لنفسى . اقلقتوني برؤيا المهدي . فهل بلغ منكم السخف ان تؤمنوا بعارض الاحلام ؟ ... ان الهادي لمن عمري . وسيقيم في مقعد الخلافة حتى تبلى عظامي . فما بي أهو بالنفّاسات ، ولست بمن كتبت له السيطرة في هذه الدولة الريّتا ؟ ... حرّروني من نير كابس يثقل عنقي ، وخذوا عني ولاية العهد . لست اريدها ، وكل ما فيها يعالني انني ساشقى بها . مباركة الخلافة للهادي يرتع في نعمائها ، ولابنه من بعده يرعاها . وما بكم توقعون بيني وبينه ، وهو اخي ، وانا اتنزل له عن كل حق انالني اياه ابي ؟

فزمجرت الخيزران ، وقد كوى مهجتها هذا الاصرار من الرشيد على التخلي عن ولاية العهد : أتكون من نفاذ الجلد بما لا تصبر به على النكد ؟ ... ألا املك بعض الرشد ، وانت الرشيد . هل اخطأ جدك المنصور ، وهو يزينك باللقب الاثيل ؟ ... هذه الدولة ستزحف اليك بمجدها وفخفتها ، وستكون سيدها . فان اخاك لقصير العمر فيها . والله ، لئن وهبت له الاقدار حظاً في البقاء ، لاصرعن مشيئة الدهر اللثيم . اعتزمت فيه اجنثا الروح . لن يعيش اخوك ، يا هارون !

فلم يحفل بهذا الوعيد الاجوف ، وما ثمة غير كلمات تلقى جزافاً . أتكون الخيزران اقوى من امير المؤمنين ؟ ... قال ينفر بما تريده عليه ، مع بليغ اثرها في نفسه : دعيني من الوعود الهشاشة ، يا أمي . لقد ملتها خاطري . ولاية العهد أبرأ منها ، ولست بمسكاً باذيلها . فإن يسلمها مني الهادي ، فله ذوابتها وسنامها !

فزعت أمه : اراك ضيق الصدر . وليس للرجال ان يتضعوا حيال

النواب . أما تكون من نسل المنصور ؟ ... ولاية العهد مكتوبة لك ، ولا ارتضي ان تشيخ عنها . فهي في عنقك حتى الموت . فالهادي نفسه لا يقوى على خلعها عنك . فما اقرّ المهدي ، وتواضع عليه ارباب الامر في الدولة العباسية ، ليس لذي سلطان ان يهدمه ، ويعبث باحكامه . فالهادي يقوى على ان يكون خليفة . ولكن ليس له ان يحو المنزل المكتوب !

وبوغتوا بالجارية عتبة تدق عليهم الباب وتقول ، وقد مثلت بين يدي الخيزران تسدد اليها المقال المرعوب : بباب القصر احد رجال الخليفة . وهو يلتمس الوقوف بين يدي الرشيد ، لابلاغه رسالة امير المؤمنين !

فانتفض فوراً في ذهن الخيزران ظن السوء . وجحظت عنها . واستفهمت بلهفة : أيكون بالباب رسول امير المؤمنين الى الرشيد ؟

فاوضحت عتبة بنعمة جازعة : نعم ، يا مولائي . أبيع له الدخول ؟ فترددت الخيزران في الجواب . غير ان يحيى البرمكي لم يجد من بأس في الاصغاء الى رسول الخليفة . قال : علينا بان نبيح له الدخول والكلام ، يا ذات الجلالة . وليس لطلبة امير المؤمنين مردّ . فلنذكر انه الخليفة ، وان اللين اجدى من الجفاء والعناد !

فنبرت السيدة الاثيرة بصوت كالح ، غضبان : لياتِ الينا رسول امير المؤمنين ، يا عتبة . فماذا يريد منا الشائتون ونحن في عزلتنا ، لا نبارك ولا نلعن ؟ ... أيعكرون علينا حتى وحشة الصومعة ، وزهادة النسك ؟

فاعلن يحيى : ليس لنا ان نتذمر الا وقد سمعنا ، يا ذات الجلالة . فاین هذا الرسول ، يا عتبة ؟

ولم يشأ البرمكي ان يرقب اذن السيدة الاثيرة في اباحة باب الصرح



للوفاة ، وليس من دخوله بد ، وهو لسان امير المؤمنين . ولم تعترضه  
الخيزران ، مع متفاهم وهلتها ونقمتها . وجلّ ما بدر منها انها تقادت في  
البربرة . وألقت على الرسول نظرة شائكة ، فيما يقف ، ملتوي الرأس ، بين  
يديها ويدي الرشيد . واستقرت بعبوسها ، وما دعت الرسول الى الابانة .  
وخشي يجبي ان يجلو ، هذا المستأذن عليهم ، لامير المؤمنين ، ما لقي من  
جفوة . فدعاه الى الايضاح ، قائلاً برزانتة المثلى : كلنا اسماع ، يا صاحبي .  
فهاهنا ما عندك . في مَ اطلقك امير المؤمنين الينا ؟

فتهيب الرسول الموقف . وكادت شفتاه تعاندان في اعلان الخطب  
الجلل . فهو يحمل نعيّاً ، وليس الناعي كاللبشير . قال بصوت ضعيف الرنة :  
اتدبني امير المؤمنين لابلاغ مولاي الرشيد ، ما لست اراكم تتقبلونه بمسرة .  
الا انها مشيئة الخليفة ، ولا ندمحة فيها عن الطاعة . امير المؤمنين يقول انه  
نزع ولاية العهد من اخيه هارون ، وخصّها ابنه جعفرأ . وعلى مولاي  
الرشيد ان يعي ما قضى به الخليفة الهادي ، زاده الله استعلاء وهدى !

فكان زلزالاً يعصف بالصرح . بل كأن الرشيد يُنعى . فاعولت الخيزران  
وزبيدة : وارشيداه !

وجحظت منها الاعين . ووثبت الدموع تترى . وكادتا تولولان لو لم  
يقف يجبي بن برمك مستطلعاً برصين الشجو : ولكن امير المؤمنين ما برح  
يرى في اخيه الرشيد ولي عهده ، يا هذا . فمتى خلعه ، وأقرّ جعفرأ ؟ ...  
ألا تكون على خطأ في ما تذيع ، فسمعت غير ما اوضحت ؟ ... امير  
المؤمنين عهد اليّ في اعداد هارون لولاية العهد . وهو ما اجهد فيه وسعي .  
فكيف يقوِّض الخليفة ما بني ؟

فقال الرسول ، وقد ملك وضاء البصيرة في المحاوراة : ليس لذي  
عصمة ان يتقي احكام الساعة . امير المؤمنين رأى اليوم غيباً ، ما لاح له  
بالامس رشداً . فنفر الى احقاق الناصح ، الصراح !

فافاض الرشيد بالقول الوئيد : نحن في اكناف الخليفة على خالص  
الطاعة ، ايها الرسول . فعُدْ اليه وابلغه اننا ارتضينا ما خلع عنا ، كما ارتضينا  
بالامس ما ايد فيه اباه في خلعه علينا . فنحن ابدأ رهائن عوارفه ، ولسنا  
نرى في كل ما يهب لنا غير فيض من مننه !

فصرخت الخيزران بنواح شرس : لا ، لا ، يا هارون !  
وقالت زبيدة ملتاعة ان لا . وردد يحيى ما جهرت به المرأتان . وزاد  
فهتف : انا منطلق الساعة الى امير المؤمنين اقنعه بفساد التدبير . ألا انصرف ،  
ايها الرسول . انا في الطريق الى مولانا الخليفة !  
وصاحت الخيزران : اذهب . اذهب اليه وشدّد في استبقاء الرشيد في  
ولاية العهد . الغد بين يديك ، يا يحيى !  
وابدت زبيدة بارتعاد : لا ترجع الينا الا وقد ثبت هارون في منصبه .  
كلنا يتكل عليك ، يا ابا الفضل !

فنهر بنفرة بما آلت اليه الحال في البلاط : لن اعود الا ظافراً ، او  
قتيلاً . فإما ان يثق بي امير المؤمنين ، وإما ان يقتلني . ستسمعون من  
اخباري ما تطمئنون اليه !

ووثب الى قصر الخليفة سهماً زفوفاً . ان الأعداء ليبغون سحق العظام .  
وكان يقول في نفسه ، وهو يختلس السبل الى القصر : ما سدّد الينا الطعنة  
غير لبابة وحسنة والربيع . كانوا حرباً علينا في عهد المهدي ، وما يزالون

يضطهدوننا ، ويجنحون الى تدويننا . ولكننا أيقاظ !

وبدا منه انه في متفاهم الحدة . غير انه صمم على خطوة لن يرجع عنها . فالرغائب لا تدرك بالحمول ، والجهد مقدور في نيلها . وما كاد ينأى عن صرح اساس ، حتى كانت الخيزران وزبيدة تدنوان بغيظ من الرشيد صارختين به ، وقد كادتا تلتهمانه : ما بك تطوي جناحك لدى اضعف صرخة ؟ ... أتكون من البغاث ، وانت سليل الشواهين ؟ ... ما نراك الا ترتخي لدى كل بادرة يفجأك بها اخوك . فابن ضلاعتك ؟ ... ألا تدري انك تمثل في الدولة الكفة التالية في ميزان الحكم ، وانك اشبه بالخليفة ، وانت من يجيء بعده في المرتبة ؟ ... هذه الميعة فيك تقملنا . سيضحك منا الهادي حين يعلم انك تحاذلت حبال إنذاره ، كأنه قضض فيك العظام . ألا احفظ فينا ، برباطة جأشك ، صلابة المكسر ، والا اخزيتنا . أنتهار لدى الصدمة الاولى ، كأنك من خزف ؟

فهتف : لا اويدها ناراً اכולاً في دولة شيدناها بعد دهر كامل من استهانة باقدارنا . سواء قبض على الناصية موسى ، او هارون ، فالدولة ما تزال عباسية الطابع ، لا يتبدل فيها عنوان نقشه ابو العباس بنائى سنانه ، وادى عنه بنو قومنا دمماً رويماً ، زكياً . انه ليطيب لي بلوغ الذروة ، والاستئثار بالحكم ، ولكن هل لي ان اشاغب ، واضرمها معامع ضروسا ، وقد عزت عليّ الامنية ؟ ... خففا من غلوائكم . ما الهادي بذلك الغريب عنا ، وهو منا وفينا . هذا ابنك ، يا خيزران ، وابن عمك ، يا زبيدة . هذا اخي ابن ابي محمد المهدي . فكيف تدعوانني الى مناكرته ، ولن اكون عدو شقيقي ، فانخر نفسي بيدي ؟

فزجرت الخيزران ، وفي منطقتها وجبينها تعقد الشراسة عالي قبائها :  
هو شقيقك ، الا انه خلعتك مما نصبك فيه ابوك من حظوة . أيصيبك منه  
هذا الحيف ، وتظل ترعى فيه حرمة الاخوة ؟ ... انك لتلين حتى تسمي  
مجسماً مبذولاً لكل غامز . أفلست ابن المهدي والخيزران ؟ ... اذكر من  
انت ، وادفع عنك عيائك . فانك لتتضاءل بما يزيل عنك مناعة العرق .  
ان يكن الهادي سيفاً ، فكن مجسماً . والا فكيف تروم اقتعاد سرير الملك ،  
وكسب مودة الامة ؟ ... فالامة لا ترتضي سيداً مرضوض الذرع ، وهي  
تصبو الى غطريف يقودها بصلافة تجفو الخنوع . فاذا ما جررتها وراءك ،  
فانها لتطيعك اكثر منها وانت تسير وراءها . فقاوم الهادي اذا أصرّ على  
عزلك ، ولا عليك اذا غرقت الدولة العباسية في الدم . فإن يتجهم لك  
الظفر ، فلا كان الملك ، وسواك سيحلب الضرع !

فلم يكثر الرشيد لتحرير امه وامراته ، وفيهما تحتدم البغضاء  
والرهبة . وابن تسمي الخيزران وزبيدة وقد ازرى الهادي بمكانة اخيه ،  
وحرمه المقام المنيف في الوسعة العربية ، وهو فيه تلو امير المؤمنين ؟ ...  
فالتعس يستصفي فيهما كل ذرع ، ويبيطان اشبه بالجثث المحنطة . فيتحدث  
عنهما الناس كما يتحدثون عن هياكل الامس الدارسة ، بالكلام المبهم  
الجاف ، وقد مات فيهما شأو الطماح والعزة . وما تشتهيان ، من دنياهما ،  
غير السمين من العلالات . قال الرشيد يطفئ فيهما جذوة النار : ألا صبراً  
ريثاً يقبل يحيى البرمكي !

واحمد غلبانها المستعر وهو يحدثهما عن يحيى . اجل ، عليهما بانتظار  
البرمكي ، ماحي المهانة ، ومقبل العثار . والبرمكي لقي من يمهده له الى

امير المؤمنين. ورأى ان يستعين عليه بالدهاء. فيذلّ حيا له حتى يكاد يتبخّر. ويعد بالطاعة. ويدعو الى التؤدة. كأنه نسمة خير، وشعاع يمن. وقبّل الارض في حضرة الهادي، كما اعتاد تقبيلها في حضرة المهدي. ولم ينهض من سجده الا وقد اباح له ابو جعفر الوقوف. فوقف، ولكن كالتقوس. ولم يرقب ان يجيز له الهادي الكلام، فقال: نحن في قبضة امير المؤمنين اسياق الحق، واجناد الولاة. فاذا مثلنا بين يديه، فلا نأقي لسوى اعلان الخضوع، وابداء الاجلال!

والهادي لمس في يحيى المواربة، وهو يلتوي ازاءه، ويستكين حتى يكاد يصبح هباء مذروراً. وضحك منه في نفسه. وادرك الباعث على هذا الخنوع. ما لاح رجه البرمكي لسوى درء الغاشية عن الرشيد. وتكلم الخليفة، فقال هازئاً بالفارسي الداهية: ألا ماذا، يا يحيى؟ ... اي سانحة مباركة تدفعك الينا؟ ... هل من حاجة لك فنقضها؟

ولقد اصغى الى رسوله الى الرشيد قبل ان يأذن ليحيى في الدخول. وتبين من اقوال الرسول استخذاء اخيه، ورضاه عما أصيب به. من تنحية. كما ألمّ بما افاضت به الخيزران وزبيدة من احوال. بل هو اطلع على رغبة البرمكي في المجيء اليه، قبل ان يسقط اليه ان البرمكي بالباب يلتمس الوقوف في رحاب امير المؤمنين. وتاق الى سماع هذا المتهاك على ارضاء الخيزران، وعلى الذود عن مكانة هارون. باي كلام سيخاطبه ويستعطفه في ما لا يبيح الرجوع عنه؟ ... قال يحيى ببسمة فرض عليها الميعة والغلو في الزلفى: ادام الله عهد امير المؤمنين مشرقاً وطيداً. ليس لنا الا ان نبتهج وقد تولى ابو جعفر الامر فينا. فيرفع من شأننا، فيما

يسوسنا ، بما وهبته العناية من سخاء قلب ، وعفة ضمير . ولسنا نتردد في اقرار حكمه في ما يقدر علينا ، وليس يحالنا وهم من ارتياب بصدق النية ، وصواب المرمى . فما يعلن خليفة الرسول هو الحق ، والعدل ، وليس لآياته المنزلة تبديل ، ولا لحكمها التواء . الا ان المفاجأة بهذه الآيات تدعونا ، احياناً ، الى الجرأة على امير المؤمنين في التماس ارجائها ، لا نحو سطورها . ولولا انها الغيرة على الخليفة ، ابقاه الله خفّاق الراية ، لاحجمنا عن كشف ما في الصدور من حوافز الاخلاص !

فتعاضم مطلب البرمكي وضوحاً . اقبل يجيى للشفاعة في الرشيد ، والتطويل له في ولاية العهد . وظلت نبوة السخر فاشية في مقال الهادي ، فقال متجاهلاً : ألا افصح ، يا يجيى . ليس في مقامنا متسع للالغاز . ماذا تريد ؟

فاعلم البرمكي بمتناهي الاحتشام : لا اريد ، يا مولاي ، بل ارجو ، بل اتضرع اليك في ما يوحي به اليّ ضميري من خير لدولة تعتر بانك حاميتها . شئت ان تنزع ولاية العهد من اخيك الرشيد ، ولا امتعاض مما ابرمت ، ولا جدال في ما ذهبت اليه حصافتك وبصيرتك . وما تدرك انت ليس لمثلنا ان يفتن اليه ، ولا ان يشكّ في ما ينضح به من الروية اللباب . وان الرشيد ليرضى التنزل عن حقه ، وقد رأى مولاي الخليفة ان يستعيد منه ما كتب له ابوه . ولكل هل من السعي السديد ان نستلّ منه هذا الحق ، وما برح المهدي نديّ التراب ، يملأ دنيا العرب بروحه ، وخياله ، كأنه ما يزال يسود ؟ ... ليس للرشيد ان يتمرد على مشيئة امير المؤمنين . لا والله ، يا ابا جعفر . ولكنه الميل الى اقرار الامور في مواضعها . فاذا

ما انتظرنا النضج في جعفر ، فليس في الانتظار دليل على عناد الرشيد ، ولا على حرمان ابنك ما يشوقك ان يتبوأ من سلطان . وما لطفل ، ابن ست سنوات ، ان يتولى رتبة هي في الدولة دعامة . فهل يضير مولاي لو ابقى اخاه في المنصب ، ريثما يشب جعفر ، حرسه العناية ، عن الطوق ، ويمسي خليقاً باعتلاء الارائك السامقة ؟

فوقع الهادي في بيان البرمكي على مكنتز الحجا . ليس لجعفر ان يتولى مقام ولاية العهد ، وهو ذلك الطفل الجاثم في سنواته الست . بيد ان الخليفة لم يشأ ان يؤيد فوراً مؤدب الرشيد ، وفي التأييد العجلان ما يدل على طيش وعقم تدبير . فتظاهر بانه على اطراق ، كأنه ينظر في ما يعرض عليه يحيى بن برمك . وتجلي ليحيى انه اصاب من الخليفة ملمس الاقناع ، فقال :  
أیظن امير المؤمنين أن الناس يسلمون الى ابنه الامر ، وجعفر لم يبلغ الحنث ، ويرضون به لصلاتهم ، وحجهم ، وغزوهم ، وهو الحديث العهد بالفظام ؟ ... اخشى ، وقد خلعت عنها اخاك ، ان يسمو اليها جلّة اهل بيتك . فتخرج من ولد ابيك الى ابناء اعمامك ، وكلهم يشخذ لها المطامع . وتكون قد حملت الناس على النكث ، وهوت عليهم أيمانهم . فلو تركت بيعة اخيك في مستقرها ، وبويع جعفر بعده ، كان اوكد . حتى اذا ما بلغ مبلغ الرجال ، سألت اخاك ان يقدمه على نفسه ، فيظل الامر في ابناء ابيك ، ولا يشره الى الامنية الحيرة من يعزلكم عنها ليستأثر بها !

فازداد الهادي يقيناً ان البرمكي يذيع حقاً . وما تمالك ان اعلن :  
نبتتني الى ما لم اكن منه على معرفة ، يا يحيى . ليس لي ان اهدم ما بنى ابي . اجل ، جعفر لم يدرك مرحلة الحلم . فلنبتق الامور كما هي ، ريثما يبلغ

ابني أسدّه . وعندذاك ادعو الرشيد الى التنزل عن حقه في سبيل جعفر ،  
وتمضي الحالة في نهجها القويم !

فابان البرمكي ، والفوز الوشيك بالارب ملاً قلبه اغتباطاً ، رقد تعجب  
من ادراكه البغية بسهولة لم يرقبها : وهو خير ما يفعل امير المؤمنين !  
على ان الهادي استوضح ببعض ربية : وهل يوافق على هذا الرأي  
اخى هارون ؟

— ليس هارون ان يمانع في ما يريد عليه امير المؤمنين !  
قال الخليفة : اذن فليعهديني على اعتزال رتبته يوم يجاوز جعفر عهد  
الصبا . فلن اقدر عليه الذل وهو اخي . على ان يسرع في الموعد الى  
الوفاء . فلا يكرهني على انتزاعه عنوة من مقام تخلى عنه طوعاً !

فاعلمن يحيى : وهو ما سيفعل ، يا امير المؤمنين . ساقوده اليك لمبايعة  
جعفر ، ولك ان تعهد اليه في المنصب حتى الاجل الموعود !  
فوافق الهادي على المطلب ، قائلاً : لا بأس . ليأت الينا هارون ، يا يحيى .  
فليس لمن نجلهما أبٌ واحد ان يتناكرا !

فنهقا يحيى الى صرح اساس في طفرة الصقر . ودخله هاتفاً ، لا يتأسك  
لبليغ فرحته : ابن السيدة الاثيرة ؟ ... ابن الرشيد ؟ ... ابن زبيدة ؟  
فهرع اليه الثلاثة يستطلعون عينيه ، وفمه ، مخبره . فصاح بمديد الجذل :  
ما رغبتا فيه نعمنا به . بشراكم !

فنهقت الخيزران بمخض البهجة : هل بقي الرشيد في ولاية العهد ؟  
— بقي فيها ، يا أم موسى !  
فراعاها ما يذيع . واستفهمت بقصي الدهش والجبور : وكيف وفقت



للبيغية ، يا يحيى ؟ ... هل أوتيت قوة السحر في موسى ؟ ... ألم تكن هناك لبابة وحسنة ؟

— كنا وحدنا ، يا مولاتي . فخطبت امير المؤمنين بما فتح عينيه للصواب . قلت : « أتولي ابن ست سنوات مقاماً لا تسعفه السن في التوفر عليه ؟ ... ما ضرتك ان تستبقي الرشيد ، ريثما يبلغ جعفر عهد الحلم ؟ ... فهل يخيل اليك ان هذا الوليد يقوى على تدبير قومك في صلاتهم ، وغزوهم ، وحجهم ؟ ... ما ان يجول ابنك ، في مراتع الرجال ، حتى يتنزل له الرشيد عن حقه في ولاية العهد . أما ان تفرض عليه ، اليوم ، التخلي عن منصب لا تجد من يتولاه من ابنائك ، فكأنك ازلت الخلافة عن بيتك لتهبها لمنافسيك . وما اكثرهم في هذه الدولة . فتق باخيك . ولا تلق الامر الى من لا يبرح لدن الاهاب ، عاجزاً عن مغالبة هوجاء الريح ! » . فما تمالك ان صدق ما كشفت له عنه . وجل ما سألتني فيه ان ادفع اليه الرشيد ليعاهده على ما استنفدت في بلوغه الجهد !

فتقلص عن الخيزران البشر ، وهي تلمّ بالتدبير . فالعزل لم يُنقض حكمه . وزعقت خشياً : ألا ماذا اقدمت عليه من مستضعف البدعة ، يا يحيى ؟ ... لكأنك اضعت هارون !

فالتفت اليها باسماً ، لا يحفل فيها بسورة الحدة . وقال بمنهل الطمانينة : لا تجزع سيدتي الاثيرة . ما انتهيت الى هذا المخرج بسوى مشقة . وهو كل ما يسعنا ان ننال من الهادي . وعلى سيدتي ان تتقبل برضى ما احرزنا ببليغ الوكد . سيبقى هارون في مكانه من ولاية العهد ما يجاوز السنوات العشر . ومن يدري ما سوف يدهمنا في هذه الحقبة . فهل نسيت مولاتي ما قص

عليها المهدي من رؤيا ؟

واشار الى ما تراءى للمهدي في المنام من قضيب يورق كله ، ومن قضيب لا يورق سوى اعلاه . والقضيب المورق كله يرمز الى بقاء الرشيد طويلاً في سدة الخلافة . على حين ان القضيب المورق اعلاه ، وحسب ، يعلن قصر عهد موسى بالمنصب الاول في الدولة . فصرخت الخيزران جازعة : ولكن من يثبت لي صدق الرؤى ؟ ... قضيت علينا ، يا يحيى . عبثت بمشيئة المهدي واجزت لاعدائنا التفوق . لم تكن ذلك المحضك البصير في ما بلغت . واضيعة العمر ، وقد تلاشى كل ما تعبنا ، على مدى سنوات فساح ، في إحكامه . هويننا عن مرتبة العز . واحسرتاه !

فقال يحيى يمنع عنها التداعي : لا ارى ثمة ما يهيب ببولاتي الى الاسى . فكل ما استطعت نزعته من امير المؤمنين استلته بعزيمة غلابة . واني لاخاف ان يعدل عنه اذا صورت له لبابة وحسنة الاذى في ما اتفقنا عليه . اعتمدي على الغد ، وانت الراجحة . يكفيننا ان نظل على حالنا ، ومجالنا ساعة نحن فيها . وليس لاحد ان يلمّ بخفايا الآتي ، يا صاحبة الجلالة !

فنشر الصمت الحائر بساطه على المكان . فاليأس والرجاء اعتلجا في كل صدر . فلم يكن للاربعة ان يرضوا ، ولا ان يغضبوا . على ان الغضب رجح الرضى في ضمير الخيزران وزبيدة . اما الرشيد فما بالي . ومع اعجاب البرمكي بنفسه ، وقد عاد من المهمة في شبه غلبة ، لم يقوَ على ابداء الابتهاج بما حاز بعدما جبهته الخيزران بالنفرة . على انه ودّ لو رسخ الهادي في ما تواضعا عليه ، فلا تخرج به امرأته المرموقتان ، لبابة وحسنة ، عن العهد المقطوع واوجعه التردد في اجابة امير المؤمنين الى ما اقرّ من رغبة . على الرشيد

ان يسرع الى اخيه كي يعاهده على تخليه عن ولاية العهد، يوم يتزعرع جعفر،  
ويسمي ذا رشد ونضج . و حار البرمكي في ما ينهج من اسلوب لدفع  
هارون الى البلاط ، مع عناد الخيزران . فما وعد به يحيى لا بد من انجازه ،  
والا انقطع عن صرح اساس ، ان يكن فيه غير مسموع النصح . قال يجهد  
جهده في الاقناع : ليس افضل مما كان ، ايتها السيدة الاثيرة . واحسبك موقنة  
باخلاص يحيى البرمكي . ان اخلاصي لهذا الصرح ينهد بي الى الايمان باننا ،  
في ما استعدنا من حظوة ، ابعد ما نقوى اليوم على استصفائه . فلينهض  
هارون الى اخيه ليعالته المواممة ، ويجاهره بالطاعة !

فهتف الرشيد : ها انذا ، يا ابتاه . اني لاجد الهدى في ما ذلت  
وادركت . وما كان للهادي ان يهادنا بهذا السماح ، لولا ان تبلغ منه بجدة  
ذهنك ، ودهانك ، ما ليس لذي لب ان يدنو اليه ، بعد الازماع على  
المناكرة . اعدت الينا المجد فيما يوشك ان ينبوعنا ، يا ابا الفضل !

فدمدمت عليه الخيزران بهلع ونقمة : أهذا الاستخذاء تحاول ان تبلغ  
قدر الرجال ؟ ... يا حبيبتنا فيك ، وانت هذا التكلمة !

فقال يحيى متأففاً : دعينا ننظم امرنا ، يا ذات الجلالة . يحيى ليس على  
ضلال . فمن الرشد الامثل ان نرضى بالمعروض علينا . اعيد القول ان موسى  
لن يعمر طويلاً . وسنظل في مرتبتنا ريثما تحطمه المنون . وما ان يلتوي ،  
حتى نفر الى الاعنة فنقبض عليها ، وندير شؤون الدولة بلا عياء ، كأن ما  
اقرّ ابو عبدالله لم يتبدل . وليس لطفل ان ينازعنا مقاماً مكتوباً لنا ،  
وولاية العهد لا تبرح في قبضتنا . اذا نظرت مولاتي ببعض الروية في ما  
اخاطبها به ، ايقنت اني انطق بالخير ، واصبو الى الجدوى . مصلحتنا في

ان لا نعيد قيد انملة عما ننعم به من مكانة أيّدة !

وامسك بذراع هارون هاتفاً : هلمّ ، يا ولدي !

فاذاع الرشيد : اني لمنطلق الى حيث تزجيني ، يا ابتاه . هيا !

وبرحا معاً صرح اساس ، والحيزران تمييز حنقاً . الا ان قياد الامر ،  
وقد افلت منها ، قضى عليها بالاذعان المكره . ربما كان الهدى في ما يدعو  
اليه يحيى . وارتمت السيدة الاثيرة مبرطمة ، مبرورة ، في مقعد قريب منها .  
تقلقل المجد ، وهانت العزة . باتت أم موسى مغلوبة على امرها . وكانت ،  
لبضعة اشهر خلّت ، الدولة على قصي رحابها . وظهرت فيها الضعفة  
فاطلقت الزفرات . انها لفي ازمة منكرة من الخيبة والزراية . وتوعدت  
ابنها موسى . سوف يرى الانكد . انها لطالع شوّم ساعة انتفاضه في حشاها .  
وصممت على ابادته ، وما تلقى ضيراً في نحر ولدها . هذا جماح لواعج الاوتار .  
ونظرت الى الغد . فان لم تصدق رؤيا المهدي ، زوجها ، فستقدر عليها  
الصدق . هددت مراراً بقتل الهادي ، وستقتله إن هو مضى في معاندتها .  
قالت وكل ما فيها على ارتعاد لفرط غضبتها : عليّ ان ارقب مسير الاحداث .  
فاذا جرت في الصعيد غير المؤاتي ، زجرتها بما املاً به بسطة العرب اعوالاً  
وزييراً !

والاحداث لم تنصر الحيزران . فيما كاد الرشيد ويحيى البرمكي يقفان  
في حضرة الخليفة ، حتى ابتدرهما ابو جعفر بقولة جازمة ، تقطر امتعاضاً :  
ما اتفقت عليه ويحيى لا سبيل فيه الى الانجاز . عزلتك عن ولاية العهد ،  
يا هارون ، وخلعتها على ابني جعفر . فليس لك ان تمارس سلطانتها ، ولا  
ان تعتمضم بمنعتها ، وانت نقيّ منها !

فاستقرت عليه الاعين الاربع بشده . ما كان هارون والبرمكي ليرقبا  
ان ينقلب الهادي على نفسه في لحظة . ولاحق فوراً ليحيى اصابع لبابة  
وحسنة تلعب بنهية امير المؤمنين ، وتقوده الى ذبح أمه بمدية الجلاد  
هدر الغلّ دم الخيزران !

لبابة وحسنة بالمرصاد. فلا يخطو الحليفة خطوة، الا وتحسبنا عليه. ولا يفضي بكلامه، الا وتدققان فيها، وتستجلبان مرماها. كأنهما، وقد لمستا فيه الضعف حيال أمه، اضحتا تخشيان عليه الانزلاق في فسخ الخيزران. فتسلبهما اياه أم موسى، وتخذد شموخهما، وتعود الى غمرة الدلال فتهادى فيها بمخمور الفياش

ولبابة وحسنة منذ ابصرتا البرمكي، في البلاط، رقبتا اندلاع الغاشية. ما يقبل يحيى لسوى النسف والتدمير. فيستأصل ما اجتهدتا في غرسه، وتعللتا بنائه، وقد بات المأمول في القبضة. وهرعتا الى مكانهما من ابوان ابي جعفر، تنصتان كالاعتاد. وسمعتا ما ابدى البرمكي من رأي، فهزت كل واحدة منهما برأسها، وصرفت باسنانها. فما يحيى والخيزران غير ثعبان وافعى، اندسا في بطانة الثوب العباسي للدغ كل من يحاول اصلاحاً، ويروم إحكام ميثاق

قالت حسنة وهي تكاد تتمزق حقداً: أسمعتِ؟ ... انه ليطنخ له السم، ويدعوه بمكر وقحة الى التهامه. لكأنه الخيزران. وانه لمنها. فلا عجب وقد تعادلا. ألا كيف يطلب اليه استبقاء الرشيد، في ولاية العهد، ريثما يكبر جعفر، فيرضى موسى؟ ... أما يعلم انه يقضي على نفسه، وقد ابقى في الجو جرثومة من وبيل الوباء؟

وكادت تثب الى صدر الديوان فتصيح بالبرمكي: «ألا اخرس، يا وجه الشؤم. ما تحوك الا شركاً تنزع به الى اصطياتنا. ولكننا اصبحنا على

بيّنة من نفاقك . اطرده ، يا امير المؤمنين . بل اضرب عنقه ، وانقذ الدولة من غدره ومينه . فما يريد الا فساداً وشراً ! » . الا ان لبابة امسكت بها تكرهها على الجلوس ، وقد قرأت في عينها ما تسعى له من فضيحة . وخاطبتها بلهجة الامر المتجلي في نظراتها ، وفي كلماتها العنيفة على خفوتها : مكانك . ما فات الاوان ، وما تزال لنا الى امير المؤمنين سبيل فنعالنسه بدمامة المأرب !

واختلجتا معاً ، وهما تسمعان امير المؤمنين يوافق البرمكي على مقصده ، ويطلقه الى الرشيد كي يأتي به اليه ، فيعاهده على المهادنة . وكالسيل الجارف تدفقتا على الخليفة صاهلتين : أتظل تكبو في الخطو ، يا موسى ؟ ... أيقودك ابدأ البرمكي في خدمة مكايده ، فيضرم تحتك النار لاحراقك ، ولا تحس باللهب يلتهم جنانك ومهجتك ؟

وهتفت حسنة ، باكفهرار وغيظ ، وهي تحس بالارض تيمد بها : ولكنهم يمتنون النفس برويا ابيك . أما جاءك ما افاض به ابوك عن قضيب يورق اعلاه ، وقضيب يورق كله ؟ ... حسبوا ذلك القضيب المورق اعلاه عهدك في السدة ، وفسروه بانه غير طويل الامد . على حين يمتد عهد هارون وتتدلى فيه عناقيد السعة واليمن . واذا ايد صرح اساس رغبتك في خلع الرشيد ، والمناداة بجعفر ولياً للعهد ، على ان يبقى الرشيد في المنصب لا يجلو عنه الا وقد كبر جعفر ، فانه ليتعلل بزوال ملكك في الوشيك ، وبانتقال السلطان اليه . وكأنك ما عزلت هارون عن ولاية العهد وانت تبقيه فيها ، ريثما ينمو ابنك ، ويدرج في رحبة الرجولة ، وسيظل الذئب يعيث شراً في القطيع . وان لم يكن صرح اساس ينطوي على سوى هذه المخبئة ، فمن

المفروض عليك هدم اركانها وهو يتقاسمك ، وما تبرح ملء الوجود !  
فانارت ذهنه بما كان منه على خمود بصيرة . ونظر اليها طويلاً كأنه  
يزداد من عينها المتوهجتين بالضعينة بياناً و يقيناً . ونضضت شفتاه بقولة  
مدهوشة ، كالمستيقظ بعد نشوة : صدقت ، يا حسنة . والله ، اصبحت المرمرى .  
ما في صرح اساس غير نيات فاسدة ، ومطامع مسنونة . لا ، وتربة جدي  
المنصور ، لن يبقى الرشيد لمحمة في ولاية العهد . كدت ابقيه فيها عشر  
سنوات ، وربما اثنتي عشرة سنة . ولكنه غير جدير بها . فالمنافقون لهم من  
عقاب ربهم ما يعرفل مسعاهم الدنيء، ويقوؤ امنيتهم السفهية . وضع لي من  
مكرهم ما لم اكن منه على جلاء !

فقات لبابة : اراك استسلمت اليهم بما اضاع فيك البغضاء . ومن لا  
يبغض ، يا امير المؤمنين ، فلن يفتن الى المكاره يتقيها . ليظل فؤادك مخضباً  
بالحقد . فالحقد وحده ينير سبيلك ، ويكشف لك عما يحاول فيك اعداؤك  
من ضيم ، فمتحرز من دسائسهم واحابيلهم !

فنبه : واني لهذا الحقود ، يا لبابة . غير ان رفيقي بامي يقدر عليّ صفاء  
النية . اما وقد وضع لي مكر الثعالب ، فاني لانزل مني الضعينة منزلة الحلم .  
سوف يبدو لكما من تقمي على اولئك المهازيل ما يخضخض فيهم الروع .  
فالبرمكي مقبل اليّ بهارون ، وستريان وتسمعان ما يكون مني فيهما .  
فصبراً !

وهاله ما يلوح له في أمه من خدعة . أصفح عن مكايدها لحرمانه حقه  
في الخلافة ، كي يلقي منها هذا الختل الدميم ؟ ... أتظل الخيزران تلك  
الخيزران ؟ ... ورقب عودة البرمكي بصحبة هارون . واقام على فائر



الحق ومتفاهم الجفاء . سيزلزل الارض بالانكاد . وما كانت لتهدأ فيه  
الغصص ، وقد امسكت بخناقه . فالعلّ فيه على طفاح . وعقد ناصيته ،  
وغارت عيناه تحت رفر من حاجبيه ، لتجحظا في وقيبهما وتطلقا السهام  
الرهاف . لم ينصفه حظه ، وقد اقام له من أمه واخيه عدوين يسعيان لاذلاله .  
عدوه في عبّه . وما انحنى بين يديه الرشيد ، والبرمكي ، حتى استدلا من  
اساريه انه على قطوب ونفرة . بيد انهما علّلا هذه البادرة بطبع فيه  
غليظ . اما وهو يفجأهما بقولته اللاطمة ، فايقنا ان الرأي المعلن التوى  
فيه ، فمحا معالم ما اتفق عليه والبرمكي ، وقد عكّر الحُصوم ، المقيمون على  
خشية ، زلال الماء . واستوضح البرمكي والبشر يغيض فيه ، والاضطراب  
يسود نهيته : ولكن هل يذكر امير المؤمنين ما اذن فيه ، ودعا اليه ؟ ...  
ما جئنا الا امتثالاً لمشيئته ، ننادي بالتنزل عن ولاية العهد ، ونبايع بها  
جعفرًا المعبوط اليمين !

فهدر موسى : والله ، انك وصحبك لمن الغش في منتهى آماده ، يا يحيى .  
أيطيب لكم ان تثبتوا هارون ، ولو لزم من موقوت في ولاية العهد ، كي يرثني  
حين اموت ، استناداً الى ما ذاع فيكم من رؤيا المهدي ؟ ... ألا سفه ظنكم .  
لا عيشن في جلباب الخلافة حقبة ما احسب ايامكم تمتد اليها . فما انتم الا  
كالحنافس ، يسحقها وطئ . ألا خففوا من عنجهيتكم ، والا نثرت لحومكم في  
مهب كل عَصوف . ارهب نعتي ، يا يحيى ، ولا تطوح بهذا الغلام الرخص .  
فانك لتقوده الى المهالك وانت تزين له الغدر اقداماً ، والحسة رفعة . وابلغ  
الخيزران ان زمنها مضى . فان يكن لهاها يضيّق بها ، فلن أفق عن اذقتها  
حتفها . لكأني اراها تستطيب الولوغ في دمها !

ففتف البرمكي هالعاً : ولكن امير المؤمنين يسيء بنا الظن . والله ، ما  
عرضت لنا رؤيا المهدي في خاطر . فما التمسنا من ابي جعفر ، الابقاء على  
الرشيد ، لزمان موقوت في ولاية العهد ، لسوى رغبتنا في صون الخلافة من  
التنائي عن هذا البيت الصفي . اما وامير المؤمنين ينفر عما استصوب ،  
فليس لنا ان نكرهه على ما لا يطمئن اليه . فالرأي ما يبدي امير المؤمنين !  
فاحتدم الهادي حتى قصر عن مداه ايوانه . وجهر بمسنون نبوة : انك  
لتبحث عن قبرك ، يا يحيى . لاهديتك اليه الطريق . ما عرفنا لولاك في  
هذا السيل من الدسائس . فكأنك مارق من الدين ، لا تردعك عفة من  
خلق عن المشاين تنغمس فيها . اما والله ، لتكوننّ عبرة . ضلّ ابي مبيع  
الرشاد وهو يفسح لك الينا . بل ضلّ جدي المنصور ، على بعيد حنكته ،  
عن مصلحة الدولة وهو يجيز لأبيك الاتصال بنا ، والاندماج فينا . ستعلم  
من امرك ما يقهر فيك كل شغب ونفاق !

فشعر البرمكي بالزوبعة تجتاحه . بل شعر بالنار تندلع عليه وتوشك ان  
تلتهمه . وتذكر ما انفق له في زمن المهدي ، وقد نقم عليه ابو عبدالله  
بتحريض حسنة . حسنة بعينها ولسانها . ونفاه الى ازربيجان يتولى زمامها .  
ولقد نجا يومذاك بغوث من الخيزران . اما اليوم فمن له ينقذه من الورطة ؟ ...  
قال بمرضوس لهجة : ابقى لنا الله امير المؤمنين ، وليس لنا ان نخالف له  
بغية . فان يكن يجد في قبلي ما يزيد في مجد هذه الدولة ومنعتها ، فلست  
الجل بدمي على احياء المجد ، وتوطيد الركن . ها هوذا عنقي ، يا مولاي !  
فصرخ به الهادي : دمك لا يوطد ولا يحيى ، ايها المراوغ الاسأم . بل  
يدفع عن الاجساد عضات ذبابة موجعة . فلا يحيل اليك انك ترجع ذبابة

خبيثة تزجج وتمض ، ولا خلاص منها بسوى طمسها . وكنت أطنخ يدي  
بدمك . الا اني استنكف ان يصيبني منه رشاش لا يذهب عني ننته . فالى  
السجن ، يا نسل ابليس . أتزع الى المخاتلة ، وابقيك تسرح وقرح على  
هواك ؟ ... لا ابقاني الله اذا فعلت . ألا اقبضوا عليه واسجنوه !

ولم يكن باضطرار الى التصفيق في دعوة حاجبه اليه ، والحاجب سمع  
زئير امير المؤمنين وهفا اليه ملياً . ووقعت عيناه على يحيى البرمكي ،  
وقد طأطأ يحيى الرأس حتى كادت هامته تلتصق بالارض ، واعلن بنحشوع  
وخوف : لتكن مشيئة سيد امري ونعمتي !

فاشار الهادي الى البرمكي مذبذباً بسخط : اودع هذا الوقح سجن  
المطبق ، ولا تبع له ان يبصر النور ، ولا ان يخاطب مخلوقاً . وكبل يديه  
ورجليه بالسلاسل ، ولا تهب له في يومه غير كسرة من الخبز ، وطاساً  
من الماء !

فتمتم يحيى : ليس لي الا ان اشكر الله وقد التفت اليّ امير المؤمنين !  
فزاد هذا الاستسلام في موجدة الخليفة . ونهض ويده بمسكة بمقبض  
سيفه ، مجلجلاً ودمه في عروقه على جيشان وطفرة : صه ، لا أمّ لك . لا  
تخرجني فاخطف رأسك !

فاختمق الكلام في صدر يحيى . وقبض الحاجب على ذراع البرمكي  
المكظوم الغيظ ، وجرّه الى المطبق الرهيب . وهو سجن مظلم انشأه في  
بغداد ابو جعفر المنصور لمعاقبة العصاة . وشيع الهادي اسيره بنظرة تستشيط  
فيها السخائم ، وبسحنة ربداء تستطيل نزوات . وجنح الى اخيه الرشيد يقول  
بصوت أجشّ ، قاصم : كأني بك تحدث نفسك بتمام الرؤيا ، يا هارون .

ولكنك ترجو ما ينبو عنك ، ودون ملتمسك غزو السماء !  
فما بين الرشيد ولا تلعم . ومن العجيب ان لا يجبن ولا يتلعم في  
الموقف الصعب ، وهو المفطور على الوداعة واللين . بل قال يندد باخيه حيال  
ما بداله من قسوة الهادي على يحيى البرمكي ، وخروجه عما نشر من  
عهد : على رسلك ، يا امير المؤمنين . فمن تكبر اتضع . ومن تواضع ارتفع .  
ومن ظلم انخذل . لئن انتهى الامر اليّ لاصل من قطعت ، وأبرّ من حرمت .  
ولا يصيرن اولادك اعلى من اولادي ، وازوجهم بنايي ، واقضي بذلك حق  
الامام المهدي عليّ !

فطمأن المقال الانيس من حدة الخليفة ، والتمع في وجه الهادي السرور  
فهتف : ألا ادنُ مني ، يا هارون . والله ، انعشت نفسي بما زففت اليّ من  
نضير البيان . ما غاب عني انك شقيق نفسي . الا ان للايام احكامها القاهرة ،  
يا ابن أمي . فاذا ما نضوت عنك ولاية العهد ، فلن انسى ان ارفعك الى  
حيث تمسي وكأنك الدولة . دع لجعفر ابن اخيك المجال الى السؤدد ، وكن  
له نصيراً ، فتجري الامور برأيك ، وتوقن انك قابض بجمع يدك على الناصية .  
ان جعفرآ ليستنيم الى عمه في تنظيم الامر ، وهو يلقي في الرشيد كنانة  
الرشد !

فنهض هارون وقبل يد الخليفة ، اخيه . وتراجع الى مكانه في زاوية  
الايوان . فصاح به الهادي : وحق المنصور والمهدي ، لا جلست الا معي ،  
في صدر مجلسي !

وقرّبه اليه . وعاد الى التصفيق ينادي حاجبه معلناً : الا ابن قيم  
بيت المال ؟

فما استعان به من عنف ، على سلخ ولاية العهد من اخيه ، فرض عليه الاسترضاء . وبدا قيّم بيت المال يسلم وينحني ، حتى يكاد ينقصف . فجهر الهادي : احمل الساعة ، الى هارون الرشيد ، اخي ، الف الف دينار . واذا ما فتحت الحراج فانطلق اليه بالنصف !

وساق قوله الى الرشيد مديعاً : اعتمدني ، يا هارون ، كابيك . بل كشريك لك في الحكم . فلن اناذي برأي لا يظفر بتأييدك . ولن اعقد صلة لا تحوز موافقتك . هذه الدولة ، وقد احكم المهدي بنودها ، واقامنا على نواصيها ، تدرج بمشورتك ، وحادثة فطنتك . فلا تبطن لها الا الخير . ولا تلمس لها غير النجح . ما جعفر ، وهو ابن اخيك ، سوى ابنك . وكأنه قطعة من كبديك . فاذا ما تنزلت له عن حقلك ، فكأنك لا تزال تقرّ عيناً بهذا الحق . وليس من حقد بيننا يرين على الارواح ، ولا من عداء يفصل بين القلوب !

وسعى بوفر من لين ودهاء لتضميد الجرح النزيف . فركن اليه الرشيد ونام على الاذى . لن يثور على اخيه ويقتل فيه الامنية الجموح . فاذا افلقت منه ولاية العهد ، فما برحت في بيته تنشر عليه ظلالها الوادعة . وحسبه ان يكون شقيق الخليفة ، وان يمسي غداً عم الخليفة ، وكان السؤدد ما يزال رابضاً في العرين . قال يجيب اخاه عما ازجى اليه من انيس التصافي : ما كنت لابغي ان تقوم بيننا الشحنة ، يا امير المؤمنين . فالمهدي ، رحمت الله عليه ، ما دعا الى الحُصام ، وقد قسم بيننا المجد . الا انها المطامع الناهدة الى الاستئثار بكل جليل ابعدت بعضنا عن بعض ، وما من دافع الى المصاولة . ان من يدرك شأن الاخوة ، ويدين بمذهب جمع الشمل ،

مؤمناً بركة الرحم ، ليزيب من نفسه لاجل وحدة العرق . اراني واياك  
وابنك من حزمة واحدة ، يا موسى . وكل ما سألك فيه ان تعفو عن  
البرمكي . فليس يجيى ، مؤدبي ، بالعدو ولا الشانىء . ان هو الا غرسة  
بين ايينا وصنيعتك . وانت من ابقاه في مهمة انتدبه لها المهدي . أما وكلته  
بي يتقف أودي ، ويشق لي الطريق القويم ؟

فابتسم الهادي ابتسامة تنهد الى الملاحظة . وقال برفيق نبوة : هلا وهبته  
لي لبعض الزمن ، يا هارون ؟ ... لن تلمّ به غاشية . الا اني احاول  
ترويضه بما لا يفسد بيننا الالفة . فهو من اعداء وحدة هذا البيت ، كأن  
شهوته ان يرتع في خصومتنا . أفما تراه يلتمس لنفسه الرفعة بالمناجرة  
باكفاننا ؟ ... ما دمنا على انفصال ، فهو صاحب الرأي والمشورة ، المنتفخ  
الصدر زهواً ، والمعنى في حبك الدسيسة . واذا ما اتحدنا هان شأواً ،  
وضاق سعيماً . على اني سأعلمه ، وهو يرسف في اغلاله في المطبق ، نبل الروح ،  
وكرم المهزة . فلا تقلق عليه . وحق جدك المنصور ، لن تصاوله داهية !  
فاعلمن الرشيد : ولكني ، وقد اقبلت واياه ، يا امير المؤمنين ، يعزّ عليّ  
ان ارجع الى صرح اساس وحدي . فإما ان تسجننا معاً ، وإما ان ننصرف  
معاً ناعمين بملكك الوسيح !

فضحك الهادي بمخضّل البشر . غير انه بشرّ لا يخلو من مصانعة ،  
وقد اراد به ابو جعفر التخدير . وألقى يده الى كتف الرشيد وقال : لا  
عليك . لن تطول اقامته في سجنه . أفلا تبيح لي ان اطهره من ارجاسه ؟ ...  
هي ايام قلائل وستلقاه بعدها لديك !  
فرهب الرشيد ان يعود الى أمه عاطلاً من يجيى . فما يكون من

الخيزران وهي تبصره ينكفيء اليها على رجل واحدة، مخذولاً، اقطع؟ ... فلم ينل حظوة الاعتصام بولاية العهد، ولو لمحدود الاجل، ولا تقهقر عن البلاط سليماً من المعاطب، وقد ابقى في قبضة الهادي مؤدبه يحيى. وعاد يسترحم. فاقصاه عنه الخليفة بخالب القول، ومطول الوعد. واضطر الى الانصراف على خيبة. فماذا جاء يفعل في البلاط؟ ... ما كان له ان يجاري البرمكي في الاجابة. والبرمكي جنى على نفسه، وقد امسى في المطبق، ذلك المحبس الرابع، ولدى السماع به تنهد العزائم، وتنخلع الافئدة. وجنى على الرشيد، وهو يسوقه الى الخليفة ليجرده عفواً من ولاية العهد، كمن يمدّ عنقه طوعاً لنصلة البتار. والخيزران رقت هذا الانتقام الاسام، وابت على الرشيد ان يدرج الى اخيه. ولكن يحيى انتصب كالقضاء، يمانع في ان تعاني كلمة يذيعها الامتهان والفشل. آه، كم يجهل ابن برمك ما ينضح به البلاط من اخاديع، وقد حفل بلبابة وحسنة!

ودلف هارون، على ارتباك، الى صرح اساس. وودّ لو كان هذا الصرح بعيداً فلا يبلغه، وهو الملمّ بما سوف يصدمه من نقمة وبغضاء. فلن تبقي الخيزران على شتيمة الا وتلطه بها. وليس يجهل امه. فالخيزران اذا فارت اشبه بالزلزلة. فتنكسف الارض، ويفور الفلك

واحس بالوهن يعتريه في رجعته الى صرح اساس. فاخذ يقدم رجلاً، ويؤخر اخرى. ويجتهد في تقصير خطوه كي يطول المجال، ويبعد عنه مرأى أمه الغضوب. وضلّ عن قصده في حمى من الدهول والحشية، كأن في رأسه أتوناً يتضرم. بم سيخاطب الخيزران لاطلاعها على الفاجعة الرمداء؟ ووقف بباب الصرح وقد حرنت ركبته. فلن يمثل في حضرة أمه ممزق

الكرامة، مبدد الهمة . ويحث عن عذر سديد يتقي به حنق السيدة الاثيرة . فكيف يدراً عنه الغضبة القاصمة ؟... والخيزران كانت تنتظر ، على غصّة ، عودة هارون ويحيى ، ولا تؤمن بنجاحهما . فهي على ياس من بقاء الرشيد في ولاية العهد ، مع كل ما يعلله به اخوه من منى ، لم تكن ، في عرف الخيزران ، غير طبخة خادعة من صلب الحصى . ولاح لها الموكب يعود ، وقد استقرت باحدى شرفات مخدعها ترقب اطلالته . وانحنت لتري ما يتقد في الاسارير من بوارق . أتطرب الخيزران ، أم تلهف ؟ ... وراعها ألا تبصر إلا هارون . فانسلخ وحده من الركب ، وحبا الى مدخل الصرح متضععاً ، كالأعزل في غزوة . ألا اين يحيى ؟... وانتفضت السيدة الاثيرة . وهفت الى الباب وكل ما فيها على حيرة وجزع . وصاحت بملء صوتها صيحة مرعوبة ، دلت على ما تعاني أم موسى من وهلة : ألا اين البرمكي ، يا هارون ؟

فتلجلج . أيصارحها بمقر يحيى بن برمك ، ويحدثها بما نالهما من قسوة الهادي ؟ ... ونظر اليها مشدوهاً ، وقد عصاه البيان . فتبينت في نظريه النكبة الصالحة . وصاحت هالعة : ألا اطلعتي على امره ؟ ... هل بطش به موسى ؟

فظل راسباً في صمته ، كأنه اضاع النطق . فصرخت به وكل ما فيها على احتدام وذعر : ألا ما بك كالجُماد الاصم ؟ ... هلا تكلمت ، وزحزحت عني الوهلة ؟

وودت لو انسلت فوراً الى جنانه تكشف عن سره . فمطمط بنجل ورهبة : نقض الهادي ما ابرم . فما كدنا نقف بين يديه لمعالنته النزول عن



حقني بولاية العهد ، حتى اذاع فينا انه يؤيدني في خلع الولاية عني ، ولكنه لا يعهد اليّ فيها ريثما يتبرع ابنه جعفر . مخافة ان نكون استندنا في التخلي عنها الى رؤيا المهدي من طول عهدي بالحكم ، وقصر عهد موسى . فنصانعه لنظل سادة الموقف . ويدركه الموت ونحن ارباب الامر . فينتهي الينا الحل والعقد ، وكأننا لم ننفض منا الحق الاثيل . وتضيع على جعفر السدة العليا . فابان يحبي خطل الرأي . فغضب الهادي ، وندد بيحبي ، واتهمه بالزندقة والزيفان والافساد . ودفعه الى المطبق !

فزعت ولم تكن تتالك لشدة غيظها وذعرها: هل دفعه الى المطبق?...  
ويحك ! ... أتهدني ، يا هارون ؟

فتمت بذلة والتباعد : لا هديان ، يا أماء ، بل حقيقة ناخعة . يحبي بات في السجن . واني لاخاف عليه من اذى الهادي . فما اجابني الى الافراج عنه وانا اسأله فيه . بل دعاني الى التريث لبعض الحين . فقي نيتيه ان يكسر شوكة العداة في يحبي !

فهزت الطعنة الخيزران وحطمت اضالعا . واحتدمت فيها سورة الخنق ، واستأسد فيها الوجل ، فساد الشجوب محياها . ان حجب البرمكي عنها لتدويخ لها . فتضيع في تدبير شوونها ، وتبيت هزيلة القدرة ، مرضوضة العصا . وتولاها العبي ، كما تولى ابنها . فالمصاب عقد لسانها وأذلها . ويجهد استطاعت ان تستوضح بكلام عليل ، مكفهر : أيكون يحبي في المطبق ؟ ... واويلاه !... قسم الهادي بهذه الضربة ظهري . ألا من هيجبه علينا بعد رأفته بنا ؟  
ودنت من الرشيد تقول بشبهه انهيار في عزوماتها : عدمت أمك .  
أرأيت مبلغ انتقام اخيك منا ؟

وشاع في صرح اساس نبأ اعتقال يحيى البرمكي في المطبق ، فارتجّ الصرح ، كأن احدى العوادي الشداد صبّت عليه مراهبها . بل كأنه فوجيء بصاعقة احقرت ودمرت وروّعت ، لا تبقي على حلم ، ولا على دعامة . ووقف الجميع واجبين لا يفيضون بنامة . وشعرت الخيزران بوهن في همتها ، فدعت اليها عتبة تتكىء عليها ، كما تتكىء على الرشيد . وماجت في الصرح غمغمة ناعبة تعلن : أصيبت ذات الجلالة بشبه غيبوبة !

والخيزران بلغت مضجعها لتنبطح فيه ، كغصن كسرتة العاصفة . وتعالى انينها كأن الداء فتك بها . وانطفأت فيها جذوة الابانة . فعصف الرعب بجميع من يظلمهم الصرح ، وخيم عليهم كابس البحران . فهم حيال رزيئة غاشمة . على ان هذه العانية ، المهیضة الذراعين والرجلين ، الشلاء اللسان ، المحتضرة ، ما لبثت ان زحزحت عنها شبح الموت ، ووثبت من فراشها تصيح بمساطرير الضغن : ولكن موسى لن يريح في المصاولة . بل سوف يندم على ما يكلفنا من ارهاق . نحن لن نموت ، والروح ملء الوهج فينا . فالموت للمعتدي العاق . ألا سوف ترى من ينهدم منا ، يا موسى !

وما كانت في هذيان محموم . فالانقلاب من العلة الى البرء تجلي فيها ، كأنها تجتاز اعجوبة . فعادت فجأة الى الزهو والوعيد ، كما كان شأنها في اوج سلطانها . وتعجب جميع من حولها من هذا التبديل الرهيب . أتكون اقوى من الداء والعياء ؟ ... أما تذنها الخطوب على احتدامها وعنقها ؟ ... ورنّت اليها العيون متهيبة مرتاعة . وظل السهو سائداً ، وقد شعر القوم بانهم حيال الخوارق . فتفتحت الشفاه دون ان تجود اللسان بنطق ، وليس في جميع هؤلاء المبصرين من لا يؤمن بالمعجزة . ومضت الخيزران في تهديدها تقول :

وقعت الواقعة ، يا بني أُمي . ولم يبق علينا الا ان نتشابك في معركة تحرق  
الاحياء ، كأنها تقضض في هشيم . فالويل لموسى !  
وحشت على اضرار الفتنة . ستندلع من صرح اساس هبة تصوح البلاط  
ومن فيه ، لا ترعى حرمة للخليفة ، ولا لئسائه واولاده . وشعر الناظرون  
الى أم موسى بان الخيزران لن تذهب ضحية مبتدلة . فستكافح الضيم حتى  
آخر نسمة بين حوانيها . وتكلمت عتبه ، فقالت بجماسة غضبي : لا يزال  
في هذا المعقل ، من دنيا العرب ، بأس وشتم لا تلوى لها هامة . فمن  
وهب لنا عز الامس فما ينفك ينفحننا بالمناعة !

وسكت الرشيد . ما حاول اتقاءه تسعى أمه لاشعال ناره . فالتنافس  
في الجاه والسؤدد يقض المضاجع ، ويؤرث بين القصرين . ولكن أيشهد  
الرشيد المعركة ؟

خطر له ان يرحل عن بغداد في جولات شواسع ، في اطراف البلاد ،  
يلهو فيها بالصيد ريثما تنجلي الغمامة الفاحمة . وليصقر الهادي ولينقر ما شاء .  
خلا له الجو . الا ان الرشيد حاذر ان يفضي ، على مسمع من أمه ، بما في نفسه ،  
ولن يسلم من سخط الخيزران . فهي تريده رجلاً لا خنثى ، حتى اذا ما احتدمت  
بينها وبين الهادي ، كان الرشيد فارس الرهان

وتعجبت من هذا التقهر في هارون عن اخيه ، وهو من هزم الروم  
في حربين جارفتين . أيججم المقدام ؟ ... على انه اذا حجج ، فلن تهون هي ،  
ولها من صلابة جأشها ما لا يقر بانكسار . ستفرع الى كل حيلة في محو ابنها  
البكر . ولن يلومها اهل النظر ، وموسى ينتهك فيها رهبة الجانب ، وشموخ  
الناصية

واطرقت تفكر في ما تعتمد عليه من عدّة في النفس . ولم تجد غير  
السم منقداً من الدهمة . فتوفد الى موسى من يطبخ له ، في قدر الطعام ،  
الموت . وصهلت كالجواد في معترك الاسنة : اليّ ، يا عتبة !  
وارادتها على خلوة . ستباحث واياها في ما تقرّ من تدبير . ولن تعدم  
من يلقم الهادي المنية ، وقد بثت في البلاط العيون على وفرة . وثمة من  
يحسبهم الهادي من الخالص ، وهم جواسيس عليه للخيزران

قالت السيدة الاثيرة تعالّن عتبة ، وقد ضمتها حجرة خالية ، أحكمت  
الخيزران ايضاد بابها : لا غنية عن الفتكة الحاسمة ، يا عتبة . هلا دعوت  
اليك أمة العزيز ، جاريتنا في بلاط المهدي ، فنبلعها ما ننوي ؟ ... هي  
نفسها ستدس السم ، ولها مني جائزة ترفعها الى ذروة الرغد . سيروي اليها  
واطلعها على اللبانة . بل اوفدي اليها من يهوس في سمها انك تحتاجين الى  
محدثتها في امر جسيم . وليكن لقاؤكما في دار نائية ، من دور انصارنا .  
فلا تبصر كما عين . واليك بالسم . ما على أمة العزيز الا ان تصبّ بضع قطرات ،  
بما في هذا الحقّ ، في طعام الهادي . وعلى موسى العفاء !

ولم تتلعثم الخيزران وهي تحرض على البطش بابنها . ولم ترهب . كأن  
هذا المنبثق من احشائها ليس منها . وكان في موته فرحتها . فقالت عتبة  
وهي على دين مولاتها : سمعاً وطاعة ، يا ذات الجلالة . رسولنا الى أمة  
العزيز يرقب ايماءة . سأزجيه على الفور الى البلاط . وسألقي في العشية أمة  
العزيز حيث تعودت ان اراها !

فتناولت الخيزران من صدرها حقاً صغيراً ، أعدته للحواسم . وألقته في  
يمين عتبة دون ان ترتجف يدها ، وهي تقول : لتكن الحكمة رائدها . فلا

تعرّضنا ولا تعرّض نفسها للفضيحة . فالموقف يفرض السرعة والحذر !  
قالت عتبة بثقة غلابة : لتطمئن مولاتي . سيجري الامر على هواها !  
وأخفت الحق في عبا ، وهي تعاهد الخيزران على الصدق في الوكد ،  
والنجاح في المسعى . وانطلقت الى من تعودت ان توفده الى أمة العزيز  
تدعوه الى التسرّب بطمار ذوي الحفاصة ، والنفاذ الى قصر الخليفة مدعياً  
الرجم بالغيّب . ولا بد ان تبصره أمة العزيز وهي تعرفه ، فتناديه ، وتحلّو  
به فيطلعها على رغبة مولاتها

وفي الغروب كانت عتبة تلقى أمة العزيز، وتذيع فيها مشيئة أم موسى.  
فارتجفت أمة العزيز حيال العباء الفادح، وتمتمت بوهلة: أتطلب مني السيدة  
الاثيرة الفتك بامير المؤمنين ؟

وما أوتيت القدرة على اداء الكلام ، وقد طاو لها العبيّ ، وشاعت في  
قسامتها الصفرة . اي مهمة كاسحة تنتدبها لها الخيزران ؟ ... ولمست فيها  
عتبة الملح ، فقالت ببسمة تحيي بها المهمة الخائرة : هل تعدوك المهمة ؟ ...  
ولكنني اعرفك ذات مضاء . فاين ما كنت تتباهين به من وسع ؟ ...  
أنحشين سوء المعبة ؟

فنظرت اليها أمة العزيز نظرة من تضطرب فيه الروح، كأنه على اصفاء.  
وقالت وهي تغصّ بريقها : أنحفي عليك ما تفوض اليّ السيدة الاثيرة من  
رهيب الجهد، يا عتبة ؟ ... ألا ما يكون مني وقد انكشف امري، وافتضح  
سري ؟ ... اي عذاب جائح ألقى ؟ ... سيتفتن ارباب القصر في الانتقام  
مني بما لم يسبق لذهن ان ابتدع من ضروب التنكيل !  
فلم تنفثع بسمة الاغراء عن محيا عتبة . قالت : ولا تنسي اي نعمة

ستبخترين فيها وقد فزت بالارب. فالخيزران ستهب لك من الوفر ما تنوين  
به . فيحالفك السعد ، وتغوصين في البهجة . لم تدخلي القصر لسوى العمل  
برغبة السيدة الاثيرة . وهذه احدي رغباتها . فما عليك وانت تقدمين على  
تحقيقها?... اذا كنت ذات اقتدار ودهاء، فليس من يدري بك. وستضربين  
ضربتك وتنصلين منها . وبوسعك ان تنوحي على الهادي، وقد اوديت به،  
شأن حسنة في المهدي . اذاقته السم وملأت الارض ولولة تفجعاً عليه .  
وربما نالك من الخطوة ما تستمتع به حسنة نفسها . فيتزوجك الرشيد ،  
وتستقر بك القدم في حرم امير المؤمنين : فإن تكوئي ذات طماح، فاجبي  
أم موسى الى ملتسها . انت حيال وجهين . إما اليمن الاوفى، وإما البؤس  
الاشأم . والابقيت كما انت . جارية مغمورة، محبوسة على زريّ الخدمة !  
ورقع مقال عتبة من نفس أمة العزيز موقع الاغراء . فومضت عينها  
ببارق الخيرة ، ولكنهما ما خلتا من دفء المواءمة . وتقاسمها الخوف  
والطمع . فاذا رفضت مطلب الخيزران، هانت . واذا اخفقت في صبّ السم،  
دهمها الهوان . فلن تنجو في الخالين من مبيد المكروه . على حين اذا توفرت  
على رضى السيدة الاثيرة، وافلحت، فاليسر مكتوب لها . وقد تبلغ ما تحتلج  
به نفسها من منى . قالت والآمال تردحم في اعماق الضمير ، وتطفئ بعض  
طغيان على فورة الوسوس : ابلي السيدة الاثيرة، يا عتبة ، اني ساكدح  
في شهوتها . هاتي الحقّ . سأتكلم في امري على القدر . فاذا ادركت المرتجى،  
فلي من حسن حظي ما يخلع عليّ الانس . والا انتهيت الى اسوأ ما يتسكع  
فيه ذو شقاء وحسرة . سأخطو خطوة مكتوبة عليّ ، يا ابنة أمي ، فلا  
حول ولا ...

فسرّ عتبة ان تبلغ من أمة العزيز مكمين الافناع . قالت : لا اراك في خطر . فاذا اتقيت بصيص العيون ، فانت سالمة . كوني من امرك على يقظة ، وليس لبال ان ينالك بظنة . فان للاقدار يداً تسعف في الشدة . ولا احسبك تتدمرين وقد ارتقيت بجهدك الى اخدار امير المؤمنين ! فسكتت أمة العزيز . فالمهمة الثقيلة العبء ، الرهيبه التبعة ، مالت بها الى التفكير الشاق . فهي في ذهول عن نفسها . بل هي في خوف من نفسها ، وستندفع في وثبة مجهولة العاقبة . فإما تبلغ بها القمة ، وإما تغرق في قعر اللجة . بل في لجة لا قرار لها

وانفصلت عن عتبة على اطراق شفّ عن خاطر شنتيت ، وذهن تعبان ، احست بهما انها مكرهه على امرها . فليس لها ان تعاند الخيزران في الامنية ، والا لقيت حتفها ، حتى وهي تعتقد انها من الامن والطمانينة في امنع مقام . كأن الملكة ترقبها اني مالت . وكادت تضع عن طريقها لفرط ما ساورها من مخاوف . كيف تدس السم للمهادي ؟ ... أتلقيه في طعامه ، أم تمزجه بشرابه ؟ ... أتغفل الطهارة ، وتصب القطرات القاتلة في قصعة الخليفة ؟ ... ولكن قد يأكل من هذه القصعة كل من جلس الى مائدة ابي جعفر ، فهل تقدم أمة العزيز على محوة جارفة ؟

ودخلت البلاط متجهمة المحيا ، مرتعشة الخطوة . انها المدعوة الى زعزعة ركن دولة ، وتبديل مسير الزمن . على انها ، مع كل ما يختلج فيها من بلبلة ، ما استطاعت ان تحيد قيد هذب عن شهوة الخيزران . وما غاب عنها انها مجبرة على الامتثال لطلبة السيدة الاثيرة ، وانها اذا افلحت فالخير أجيورها ولم تكن تجهل طهارة القصر ، وقد توسمت في رئيسهم الحنين اليها . فهو

يسعى لخطب مودتها ، وفي عينها السوداوين ، الواسعتين ، ما يتمثل به  
ظبيات الصحراء . وكذا في الازدلاف اليها . وانشدها فتيق الشعر . الا  
انها حيزت عنه الصبوة . فلن تبدل نفسها لخدم ، وهي بغية امير المؤمنين .  
فكان يجد الهادي في انوثتها الريا ما يهيج فيه الشوق . فيرشف الوجد من  
ناظرها الدعجاوين ، كأنه يقع فيهما على مبعث فتنة

وهي ذات رقة وغنج . الا ان الحُبث المنشور فيها لا يبيح جليساها  
الركون اليها ، وملامسا اللينة تتبطن الانياب الحداد . والهادي ، مع شغفه  
بها ، اتقى فيها عضات المكر . فيهتف بها وهي تتودد اليه : والله ، ان  
عينيك لتجمعان الضدين ، يا أمة العزيز ، وفيهما الروعة والغدر . فاني لاستنشق  
منهما عرف الصبابة .. واخشى عمقهما وليستا تستقران على ولاء . فكأنك من  
فئة الثعالب ، يا فاجرة !

فتضحك حتى لا تكاد تفيق . ويدغدغها الهادي فتزداد ضحكاً . وتبيت  
كتلة مائعة لا تتماك . وتجاهد في البيان وقد ثابت الى رشدها : عفو مولاي  
عني . انه ليظلمي في سوء ظنه بي !

ومن كانت في هذا الموقف السامق من الخليفة فلن تلقي قيادها الى رئيس  
طهارة . الا ان حاجتها اليه نزعته بها الى المسألة . فهي باضطرار الى استعداداته  
على امير المؤمنين ، بل الى الانتفاع من غفلته للقضاء على الخليفة . فان  
ولية نعمتها ، الحيزران ، لتقدر عليها اختلاس روح الهادي . وستختلس أمة  
العزيز هذه الروح ، اجابة لالتاس أم موسى ، المالكة منها الناصية ، والمتلاعبة  
بها كعصفور مقيد بجيظ ، تتجاذبه يد طفل حرك

ونادت أمة العزيز رئيس طهارة القصر تقول بفضفاض الغنج : ماذا



اعددت لنا اليوم من فاخر الحلوى ، يا ابن سكباجة ؟ ... أليس لديك ما يروق العين والفم ، من شهيةٍ مأكّل ، وطيب فاكهة ؟  
فادهشت فيها هذه الطلبة المعسولة الاداء، الحميلة الرنة، ورئيس الطهارة، وما عودته اياها أمة العزيز، المسرفة في الصدّ والدلّ. فهتف بنبرة من مرح: ولكن اذا خلا القصر، على رحبه، من الطعمة الزكية ، فسأعدّ لك منها ما تبتهج به نفسك . بروحي انت من روعاء خلوب . الا ان لديّ طبقاً من الفطائر جهزتها لامير المؤمنين . فاذا شئت ان اجيئك ببعضها فعلت، وانت الغائبة . ستدرकिन منزلة ابن سكباجة وانت تذوقين فطائره اللذيذة . فمن المالح ان تكوني وقعت على هذه المتعة . قليلاً واعود اليك بما يملأ شهوتك، ويميل بك الى الرضى عن هذا المجفوف ، المستमित بمودتك ، والراجع عنك بالاخفاق والمذلة !

وهمّ بالانطلاق الى البغية . فنادته أمة العزيز بحدة : يا ابن سكباجة ، لا تتعب نفسك في حمل الفطائر اليّ ، وساجري الى التهامها في وكرك . اني اللاحقة بك فوراً !

وهزت اليه ركبتيها، فصاح: ألا مرحباً بالكوكب الزاهي ينير ظلمات أتسكع فيها !

وما ابطأت في اقتحام مخدع الطعام ، ويدها تجسّ حقّ السم . ستنتثر قطرات الموت على الفطائر ، وتحقق رغبة الخيزران في نسف امير المؤمنين . واقبلت على الطبق ببسمة القانصة ، تذيع باكبار حفيّ : انك لسيد من أعدّ طعاماً ، وارضى معدة ، يا عطاء . فانت تهب عمراً آخر لمن تجود عليه بلذوى اطاييك . سلمت يداك ، ودامت ايامك . ان امير

المؤمنين لهنيء الروح ، وهو ينعم من يديك بالمأكل السمين !  
واكبّت على طبق الفطائر تلتهم باعجاب هذه المعجونات المقلّبة بالسمن ،  
الطرية ، المحشوة باللحم والصنوبر . واتسعت في فم عطاء بن سكباجة ،  
رئيس الطهارة في قصر الهادي ، ابتسامة حمقاء ، لفرط ما انطوت عليه من  
مبعة الافتتان والصبوة . أمة العزيز لانت في محاطبته ليناً فيساحاً تسكاد به تسخو  
عليه بنفسها ، وقد اصلته بعد جفاء . وتعتعه هذا الانقلاب الموالى فيها . فقال ،  
وهو لشدة فرحته لا يكاد يجيد البيان : لست ارى من هو أحقّ منك بهذه  
الصفايا . كلي وابتهجي . فالرائع للرائع . والشهيّ للشهي . انت خير من  
يدرج في هذه البسطة من دنيانا ، فتمتعي بما جادت به عليك نفحة الدهر !  
فاكتفت بان تضحك ، وبان تمنع في الاتهام ، كأنها على ناهش جوع .

وظلت مخضبة المحيا ببسمة المرح والدلال . واذا بها تجلجل : ولكن اين  
الماء ، يا ابن سكباجة ؟ ... أفطائر تهيج العطش بافاويها الحرار ، ولا ماء ؟

فنبز : حباً وكرامة ، يا سليلة السحرة !

وانقتل الى ابريق الماء يملأه ، ويعود به الى الجارية المخاتلة . وكانت أمة  
العزيز قد رشت السمّ على الفطائر ، حتى لم تبقى في الحُقّ قطرة . واخفت  
الحُقّ برشاقة في عبها يتوسد مكانه ، وهي تجيل عينها في ما حولها ، وتتنفس  
عالياً بارتياح . ما من عين رأت . وضحكت لعطاء وهو يرجع اليها بالابريق  
الطفحان . وقالت مازحة ، آسرة : في عينيك بريق تحرقني ومضاته ، يا عطاء .  
أفتكون بهذا المقدار على جنون بي ؟

فصاح : وحق من براني من عدم ، اني لاجد السعادة في نظرة يتكشف  
لي عنها كحيل اهدابك . فكأن الحياة لم تفضح لي سرها الا وقد نوت

اليك . الا انك بالغت في تعذيب هذا المستهام ، حتى لكأنك تستحلين دمه .  
فاشققي على عبدك !

فتطيرت في سمعها قهقهة جمدها قلباها رعباً ، وقف شعر رأسيهما  
هلعاً . وأطلت عليهما وجه ساخر ، مخوف ، ما بصرا به حتى تلاشت فيهما  
كل عزيمة ، وران عليهما الاصفار . وفتحها فيهما بارتياح ، وما كانت  
أمة العزيز لتقوى على ابتلاع آخر لقمة قضمتها . واتسعت العين وهلة ،  
وارتجفت الركاب . وسقط من بين ابن سكباجة الابريق فتحطم . فاشتدت  
السخرية بالوجه الناقم ، المخوف . وجهر بنبرة قضاقت لها عظام الجارية ورئيس  
الطهاة : تابعا ما بدأتما من مؤانسة . فما بكما تغوران في الوجوم ؟

فاحس كل منهما بان الروح على وشك ان تلتوي عنه . وايقنا ان الموت  
ارحم لهما من هذه الوقفة الماحقة . وشزر الوجه الرهيب أمة العزيز بعينيه  
الشرستين مدمدماً عليها : أنت على غرام بعاء بن سكباجة ، يا كريمة  
النبعتين ؟ ... والله ، لقيت غطاءك . ما اراك الا من هذا العجين . لو  
ابلغتني انك منه على هوى لعقدت له عليك . ولكنك تداهينيه كما تداهين  
مولاك امير المؤمنين . الا ان زيفك وضع لعيني ، ومزق عنها الستور . بل  
انا اعرفك حرباءة ، لصة ، يا ابنة الفاعلة . ما نغشت في حجري الا لتخدعيني  
وتغدري بي . انت جاسوسة الخيزران علي ، حلت بك النعمة . فماذا  
رشتت على هذه الفطائر من حُق اخفيته في كملك ؟ ... ابصرتك بعيني .  
هاقي الحُق . هاتيه والا سللت روحك . أتكيدين لي وانا على ركون اليك ،  
فاطمئن الى نذالتك وانت لا تحرصين على عهد ، ولا تتصونين عن كفران ؟  
ووثب اليها يقبض على شعرها صارخاً بها بزجرة الضواري : اين

الحقّ؟ ... هاتيه ، والا فالموت يشويك . كنت بالباب وانت ترطين  
هذه الفطائر بما لست ادري ما هو !

وكان الخليفة بنفسه ، موسى الهادي . جال في مقاصير جواريه طلباً  
للعبت ، فلاحت له أمة العزيز تندفع الى مخدع الطعام في اثر رئيس طهاته .  
فمال الى معرفة ما هما فيه من سعي . بل وقف حيال مشهد بعث في نفسه  
الغيرة ، فاستطاب هتك الحقيّ . وما ندّ عنه انهما يتجاذبان الاثم وهو  
يسمع ما يتبادلان من حديث الهوى . فان في نفس عطاء لاشياء من الجارية ،  
وقد وقعت منه . وزوّى الهادي ما بين عينيه . أنخونه أمة العزيز لتهوى  
حقيراً في قطيع خدمه ؟ ... أنتطوي عن خليفة تسبح بحمده الارض ،  
لتعشق خادماً لا يرتقي ، مهما تناول ، عن طهي الاطعمة ، وغسل الصحاف ؟  
وبلع امير المؤمنين ريقه ، وقد ضاق صدره بانفاسه . وسمع أمة العزيز  
تطلب من رئيس الطهاة شربة ماء ، بنبرتها المغناج ، الخليعة . فحدق اليها  
بباصرتين تلفظان الجمر سخطاً وتنديداً . غير ان أمة العزيز ما كانت لتروى  
الى الباب ، وقد تناولت ، عجلي ، الحقّ من عنبها ، ونثرت ما فيه على  
الفطائر . فاختمها امير المؤمنين حيث تبدو له ، ولا يبدو لها ، ليتبين ما تقدم  
عليه من نكر . وما غاب عنه انها دست له السم في الفطائر ، وهي واثقة  
ان الاكلة صائرة اليه . وانتظر ريثما اخفت الحقّ في كمها ، وعاد اليها عطاء  
بالابريق . ففاجأهما بتلك الغضبة الشادخة ، يشقّ بها كيديهما ، حتى خيل  
اليهما انهما اصبحا نهباً حشرات القبور . وسقطت أمة العزيز الى الارض  
وامير المؤمنين يقبض على شعرها . ونزعت الى ابتلاع الحقّ . ستودعه احشاءها ،  
ولا بأس ان تتمزق هذه الاحشاء وتقضي أمة العزيز على حياتها بيدها .

فالموت نازل بها في كل حالة . لتقتل نفسها قبل ان يبادر الهادي الى الفتك بها . غير ان امير المؤمنين ابصر ابن اخفت الحُتقّ ، وفطن الى سعيها لابتلاع اثر الحيانة والغدر . فهوت يميناه الى يدها الممسكة بالحُتقّ لاذرداده ، وانتزعه منها هادراً : هل اغرتك الخيزران بدمي ، يا منتهكة الحرمة ؟ ... والله ، لاقتلنك بسلاحك . قومي الى هذه الفطائر وكلي منها . فاذا سلمت من الغائلة ، فانت حرّة لوجه الله . والا فتكون نصلتك قد غرزت في نحرك . ما عرفتني رحب الصدر كما ابدو الساعة . انهضي وكلي مما عطّرتِ او دنّستِ . ربما ظننت بك الاثم وانت منه براء !

فتعالى انينها . وما برحت مكبّبة على الارض لا تجرؤ على الالتفات الى الخليفة . وادرك الهادي من رعدتها ، ومن برودة يدها ، انها غير ناصعة البال . فرفعها اليه بشدة . وأمال بها على طبق الفطائر صارخاً بها وكل ما فيه على احمرار نقمة ، وكلوح بال : هلا أكلتِ ؟ ... إما الفطائر ، وإما هذا السيف !

وهدها بحسامه يشهره عليها . فأثرت الموت بالسم . وامتدت يدها الى الفطائر تبتلعها برغبة عزوم في الخلاص من جحيمها . فلم يبق لها في لوح العيش وسعة . وأكلت بسرعة ونهمة ، كأنها باتت لا تطيق البقاء بعد افتتاح امرها ، وظهور مكيدتها . فنظر اليها الهادي مدهوشاً . أيكون الحُتقّ خالياً من السم ؟ ... ألا كيف يطيعها فمها في التهام الهلكة ان تكن الفطائر تبطن الردى ؟

وما برح الخليفة على دهشه ، وقد وقفت عيناه الجاحظتان على الجارية المقبلة على مضغ الفطائر بلا تؤدة . فساوره شتات فكر ، واضطراب ضمير .

وحاول الكلام فبلي بالعمى . ماذا له ان يعلن ، وان يستوضح ؟ ... خاف ان يكون اذاع تهمة باطلة افترى بها على أمة العزيز ، وان يكون الحق حوى طبيباً لا سماً . وهذه الرعدة في الجارية ربما كان مصدرها الحشية من غيرة امير المؤمنين، وقد فاجأ جاريته في وقفة تبعث على الريبة ، لا الرهبة من دس السم في الاكلة المصطفاة ، وقد هام بها كابييه . فهل يموت بها كابييه ؟ ... وانتظر الهادي لاتعلو له نامة ، بل هو لم يتنفس بسوى جهد . فضاقت عنه صدره ، ولم تتسع الحنايا لكل ما يعرض للخليفة المشدوه من الاحاجي وظل يحدق الى أمة العزيز، ويرقب ما يحل بها . أياكون بطيباً هذا السم فلا يصعق فوراً ، ام ان لا سم هناك ؟ ... ولم يلتفت الى رئيس الطهارة المرتقي في الارض يودّ لو ينظف في العدم . فمن هذا المغمور المزدري ؟ ... وأمة العزيز امتنعت من الكلام ، وقد شغلت عنه حنجرتها بابتلاع الفطائر ترجيها الى امعائها ، بلا رفق . ولم يجد الهادي بدأ من قوله يعلنها ، فاستطلع : يشوقني ان اراك ذات معدة لا تتهيب التخمّة ، يا أمة العزيز . عوفيت . اصبحت اخشى منك حتى على الطبق . والله ، ما ادري ما يجب اليك هذا الشره . لكأنك قضيت عاماً على الطوى . ألا اخبريني ، أيجيد ابن سكباجة اعداد الطبيبات ؟

فاجابت ببرطمة : ما أكلت بنهمة لسوى اقناع امير المؤمنين ان الفطائر خالية من كل خطر . لتشلّ يميني ان تكن تمتد الى اذاك ، يا ابا جعفر ! على أن ما اطلقت من صيحة حادة ، تمور بالالم ، اردفتها بصيحات رهاف تنبئ بالغاشية ، دحض ما حاولت ان تبدو فيه من طيب سريرة . فالسم ، وقد مشى في دمه ، نهش اعصابها ، فاحتمت فيها الاوجاع الكاوية .

وامتقع لونها امتقاعاً فاضحاً ، رجح ما بليت به من شحوب فيما يدهمها  
الحليفة وهي تقدم على النكر. بل ازرقّ هذا اللون وارمدّ، كأن أمة العزيز  
جمرة انطفأت ، فكساها الرماد الادكن. وتعلمت وتدحرجت في الأرض  
تطلق الأنثاء النائمة ، المولولة ، كأنها تتمزق . وصاحت بالهادي: اقتلني ،  
اقتلني . دمي لك حلال . اين سيفك تغمده في صدري ؟

فجالت في شفتي الهادي بسمّة صفراء ، غضبي . وددمم على الجارية  
المطروحة عند قدميه يتشقى ويستقصي : والله، ما لمست منك طرفاً بوخزة .  
سأبقىك لاوصابك تفنن فيها . هذه خير مية اختارها لك حظك الاشأم .  
اذن لقد شدت ان تطعميني السم ، يا ابنة الزنادقة . أكلتك النار، ما الأملك .  
كنت على ارتياب بخلقك . الا اني ما اعتقدت انك ستستطيلين حتى تكيدي  
لي . ألا من علمك الدسّ لامير المؤمنين ، بل من زخرف لك اهلاكي ؟ ...  
أتعيشين في ظلي ، وتنعمن بخيري ، ولا تتورعين عن قصف عمري ؟ ... ألا  
تكلمي ، من اغراك بدمي ، يا فاجرة ؟

فظلت على مسنون صيحاتها : اقتلني . اقتلني وادراً عني كافر اوجاعي !  
فرعد : لن انقذك مما تكابدين من لذعة الا وقد بحت باسم من حرضك  
عليّ . فمن حنك على التنكيل بالحليفة ، من ؟ ... ألا تكون الخيزران  
هذه الافعى ؟ ... اوضحي وانت بمنجي من عذابك . ألسنت جاسوسة  
الخيزران علينا ؟ ... أما رشقتنا بك أمي ؟

فمضت في صياحها : انزع روحي من جنبي . اطعن بسيفك قلبي . انا  
لست حقيقة بان ارتع في نعمتك واحيا بفضلك . فاقتلني !  
ومانعت في بيان ما يدعوها الى الجهر به . واحرجت طول أناته فعاد

الى الاستنباء بغيظ : ولكني اريدك على الجلاء ، والا زدت في تعذيبك .  
فمن زين لك اجتثاث جذعي ؟

فأبت الايضاح . واكتفت بصيحتها : اقتلني ، اقتلني !  
قال وما يفتأ يحاول جرّها الى مصارحته بما في نفسها ، مع كل ما  
تختلج به عروقه من نفاذ صبر : سأقتلك وانت تذيبين في مسمعي اسم من  
رمانى بك . فمن هو ؟

فلم تخرج عن كتم تعتم به . لن تتكلم وتجر باسم الخيزران . محال . فلا  
بأس ان تموت فدى السيدة الاثيرة ، وهي غرسة يمينها . واستبطأها الخليفة في  
الاعلان ، فانتفضت فيه نغمته ، وقد تلاشى في صدره كل ما تصنع من حلم .  
وصاح ويده تمشق بآثره : اذن موتي في كيدك ، يا مشؤومة الطلعة . لا  
دفع الله عنك مقدوراً !

وغاص سيفه في جوانحها . فاهتزت وتنفست عن اغتباط . نجت من  
آلامها السخان . وتمتم شفتاها فيما تلفظ روحها : انقذك الله من أمك ،  
يا امير المؤمنين !

وكانها ابت الا ان تكافئه على ما اسدى اليها من جميل ، وقد ازال  
عنها الشدة . فاسارت الى من ساقها الى الشر تقتمحه ، وجادت ببقوى  
انفاسها . ووقعت كما ماتها الناضحة بالتهمة الجهبيرة في مسمع الهادي ، ففرز  
عينيه في المنكودة ، الراضحة بجوارحها في لجة الموت ، وهو يصرف باسنانه  
حرقه وقهراً . ايمن انه كان يربي في حجره صلاً . هذه جاسوسة أمه عليه .  
فالخيزران غررت بها وقادتها الى بؤرة التلف لا تبالي فيها حرمة المهجة .  
أفليس من وزن للارواح لدى الخيزران ، وليست تصون حتى ابنها من ويلها ؟



وطارت عن الهادي نغمته الجارفة على أمة العزيز ، الجارية المسوقة على  
رغمها الى النيل منه ، لتحط على أمه المستفحلة في الكيد والعداء . أمه تسخو  
به على المتالف تطيحه . وما استنكفت أمة العزيز ، وهي تودع دنياها ،  
من مجاهرته بالواقع . فافاضت بالقول الفاشي الظنة ، بل الحقيقة الراهنة على  
متماذي رحبها . ودعت للخليفة بالخلاص من شر أمه ذات البغي الجموح .  
وهذا الدعاء او كد حجة على مكر الخيزران وتحريضها الجاني . فغمغم الهادي  
وهو لا يتأسك : ليس لي ان ابقى عليها وبين اضالعها للدنايا المرعى النجيع .  
حياتها اضحت بخطر . إما انا ، وإما انت ، يا اخبث من عرفت من بني البشر !  
وازمع القضاء على أمه . لن تعيش الخيزران ما دامت لا تكف عن  
الذس والحتل . فما اسعد بسطة العرب وقد انقشعت عن افقها هذه العمامة  
الربداء . وانثنى ابو جعفر عن مخدع الطعام بوجه اسحم ، لا يكاد يختلف في  
كمدته عن محيا أمة العزيز ، العالقة بانياب الفناء . هذا السعي الملحاح في  
نفس الخيزران لقهره ، يدل على ما ينغش في السيدة الاثيرة من غلّ وسخيمة .  
فكأنها مراكبة من امهن معدن ، وفي قلبها الكبريت ، وفي لسانها النار !

انقضّ الهادي على ديوانه وفي صدره لظى ، وفي عينيه عمي . اية امرأة  
كأمة تنفجر اضطغاناً ، وتميل الى استئصال ابنها ، كي تسود ؟ ... ونادى  
امرأته لبابة وحسنة ، ووزيره الربيع . وزجر على مسامعهم بلهجة تغلي  
حنقاً وارقاضاً : ما اعلم بما احدثكم ، وقد دعوتكم اليّ لابلاغكم ما يموج به  
القصر من دسائس وحن . أمي اهابت بجاريتي أمة العزيز الى دس السم في  
طعامي . ولقد فعلت الزانية . واتفق لي ان اباعتها في محاولتها الزنيمة .  
فخدعت رئيس الطهاة عن نفسه ، وقد توددت اليه ، وكشفت له تملقاً عن  
ثناياها . ودلفت الى مخدع الطعام تنثت السم في فطائر جهزها لي عطاء بن  
سكباجة . ولو لم ابصرها في مسايرة المغفل ، وادهش من انحدارها اليه ،  
وهو احقر من نعلي ، لكنت الساعة من الهالكين . الا ان غنجها ، ودالتها  
عليه ، اوحيا اليّ ان ثمة خسة تحاك . فاندست في اثر الشقين ، ورأيت ما  
هاج له خاطري . نضت المستهترة عن حقّ مخبؤ في كمها ، ورستت بسائل  
منه الفطائر المعدّة لطعامي . فوثبت عليها اطلب الحقّ . فعاندت في الاجابة  
منادية بالامانة ، وهي ترتعش رعشة المسبوع . فقضيت عليها ان تأكل من  
الفطائر كي اوّمن بصدق طويتها . فاعتكفت عليها تودّ لو تبتلعها حتى بطبقها .  
وراعتني فيها القحمة . فخيّل اليّ اني تحاملت على البراءة الناصعة . الا ان السم  
لم ينشب ان كوى عروق الجارية الهالعة اللب . فتصاعد انينها وتدحرجت  
في الارض تستصرخني ان انقذها من رزيتتها . فعالنتها اني لا اهرص فيها  
الروح الا وقد باحت لي باسم من اغراها بي . فلاذت بالكتمان . فعالجتها

بالحسنى ، فاعتصمت بصمتها . فنفذ صبري وشققت اذالها برأس مهندي .  
فاطرها ان تنجو من اوصابها واوزارها . ومالت الى حسن الجزاء تكافئ  
به صنيعي . فاذاغت وهي تطلق روحها : « ويلك من أمك ، يا امير  
المؤمنين ! » . فزعزت ثقي بالخلق اجمعين . فان تكن أُمي تهبني للموت ،  
فمن لي يدرأ عني فتكات المنون ؟

فهتف الثلاثة ، وكانهم ينطقون من حنجرة واحدة : كلنا فداك ، يا امير  
المؤمنين !

على ان الهادي لم يكن يتماكب . فقدحت عيناه بالشرر . واحس بان  
كل ما حوله يمد . وتراعى له ان اجله دنا . فان تبغ عليه أمه ، فمن ينحرف  
به عن فوهة المكروه ؟ ... فجلبجت حسنة : ليست هذه بالمكيدة الاولى  
تدبرها الخيزران لاغتتيال امير المؤمنين . فهل نسي الخليفة ، ادم سعدة الله ،  
ما كان عرضة له من مهلكة ، يوم هجم عليه ذلك الخارجي شاهراً سيفه ،  
يروم المضرة ؟ ... فالخيزران سدده الى كبد امير المؤمنين سفرة جالحة .  
الا ان الله ردّ كيدها الى نحرها ، فباءت بالخزي والغضاضة . ولن تختلف  
وقفة اليوم عن وقفة الامس . فمن اراد لك الاذية ، يا امير المؤمنين ،  
عاجله بمثلها . فليس العفو ابداً من شيمة المقتدرين ، وانا اراد احياناً من  
عجز الحاكمين !

فبهر الهادي ، وقد تشبّهت الخلاص من أمه : لن اكون ذلك العاجز ،  
يا حسنة . وتربة جدي المنصور ، لن تلقاني في اكرامها واجلالها من حاولت  
تسميمي . فالموت للخيزران !

والتفت الى وزيره الربيع بن يونس يقول : من لنا بمن يطبخ لها السم ،

يا ابا الفضل ؟ ... سأنهد الى قتلها بما نهدت به الى قتلي . لا ابقاني الله إن  
مددت ايامها . هاتوا لي من يلقيها الموت كي انجو من قبائحها . فاني لاتعجب  
من نفسي كيف ابصر الخزي بعيني واتعامى عنه ، وانا من الكارهين لكل  
غدر وعصيان !

فنبرت لبابة : اضحى الصبر كلالاً ، يا امير المؤمنين . فاذا طال السكوت  
ادركنا الندم . لن نقف امك في المكايدة عند امد ، وستعدو كل حد في  
الظفر بالقضاء عليك . فحطّمها قبل ان تحطّمك . صدقت حسنة . لا راحة  
الا وقد نجونا من وجه الخيزران الصفيق !

وقال الربيع : عندنا من الجواري ، في صرح اساس ، من لا يخبئنا في  
النجدة . فليس لنا الا ان ندعو كي نستجاب . ماذا يقدر علينا امير المؤمنين ؟  
فهزّ الهادي رأسه ألمّاً . واعلن بلمهجة الغضبى : يقلق روجي ان ابدي  
ما أحنّ اليه ، يا ابا الفضل . الا ان من لم تتصوّن عن السعي للغدر بابنها ،  
فليس على ابنها ان ينام عنها . ولقد كان يتعامى عن عوراتها لو آمن بتوبتها .  
الا انها توبة الحية عن اللسع ، والذئب عن النمش . لن يصفو لي عيش  
وامي تنفس . فاستأصلها ، ايها الربيع ، كما تجتثّ الدمّل ، كما تقتلع الشوك  
من الخلق . فلست اطيق ان يبقى منها اثر يجذث عنها . لكنّ الارحام لم  
تلد الخيزران !

وجاد الخليفة الشاب بكلماته بتفاهم الخلق . هذه الممتنة عليه بالوجود  
سينفضها منه الوجود ، وليست تنقي الكيد ونفت الويل . قال الربيع بن  
يونس : سنفضي عليها ، يا امير المؤمنين . فلن يطول حبوها في وسعة الخلق ،  
وسيجلو منها الكون ، كأنه لم يحفل بها !

فزق الهادي يستحثّ وزيره على المضاء : ألا عجل ، يا ابا الفضل .  
كلما اسرعت خففت . لا اراني استويح الأ وقد وارت تلك الدمامة في  
احشاء العدم . وهبت لها السؤدد والاجلال ، فأبت الا ان تريق دمي .  
والله ، لاغيبها تحت اطباق الثرى مرضوضة العنق . لا تترددوا في الضربة  
ال بكر . في هذا الاسبوع على العرب ان يسلموا بمن افسدت عليهم الهواء ،  
وحجبت عنهم الحق . لو انصف ابوها لدعاها الحنش ، وهي الفائزة كلفاً  
بالعضّ والنهش . فليست تحتمل ان ترى سواها في نضضة من نعمى ،  
كأن خيرات الارض والسماء وقف عليها . ألا لتتشد الحقود الملام في  
عمايها . فانها لتتجشم ما تضيق عنه . اقتلها ودمها الموبوء في عنقي ، ايها  
الربيع !

فاعلن الربيع بن يونس بالحناءة الامثال : اضحت منذ الساعة فريسة  
التراب ، يا امير المؤمنين !

ولم يهرب الربيع مجاهرة الهادي بسعيه لتقويض امرأة خليفة ، وأم خليفة ،  
وقد نعاها اليه . وما استهجن ابو جعفر بيان وزيره ، فيما يصارحه الربيع  
بانه سيقتل له أمه . فليختلس روح الدساسة الشريفة ، وعفا عنه الله . قالت  
حسنة تخاطب الربيع باطمئنان جمّ الى ما ازمع الخليفة من تنكيل بالخيزران :  
أتعرف هؤلاء المتغفلات منا في صرح اساس ، يا ابا الفضل ؟

فاختلجت في فمه ابتسامة تغري بالتواطؤ ، وقال : ولكني اتكل عليك  
في معرفتهن ، يا ذات السنى . فلا احسبك تتهاونين في ارشادي اليهن ،  
وانت تعلمين اننا على وحدة في الهدف !

قالت ولم تبخل عليه ببسمة واعدة : سادعوهن الى المؤازرة ، وانصرك

على تذليل الحوائل دون مستطاب البغية. الساعة انصف امير المؤمنين نفسه ،  
وقد هدر دم الام السؤوم !

فاضطربت شفتا الهادي بالقول الرعاد: اجبنك الى ملتصك ، يا حسنة ،  
فجولي في مضارك !

وظل ابو جعفر لا يتاسك. ناء منكباه بما احتمل من أشر وضم . فذنت  
حسنة من الربيع تهمس في سمعه : جثني بالسم ، وعلّي التدبير . فلن اعيا  
عن الاهتداء الى من تحسم الداء ، وتفرّج الكربة !

قال يستسهل المنشود : ما أيسر ما تعهدين اليّ فيه . فالسم في القبضة .  
ولكن اين من تنفته في قلب الخيزران ؟  
فاجابت ببيان لا يقلّ عن مقال الربيع ازدرء للعقبات : ألا هاته لنقتل  
به فوراً عدوة الله !

وانفجرت في الفمين ضحكتان قاطعتان ترشحان ببهجة الظفر والتشفي .  
فقال الربيع بن يونس : سيكون الليلة في حوزتك . بنفسي سادفه اليك !  
ولم يخلف . ففي الغروب كان حقّ السم يستقر بيمين حسنة ، وترحف  
به قدمان رشيقتان الى صرح اساس ، ليقعد صدر الجارية مرجانة ، احدى  
جاسوسات البلاط على أم موسى . ومرجانة اذنت بما نال أمة العزيز من  
اخفاق وتنكيل ، وقد رشّت السم على فطائر امير المؤمنين . فهاها ما  
تسوقها اليه حسنة . أفلا يتشابه مصيرها ومصير الجارية الناهلة حتفها من  
حيث بغت على الخليفة ؟

ونفرت مرجانة الى العصيان . لن تودي بالخيزران ، والنهية كالحلة ،  
مشوومة . غير ان مخاطبتها برغبة قاتلة المهدي صارتها بان حسنة تنزع عن

رأي امير المؤمنين . فالهادي يمنح الى هدم امه ، ولا يتسامح في ارجاء .  
فعلى النفثة ان تسفر عن صعقة . فتغور فوراً الخيزران في بؤرة التلف .  
فارتعدت مرجانة . قالت مخاطبتها وهي من العجائز المسنونات المقاول ،  
الغليظات الاسارير : امير المؤمنين يدعو ، فأجيبني . فالموت صائدك وانت  
تعاينين . وما هي حياة جارية ؟ ... قطرة ماء في خضم . فاملكي رشيدك  
واذكري موقفك . ان انت الا قصبة جوفاء في مهب الريح . وبوسعك  
ان تسمي شجرة باسقة ، ذات جذع ضليغ اذا حققت طلبه مولانا . فالجوائز  
الضخام تتهادى اليك . وقد يعتقك امير المؤمنين ، وتستمعين بطلاقتك على  
فضفاض ذخري . واي سعي لا يرتجي ان يفوز بك وانت تملكين  
الاعلاق ؟ ... فالتفتي الى غدك !

فما انفكت تتردد . قالت : ابصرت من مات ، وليس في نيتي ان  
انظفء كالنفاخة . أفلا اقع في هذه الدنيا على سوى التعس ؟ ... ما ذنبي  
ان اكن ابنة قوم اسقياء باعوني ، وانا على مسحة من الحسن ، كي يعيشوا ؟ ...  
أجري منذ نشأتي ، حتى مماتي ، عبدة في اهواء السادة ، دون ان يباح لي ابداء  
الرأي في ما يريدونني عليه ؟ ... ألا ابن هو الانصاف ، ولست املك ثانية  
واحدة من عمري ، فانصرف فيها الى شؤون نفسي ؟ ... لست اراني حرّة  
حتى في استسلامي الى مفروض النعاس ، وقد يأبى عليّ من يمتلكونني النوم  
لحاجة من حاجاتهم السقيمة . فاقضي لي لي ساهرة ، عفواً ، في ارضاء دلال سخيف !  
وبكت مرجانة . وشعرت بكايي الظلم . فلا عدل في الناس ، وهم  
عنوان الحيف . قالت مخاطبتها العجوز على استخفاف بدموع نوافل لا تمتنع  
مقدوراً : لا تنهدي الى ايلام امير المؤمنين . موتك في رضاه خير من

حياتك في نقيته . بل انت لن تعيشي اذا غضب ، وسيجرفك سخطه اني  
اعتصمت . لا ، لا غنية عن الاذعان للمطلب ، يا بنيتي . انقثي السم وكوني  
من امرك على يقظة . فالقضاء على الخيزران يهب لك النعيم !

— واذا اسقاني ، واوردني حتفي ، ولقيت منه ما لقيت أمة العزيز ؟  
فاعلمت العجوز بنبرة باردة ، دلت على ما اخمدت الايام من حس في  
القلب العتي : انك لتقارنين بعدي . فإن يخدمك حظك ، فالسعد يجري بين  
يديك . والا نجوت بما تكابدين من جور . والموت عندي افضل من حياة  
ذليلة نغمس فيها . فإما العز ، وإما القبر لمن يريد ان يستريح !

فمسحت مرجانة دمعها وتمتت : صدقت !

وتمثلت شيخ امير المؤمنين ، فارتجفت هولاً ، وقالت : لن ازيغ عن امر  
الحليفة ، وساكشف به عن غدي . فان يكن النجس حليفي ، فما اشهى  
الثواء بحفرة ، والنجاة من الضيم . حبت اليّ المجازفة ، ولست من الرفاه  
على قلامة ظفر !

وعاهدت على ازهاق روح الخيزران . ستصبّ لها السم في طاس اللبن ،  
وهي تحمله في كل صباح الى السيدة الاثيرة . قالت : اعتقد ان الامر اصبح  
مبهوماً . فلن يبقى اثر في صرح اساس لامرأة تدعى الخيزران . سلامي على  
امير المؤمنين خليقتنا وسيدنا ، وعلى مولاتي حسنة . ابلغها أنها ستطمئن الى  
سعيي ، ولن يهنا لي عيش الا اذا قوّضت صرح النكد والغدر !

فضمّتها اليها العجوز تقبلها ، وتقول بفيض من استحسان : بورك فيك .  
انك لمثال الطاعة والامانة . امير المؤمنين ، ومولاتنا حسنة ، يرقبان اخبارك .  
فكوني ذهنًا ثاقباً ، وحذراً راجحاً . فالضربة تستدعي الدقة والاحتواس ،



والا ذهبت بالشهوتين معاً، ببغية امير المؤمنين، وبطماحك الى الرغد الفيّاح !  
فغمغمت بلهجة خشيا : اتكلت على الله !  
وحرصت على حُقّ الموت، وقد توارى بين نهديها ينعم بالرفاهة والدفء .  
واستطابت المخاطرة . ربما بسمت لها الدنيا . ورجعت العجوز الى حسنة  
تبشّها أينع بشرى . قالت بغمور البهجة : عوضنا الله من سلامتكم ، وعظّم  
اجرك . ماتت الخيزران !

فهتفت حسنة : وهل رضيت مرجانة ؟  
- رضيت نعمى عينك . ولقد عللتها بوفر من الوعود، احسبك لا تتكبين  
عن انجازها !

فقال حسنة بسخاء في البيان : لك ان تعلليها بما شئت . سوف ترانا  
كراما في الوفاء . فكل ما نصبو اليه ان ننجو من الوجه المشؤوم . متى  
تسدّد الضربة الناسفة ؟

- في الموعد الداني . مرجانة تتولى في كل صباح اعداد اللبن للخيزران .  
ومن السهل عليها ان تسكب فيه السم دون ان يقوم من يفضحها !  
فصفتحت حسنة بيديها . بلغت المأمول . ووثبت بمستطير الغبطة الى  
موسى ولبابة تحدّثهما بما آل اليه حدقها في تنظيم الدسيسة . ستجرع الخيزران  
السم هنيئاً مريئاً ، دون ان يخامرها خيال من ظن بما ينضح به اللبن من  
كاسحة . ويموت الشر . ويستريح البال . ويقبض الهادي على الاعنة بيد  
وثقى ، قريرة ، لا يصولها نهش الحمى . قال ابو جعفر بمخضّل البشر :  
اذن علينا ان ننتظر الخير العجلان ، يا حسنة !  
فاجابت الجارية الطافرة الى مرتبة السادة بدهائها السبوح : لن ينطوي

الفوز عنا ، يا امير المؤمنين . بشرانا . فالمنى ترصدنا على طفاح !

وصرح اساس نفذ الى وعيه ما تنهت فيه أمة العزيز من وبال ، وما قدر عليها الهادي من قهر . فتاهت فيه الالباب وتقلصت الجوارح . باي نار سيحرقه امير المؤمنين ؟ ... وما شكّ كل من يأوي اليه في ان الارض ستزلزل به . فلا يبقي منه الهادي مدماكاً . وهلعت الخيزران . وألحّ الرشيد في ان يبرح بغداد هائماً على وجهه في كل سبيل . ومال على أمه يندد بها صارخاً : ألا ماذا اقدمت عليه من شنيع ، وماذا سوف نلقى من قصاص ، ايها المطامع الحقود ؟ ... فالهادي لن يصفح عن الدينئة . وانه لعلى هدى في خروجه عن التؤدة . ابدى من الحلم ما ليس لنا ان نتعamy عن ادراكه ، ولمسه . الا انك قابلت نعماه بالكنود . ما عرفت أمماً تكره ابنها مثلك . فماذا يضيرك ، وهذا القابض على محصر الخلافة ولدك ، من لحمك ودمك ؟ ... أتكافئينه بالموت على ما نفحك به من مكرمة ؟ ... تكررت مكيدة المحو . فعلى رسلك . ابنك الرشيد اضحى كافرأ بالمعالي ، وهذه مقدماتك لرفعه الى السدة . نفسي لا تتوق الى عرش ملطخ بدم شقيقي . سأرحل عن دار يعيش فيها المكر والغلّ ، والسلام على ولاية العهد ، وعلى الخلافة ، وعلى السلطان والمجد . كره ضميري الاستواء على سرير ساؤدي بدله دم ابن أبي وأمي !

فنهضت اليه بصخبها وهديرها تفرض عليه الخرس . قالت بفيض من تحقير: ما كنت على ضلال وانا ارى فيك فتاة للخدور ، لا سيداً للعروش . فما كان لي ان ابذل لاجلك هذا المجهود ، وانت لست به حقيقاً . الا اني اتخذت بك ، فغفواً . حسبتك رجلاً ، فاذا بك من الرجال على براءة .

ساؤدي حياتي بدل سعبي لاعلاء شأنك ، وجزائي منك التنديد والامتهان .  
الأخسىء من هم على شاكلتك من الابناء . فاني لاحسّ بنصلة سيف اخيك  
الباردة تتغلغل في نحري ، وتعاقبني على جهادي في نصرتك ، وانت تنكر  
جميلي . بل تونجني كأني اسأت اليك في كفاحي لتوطيد جاهك ، واقرار  
علاك !

وابت عليه محادثتها . ليست تريد الاصغاء الى ضعيف . واقامت تنتظر  
ما سيكون من الهادي فيها . أيأخذها بجريرة أمة العزيز ؟ ... وهل باحت  
له أمة العزيز بالسر ، فارشدته الى من حرضها عليه ، واغراها به ؟ ...  
ان تكن فعلت ، فيا للرزيفة الملاحقة . على ان الخيزران ، مع وجومها ،  
لم تشأ ان تقف وقفة الخنوع . فالجبييرة اصرت على الرسوخ في جبروتها ،  
مع كل ما سيكتسحها من ويلات . اجل ، هي من اباح لامة العزيز يدها  
في الخليفة . فالخيزران ، أمه ، مالت الى تهشيمه . وماذاله ان يحاول فيها  
وقد ظهر منها السعبي لنسخه ؟ ... أيقتلها ؟ ... حسب ما كان منه ، وقد  
أذنها ورذنها حتى بات من يتردد اليها مهدداً بالبوار . وان يكن يبغي القضاء  
عليها بلا رأفة ، فهذا نجرها مبسوط للبتار ، فليطعنه الهادي ، وليعيّره  
التاريخ القضاء على أمه ، بعد أبيه

ولكن الخيزران لن تموت ويعيش خصومها . فلن تطأطىء رأسها للمنية  
الا وقد ملأت الجثث المطمئن العربي ، واهتز مسند الخلافة براكبه . فاذا  
دار ، في خلد الهادي ، انها ستنتطلق عفواً الى منيتها ، كالنعجة المتهادية الى  
الجزار ، تعرض عليه عنقها ، فقد ضلّ ظناً ابو جعفر ، وسيعاني كل فادحة  
قبل ان يطوي أمه . وما بالهين قضم الخيزران !

وفوجيء صرح اساس بطارق ليل ملثم ، يلحّ في المثول بين يدي ام  
موسى . فخاف منه من في الصرح على مولاتهم . وسأله عن اسمه ، فامتنع  
من الاعلان . وجلّ ما افاض به : صديق !

قالوا بارتباك ووهلة : واي صديق انت ، ولسنا نعرفك ، ولا انت  
تجلو لنا خبرك ؟ ... عدّ من حيث اتيت . فالسيدة الاثيرة لا تجيز لمن  
تجهلهم النفاذ الى الصرح !

فاعلن باستعطاف : افسحوا لي اليها ، وساطلعيها على الحفيّ الخطير .  
جئت اردّ عنها الموت ، وسافضح على مسمعيها نبأ مكيدة قشوش !

فما وثقوا به ، بل قالوا: واي مكيدة تعني ؟ ... هل لك في الافصاح ؟  
فنبّر وهو ما يزال يستعطف : ألا ارفقوا بسيدتكم . جئتم متخفياً كي  
يظل امري مكتوماً . فلا تلعبوا بدمي ودم مولاتكم . اريد الوقوف في  
حضرة الخيزران لاطلاعها على ما يراد بها من داهية . فهلا سرتم بي اليها ؟ ...  
اني لاعود ادراجي وانتم تعاندون في ان تشقوا لي الى ذات الجلالة ، وعليكم  
تبعة دما !

فهااتهم التبعة . وانسلّ الى السيدة الاثيرة من يقول ببعض لعنة ،  
والجميع يخشون ازعاج الخيزران : بالباب رجل ملثم يرجو النفاذ الى مولاتي .  
وتعبنا في دعوته الى الجهر باسمه ، فامسك عن الابانة . وهو يقول ان بين  
جناحيه سراً يتوق الى نشره على مسمعك . فهل تأذنين له في الوقوف في  
حضرتك ، للكشف عما بين الضلوع ؟ ... صرفناه عنا ، فألقى علينا تبعة ما  
سيحلّ بك وانت على جهل بما يروم اذاعته فيك !

فاوجست الخيزران سراً ، وهي المترقبة جائحة تجرّ فيها . وصاحت بوهلة وبشوق

الى الامام بالنبي الشادخ : ولكن ابن الرجل ؟ ... ليقبل اليّ !  
قال الحارس : ألا تخشى مولاتي ان يكون هذا الملمّ من اعوان الهادي  
عليها ، وقد زعم انه يحمل اليها سرّاً كي يؤذيها ؟

فنزلت منها كلمات الحارس منزلة الموامة ، وقالت : وابن انتم عنه ؟ ...  
ان يكن يميل الى الاذى ، فاسفكوا دمه . ليقيم منكم ، وهو عندي ، رهط  
بالباب ، حتى اذا ما ناديتكم انجدتموني !

وحبا اليها الرجل الملمّ . وظل في حضرتها محجوب الملامح وقد سجد  
بين يديها يحسبها ، ويقبل الارض . فهتفت به : ألا تدري ما عليك ، ايها  
الرجل ، وانت تمثل في مقام السادة ؟ ... أمط عن وجهك اللثام ، وانتسب .  
فمن انت ، وفي مَ جئت الينا ؟

ففعل طوعاً ، مع شديد رغبته في البقاء مسدول القناع . وتكلم فقال :  
انا من ينزعون الى هذا الصرح ، وان اكن في خدمة مناوئيه . فما يعتصم  
به من قدرة يشدني اليه باسباب . انا عطاء بن سكباجة ، عبد مولاتي ،  
ورئيس الطهارة في قصر امير المؤمنين !

فاستدارت عينها فضولاً ورهبة . فما يقود اليها هذا المقيم في خدمة  
الهادي ؟ ... قالت وهي ترغب في شقّ حوائيه ، واختطاف سره في ما  
دون الومضة : ولكن ما تحمل اليّ من سر ، يا عطاء ؟ ... عرفتك .  
أيكون الامر على خطورة فادحة ؟ ... ماذا لديك عن القصر ، هل اباح  
الهادي دمي ؟

فاجاب عطاء ، وقد جنح الى سرد حكايته قبل الايضاح : اقبلتُ الى  
سيدتي وانا على يقين أنّي اجازف بايامي . فالمجيء الى صرح اساس اضحي

جرمة لا تصان فيها الاعناق . على اني ، بعد فجيعتي بأمة العزيز ، امسيت  
لا ابالي الهول . فمن مات قلبه ماتت فيه كل رجاوة ، يا ذات السنن ،  
وبات يجد في الفناء الهناء . فان يكن الهادي يستلذ الفتك بي ، فيا ما احبلى  
الموت . كنت على شغف بأمة العزيز ، يا مولاتي . والتنكيل بها اثار في  
كبدي الحقد . والحقد جرّني الى حيث ترين . فما اندفعت اليك لسوى  
الانتقام لقلبي العريان كاماليد الحريف ، والباكي كاوراق الحريف . امير  
المؤمنين ينزع الى ابادة سيدتي . فلتتحرّز من الغواشي !

فجمدت عليه مقلتها بحجوظ . انه ليجلو لها مأرب ابنها فيها . وما  
استكبرت السعي . الا انها خشيت مضاء الفتكة . واستطلعت رئيس الطهارة  
في قصر الهادي ، وهي تكاد تغيب في رعدتها وشحوبها : ألا من ابلك ان  
الحليفة بيّت لي الدواهي ، يا عطاء ؟

واعتكرو صوتها واضطرب . فاجاب ابن سكباجة : سمعته ، وقد قضى  
على أمة العزيز ، وابصرها تتدحرج عند قدميه متلاشية الانفاس ، يغمغم :  
« ليس لي ان أبقى عليها وبين جوانحها للدنايا المرعي الحصيب . إما انا ، وإما  
انت يا اخبت من عرفت من بني الانسان ! » . وهو يعنك . وما تورع ،  
فيما يودي بأمة العزيز ، عن اتهامك بتعريض الجارية عليه . فادفعي عنك  
الغائلة ، يا مولاتي . فلن يقيمك الهلكة ، وفي صدره نفاثات من بطش  
وعدوان ، لا يسلم من طائلتها سوى طوال الاعمار !

فاستولى عليها غشيان من وهلة زاغ بها عن النطق . فهي تنظر الى ابن  
سكباجة بعينين يكاد سوادهما يغور . قال رئيس الطهارة في قصر الحليفة :  
يعزّ علينا جميعاً ان ترزأ ذات الجلالة بما يوجع فيها الكرامة والروح .

فلتفتح عينها على جميع من حولها. ولتركن منهم الى نخبة الاصفياء. والا  
انسلت اليها من يسومها الحسف. بل من يزهد فيها الحشاشة. ومن الغدر  
الفاحش ان تصاب مولاتي بجياتها، كرمى بال فئة من الحساد المرجفين!

فلم تبرح الخيزران على سهوها. والنفت ابن سكباجة الى نفسه، وقد  
خشي ان تعاتب أم موسى ابنها الخليفة في ما يبغي فيها، وان تبوح له  
باسم من عالنها السر، فتزل القدم برئيس الطهاة، ويختلسه الموت عقاباً على  
جماح لسانه. فهتف يستجير بالسيدة الاثيرة من فلتة مقولها: ولكن  
لتحرص مولاتي على دمي. فاذا ما عابت على امير المؤمنين ارتيا به بها،  
فلتنكب عن الاشارة الى ابن سكباجة بحسن او بقيح. والا كان نصيبي  
من ولائي لذات الجلالة جثمة في قبر. وهو شر ما يكافأ به الخادم الامين!

وابتسم ابتسامة الاستعطاف الجزوع. فقالت أم موسى تبت روعه  
الطمأنينة: لا تخش شراً، يا عطاء. فلن ابدو في حضرة الهادي كي ألومه  
على مكايده لي. وهب اقدمت على اللوم، فلن افلت اسمك، كأني لا  
اذكر من اهاب بي الى الحذر. ليس لي الا ان اثني على حفاظك، وارك  
لا تبرح تتحسس يدنا عليك. فانت بمن لا يذهب فيهم العرف. وساعمل  
بنصيح رأيك، واستنقذ أيامي من التلف. فالهادي لن ينام بعد كل ما  
لقي من إحراج يحسبني مصدره، وما انا بمن تستطيب النيل من ثمرة حشاها.  
ألا فليدرك انه ابني. فكيف تطيعني يميني، بل كيف يديح لي ذهني نصب  
الاحبولة لاخترام من اطعمته دمي، وسقيته لبني؟ ... ان ابا جعفر لواهم.  
بدد عنه الله خدعة سوء الظن!

فقال ابن سكباجة، 'وقد حنّ الى الانصراف العجلان، مخافة ان يفشو

امره في أرصاد الهادي ، فلا يأمن اجتثاث عنقه : ستجدني ابدآ مولاتي في  
ابلاغها انباء القصر ، وما ينصب فيه من فخاخ للايقاع بالزهرة من ارباب  
الشأو والرأي فينا . فلتعتمدني في مصارحتها بكل صحيح الوجه ، صادق  
المخبر . وستقع مني على ما يجلو لها المغلق الحظير !

فرمته بخاتم كان في يمينها . ولم تملك الهمة في النهوض الى خزانها لتفتح  
منها ابن سكباجة بصرة من المال جزاء امانته . وقالت : اليك ببعض ما  
نقوي عليه الساعة في انصافك ، يا عطاء . وسارقب انباءك بشوق . ولك  
من اموالنا ما يقيمك العسر ، ويكتب لك الرفاهة . نحن بحاجة في موقفنا  
الصعب الى جماعة من ذوي الولاء . فكن منهم ولن نشح عليك بالوفر ،  
وما تزدخره لسوى اكرام الاوفياء ، كما تعلم !

فعاد يقبل بين يديها الارض . قالت مشفقة عليه من ذوي الالسن النامة :  
ألا ارجع الينا ، يا عطاء ، يوم تظفر بما تراه يلسع مهجتنا . وانصرف الآن  
الى موثلك ، وكن في الحرص على نفسك ذلك المعالي اليقظان . نحن  
باطرار اليك في اخلاصك ، ووضاعة خلقك . ففي المحن يُعرف الخلاق !  
فتراجع عطاء الى الباب وما انفك يقبل الارض بين يدي الخيزران .  
وانساب الى الاروقة وقد تلثم ، وليس لعين ان تنفذ الى سره الكنين .  
ونادت أم موسى طاهية صرح اساس توصيها بنفسها خيراً . قالت : جاءني  
ان يداً تنهد الى طبخ السم في طعامي . غير اني لن اقع في الشرك . فاحذري  
ان تخدعيني ، او ان ينساب الى مخدع الطعام من يحتمل عليك ، ويدنس بالسم  
مأكلي . فانك لتلقين حتفك اذا غفلت عن كيد ، او توأطأت عليّ في متلفة .  
ذودي عن مهجتك اذا شئت ان تستبقها !



وباتت لا تذوق طعاماً ، ولا تستسيغ شراباً ، الا اذا ألفت منهما الى  
كلب يلتهم الطعام ويلغ في الماء . فاذا لم يمت ، اكلت وشربت أم موسى بامان  
وجرأة . وكادت تصم عطاء بن سكباجة بالكذب . لهفته على أمة العزيز  
نهدت به الى الافتراء ، وما ظهرت في صرح اساس بادرة ختل ونكر . وذات  
صباح ، فيما تحمل الجارية مرجانة الى السيدة الاثيرة طاس اللبن ، وقد ألفت  
ان تجبو به ، في طليعة كل صباح ، الى أم موسى ، لاحظت الخيزران على القينة  
ان البسمة لا تنأى عن حياها . فقالت ربة الصرح ، وهي ترغب ، بالفصول  
المستحكم منها ، في الوقوف على الحافز الى الابتسام : خير ان شاء الله ،  
يا مرجانة !

فاعلنت الجارية ، وهي ما تزال تبسم : مائة الا الخير ، يا مولاتي .  
كدت ازلق وانا اجيئك بطاس اللبن . فنلقتني سيدتي زبيدة تمنع عني السقطة .  
فشكرت لها اريحيته بمفرط الحجل . فضحكت وقالت : « لا عليك ، يا مرجانة ،  
أسنا هنا لنحول دون الزلة ؟ » . فابهجني مقالها وما ابرح منه على اغتباط  
بال . ففي مقاول سادتنا ، والحمد لله ، نثيرون المن والسلوى !

وادنت من الخيزران طاس اللبن تقول : لتشرب مولاتي . هذا ابن  
احتلبته لها بنفسي من ضرع الشاة . هناة وعافية !  
فرمت الخيزران طاس اللبن بنظرة ، والجارية بنظرة ، وقالت بدقيق  
فطنة : هلا أختبر هذا اللبن في الهرة ، يا مرجانة ؟ ... أأثق بك وانفض  
من نفسي وعشة التظني ؟

فغصت الجارية بريقها على كره منها . والغصة اقلقت خاطر الخيزران ،  
وان تكن مرجانة اتبعته بعريض بسمة . الا انها بسمة اطلت تنضح بالارتباك

والكلفة . فساور الريب الخيزران . وهتفت تنادي الهرة المدندنة في النافذة .  
فوئبت القطعة الى السيدة الاثيرة تحتمك بها في تدليس خبيث . وحامت على  
طاس اللبن تميل الى الولوج فيه . فاباحتها لها الخيزران بسماع ، كأن نفسها  
تحدثها بان الويل يكمن في الطاس . واستفاضت الهرة في الولوج في السائل  
بنهمة . فالنهمة مؤاتية . غير ان اللبن لم يلبث ان جمد كالحجر . فبات قطعة  
واحدة ، كأن المعجزة نفخت فيه سرها . والهرة نفسها اطلقت المواء العالي ،  
واصيبت بهزة تلاها جمود ، وارتمت في الارض حطبة يابسة . فسددت الخيزران  
الى الجارية نظرة مسنونة ، نجلاء ، وصرخت بها : يا ابنة الائم ، كيف تجرأت  
على ان تحملي الي الموت ؟ ... أهذا مبلغ وفائك لسيدتك ؟ ... ألا  
اجرعي المنية من حيث شئت ان تسقيني اياها . اجرعيها من منبعها ، يا كافرة .  
والله ، ما أبيع لك اطلاق النفس الا وقد اتيت على الطاس كله . بهذا  
القصاص عاقب سيدك الخليفة أمة العزيز ، ولن اختلف عنه في الحكم على  
من يروم اهلاكي . اجرعي ما في هذا الطاس ، ولا تبقي منه على سور ،  
وانقذي نفسك من نقمة ادهى !

وشدّت بها الى الارض تجبرها على شرب اللبن المسموم . فضاعت الجارية  
عن نفسها ، وفتحت فيها هولاً . وسقطت بجانب الهرة المصعوقة ، صفراء  
اللون ، بل مكفهرة ، كأنها مصبوغة بالتراب . ولم تطلب الى الخيزران  
الرافة بها ، والكلام جفاها . ولم تجسر على الالتفات اليها ، وليست تقوى  
على احتمال نظرات أم موسى الجائحة . بل هوت على طاس اللبن ترشف ما  
بقي منه ، وقد ولغت فيه كالهرة نفسها . فخشيت ان هي حملته الى شفتيها  
ألا تساعد يداها على رفعه الى فيها . وايقنت ان لا منجى لها من الموت ،

والضربة القاضية نارلة بها بلا هوادة . فان لم تمت بالسم ، ماتت بالسيف ،  
بل بضرب النعال ، وكل من في صرح اساس سيثب عليها للتنكيل بها في  
سورة الانتقام الضروس

وظلت تعب اللين حتى استصفت الطاس ، والخيزران تحدجها بعينين  
التمع ، فيهما الارتفاع ، والظفر القهار . قضت على الشر المندلع اللسان ،  
وسلمت من الغاشية . وضحكت ضحكة طنانة وهي تبصر الجارية مرجانة  
تندلق في الارض ، وتعضها ، على مقربة من الهرة المنظفة . ونادت زبيدة  
وسائر الجوارى تصيح بهن : ألا اسرعن وابصرن ما يحل بالكفرة . استطابت  
مرجانة ان تدس لي السم ، وتجاري عصبة الشؤم في احوائها الدنسة ، فأبت  
القدرة الا ان تضرب الغل في كبده ضربة هتكت حجاب الفضيحة . لم  
تكن مرجانة في صرح اساس سوى عين الخليفة الهادي علينا . بل لم تكن  
سوى يد لبابة وحسنة ، الوقحتين المتجرثنتين على كل مصون . راعهما ان  
يصفو لي ضمير الهادي ، ففصلتا بيني وبينه بما اوغرتا به صدره علي . ألا تبا  
للغادرتين ، كم يمور بين حناياهما من وغادة ، وكم تنطويان عليه من سقال .  
ما ذنب هذه الجارية المسكينة ، الفقيرة القلب والنشأة ، كي ترمياني بها ؟...  
أما رحمتا فيها ذل العرق ، ولجاجة العوز ؟... خصاصة اهلها ازجتها الينا .  
أفنزيد في تحقيرها حتى نسوقها الى النار تحترق فيها ، مغلوبة على امرها ؟...  
اني لاشفق عليها مع كل ما حاولت من جهد لتطرحني في مبلع العدم .  
ساحبها الله ، وانتقم لها بمن طوح بها !

وانتفضت مرجانة بعنف بعد ركود . وفتحت فمها واطلقت الانين  
والفحيح . فهي كتلة تنزى ألماً ، والسم ينهشها بلا هوادة . وتمثلت

الخيزران نفسها في هذا الهيكل الفاحم، تعبت به خلجات الموت، لو تناولت اللبن الموبوء. وقطبت هولاً. أريد ابنها ان يدفعها الى هذا المنحدر الزلّتي، فتتدحرج منه الى مهواة الاضمحلال؟ ... ولكنها لم تعفّ عن ابنها في ما رشقها به من داهية. فهي السبّاقه، وقد كتبت مرتين على الهادي الموت، فنجا ينصره القدر. وامسكت بذراع مرجانة تهزها وتصيح في اذن الجارية: مرجانة، من حرضك عليّ؟ ... من كلفك ان تسقيني الردى؟

فبالغت الجارية في الارتئاد. وظهر منها انها غائبة عن رشدها، ولم يبقَ بينها وبين الانطفاء غير رعشة. وطفت على شفيتها غمغمة كالحجاب في الكأس. فتمتمت بصوت مخلّج، مهبّض، تموج فيه الحسرة والندامة: ما كان لي ان اطيعك في جهالتك، يا حسنة!

وتلاشت مرجانة في خلجة عنيفة ملتاعة، عقبها سكون رهيب. فقالت الخيزران، وقد اشتد بها العطف على هذه البائسة، العائرة الجدد: لندفنها باكرام. ما حاولت ايداءنا الا مكرهه. فالحاجة دفعتها اليينا. والحاجة قادتها الى انتهاك حرمتنا. بيد انها لقيت جزاءها. غفر لها الله!

وتمادى في الخيزران الحذر في طعامها وشرابها. فباتت لا تذوق اكلة، ولا تشرب قطرة، الا وقد سبقها اليهما جميع من في مجلسها. وخلع كبد الهادي ان تدرأ الخيزران عنها شبح المنية، وان تنتقم من مرجانة بما انتقم به من أمة العزيز. فحنق وتعمد الايلام، وكسر الشوكة. فاذاغ في رجاله ألا يسيروا امام الرشيد بحرية، وهي عنوان ولاية العهد. واعلن ان ولي العهد ابنه جعفر، لا اخوه هارون. وأذلّ من شأن اخيه، فدفع اعوانه الى التنقص في المساجد من مكانة الرشيد، والى الامساك عن السلام عليه.

وفي احدى الجولات ، في اسواق بغداد ، مرّ عفواً جعفر بن الهادي وعمه  
الرشيد في زقاق ضيق ، بلغا منه قنطرة من القناطر ، فاستوقف كبير  
الشُرط هارون ، هاتفاً به بلهجة الامر الجيامة بالامتحان : مكانك ، ريثما  
يجوز ولي العهد !

فطأطأ هارون رأسه ، وابان بخشوع المطيع : السمع والطاعة للامير !  
فجزعت الخيزران وتلفت . ما هذه الجوائح المتساقطة عليها دراكماً؟ ...  
ورقت سانشات الانتقام ، فما التمتعت منها ومضة . وسقط اليها من انباء  
القصر ان الهادي مريض ، وانه يناديها ، فهتفت : يا ويلي . أريدني على  
الموت ، ولا يخجل من منادائي كي اعوده ؟ ... ولكن ما يرتجي مني ،  
وكل منا يشتهي للآخر الفناء ؟

الا ان الهادي ألحّ في الدعوة . فهو مريض يخشى على نفسه من عاجل  
المنية ، ويتشهى ان يستأنس بامه ويستغفرها . فقد يكتب له عفوها عنه  
الشفاء . فقالت الخيزران ، بعدما تناهى المتوافدون اليها في الاستعطف  
والسؤلة : انا أمه ، فلن انجل عليه بالعبادة . الا اني اتقي بالاحتجاب عنه  
كيد لبابة وحسنة ، وهما تملآن البلاط بغطرستهما ومكرهما !

فهبّ من يقطع لها العهد على كونهما لن تجولا في باصرتها . وعاب عليها  
ضميرها الامسك عن الاجابة ، بعد هيف الاسترحام ، فدلقت الى القصر بهمة  
متراخية ، خشيا . على انها ما ابصرت الهادي بمدوداً في سريره ، اصفر اللون ،  
ذليل العين ، حتى هوت عليه تضمه الى صدرها ، مجلجلة باسى : ولدي ، ولدي !  
فتمتم ببيان عيب ، تشيع فيه الفرحة : أمي ، أمي . أنت ، يا أماه ؟  
وطوقها بشوق . وبكيا لهفة وحناناً . هل ذهب الداء بالضعف ؟ ...

وما ضمت الحجرة سواهما. واحتلت الجواري المقبلات في موكب أم موسى جناحاً من القصر. وحرصت الخيزران على ان يتناوبن ، الى قربها ، خدمة الهادي. لمن وحدهن هذا الحق الاثيل. وما تصبر الخيزران على مرأى خيال بغيض عري من ثقتها . قال ابو جعفر : لشد ما سررتني ان تهرعني اليّ في الملمة ، يا أمي . أفلا يزال لابنك الهادي في صدرك ديب من حنين ؟ ... والله ، ما رأيت للام مثلاً في العطف والمودة . فكل حب زائل سوى كلف الامومة بعطاياها السماح . ألا ابن اخي الرشيد يعودني ، ويخلع عليّ صفحه بما يزيل عن نفسي دواهيها ؟

واودت المحنة بالاحنة. وقهر الوثام الحصام . فاعلنت أم موسى ، وقد اطمانت الى لهجة اللين الفاشية في منطق ابنها البكر : شقيقك هارون في القنص ، يا ولدي. وقد نفر الى قصر «مقاتل» يسطاد العقبان . على اني سأوفد اليه من يدعوه الى المثول بين يديك . فالرشيد سليم القلب ، نبيل الحس ، يا ابني ، فاذا ما وهبت له علالة من حلم ، فانك لتجد فيه الوفيّ النصيح ! فعلت من وراء ستار صيحة حادة كالمخلب الرهيف : أتؤمن باخاديع هذه المحتمالة ، يا موسى ؟

فعرفت الخيزران الصوت ، وارتجفت كأنه لكمة لسعتها في حشد . هذا صوت لبابة . واصطبغ بالكمندة والحجل حيا السيدة الاثيرة . وودت لو انخفضت بها الارض . أتزل بها الاهانة وهي تنعم بضيافة امير المؤمنين ؟ ... ونهضت تعالن ابنها والسخط يخضضها : ما كنت احسبني اعاني بين يديك المفض ، يا ولدي . فما جئت اليك كي تنشب بي الزراية اظفارها . ففغوا عني وقد امتثلت لرغبتك ، ووداعاً . سارجع اليك

يوم يسود اكرام الضيوف مقرك . اما وضيافانك عرضة للغضاضة ، فدعني  
ارحل بسلام . حسبي ما لقيت من رحابة !

وابتسمت ابتسامة صفراء تنضح بالسخيمة . وهمت بالانصراف . فسألها  
الهادي ان تبقى . قال بمستدل الضراعة : ألا مغفرة للحمقاء ، يا امي ، لمن  
ركبت الطيش والعماية . هذه امرأة ملتوية النهية ، سليطة ، فاصفحي عن  
جهلها وقبحتها . ان في الخيزران من الصدق والمروءة ، يا لبابة ، ما تخلو  
منه مهجتك . هلا قطعت لسانك ، وانصرفت عنا ، خيب الله وجهك ؟

فتصاعدت من حنجرتها ضحكة كانت اشد وقعاً على الخيزران من المقال  
السفيه ، الشتام . فعادت تنتفض أم موسى . على انها تحامت براح القصر ،  
وعالنت الحليفة العليل بقولها وهي تبيت امرأ ومض في خاطرها كالشرارة :  
لن انأى عنك ، يا حبيب أمك . لتضحك لبابة ومن على ساكنتها . هذا  
ضحك كالبكاء . فيا للضائعات النهى من غيبات قاصرات !

واستقرت بمكانها لا تتزحزح . وانصرفت الى التخفيف عن امير المؤمنين ،  
وهي تتطاير حنقاً وحقداً . قالت وفي كلماتها ارتجاف من كاسح النعمة : ليس  
يخفى عليّ انهن افسدن ما بيننا من صفاء الحنين ، يا موسى . فانهن ليحاذرن  
ان اقيم واياك على وطيد صلة ، مخافة ان ابعدهن عنك ، فلا يسرحن ويمرحن  
على هواهن . ألا خستن . فليس من حائل يصدّ الام عن ابنتها ، مهما اشتدت  
الاحن ، وتأصلت الحزازات . اني لاستشفع لك الى الله من هؤلاء المختلات  
المصانعات . فهن وبالّ عليك ، وما في صدرهن غير الطمع والحسة !

وتظاهرت الخيزران ، على مرأى من الهادي ، بانها تناست الطعنة . على حين  
ما برحت تبيش في بالها السبّة الناهشة . لتضربن لبابة ، ولقيفها ، ضربة ماحية

لا ترسخ بها للشمل قدم في صعيد. وانصرفت الى جوارها في الجناح الموقوف  
عليهن في القصر ، وهي في سهوم . فما كان ليهدأ لها خاطر ، وكل ما فيها  
على غليان . واقامت بين الجواري اللهيفات عليها ، وقد لمسن فيها الغيظ ،  
تقول بكاي الموض: أتدرين كيف لقي مروان بن الحكم ، الخليفة الاموي  
الرابع ، مصرعه ؟ ... من تجيد منكن رواية الخبر فلتنشرها على مسمعي .  
اراني بحاجة الى التويه عن نفسي بما ألقى !

فانبرت عتبه تقول : كان ذلك في سنة خمس وستين ، يا مولائي . وفيها  
اخذ مروان البيعة لنفسه ، ثم خالد بن يزيد بن معاوية من بعده . الا انه  
لم يلبث ان تزعا من خالد ووقفها على ابنه عبد الملك . فتهرم خالد بالخرج  
على الميثاق . ودخل على مروان يعاتبه ، ويفحش في المثبة . فغضب مروان  
وصاح به : « أتجروؤ على مخاطبتي بهذه القوارص ، يا ابن الرطبة ؟ » .  
ومروان يومذاك زوج فاختة ، أم خالد نفسه ، وامرأة يزيد بن معاوية من  
قبل . فارتد اليها خالد يعيب عليها قبول مروان ، ذلك القصير الاحمر ،  
زوجاً ، وقد وضع منه ، وأذها . وقصّ عليها ما بدر من مروان في الغمز  
من انوثتها . ففارت فاختة غيظاً ، وجلجلت بحقد : « لن يعيبك بعدها ! » .  
وفي الليلة نفسها جاءت بوسادة وضعتها على وجه مروان ، زوجها ، وقعدت  
عليها وجوارها . فما نهضن الا ومروان قد مات !

فهزت الخيزران برأسها كأنها في تهويم . حسبها ما سمعت بما تريد جلاءه .  
بل بما تريد ان تملأ به أذنيها . وفكرت في ما رشقتها به لبابة من سخر ،  
وفي ما لطمتها به من فادح استهانة ، فما كانت لتقوى على التناسي والغفران .  
وابت الا ان تقهر الطماح المستشري في لبابة الشامتة ، الحبيثة المقول .

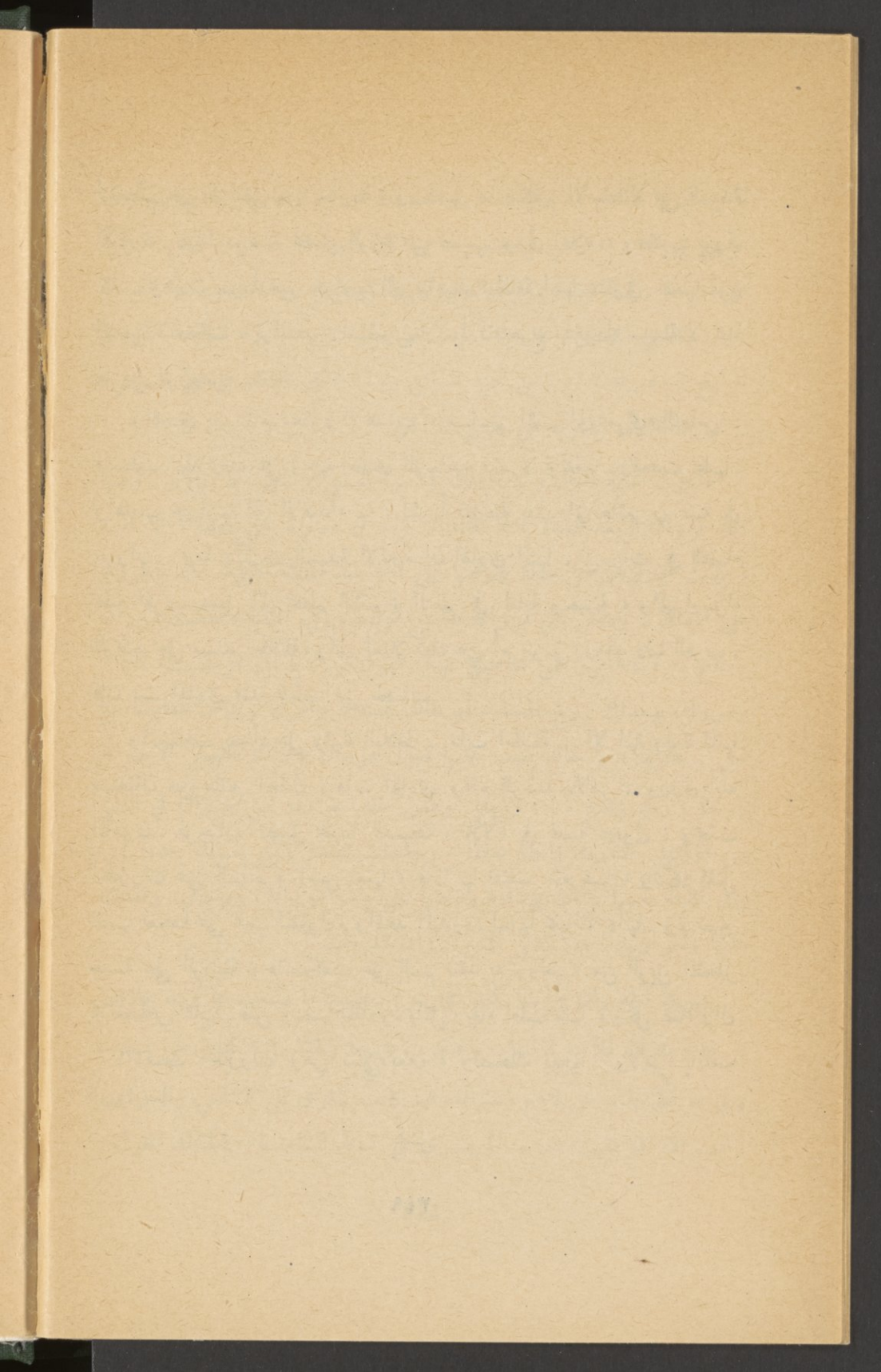


لنتحطم حتى لا يبقى منها جارحة ، وستلمس ما تكلفها الاستطالة على السيدة  
الاثيرة . فهذا موعد تحقيق الرؤيا من قضيب يورق اعلاه ، وقضيب يورق  
كاه . وقادت سرباً من جوارها الى مرقد الخليفة ابنها ، وفي نفسها تمور  
الاحن شادخات ، نواسف . ستضرب رأساً تتدحرج بسقوطه سلسلة لا عدت  
لها من الرؤوس

والهادي ينام معقود الاهداب ، مستسلم اللب الى مريء النعاس .  
فبسطت الخيزران على وجهه احدى الوسائد، بيد لا ترتجف . وقعدت عليها .  
واهابت بجوارها الى الاقتداء بها ، تشبهاً بفاختة بنت ابي هاشم بن عتبة في  
مروان . وما ذكرت السيدة الاثيرة ان الهادي ابنها . بل رأت في القضاء  
عليه اقرب سبيل الى تحطيم الشموخ الزنيم في لبابة وحسنة ، والى استواء  
الرشيد على مسند الخلافة ، والى امتلاكها ، هي أم موسى ، زمام دنيا العرب .  
فإن يم الهادي فقد عاشت منى خصاب

واستفاقت بغداد على ولولة البلاط . مات الخليفة . الا انها ولولة تلتها  
صيحتان من ماتع الجذل . مات الهادي وقام الرشيد بالامر ، ورزق ابنه  
المأمون . فرحتان ، تضيق عنهما البسيطة ، تالألتا في قبسة عجول . وبجحت  
الخيزران عن الساخرة امس منها ، فاذا بها تنتف شعرها ، وتكاد تقتل  
نفسها تفجعاً على العز المفلول ، والمجد المهدود . لسانها بجباثة دانها . ولم تصبر  
حسنة على الرزيئة ، فاعتكفت على السم تنقذ به روحها من الويل المتحفز  
للانقضاض عليها . فلن ترحمها المقادير ، وكل رجاء افلت منها ، وكل هناء زال  
انتقمت الخيزران وهي تبكي بعين ، وتضحك بعين . ولا امر يأتلف  
الضدان !

تمت



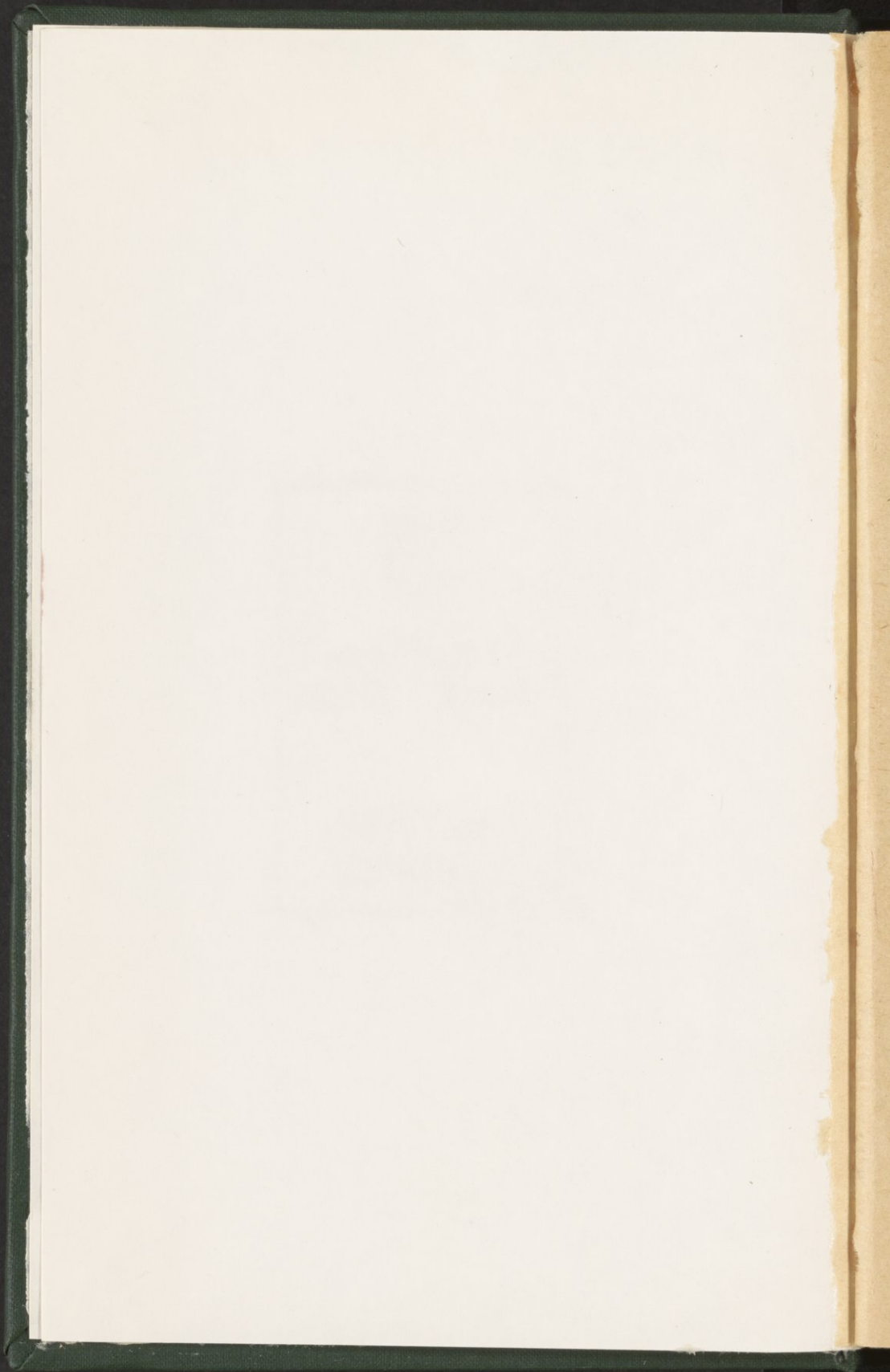
من كتب المؤلف

صرخة الألم  
أشباح القرية  
أطياف من لبنان  
صقر قريش  
فقهة الجزائر  
وامعتصاه  
عفراء  
أم البنين  
انتقام الخيزران

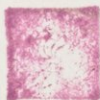
X3  

---

T2







**Elmer Holmes  
Bobst Library**

**New York  
University**

NYU - BOBST



31142 02889 0484

PJ7842.A68 I5 1954

Intiqam al